خدمة الشفاء

بقلم السيدة إلن هوايت

خدمة الشفاء

هل أطلعت على كُشك الصحف في الآونة الأخيرة؟ حيث يبدو أن مجلات جديدة عن الصحة واللياقة والنظام الغذائي والتدريبات الرياضية أصبحت تشغل مساحة متزايدة من الأرفف كل شهر.

ربما أنت في عُمر يسمح لك أن تتذكر وقتاً ليس ببعيد كان الناس لا يتحدثون فيه عن الإيروبكس والركض والكولسترول والتدريبات الرياضية. لكن من الواضح اليوم أن السعي نحو الصحة واللياقة أكثر من مُجرّدُ موضة سريعة الزوال. فهو سعي باقٍ ومستمر. فإن المظهر الجيد والصحة الجيدة ليسا أمراً اختيارياً بالنسبة للأكثرين هذه الأيام – إنهما من ضروريات الحياة القصوى!

وهكذا فإن الملايين منّا ينقصون أوزانهم ويركضون في المضمار ويلتحقون بنوادي الرياضة ويقرأون النشرات المرفقة بالأطعمة ويتناولون الحديد ويمتنعون عن التبغ والكحول.. أي يعودون إلى المبادئ الأساسية.

إن الكتاب الذي تمسك به في يدك قد مضى على تداوله زمن طويل. ومنذ نشره لأول مرة صدرت كتب كثيرة أخرى عن الصحة ثم اختفت من الأسواق. كان بعضها أكبر من هذا المجلد، ولكن من غير المحتمل أن أحداً منها كان أفضل منه.

يَشُنُ هذا الكتاب «خدمة الشفاء» حملة تهدف إلى اللياقة التامة، ليس فقط البدنية، لأننا – نحن البشر – لسنا مجرد أجساد. من ثَم تُخاطِب هذه الصفحات احتياجات الشخص بأكمله: جسداً وعقلاً وروحاً.

سيُخبرك هذا الكتاب الممتاز عن الصحة، وكيف تتعامل مع التوتر، فتتحسن حالتك وتمنع إصابتك بالأمراض.. فتشعر بالعافية والقوة تتدفق فيك كالشلال.

خدمة الشفاء

بقلم
السيدة إلن هوايت

«مَسَحَنِـي لأُبَشِّـرَ الْمَسَـاكِينَ أَرْسَـلَنِي لأَعْصِـبَ مُنْكَسِـرِي الْقَلْـبِ لأُنَـادِيَ لِلْمَسْـبِيِّينَ بِـالْعِتْقِ وَلِلْمَأْسُـورِينَ بِـالإِطْلاَقِ لأُنَـادِيَ بِسَـنَةٍ مَقْبُولَـةٍ لِلرَّبِّ .. لأُعَزِّيَ كُـلَّ النَّـائِحِينَ»

(إشعياء ٦١:١، ٢)

المقدمة

العالم مريض وسقيم، وأينما يعيش بنو الإنسان تكثر الآلام. وفي كلّ مكانٍ يوجد سعيٌ في طلبِ الفرج.

وبالرغم من تقدّم علم الطبّ والجراحة، وبالرغم من وجود الجيش العظيم المكوّن من الممّرضات والممّرضين المُدّربين الذين يخرجون مزوّدين بالخبرة والمهارة كجيش أبيض مُسلّح يشنّ الحرب علي الأمراض والعلّل والموت، فالأمراض والأسقام تنتشر بسرعة عظيمة.

إنّ كلّ مرض وسقم، وكلّ ألم وحزن مرجعها جميعاً إلي تجاوز القانون. إنّ التكوين المُدهش للجسم البشري أُغفل وأُغضي عنه، وتركيبه الدقيق صار يسير علي نقيض ناموس حياته وثباته واستقراره، فكان من نتائج ذلك المرضُ والموتُ. فليس هدفُ الخالق أن تنوء البشريّة بعبءٍ ثقيل من الألم بحيث تتعطّل نشاطات الإنسان بالمرض وتنحصر وتتضاءل قدرتُه علي العطاء وتُقصّر حياتُه بالأوبئة والعلّل. ولكنّ كثيراً ما تُنتهكُ، وبشكل صارخ، النواميسُ التي أسّسها الله للحفاظ علي الحياة. فما أن تغزو الخطيّةُ القلب حتى يتحوّل الإنسانُ عن الله، مصدرِ الحياة والصحّة، فلا يعود يَعتمد عليه. ومن ثمّ فإنّ الجزاء يتبع ذلك التعدّي علي نواميس الله، فينتشر الألم والمرض والموت. إنّ الواجب الأوّل والأهمّ للإنسان هو أن يفهم النواميس البدنيّة التي تحكم جسده. وأن يجعل مُمارساته الحياتيّةَ على انسجام مع هذه النواميس. فإذا أصابنا المرض يلزم أن نلجأ إلي الوسائل المتنوّعة التي من شأنها، بالتعاون مع جهود الطبيعة، أن تبني الجسم وتُعيد إليه الصحّة.

وهناك موضوع آخرُ علي جانب كبير من الأهمية يختصّ بعلاقتنا مع الخالق الـذي وهـب الحياة للإنسان ودبّر كلّ ما يلزم لاستمرار سعادته والذي مازال يهتمّ اليوم براحته.

في هذا الكتاب تُقدّم المؤلفةُ التي هي سيّدة واسعة الأفق في اختبار شؤون الحياة العمليّة، كثيراً من المعلومات عن الحياة ونواميسها، والصحّة ومطالبها، والمرض وعلاجه. وقد كُتب الكتاب بلغةٍ واضحةٍ بسيطةٍ وجميلة. فيه ثقافة لمن يُريد أن يتعلّم، ورجاءً لكلّ يائس، وبهجة للمريض وراحة للمتعب.

وهو يقدّم طريقاً أفضلَ تغمره أشعّة شمس محبّة الله والرجاء الشافي علـي الـدوام، مع أنّه مُكتنفٌ بظلماتِ العالم السقيم. ويكشـف لنا الكتابُ عـن حياةٍ أبسطَ وأجمل، ملأى بالفـرح والسـرور وفيها مجـال أعظـم لتلك الخـدمة المُعيّنة القائمـة على المبدأ القائل: «مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ».

وهـو كتـاب مُكـرّس إذ تقدّمـه المؤلفـةُ للخدمـة المباركـة، خدمـةِ البشـرّية المريضـة والمتألّمة، إنّه كتاب لا يجني الناشرون من ورائه أيّ كسب إلاّ ذاك الذي سيُكافأون عليه في «فرح الرب» وفي النفوس التي تحصل علي البركة والعزاء في الله.

فلهذا الغرض يُقدّم هذا الكتاب إلي العالم كمُساعد لزملائنا الخدّام في حقل الخدمة العظيم في العالم الواسع أينما تُوجد البشريّة المُتألمـة، كعزاء وبركـة لمـن هـم في ضيـق. وحيث انّه كذلك فما الذي نفعله سوى أن نرجو له الرواج والنجاح؟

الناشرون

محتويات الكتاب

الشافي العظيم

١	مثالنا	٩
٢	أيام الخدمة	١٦
٣	مع الطبيعة ومع الله	٣٠
٤	لمسة الإيمان	٣٥
٥	شفاء النفس	٤٦
٦	خلصوا ليخدموا	٦٠

عمل الطبيب

١	عامل مع الله	٧٣
٢	الطبيب معلم ومرشد	٨٥

واجبات المؤمن

١	التعليم والشفاء	٩٩
٢	إعانة المجربين	١١٨
٣	خدمة المدمنين	١٢٦
٤	إعانة المتعطلين والمشردين	١٣٧
٥	الفقراء العاجزون	١٥٢
٦	الخدمة لأجل الأغنياء	١٥٩

رعاية المرضى

١	في غرفة المريض	١٦٩
٢	الصلاة لأجل المرضى	١٧٤
٣	استعمال وسائل العلاج	١٨٢
٤	معالجة المرض العقلي	١٨٨
٥	في أحضان الطبيعة	٢٠٢

مباديء الصحة

١	مباديء الصحة العامة	٢٠٩
٢	قوانين الصحة بين العبرانيين	٢١٤
٣	اللبس والصحة	٢٢١
٤	الغذاء والصحة	٢٢٩
٥	اللحم كطعام	٢٤٢
٦	التطرف في الطعام	٢٤٧
٧	المنبهات والمخدرات	٢٥٢
٨	المتاجرة بالخمور وتحريمها	٢٦١

البيـــــــت

١	خدمة البيت	٢٧٣
٢	بناة البيت	٢٧٨
٣	اختيار البيت وأعداده	٢٨٤
٤	الأم	٢٩٠
٥	الطفل	٢٩٦
٦	تأثيرات البيت	٣٠٤
٧	التربية الحقة	٣١٠

المعرفة الجوهرية

١	المعرفة الحقيقية لله	٣٢٣
٢	خطر المعرفة النظرية	٣٣٧
٣	الثقافة الحقة والثقافة الزائفة	٣٤٧
٤	أهمية طلب المعرفة الحقة	٣٥٨
٥	المعرفة المستقاة من كلمة الله	٣٦٥

حاجات المؤمن

١	الحياة اليومية	٣٧٥
٢	الاحتكاك بالآخرين	٣٨٦
٣	النمو والخدمة	٣٩٨
٤	اختبار أسمى	٤٠٤

١ مثالنا

إنّ ربنّا يسوع المسيح قد أتى إلى هذا العالم كالخادم الذي لا يكلّ لحاجة الإنسان. إنه «أخذ أسقامنا وحمل أمراضنا» (متى٨: ١٧)، حتى يخدم كلّ حاجاتِ البشرية. لقد أتى ليُزيح عبء المرض والشقاء والخطّية. أتى لكي يعيد للناس كلّ ما قد خسروه، ولكي يمنحهم الصحّة والسلام وكمال الخلق.

لقد كانت ظروف من طلبوا منه العون وحاجاتُهم متباينة، ولم يأتِ إليه أحد ويرجع خائباً. كان ينساب منه نبعُ قوّة شافية. فشُفيت أجسام الناس وعقولهم ونفوسهم.

ولم يكن عملُ المخلّص مقتصراً على أيّ زمان أو مكان خاص، فلم تكن لرحمته حدود. لقد قام بعمل الشفاء والتعليم في نطاق واسع جداً بحيث لم يوجد في كلّ فلسطين بناء يسع لاستقبال الجماهير الغفيرة التي كانت تزدحم حوله. فعلى منحدرات تلال الجليل الخضراء، وفي طريق السفر العامة، وعند شاطيء البحر، وفي المجامع، وفي كلّ مكان آخر أمكن أن يؤتى إليه بالمرضى، كان يوجد مستشفاه. وفي كلّ مدينة وبلدة وقرية مرّ المسيح فيها كان يضع يديه على المتألمين ويشفيهم. وأينما وُجدت قلوب مستعدّة لقبول رسالته كان يعزّيهم بيقين محبّة أبيهم السماوي. وكان طوال اليوم يخدم من كانوا يأتون إليه. وعند المساء كان يوجّه انتباهه إلى من كانوا يكدحون طوال النهار للحصول على القدر الضئيل من المال الذي يكفي للقيام بأود عائلاتهم.

لقد حمل يسوع ذلك الحمل الهائل ألا وهو مسؤولية خلاص الناس. وعرف أنّه إذا لم يحدث تغيير حاسم في مباديء وأهداف الجنس البشري فإنّ الجميع سيَهلكون. كان هذا هو العبء الذي أثقل نفسه، ولم يكن أحد يستطيع أن يقدّر ذلك العبء الذي وقع

عليه. فمدى سني الصبا والشباب والرجولة كان يسير وحيداً، ومع ذلك فإنّ الوجود في حضرته كان هو السماء بذاتها. ويوماً بعد يوم كان يواجه المحنَ والتجارب، ويوماً بعد يوم كان يواجه الشرّ ويشاهد سطوتَه على من كان يسعى ليباركهم ويخلّصهم. ومع ذلك فهو لم يتخاذل ولم ييأس.

وفي كلّ شيء جعل رغباتِه رهن رسالته ووقفاً عليها. لقد مجّد حياتَه بجعل كلّ شيء فيها خاضعاً لإرادة أبيه. ففي حداثته عندما وجدته أمُّه في مدرسة المعلّمين وقالت له: «يَا بُنَيَّ لِمَاذَا فَعَلْتَ بِنَا هكَذَا»؟ أجابها – وكان جوابهُ محورَ عمل حياته، قائلاً لها: «لِمَاذَا كُنْتُمَا تَطْلُبَانِنِي. أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ أَكُونَ فِي مَا لأَبِي»؟ (لوقا ٢:٤٨و٤٩).

وقد كانت حياته حياة التضحية المستمرّة. ولم يكن له في هذا العالم بيت إلاّ ما كان أصدقاؤه يجودون به عليه كعابر سبيل. لقد جاء ليعيش حياة أفقر الفقراء لأجلنا، وليسير ويعمل بين المُعوزين والمتألّمين. كان يدخل ويخرج بين الشعب الذي فعل الشيء الكثير لأجلِهم دون أن يعرفوه أو يكرموه.

كان دائماً صبوراً وبشوشاً، وكان المتألمّون يحيّونه كمن هو رسول الحياة والسلام. كان يرى حاجاتِ الرجال والنساء والصبيان والشباب، وقد قدّم الدعوة لجميعهم قائلا: «تَعَالَوْا إِلَيَّ».

إنّ يسوع في أثناء خدمته كرّس لشفاء المرضى وقتاً أطول مّما للتعليم. وقد شَهِدت معجزاتُه لصدق أقواله، بأنّه لم يأتِ ليهلك بل ليخلّص. وأينما توجّه سبقته أنباءُ رحمته. وأينما مرّ كان الناس موضوعَ رحمته وحنانه، يفرحون متهللين بالصحّة ويجرّبون استخدامَ قواهم الجديدة التي أُعيدت إليهم. وكانت جماهير الناس تتجمّع حولهم لتسمع من أفواههم عن أعمال الربّ التي عملها. لقد كان صوتُه بالنسبة لكثيرين أوّل صوت سمعوه، واسمه أوّل اسم نطقوا به، ووجهه أوّل ما وقعت عليه أنظارهم. فلماذا لا يحبّون يسوع ويسّبحون بحمده؟ فإذ كان يمرّ في المدن الصغيرة والكبيرة كان يشبه نهرَ

ماءٍ حيّ يوزّع الحياة والفرح. «أَرْضُ زَبُولُونَ وَأَرْضُ نَفْتَالِيمَ طَرِيقُ الْبَحْرِ عَبْرُ الأُرْدُنِّ جَلِيلُ الأُمَمِ. الشَّعْبُ الْجَالِسُ فِي ظُلْمَةٍ أَبْصَرَ نُورًا عَظِيماً وَالْجَالِسُونَ فِي كُورَةِ الْمَوْتِ وَظِلاَلِهِ أَشْرَقَ عَلَيْهِمْ نُورٌ» (متى٤: ١٥و١٦). إنّ المخلّص جعل كلّ عملٍ من أعمال الشفاء فرصةً لغرس المباديء الإلهيّة في العقل والنفس. وكان هذا غرضُ عمله. كان يوزّع البركاتِ الأرضيّةَ حتى يمكنه استمالةَ قلوب الناس لقبول إنجيل نعمته.

كان يُمكن للمسيح أن يتبوأ أرفع مكانة بين معلّمي الأمّة اليهوديّة، ولكنّه فضل بالأحرى أن يحملَ الإنجيلَ إلى الفقراء. كان يجول من مكان إلى مكان حتى يتسنّى لعابري الطرق والمسالك الوعرة أن يسمعوا كلامَ الحقّ. فعند البحر وعلى سفح الجبل وفي المدينة وفي المجمع كان صوتُه يُسمع وهو يفسّر الكتب. وكثيراً ما كان يُعلّم في دار الهيكل الخارجية حتى يمكن للأميين أن يستمعوا لأقواله.

إنّ تفسيرَ المسيح للكتب كان يختلف اختلافاً بيّناً عن تفسيراتِ الكتبة والفريسيين بحيث استرعى انتباهَ الشعب. كان المعلّمون يهتَمّون بالتقاليد والنظريات البشريّة والمسائل الخياليّة. وكثيراً ما كان ما علّم به الناس أو كتبوه عن الأسفار المقدّسة يحتلّ مكانَ الأسفار نفسها. أمّا موضوع تعليم المسيح فكان كلمة الله. كان يواجه مستجوبيه بالقول الصريح: «مَكْتُوبٌ»، «مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي النَّامُوسِ»؟ «كَيْفَ تَقْرَأُ»؟ وفي كلّ فرصة أُثيرَ فيها اهتمام الناس، أصدقاء كانوا أم أعداء، كان يقدّم الكلمة. وبكلّ وضوح وقوّة كان يُعلن رسالة الإنجيل. وكانت كلماتُه تسكب فيضَ نورٍ على تعاليم الآباء والأنبياء، فأصبحت الكتب المقدّسة للناس وكأنّها إعلان جديد لهم. ولم يسبق لسامعيه أن أدركوا في كلمة الله هذا العمق في المعنى.

لم يكن هنالك كارزٌ شبيهاً بالمسيح. كان هو جلالَ السماء، ولكنّه اتّضع وأخلى نفسه ليأخذ طبيعتنا ليلتقي بالناس حيث هم. إنّ المسيح رسولَ العهد جاء ببشرى الخلاص لكلّ الناس الأغنياء منهم والفقراء، الأحرار والعبيد. لقد ذاعت شهرتُه في كلّ فلسطين

على أنّه الشافي العظيم. كان المرضى يتجمّعون في الأماكن التي كان يُنتظر أن يمرّ فيها حتى يستطيعوا أن يصرخوا إليه في طلب الغوث والعون، كما كان يأتي إلى تلك الأماكن أيضاً كثيرون ممّن كانوا يتوقون لسماع كلامه وليظفروا بلمسة من يده. وهكذا جال من مدينة إلى مدينة ومن بلدة إلى أخرى يكرز بالإنجيل ويشفي المرضى – ملكُ المجد متسربلاً بثوب البشريّة الوضيع.

وكان يذهب إلى الأعياد السنوية العظيمة للأمّة، وكان يُحدّث الجموعَ المأخوذين بمظاهر الطقوس المنشغلين بها عن الأمور السماوّية، كاشفاً لهم عن الأبديّة. وكان يجيء إلى الجميع بالكنوز من نبع الحكمة. وكان يخاطبهم بلغة مفهومة حتى لا يستعصى عليهم الفهمُ. وبوسائله الخاصّة به قدّم المعونة لكلّ من كانوا في حزن أو بليّة. وبرقّةٍ ولطفٍ وكياسةٍ خدم النفوسَ المريضة بالخطّية مقدّماً لها الشفاء والقوّة.

وكرئيس المعلّمين حاول الوصول إلى الشعب عن طريق العلاقات والأشياء المألوفة لديهم جداً. كان يُقدم الحقّ لسامعيه بحيث صار فيما بعد منسوجاً وممتزجاً بأقدس ذكرياتهم وعواطفهم. لقد علّم بطريقة جعلتهم يحسّون بأنّه يعرف مصالحهم وسعادتهم تماماً ويحرص على رعايتها. كان تعليمه موجّهاً ومباشراً للغاية، وتشبيهاته مناسبة ولائقة جدّاً، وأقواله مشبّعة بالعطف والفرح بحيث سحر سامعيه. فالبساطة والغيرة اللتان خاطب بهما المحتاجين قدّست كلّ كلمة نطق بها.

وكم كانت حياته مزدحمة بالأعمال! كان يُرى يوماً بعد يومٍ داخلاً إلى المساكن الوضيعة حيث العوز والحزن، لينطق بكلام الرجاء في مسامع المحزونين الأذلاّء وكلام السلام للمتضايقين. وإذ كان رحيماً رقيق القلب وعطوفاً جال يُنهض المنحنين ويعزّي الحزانى. وأينما ذهب كان يحمل معه البركة.

إنّ يسوعَ فيما كان يخدم الفقراء بحث عن طرق ووسائل بها يصل إلى الأغنياء. فاجتهد في التعرّف بالفرّيسي الثري المثقف والشاب الغني والحاكم الروماني. لقد قبل

دعواتِهم وحضر إلى ولائمهم وتعرّف على مصالحهم وأعمالهم حتى يمكنه الوصول إلى قلوبهم ويكشف لهم عن الغنى الذي لا يفنى ولا ينفد.

لقد جاء المسيح إلى العالم ليبرهن على أنّ الإنسان إذ ينال قوّة من الأعالي يستطيع أن يحيا حياة طاهرة بلا لوم. فبصبره الذي لا يكلّ ومعونته وعطفه واجه الناس في ضروراتِهم. وبلمسة النعمة الرقيقة طرد من النفس كلّ قلق وشكّ، مبدلاً العداوة بالمحبّة، وعدم الإيمان بالثقة.

كان يمكن أن يقول لأيّ من أراد: «اتْبَعْنِي»، وكان من تُوجّه إليه تلك الدعوة يقوم ويتبعه. لقد انكسرت رُقية سحر العالم، فلدى سماع صوته كانت روحُ الجشع والطمع تهرب من القلب، وكان الناس ينهضون وقد تحرروا ليتبعوا المخلّص.

المحبّة الأخويّة

لم يكن المسيح يعترف بأيّ تمييز في القوميّة أو المقام أو المذهب. إنّ الكتبة والفريسيين أرادوا أن ينتفعوا انتفاعاً محليّاً وقوميّاً بعطايا السماء وأن ينبذوا بعيداً باقي أسرة الله الذين في العالم. ولكن المسيح، لينقض حائط السياج، أتى ليبرهن على أن هبة رحمته ومحبته غير مقتصرة على أحدٍ بذاته، بل هي للجميع كالهواء والنور والأمطار التي تحيي الأرض.

إنّ حياة المسيح قد أقامت ديناً لا مجال فيه لنظام الطبقات، ديناً فيه يرتبط اليهودي بالأممي والعبد بالحرّ في أخوّة مشتركة يكون فيها الجميع متساوين أمام الله. لم يمكن لأيّ سؤال عن العادات والأنظمة أن يؤثّر في تنقّلاته. لم يجعل أيّ فرق بين الأقرباء والغرباء أو بين الأصدقاء والأعداء. فالذي أعجبه وجذب انتباهه هو النفس المتعطّشة إلى ماء الحياة.

لم يمرّ بأيّ إنسان معتبراً إياه عديم القيمة بل طلب أن يقدّم العلاج الشافي لكلّ نفس. وأيّة جماعة وُجد فيها قدّم لها درساً مطابقاً للوقت والظروف الراهنة. وكلّ إهمال أو إهانة أظهرها الناس لبني جنسهم جعلته يحسّ إحساساً أعظم بحاجتهم إلى عطفه الإلهي البشري. لقد حاول أن يُلهم بالرجاء أشدّ الناس غلظةً وفظاظةً. والذين لم يكن يُرجى منهم أيّ خير وضع أمامهم اليقين بأنّهم سيصيرون بلا عيب ولا شرّ، وأنه يمكنهم الحصول على الخلق الذي يجعلهم يظهرون كأولاد الله.

وكثيراً ما كان يلتقي بالذين قد جرفهم التيار فصاروا تحت سلطان الشيطان وعاجزين عن التخلّص من أشراكه. مثل ذلك الإنسان اليائس المريض المجرّب الساقط كان يسوع يخاطبه بأرقّ عبارات العطف، الكلام الذي يحتاجه ويمكنه أن يفهمه. كما كان يلتقي بآخرين ممن كانوا يلتحمون مع عدوّ النفوس في صراع رهيب. فكان يشجّع أمثال هؤلاء على المواظبة ومواصلة الحرب، مؤكداً لهم أنّهم لابدّ غالبون لأنّ ملائكة الله يناصرونهم وسيعطونهم الغلبة.

وكان يتّكيء على مائدة العشارين كالضيف المُكرم، وبعطفه وإشفاقه ومؤانسته برهن لهم على تقديره عظمة البشريّة. وكان الناس يتوقون لأن يصيروا أهلاً لثقته. كان كلامه يقطر على قلوبهم الظمأى بقوّة مباركة. وكانت تستيقظ في نفوسهم نوازعُ جديدة. وانفتح أمام الذين كانوا منبوذين من المجتمع بابُ إمكانيّة الحياة الجديدة.

إنّ يسوع مع كونه يهودياً فقد اختلط بالسامريين بكلّ حرية مستخفاً بعادات معاصريه وبني أمته، الفرّيسية المتزمتة، ففي وجه تعصّباتهم قبل كرم هذا الشعب المُحتقر. فقد نام معهم تحت سقف واحد وأكل على موائدهم – وتناول من الطعام الذي أعدّوه وقدّموه له بأيديهم – وعلّم في شوارعهم وعاملهم بمنتهى الرقّة واللطف. وفي حين أنّه اجتذب قلوبهم إلى شخصه برباط العطف الإنساني فإنّ نعمته الإلهيّة جاءتهم بالخلاص الذي رفضه اليهود.

الخدمة الفرديّة

إنّ المسيح لم يهمل فرصة لإذاعة إنجيل الخلاص. أصغِ إلى أقواله العجيبة التي قالها لتلك المرأة السامرية. كان جالساً على بئر يعقوب عندما أتت المرأة لتستقي ماء. فلشدّة اندهاشها سمعته يطلب منها أن تسدي إليه معروفاً إذ قال لها: «أَعْطِينِي لأَشْرَبَ». كان يطلب جرعة من الماء البارد، وكان يرغب أيضاً في أن يفتح الطريق الذي به يمكنه أن يعطيها ماء الحياة. فقالت له المرأة: «كَيْفَ تَطْلُبُ مِنِّي لِتَشْرَبَ وَأَنْتَ يَهُودِيٌّ وَأَنَا امْرَأَةٌ سَامِرِيَّةٌ. لأنّ اليَهود لاَ يعاملون السامريين»، فأجاب يسوع وقال لها: «لَوْ كُنْتِ تَعْلَمِينَ عَطِيَّةَ اللهِ وَمَنْ هُوَ الَّذِي يَقُولُ لَكِ أَعْطِينِي لأَشْرَبَ لَطَلَبْتِ أَنْتِ مِنْهُ فَأَعْطَاكِ مَاءً حَيّاً .. كُلُّ مَنْ يَشْرَبُ مِنْ هذَا الْمَاءِ يَعْطَشُ أَيْضًا. وَلكِنْ مَنْ يَشْرَبُ مِنَ الْمَاءِ الَّذِي أُعْطِيهِ أَنَا فَلَنْ يَعْطَشَ إِلَى الأَبَدِ بَلِ الْمَاءُ الَّذِي أُعْطِيهِ يَصِيرُ فِيهِ يَنْبُوعَ مَاءٍ يَنْبَعُ إِلَى حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ» (يوحنا ٤: ٧-١٤).

ما كان أعظم اهتمام المسيح الذي أبداه لهذه المرأة الواحدة! وكم كان كلامه غيوراً وفصيحاً! فما إن سمعت المرأة ذلك الكلام حتى تركت جرّتها ودخلت إلى المدينة لتقول لأصدقائها: «هَلُمُّوا انْظُرُوا إِنْسَانًا قَالَ لِي كُلَّ مَا فَعَلْتُ. أَلَعَلَّ هذَا هُوَ الْمَسِيحُ؟» ثم نقرأ هذا القول: «فَآمَنَ بِهِ مِنْ تِلْكَ الْمَدِينَةِ كثيرون من السامريين» (يوحنا٤: ٢٩ و٣٩). ومن ذا الذي يستطيع أن يُقدر التأثير الذي أحدثه هذا الكلام في خلاص نفوس الناس مدى السنين التي مرّت منذ ذلك اليوم إلى الآن؟

فأينما توجد قلوب مفتوحة لقبول الحقّ فإنّ المسيح مستعدّ لأن يعلّمها. فهو يعلن لها الآب، ويريها الخدمة المقبولة لدى ذاك الذي يكشف خفايا القلوب. إنّ أناساً كهؤلاء لا يكلّمهم بأمثال. بل يقول لهم ما قاله للمرأة التي كانت عند البئر: «أَنَا الَّذِي أُكَلِّمُكِ هُوَ».

٢ أيام الخدمة

في بيت الصياد في كفرناحوم كانت حماة بطرس مطروحة مريضة قد أخذتها «حُمَّى شَدِيدَةٌ. فسألوه من أجلها فلمس (يسوع) يدها فتركتها الحُمَّى» (لوقا٤: ٣٨؛ مرقس١: ٣٠؛ متى٨: ١٥)، ثم قامت وخدمت المخلّص وتلاميذه.

وسرعان ما انتشرت الأخبار. لقد أجريت المعجزة في يوم السبت، ولخوف الشعب من المعلمين لم يجسروا على المجيء في طلب الشفاء حتى غابت الشمس. حينئذ تقاطر سكّان المدينة على ذلك البيت الوضيع، الذي كان فيه يسوع، من البيوت والحوانيت والأسواق. وكان المرضى يُحملون على نقّالات، ومنهم من كانوا يتوكأون على عصّيهم أو يستندون على أذرع أصدقائهم. وهكذا كانوا يسيرون مترنّحين بوهَنٍ إلى حيث كان المخلّص.

وساعة بعد ساعة كان الناس يجيئون ويروحون، لأنّه لم يكن أحد يعلم ما إذا كان ذلك الشافي سيظلّ معهم إلى اليوم التالي أم لا. لم يسبق لمدينة كفرناحوم أن شهدت مثل ذلك اليوم. لقد امتلأ الجوّ بأصوات الانتصار وهتاف النجاة والخلاص.

ولم يتوقّف يسوع عن عمله حتى شُفيَ آخر مريض. كان قد مضى شطرٌ طويل من الليل عندما انصرف الناس من هناك، وعاد الهدوء إلى بيت سمعان. ثم انقضى ذلك اليوم الطويل المُثير، والتمس يسوع الراحة. ولكن فيما كانت المدينةُ هاجعةً «فِي الصُّبْحِ بَاكِرًا جِدًّا قَامَ وَخَرَجَ وَمَضَى إِلَى مَوْضِعٍ خَلاَءٍ وَكَانَ يُصَلِّي هُنَاكَ» (مرقس ١:٣٥).

وفي بكور ذلك اليوم جاء بطرس ورفاقُه إلى يسوع قائلين له إنّ أهل كفرناحوم يفتّشون عنه. وكم كانت دهشتهم عظيمة عندما سمعوه يقول: «إنه ينبغي لي أن أبشر المدن الأخَرَ أيضاً بملكوت الله لأني لهذا قد أرسلت» (لوقا ٤:٤٣).

ففي غمرة الاهتياج الذي شمل مدينة كفرناحوم كان هنالك خطر من أن يغيب عن الأنظار الهدفُ من رسالته، فلم يكن يسوع يقنع باجتذاب انتباه الناس إليه كصانع معجزات أو شافي أمراض الجسد وحسب، ولكنّه أراد أن يجتذبَ الناس إليه كمخلّصهم. ففي حين كان الناس يتوقون لأن يؤمنوا بأنّه قد أتى كملك ليقيم ملكاً أرضياً، كان هو يسعى ليحوّل أفكارهم عن الأرضيّات إلى الروحيّات. فالنجاح العالمي المجرّد سيتدخّل مع عمله ويعترضه.

اهتزّت روحُه أمام دهشة الجمع العديم الاكتراث. وإنّ حياتَه لم يخالطها الاعتداد بالذات، والطاعة والولاء اللذين يقدّمهما العالم لذوي المراكز والثراء والمواهب كانا بعيدين عن ابن الإنسان. إنّ يسوع لم يستخدم أيّة وسيلة مما يستخدمها الناس للحصول على ولاء الشعب أو طاعته. فقبل ولادته بعدّة قرون جاءت عنه هذه النبوّة: « لاَ يَصِيحُ وَلاَ يَرْفَعُ وَلاَ يُسْمِعُ فِي الشَّارِعِ صَوْتَهُ . قَصَبَةً مَرْضُوضَةً لاَ يَقْصِفُ ، وَفَتِيلَةً خَامِدَةً لاَ يُطْفِيءُ. إِلَى الأَمَانِ يُخْرِجُ الْحَقَّ » (إشعياء ٤٢: ٢و٣).

لقد حاول الفرّيسيون أن يشتهروا بواسطة تدقيقهم في التمسّك بالطقوس، والافتخار بعبادتهم، ولقد برهنوا على غيرتهم على الدين بجعله موضوع مباحثاتِهم. وكانت المنازعات بين الفئات المتعادية صاخبةً وطويلةً. ولم يكن أمراً غير عادي أن تُسمع في الشوارع ألفاظُ الجدال الغاضب من أفواه العلماء وأساتذة الشريعة.

ولكنّ حياة يسوع كانت على عكس ذلك تماماً. ففي تلك الحياة لم يكن يُسمَع صوت جدال صاخب ولم يُشاهَد قطّ أيُ تفاخر بالعبادة، ولا عملٌ يرمي إلى الظفر بالاستحسان.

كان المسيح مستتراً في الله، وقد أُعلن الله في صفات ابنه، وكان يسوع يرغب في أن تتجه عقول الناس إلى هذا الإعلان.

إن «شَمْسُ الْبِرِّ» لم يشرق على العالم في ملء مجده ونوره ليبهر الحواس بمجده. لقد جاء هذا القول عن المسيح: « خُرُوجُهُ يَقِينٌ كَالْفَجْرِ » (هوشع٦: ٣). إنّ نور النهار يشرق على الأرض بكلّ هدوء ولطف مبدّداً الظلام وموقظاً العالم إلى الحياة. هكذا تشرق شمس البرّ «وَالشِّفَاءُ فِي أَجْنِحَتِهَا » (ملاخي ٤:٢).

« هُوَذَا عَبْدِي الَّذِي أَعْضُدُهُ ، مُخْتَارِي الَّذِي سُرَّتْ بِهِ نَفْسِي » (إشعياء ٤٢:١).

«لأنك كنت حصناً للمسكين حصناً للبائس في ضيقه ملجأ من السيل ظلاً من الحر» (إشعياء٢٥: ٤).

« هكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ خالق السموات وناشرها باسط الأرض ونتائجها معطي الشعب عليها نسمة والساكنين فيها روحاً. أَنَا الرَّبَّ قَدْ دَعَوْتُكَ بِالْبِرِّ فَأُمْسِكُ بِيَدِكَ وَأَحْفَظُكَ وَأَجْعَلُكَ عَهْدًا لِلشَّعْبِ وَنُورًا لِلأُمَمِ. لِتَفْتَحَ عُيُونَ الْعُمْيِ لِتُخْرِجَ مِنَ الْحَبْسِ الْمَأْسُورِينَ مِنْ بَيْتِ السِّجْنِ الْجَالِسِينَ فِي الظُّلْمَةِ » (إشعياء٤٢: ٥-٧).

«وأسيّر العمي في طريق لم يعرفوها. في مسالك لم يدروها أمشّيهم. أجعل الظلمة أمامهم نوراً والمعوّجات مستقيمة. هذه الأمور أفعلها ولا أتركهم» (إشعياء ٤٢:١٦).

«غنوا للرب أغنية جديدة تسبيحه من أقصى الأرض. أيها المنحدرون في البحر وملؤه والجزائر وسكانها. لترفع البرية ومدنها صوتها الديار التي سكنها قيدار. ولتترنم سكان سالع من رؤوس الجبال ليهتفوا. ليعطوا الرب مجداً ويخبروا بتسبيحه فِي الْجَزَائِرُ» (إشعياء ٤٢:١٠-١٢).

تَرَنَّمِي أَيَّتُهَا السَّمَوَاتُ لأنّ الربّ قد فعل. اهتفي يا أَسَافِلِ الأرض أشيدي أيتها الجبال ترنماً الوعر وكل شجرة فيه لأن الربّ قد فدى يعقوب وفي إسرائيل تمجد» (إشعياء ٤٤:٢٣).

إنّ يوحنا المعمدان من أعماق سجن هيرودس، حيث كان يراقب وينتظر في خيبة ألم وحيرة بالنسبة إلى عمل المخلّص أرسل اثنين من تلاميذه إلى يسوع بهذه الرسالة « أَأَنْتَ هُوَ الآتِي أَمْ نَنْتَظِرُ آخَرَ؟ » (متى ١١:٣).

ولم يُجب المخلّص عن سؤال التلميذين في الحال. ففيما كانا واقفين متعجّبين من صمته كان المرضى والمتألّمون قادمين إليه. إنّ صوت ذلك الشافي القدير اخترق الأذن الصماء. إنّ كلمة منه أو لمسة من يده كانت تفتح العيون العمياء لترى نور النهار ومشاهد الطبيعة ووجوه الأصدقاء ووجه المخلّص. وقد وصل صوته إلى آذان المحتضرين فقاموا في ملء الصحّة والنشاط. والذين استبدّ بهم الجنون أطاعوا كلامه، فزال عنهم جنونهم وسجدوا له. والفلاحون الفقراء والفعلة الذين كان المعلّمون ينبذونهم ويزدرونهم على اعتبار أنّهم نجسون تجمهروا حوله فكان يخاطبهم بكلام الحياة الأبديّة.

وهكذا انقضى النهار وكان تلميذا يوحنا يريان ويسمعان كلّ شيء. أخيراً دعاهما يسوع إليه وأمرهما بأن يذهبا ويخبرا يوحنا بما قد رأيا وسمعا، وفي ختام كلامه أضاف هذا القول:«طُوبَى لِمَنْ لاَ يَعْثُرُ فِيَّ » (لوقا ٧:٢٣). وحمل التلميذان الرسالة وكانت فيها الكفاية.

وقد استعاد يوحنا في ذهنه النبوّة الواردة عن مسيّا:«لأَنَّ الرَّبَّ مَسَحَنِي لأُبَشِّرَ الْمَسَاكِينَ أَرْسَلَنِي لأَعْصِبَ مُنْكَسِرِي الْقَلْبِ لأُنَادِيَ لِلْمَسْبِيِّينَ بِالْعِتْقِ وَلِلْمَأْسُورِينَ بِالإِطْلاَقِ. لأُنَادِيَ بِسَنَةٍ مَقْبُولَةٍ لِلرَّبِّ .. لأُعَزِّيَ كُلَّ النَّائِحِينَ » (إشعياء ٦١:١،٢). لقد كان يسوع الناصري هو مسيّا الموعود به. وقد ظهر برهان ألوهيّته في خدمته حاجات البشريّة المتألّمة. وقد ظهر مجده في تنازله إلى منزلتنا الوضيعة.

إنّ أعمال المسيح فضلاً عن كونها قد أعلنت عنه أنّه مسيّا فقد أبانت الكيفيّة التي بها سيتأسّس ملكوتُه. لقد كُشِفَ ليوحنا عن نفس الحقّ الذي كُشف لإيليّا في البريّة عندما جاءت «رِيحٌ عَظِيمَةٌ وَشَدِيدَةٌ قَدْ شَقَّتِ الْجِبَالَ وَكَسَّرَتِ الصُّخُورَ أَمَامَ الرَّبِّ وَلَمْ يَكُنِ الرَّبُّ فِي الرِّيحِ. وَبَعْدَ الرِّيحِ زَلْزَلَةٌ وَلَمْ يَكُنِ الرَّبُّ فِي الزَّلْزَلَةِ. وَبَعْدَ الزَّلْزَلَةِ نَارٌ وَلَمْ يَكُنِ الرَّبُّ فِي النَّارِ» (١ ملوك١٩: ١١ و١٢). وبعد النار كلّم الله النبيّ بصوت منخفض خفيف. وهكذا كان على يسوع أن يقوم بعمله لا بقلب العروش والممالك، ولا بالفخامة والمظاهر الخارجيّة بل بواسطة مخاطبة قلوب الناس بحياة الرحمة والتضحية بالذات.

إنّ ملكوت الله لا يأتي بمظاهر خارجيّة. ولكنّه يأتي عن طريق رقّة ولطف وحي كلمته، وبواسطة عمل روحه الخفيّ، وشركة النفس مع ذاك الذي هو حياتها. إنّ أعظم مظاهر قوّته يُرى في الطبيعة البشريّة عندما تصل إلى كمال صفات المسيح.

على أتباع المسيح أن يكونوا نور العالم. ولكن الله لا يأمرهم بأن يبذلوا جهداً لكي ينيروا. وهو لا يحبّذ أي محاولة مبعثها الاكتفاء بالذات للتظاهر بالصلاح الفائق. ولكنّه يرغب في أن تتشرّب نفوسُهم مباديءَ السماء وتتشبّع بها، وحينئذ فإذ يحتكّون بالعالم سيشعّ منهم النور الذي فيهم. وولاؤهم الثابت في كلّ عمل من أعمال الحياة سيكون من وسائل الانارة.

إنّ الثروة أو المركز السامي والأثاثات الغالية والأبنية الفخمة والزخارف ليست شرطاً أساسيّاً لتقدّم عمل الله. ولا الأعمال العظيمة التي تظفر باستحسان الناس والتي تخدم الغرور. إنّ التظاهر العالمي مهما يكن مهيباً لا قيمة له في نظر الله. إنّه يقدّر الأشياء غير المنظورة والأبديّة أكثر من الأشياء المنظورة والزمنيّة. فهذه لها قيمتها على قدر ما تعبّر عن تلك. إنّ أثمن إنتاج للفنّ ليس فيه أيّ جمال يمكن مقارنته بجمال الخلق الذي هو ثمر عمل الروح القدس في النفس.

إنّ الله عندما بذل ابنَه وأرسله إلى عالمنا منح الخلائق البشريّة غنى لا يزول- غنى لو قورنت به كلّ ثروات العالم المكنوزة منذ إنشائه لاعتبرت كلا شيء. لقد أتى المسيح إلى الأرض ووقف أمام بني الإنسان مزوّداً بالمحبّة الأزليّة المذخّرة، وهذا هو الكنز الذي سنحصل عليه عندما نرتبط به، وعلينا أن نعلنه ونوزّعه.

إنّ المجهود البشري يكون فعّالاً في عمل الله طبقا لتقوى الخادم وتكريسه- بإظهار قوّة نعمة المسيح على تغيير الحياة. علينا أن نمتاز عن العالم لأنّ الله قد وضع سِمَتَه علينا ولأنه يُظهر فينا صفاتِ محبّته. إنّ فادينا يسترنا ببرّه.

إنّ الله باختياره الرجال والنساء لخدمته لا يسأل ما إذا كانوا يملكون ثروة عالمية أو علماً أو فصاحة. وإنّما هو يسأل:«هل هم يسيرون في طريق الوداعة حتى أعلمهم طريقي؟ وهل يمكنني أن أضع أقوالي في أفواههم؟ وهل يمثلونني؟».

يستطيع الله أن يستخدم كلّ إنسان بنسبة ما يستطيع أن يضع من روحه في هيكل النفس. والعمل الذي يقبله هو العمل الذي يعكس صورته. وعلى تابعيه أن يحملوا مميزات مبادئه الخالدة التي لا تُمحى كشهادتهم التي يقدّمونها للعالم.

«بِذِرَاعِهِ يَجْمَعُ الْحُمْلاَنَ»

إنّ يسوع وهو يخدم في شوارع المدن تشقّ الأمّهات لأنفسهنّ الطريق في وسط الجمع وهنّ حاملاتٍ صغارهنّ المرضى والمحتضرين بين أذرعهنّ محاولاتٍ أن يصلن إلى مكان يراهنّ منه.

ها هنّ أولئك الأمّهاتُ الشاحباتُ الوجوه المرهقاتُ واليأس يكاد يتسرّب إلى قلوبهنّ، ومع هذا فهنّ مصمّماتٌ ومثابراتٌ. وفيما هنّ يحملن عبءَ آلامهنّ يطلبن المخلّص، وإذ يصدّهنّ الجمعُ المزدحمُ ليرجعن إلى الوراء فالمسيح يشقّ لنفسه الطريق إليهنّ خطوةً فخطوة حتى يقف إلى جوارهنّ. فينبثق في قلوبهنّ نورُ الرجاء. وتنهمر من

عيونهنّ دموعُ الفرح عندما يلتفت إليهنّ وينظرن إلى عينيه الناطقين بحنوّ ومحبّة شديدين.

فإذ يختار المخلّص واحدةً من تلك الجماعة يسترعي ثقتَها بقوله لها : «ماذا أفعل لك؟» فتخبره بحاجتها وصوتُها مختنقٌ بالبكاء قائلة: «يا معلم ليتك تشفي طفلي، فيأخذ المسيح طفلها من على ذراعيها فيبارحهُ المرضُ عندما يلمسه. يختفي شحوب الموت ويسري تيّار القوّة المانحة الحياة في عروق ذلك الطفل وتتقوّى عضلاتُه. ويخاطب السيّد تلك الأمّ بكلام العزاء والسلام، ثم تتقدّم أمّ أخرى في مثل حالة الأولى، حاجتُها ملحّة وتدعو إلى الإسراع. ومرّةً أخرى يستخدم المسيح قوّته المانحة الحياة والجميع يقدّمون آياتِ الحمد والإكرام لذاك الذي يصنع العجائب.

إنّنا نتحدث كثيراً عن عظمة حياة المسيح. نتحدث عن العجائب التي أجراها والمعجزات التي صنعها، ولكن اهتمامه بالأمور التي تبدو صغيرة هو برهان أقوى على عظمته.

كان اليهود معتادين الإتيان بأولادهم إلى أحد المعلمين ليضع يديه عليهم مباركاً إيّاهم، ولكنّ التلاميذ ظنّوا أنّ عمل المخلّص أهمّ من أن يقاطع بهذه الكيفيّة. فعندما جاءته الأمهات طالبات أن يبارك أولادهنّ نظر التلاميذ إليهنّ باستياء، فقد ظنّوا أن هؤلاء الأولاد أصغر من أن يستفيدوا من زيارتهم ليسوع واستنتجوا أنّه سيستاء من وجودهم. ولكنّ المسيح أدرك الهمّ والعبء اللذين حملتهما الأمهات في تربية أولادهنّ بموجب كلمة الله. كان قد سمع توسلاتهن، وهو بنفسه الذي اجتذبهن إلى حضرته.

إنّ إحدى الأمهات تركت بيتها وذهبت مع ولدها للبحث عن يسوع. وفيما كانت سائرة في طريقها أخبرت إحدى جاراتِها بما عزمت على عمله فرغبت تلك الجارة في أن يبارك يسوع أولادَها، وهكذا جاءت عدّة أمّهات معاً يصحبن أطفالهنّ. كان بعض أولئك الأولاد قد تخطّوا دور الطفولة إلى مرحلة الصبا والشباب. وعندما أعربت الأمّهات عن

رغبتهنّ سمع يسوع بعطف طلبهنّ الخجول الدامع. ولكنّه انتظر ليرى كيف سيعاملهنّ التلاميذ. فلمّا رأى التلاميذَ يوبّخون أولئك الأمّهات ويطردونهنّ ظنّاً منهم أنّهم بذلك يُسدون إليه معروفاً، أبان لهم خطأَهم قائلاً: «دَعُوا الأَوْلاَدَ يَأْتُونَ إِلَيَّ وَلاَ تَمْنَعُوهُمْ لأَنَّ لِمِثْلِ هؤُلاَءِ مَلَكُوتَ الله » (مرقس١٠: ١٤). ثم أخذ الأولاد بين ذراعيه ووضع يديه عليهم ومنحهم البركة التي جاءوا من أجلها.

تعزّت الأمّهات وعُدنَ إلى بيوتهنّ وقد حصلن على قوّة وبركة بفضل أقوال المسيح. وتشجّعن على حمل أعبائهنّ بفرحٍ جديدٍ وعلى خدمة صغارهنّ بأمل مشرق.

ولو أمكن لنا اكتشاف الحياة المستقبلة لتلك الجماعة الصغيرة لرأينا أولئك الأمّهات يستعدن إلى أذهانِ أولادهنّ مشهدَ ذلك اليوم ويردّدن على أسماعهم كلماتِ المحبّة التي نطق بها المخلّص. وكنّا نرى أيضاً بعد ذلك كم مرّة حفظت ذكرى تلك الأقوال أولئك الأولاد من التوّغل بعيداً عن الطريق المرسوم لمفدِيّ الربّ.

إنّ المسيح لا يزال اليوم هو نفسُه المخلّص الرحيم كما كان عندما جال بين الناس. إنه بكلّ يقين مُعين الأمّهات اليوم كما كان عندما جمع الصغار إلى ذراعيه في اليهودية. إنّ أطفال بيوتنا هم مقتنى دمِه كما كان أولئك الأطفالُ منذ القديم.

إنّ يسوع يعرفُ الحملَ الذي يثقّل قلب كلّ أمّ. فذاك الذي كانت له أمّ كافحت ضدّ الفقر والفاقة يعطف على كلّ أمّ في تعبها وكفاحها. وذاك الذي سافر سفراً طويلاً لكي يخفّف من لوعة قلب أمّ كنعانيّة جزعة سيفعل نفس ذلك العمل لأمّهات اليوم. وذاك الذي أعاد إلى أرملة نايين ابنها. والذي وهو يعاني سكراتِ الموت على الصليب أوصى برعاية أمّه، يتأثّر اليوم بحزن الأمّ. إنّه في كلّ حزن وكلّ حاجة يعزّي ويعين.

فلتأت الأمّهات إلى يسوع بمربكاتهنّ، وسيجدن نعمةً كافيةً تعينهنّ في رعاية أولادهنّ. إنّ الأبواب مفتوحة لكلّ أمّ ترغب في طرح حملها عند قدمي المخلّص. فذاك

الذي قال: «دَعُوا الأَوْلاَدَ يَأْتُونَ إِلَيَّ وَلاَ تَمْنَعُوهُمْ» (مرقس ١٠: ١٤). ما يزال يدعو الأمّهَات للإتيان بصغارهن ليباركهم.

إنّ يسوع قد رأى في الأطفال الذين أُتيَ بهم إليه، الرجال والنساءَ المزمعين أن يكونوا ورثةَ نعمتِه ورعايا ملكوته، وبعض منهم كانوا مزمعين أن يصيروا شهداءَ لأجله. عرف أنّ هؤلاء الأولاد سيستمعون إليه ويقبلونه فادياً لهم بأسرع ممّا فعل الكبار الذين كان كثيرون منهم من الحكماء الدنيويين والقساة القلوب. وفي تعليمه نزل إلى مستواهم. فذاك الذي هو جلال السماء أجاب عن أسئلتهم وبسط لهم تعاليمَه الهامّةَ بحيث تفهمها عقولُهم الصغيرة. لقد غرس في أذهانهم بذارَ الحقِّ الذي في مستقبل السنين سينمو ويثمر للحياة الأبدية.

إنّ يسوع عندما قال للتلاميذ ألاّ يمنعوا الأولاد من الإتيان إليه كان يتحدث إلى تابعيه في كلّ العصور – إلى موظفي الكنيسة والخدّام والمساعدين وجميع المسيحيين. إنّه يجتذب إليه الأولادَ ويقول: «دعوهم يأتون إِلَيَّ» وكأنّما هو يقول: إنّهم سيأتون إذا لم تمنعوهم.

لا تجعلوا صفاتِكم المنافية لصفات المسيح تسيء تمثيلَ يسوع. لا تُبقوا الصغارَ بعيدين عنه بجمودكم وعُنفكم وجفائِكم. ولا تقدّموا لهم أبداً علّةً تجعلهم يحسّون أنّ السماء ستكون مكاناً محزناً وكئيباً إذا كنتم هناك. ولا تتحدّثوا عن الدين كشيء لا يفهمه الأولاد، ولا تتصرّفوا بحيث يفهمون أنّه لا يُنتظر منهم أن يقبلوا المسيح في حداثتهم. ولا تثبّتوا في أذهانهم تلك الفكرةَ الخاطئةَ وهي أنّ ديانة المسيح هي ديانة الحزن والوجوم، وأنّهم إذ يأتون إلى المخلّص عليهم أن يتخلّوا عن كلّ ما يجعل الحياة سعيدة بهجة.

وإذ يحرّك روح الله القدّوس قلوبَ الأولاد فعليكم أنتم أن تتعاونوا معه في عمله. علّموهم أنّ المخلّص يدعوهم، وأنّ لا شيء يمكن أن يملأ قلبَه بالفرح أكثر من أن يسلّموه أنفسهم في بكور حياتهم ونضارة صباهم.

مسؤولية الوالديــن

إنّ المخلّص يرعى النفوس التي قد اشتراها بدمه بأعظم رقّة وحنان. إنّهم مطلب محبّته، وهو ينظر إليهم بحنين لا يعبّر عنه. إنّ قلبه ينعطف ليس فقط إلى من قد نالوا أعظمَ قسطٍ من التهذيب أو الأولاد ذوي الجاذبيّة العظيمة بل أيضاً إلى الذين عن طريق الوراثة أو بسبب الإهمال صارت أخلاقُهم ممقوتةً ومثيرةً للنفور. إنّ كثيرين من الوالدين لا يدركون إلى أيّ حدّ هم مسؤولون عن هذه الصفات في أولادهم. إنّه تعوزهم الرقّة والحكمة اللتان بهما يمكنهم أن يعالجوا أخطاء أولادهم الذين كانت لهم هم يدٌ في اعوجاجهم وتشكيل أخلاقهم بهذه الصورة. ولكنّ يسوع ينظر إلى هؤلاء الأولاد بعطفٍ وإشفاقٍ. ويسير متتبّعاً السبب إلى النتيجة.

ويمكن للخادم المسيحي أن يكون وسيلة المسيح في اجتذاب هؤلاء الأولاد المخطئين إلى المخلّص. فبالحكمة واللباقة يستطيع أن يربطهم إلى قلبه ويلهمهم بالشجاعة والرجاء، وبنعمة المسيح قد يراهم وإذا هم قد تغيّرت أخلاقهم بحيث يصدق عليهم القول: ((لِمِثْلِ هؤُلاَءِ مَلَكُوتَ الله)).

خَمْسَةُ أَرْغِفَةٍ من شَعِيرٍ تشبع جمعاً غفيراً

ظلّ الشعب ملازماً للمسيح وتلاميذه طوال اليوم حين كان يعلّم عند البحر. لقد أصغوا إلى كلامه الصالح الذي كان بسيطاً وواضحاً جداً بحيث كان كبلسان جلعاد لأرواحهم. وكان في لمسات يده الإلهيّة الشفاء للمرضى والحياةُ للمحتضرين. وقد كان ذلك اليوم

في نظرهم كالسماء على الأرض، فلم يشعروا بما فات عليهم من الوقت منذ أن تناولوا أيّ طعام.

بدأت الشمس تختفي وراء الأفق الغربيّ، ومع ذلك ظلّ الناس في أماكنهم. أخيراً جاء التلاميذ إلى يسوع وألحّوا عليه أن يصرف الجموع لأجلِ خاطرهم هم. كان كثيرون منهم قد جاءوا من بعيد ولم يأكلوا شيئاً منذ الصباح. وكان يمكنهم أن يجدوا طعاماً في المدن والقرى المجاورة. ولكنّ المسيح قال لهم« أَعْطُوهُمْ أَنْتُمْ لِيَأْكُلُوا » (متى١٤: ١٦). ثم التفت إلى فيلبّس وسأله قائلا: « مِنْ أَيْنَ نَبْتَاعُ خُبْزًا لِيَأْكُلَ هؤُلاَءِ ؟ » (يوحنا ٦: ٥).

فتطلع فيلبس إلى ذلك البحر الزاخر بالرؤوس البشريّة وفكّر في استحالة الحصول على طعام لمثل ذلك الجمع الغفير. فأجاب قائلا إنّه لا يكفيهم خبز بمئتي دينار ليأخذ كلّ واحد شيئاً يسيراً.

فسأل يسوع كم من الطعام يمكن الحصول عليه من ذلك الجمع. فقال أندراوس: « هُنَا غُلاَمٌ مَعَهُ خَمْسَةُ أَرْغِفَةِ شَعِيرٍ وَسَمَكَتَانِ ، وَلكِنْ مَا هذَا لِمِثْلِ هؤُلاَءِ؟ » (يوحنا ٦: ٩). فأمر يسوع بأن يُؤتيَ إليه بها. ثم أمر تلاميذه بأن يُجلسوا الناس على العشب. فلما فعلوا كذلك أخذ الطعام« رَفَعَ نَظَرَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ وَبَارَكَ وَكَسَّرَ وَأَعْطَى الأَرْغِفَةَ لِلتَّلاَمِيذِ ، وَالتَّلاَمِيذُ لِلْجُمُوعِ »« فَأَكَلَ الْجَمِيعُ وَشَبِعُوا ثُمَّ رَفَعُوا ما فضل مِنَ الْكِسَرِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ قُفَّةً مَمْلُوَّةً» (مرقس ١٤: ١٩و٢٠).

لقد أشبع المسيح الجميع بمعجزة القوّة الإلهيّة، ومع ذلك فكم كان ذلك الطعام متواضعاً لا شئ أكثر من السمك وأرغفة الشعير التي كانت هي الطعام الذي كان صيادو الجليل يتناولونه كلّ يوم.

إنّ المسيح كان يستطيع أن يقدّم للناس عشاءً فاخراً، ولكنّ الطعام المعدّ لمجرّد إشباع النهم لم يكن ليحمل درساً نافعاً لهم. لقد رغب المسيح عن طريق هذه المعجزة أن يُعلّم الشعب درس البساطة. فلو كان الناس اليوم بسطاء في عاداتِهم وعاشوا في وفاق

مع نواميس الطبيعة كما كان آدم وحوّاء يفعلان في البدء لكانت توجد مؤونة وافرة لسدّ احتياجاتِ الأسرة البشريّة. ولكنّ الأنانية والانغماس في النهم جلبا الخطيّة والشقاء، من الإفراط على الجانب الواحد ومن العوز والاحتياج على الجانب الآخر.

لم يحاول يسوعُ اجتذاب الشعب إليه عن طريق إشباع شوقهم إلى الرفاهية والتنعّم. إنّ ذلكَ الطعامَ البسيطَ المقدّمَ إلى ذلك الجمع الغفير الذين كانوا متعبين وجياعاً، بعد انتهاء ذلك النهار الطويل المثير، كان تأكيداً لقدرة المسيح ورعايته الرقيقة لهم في حاجاتِ الحياة العاديّة. إنّ المخلّص لم يَعِد تابعيه بالحصول على تنعّمات العالم. فقد يكون نصيبهُم الفقرَ، ولكنّ كلمته صادقة وموثوق بها، وهي أنَّ حاجاتِهم لابدّ أن تُسدّ، بل لقد وعد أن يمنحهم ما هو أفضل من الخير الأرضي- أي العزاء الثابت، عزاء وجوده معهم.

بعدما أكل كلّ ذلك الجمع وشبعوا بقيت كميّة وافرة من الطعام. فأمر يسوع تلاميذه قائلا لهم:« اجْمَعُوا الْكِسَرَ الْفَاضِلَةَ لِكَيْ لاَ يَضِيعَ شَيْءٌ » (يوحنا ٦: ١٢). وكان هذا الكلام يعني شيئاً أكثر من وضع الكسر في السلال. كان الدرس مزدوجاً. ينبغي ألاّ يضيع شيءٌ أو يتلف. وينبغي ألاّ نفلت من أيدينا أيّة ميزة زمنيّة، كما ينبغي لنا ألاّ نهمل شيئاً يمكن أن يكون ذا نفعٍ لأيّ كائن بشري، ويجب أن يُجمع كلّ ما يمكن أن يسدّ حاجاتِ المعوزين والجياع من ساكني الأرض. وبنفس هذا الحرص، علينا أن نختزن الخبزَ النازل من السماء لإشباعِ جوع النفس. إنّنا نحيا بكلّ كلمة تخرج من فم الله. وينبغي ألاّ يضيع شيء ممّا تكلّم به الله. علينا ألاّ نهمل كلمةً واحدةً ممّا له علاقة بخلاصنا الأبدي. ويجب ألاّ تسقط كلمة واحدة إلى الأرض بلا نفع.

إنّ معجزة الأرغفة تعلّمنا الاعتمادَ على الله، عندما أشبع المسيح الخمسةَ الآلاف لم يكن الطعام قريباً في متناول اليد. وكان يبدو أنّه لا توجد لديه وسائلُ طوعَ أمره. فلقد كان هو هناك في البرّية مع الخمسة الآلاف ما عدا النساء والأولاد. وهو لم يدعُ ذلك

الجمعَ ليتبعه إلى هناك، بل إنّهم إذ كانوا يتوقون للوجود في حضرته أتوا دون أن توجّه إليهم دعوة أو أمر، ولكنّه كان يعلم أنّهم بعدما ظلّوا طوال النهار يصغون إلى تعاليمه كانوا جياعاً ومعيين. كانوا بعيدين عن بيوتهم وقد أقبل الليل. وكثيرون منهم لم يملكوا ما يبتاعون به طعاماً، ولكن ذاك الذي في سبيلهم صام أربعين يوماً في البريّة لا يدعهم يعودون إلى بيوتهم صائمين. إنّ عناية الله قد وضعت يسوع حيث كان، واعتمد هو على أبيه السماوي لأجل تدبير الوسائل الكفيلة بسدّ تلك الحاجة. فعندما نقع نحن في مآزق علينا بالاعتماد على الله. وفي كلّ طاريء علينا أن نطلبَ العونَ من ذاك الذي توجد طوعَ أمرِه موارد لا تنفد.

في هذه المعجزة تناول المسيح من الآب، ثم أعطى التلاميذ، والتلاميذ أعطوا للشعب، والشعب أعطوا بعضهم بعضاً. وهكذا كلّ المتّحدين بالمسيح يتناولون منه خبز الحياة ويوزّعون على الآخرين. فتلاميذ المسيح هم وسيلة الاتصال المعيّنة منه ليكونوا واسطةَ اتصالِه بالشعب.

عندما سمع التلاميذ أمر المخلّص قائلاً لهم:« أَعْطُوهُمْ أَنْتُمْ لِيَأْكُلُوا » قامت كلّ الصعوبات وتزاحمت في أذهانهم. فسألوه قائلين:«أنذهب إلى القرى لنبتاع طعاما؟» ولكنّ المسيح قال:« أَعْطُوهُمْ أَنْتُمْ لِيَأْكُلُوا ». فأحضر التلاميذ إلى يسوع كلّ ما كان عندهم ولكنّه لم يدعهم للأكل بل أمرهم بأن يخدموا الشعب. وقد تكاثر الطعام وتبارك في يديه، وإذ امتدت أيدي التلاميذ إلى المسيح لم ترجع فارغة قطّ. فالقليل الذي كان عندهم كان كافياً للجميع. فبعدما أكلَ الجميع وشبعوا، أكلَ التلاميذ مع يسوع من الخبز الثمين المرسل من السماء.

عندما نرى حاجاتِ الفقراء والجهلاء والسقماء ما أكثر ما تخور قلوبُنا. فنسأل قائلين: «ما جدوى قوّتِنا الضعيفة ومواردِنا الضئيلة لسدّ هذه الحاجة الهائلة؟ ألاّ ننتظر حتى يتقدّم شخص ذو مواهب ومقدرة أعظم منا ليسوس العمل، أو ننتظر مؤسسة أخرى تضطلع بهذا

العمل؟» ولكنّ المسيح يقول:« أَعْطُوهُمْ أَنْتُمْ لِيَأْكُلُوا ». استخدموا الوسيلة والوقت والمقدرة التي لكم. أيتوا بأرغفة الشعير التي معكم إلى يسوع.

وإن تكن المؤونةُ التي عندكم لا تكفي لإشباع الآلاف فقد تكفي لإشباع فرد. وإذ توضع بين يدي المسيح قد تُشبعُ كثيرين. فكالتلاميذ قدّموا ما عندكم، والمسيح سيضاعف ما تعطونه إيّاه. وهو سيكافيء الاعتماد الأمينَ البسيطَ عليه. وما كان يبدو أنّه مؤونة ضئيلة سيتبرهن على أنّه وليمة فاخرة.

« مَنْ يَزْرَعُ بِالشُّحِّ فَبِالشُّحِّ أَيْضًا يَحْصُدُ وَمَنْ يَزْرَعُ بِالْبَرَكَاتِ فَبِالْبَرَكَاتِ أَيْضًا يَحْصُدُ .. وَاللهُ قَادِرٌ أَنْ يَزِيدَكُمْ كُلَّ نِعْمَةٍ لِكَيْ تَكُونُوا وَلَكُمْ كُلُّ اكْتِفَاءٍ كُلَّ حِينٍ فِي كُلِّ شَيْءٍ تَزْدَادُونَ فِي كُلِّ عَمَلٍ صَالِحٍ. كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ فَرَّقَ. أَعْطَى الْمَسَاكِينَ. بِرُّهُ يَبْقَى إِلَى الأَبَدِ».

«والذي يقدّم بذاراً للزارع وخبزاً للآكل سيقدّم ويكثر بذاركم وينمي غلات بركم مُسْتَغْنِينَ فِي كُلِّ شَيْءٍ لِكُلِّ سَخَاءٍ» (٢ كورنثوس٩: ٦-١١).

٣ مع الطبيعة ومع اللَّه

كانت حياة المخلّص على الأرض حياة شركة مع الطبيعة ومع الله. وفي هذه الشركة وهذا الحديث كشف لنا عن سر حياة القوّة.

كان يسوع غيّوراً مجدّاً دائباً في عمله. ولم يسبق لأحد عاش بين الناس أن أثقل كاهله بمثل تلك المسؤوليات. ولم يحمل شخص آخر مثل ذلك العبء الثقيل، عبء أحزان العالم وخطيته. ولم يكدح إنسان آخر بمثل تلك الغيرة التي أكلته لأجل خير الناس. ومع ذلك فقد كانت حياته حياة الصحّة الجيدة. فمن الناحية الجسدية كما من الناحية الروحية كان يُرمَز إليه بحَمَل الذبيحة الذي «بِلاَ عَيْبٍ وَلاَ دَنَسٍ» (١ بطرس١:١٩). ففي جسده كما في نفسه كان نموذجاً لما قصد الله أن تكون عليه البشريّة جمعاء عن طريق الطاعة لنواميسه.

إذ نظر الناس إلى يسوع رأوا وجهاً امتزجت فيه الرحمة الإلهية بالقوّة التي كان يحسّ بها. وقد بدا مُحاطاً بجو حياة روحية. ففي حين كان في عاداته محتشماً ولطيفاً فقد أثّر على الناس بشعور من القوّة المخبوءة، والتي مع ذلك لم يمكن إخفاؤها تماماً.

وفي أثناء خدمته كان يطارده دائما أعداؤه الماكرون المراؤون الذين كانوا يطلبون نفسه. فكان الجواسيس يتعقّبونه، يراقبون أقواله لعلّهم يتصيدون من فمه حجة لإدانته. وأعظم العقول القويّة الجبّارة المثقفة تثقيفاً عالياً في كلّ الأمّة حاولت أن تهزمه في الجدال، ولكنّهم لم ينالوا منه قطّ منالا ولا غلبوه، فكان عليهم أن ينسحبوا من الميدان مرتبكين ومجللين بالعار من أمام المعلم الجليلي المتواضع. لقد كانت لتعاليم المسيح

عذوبة ونضارة وقوة لم يكن للناس عهد بها من قبل. وحتى أعداؤه أجبروا أن يعترفوا قائلين: « لَمْ يَتَكَلَّمْ قَطُّ إِنْسَانٌ هكَذَا مِثْلَ هذَا الإِنْسَانِ » (يوحنا ٧: ٤٦).

إنّ طفولة يسوع التي قضاها بين أحضان الفقر لم تُفسدها العادات الكاذبة لذلك العصر الفاسد. فإذ كان يعمل في حانوت النجار متحمّلاً أعباء الحياة البيتية ويتعلّم دروس الطاعة والكدح، وجد لنفسه تسليةً وانتعاشاً في وسط مشاهد الطبيعة، وكان يقتبس المعرفة وهو يحاول فهم أسرار الطبيعة. وقد درس كلمة الله، وكانت أسعد ساعاتِه هي تلك التي أتيح له فيها أن ينسحب من مشاهد العمل اليومي، لينطلقَ إلى الحقول ليتأمّلَ في الوديان الهادئة، ويتحدّث مع الله على سفح الجبل أو في وسط أشجار الغابة. وكثيراً ما كان يُرىَ في ساعات الصباح الباكر في مكان منعزل متأملاً ومفتشاً الكتب أو مصلياً. وكان يستقبل نور الصباح بصوت التسبيح. وبأغاني الحمد كان يملأ ساعات العمل بالبهجة والفرح، وكان يأتي بفرح السماء إلى من قد أنهكهم العمل وإلى خائري القلوب.

إنّ يسوع، في أثناء خدمته، كان يحيا حياة خلويّة إلى حدّ كبير. كان يسافر على قدميه من مكان إلى آخر. وجانب كبير من تعاليمه نطق به في الخلاء. وعندما كان يعلّم تلاميذه كثيراً ما كان ينسحب بعيداً عن ضجيج المدينة وصخبها إلى الحقول الهادئة لكونها متوافقة مع دروس البساطة والإيمان وإنكار الذات التي كان يرغب في أن يعلّمهم إيّاها. فَتَحْتَ ظلال الأشجار المنتشرة على سفوح الجبال التي على مسافة قريبة من بحر الجليل دعا الاثنا عشر ليكونوا رسلاً، وهناك أُلقيت الموعظة على الجبل.

لقد أحبّ المسيح أن يجمع الشعب حوله تحت القبّة الزرقاء، على سفح تلٍ مكسوٍّ بالعشب أو على الشاطيء بجانب البحيرة. ففي هذه الأماكن وهو محاط بالأعمال التي خلقها أمكنه أن يحوّل أنظارهم عن الأشياء الصناعية إلى الطبيعية. وفي نموّ الطبيعة وارتقائها أعلنت مباديء. وعندما يرفع الناس عيونهم إلى تلال الله ويرون عجائب يديه كان يمكنهم أن يتعلّموا دروساً ثمينةً عن الحقّ الإلهي. وفي الأيام المستقبلة كانت

دروس المعلّم الإلهي تتكرر هكذا أمامهم بواسطة مشاهد الطبيعة، فيرتفع العقل ويتسامى ويجد القلب راحة.

إنّ التلاميذ الذين كانوا مصاحبين يسوع في عمله كثيراً ما كان يطلقهم إلى حين حتى يمكنهم أن يزوروا بيوتهم ويستريحوا. ولكن عبثاً حاولوا أن يُبعدوه عن دائرة عمله وخدمته. كان طوال اليوم يخدم الجموع التي كانت تأتي إليه، وعند المساء أو في الصباح الباكر كان ينطلق إلى مقدس الجبال ليتحدّث مع أبيه ويكون في شركةٍ معه.

وفي أحيان كثيرة كانت خدماته المتواصلة وصراعُه مع عداوة المعلّمين وتعاليمهم الكاذبة تُضنيه وتتعبه جداً بحيث أنّ أمَّه واخوتَه وحتى تلاميذَه باتوا يخشون لئلا يُضَحّي بحياته. ولكن عندما كان يعود من ساعات الصلاة التي كان يختتم بها أعمال اليوم الشاقة كانوا يلاحظون على وجهه نظرةَ السلام، والنضارةَ والحياةَ والقوّةَ التي كانت تُرى منتشرةً في كلِّ كيانه. كان يخرج من الساعات التي كان يقضيها منفرداً مع الله، من صباح إلى صباح ليأتي بنور السماء إلى الناس.

تعالوا استريحوا

بعد رجوع التلاميذ من رحلتهم الكرازية الأولى حالاً أمرهم يسوع قائلاً: تعالوا منفردين واستريحوا قليلاً. لقد رجع التلاميذ ممتلئي القلوب فرحاً بسببِ نجاحِهم في الكرازة بالإنجيل، وإذ ذاك وصلهم خبرُ موتِ يوحنا المعمدان بيد هيرودس. فكان حزن وخيبة مريران. لقد عرف يسوع أنّه بتركه يوحنا ليموت في السجن قد امتحن إيمان تلاميذه امتحاناً قاسياً. فبرقّةِ وعطف نظر إلى وجوههم الحزينة وعيونِهم الدامعة. وقد اغرورقت عيناه بالدموع واختنق صوته بالبكاء عندما قال لهم: «تَعَالَوْا أَنْتُمْ مُنْفَرِدِينَ إِلَى مَوْضِعٍ خَلاَءٍ وَاسْتَرِيحُوا قَلِيلاً» (مرقس ٦:٣١).

وبالقرب من بيت صيدا في شمالي بحر الجليل كان إقليمُ منعزلُ ومزدانُ بخضرة الربيع اليانعة، ذلك الإقليم قدّمَ ليسوعَ وتلاميذِه معتكفاً ساراً. فانطلقوا إلى هناك وعبروا البحيرة في قاربهم. في هذا المكان أمكنهم أن يستريحوا بعيداً عن شغب الجموع وضجيجهم، وفيه أمكن التلاميذ أن يستمعوا لأقوال المسيح بعيداً عن إهانات الفريسيين واتهاماتهم، وفيه كانوا يرجون أن يتمتّعوا بفترة قصيرة للشركة في صحبة سيّدهم.

إنّ الفترة التي قضاها يسوع مع تلاميذه المحبوبين كانت قصيرة، ومع ذلك فكم كانت تلك الدقائق القليلة ثمينةً وعزيزةً بالنسبة لهم. لقد جعلوا يتحدّثون معاً عن عمل الإنجيل وعن إمكانية جعل خدمتهم أكثرَ فعاليةً في الوصول إلى الشعب. وإذ فتح يسوع لهم كنوزَ الحقّ انتعشوا بقوّة إلهيّة وأُلهموا بالرجاء والشجاعة.

ولكن سرعان ما طلبته الجموع. فإذ ظنّ الناس أنّه قد ذهب إلى مكان راحته المعتاد تبعوه إلى هناك، وهكذا خاب أملُه في أن يحصل على ساعة راحةٍ واحدة. ولكنّ راعي الخراف الصالح كان يوجد في أعماق قلبه النقي الرحيم المحبّةُ والعطفُ على هذه النفوس القلقة المُتعبة الظامئة، فظلّ طوال اليوم يخدم حاجاتِهم، وفي المساء صرفهم ليذهبوا إلى بيوتهم ويستريحوا.

إنّ المخلّصَ في حياته المكرّسة بجملتها لخير الآخرين وجد أنّه من اللازم له أن يترك العملَ المتواصلَ والاتصالَ بحاجات الناس لينشدَ الاعتكافَ والشركةَ المستمرّةَ مع أبيه. فإذ ينصرف الجمع الذي يتبعه يذهب هو إلى الجبال، وهناك إذ ينفرد مع الله يسكب نفسَه في الصلاة لأجل المتألّمين والخطاة والمعوزين.

إنّ يسوع إذ قال لتلاميذه إنّ الحصادَ كثيرُ والفعلةَ قليلون لم يُلزمهم بالعمل المتواصل بل أمرهم قائلا: « اطْلُبُوا مِنْ رَبِّ الْحَصَادِ أَنْ يُرْسِلَ فَعَلَةً إِلَى حَصَادِهِ » (متى ٣٨:٩). وكما قال لتلاميذه الأولين كذلك هو يقول لتلاميذه المرهقين من العملِ اليومَ كلامَ الرفقِ والحنانِ: ((تَعَالَوْا أَنْتُمْ مُنْفَرِدِينَ .. وَاسْتَرِيحُوا قَلِيلاً)).

إنّ كلّ من هُم تحت تدريب الله يحتاجون إلى ساعة الهدوء ليكونوا في شركةٍ مع قلوبهم ومع الطبيعة ومع الله. وستُعلَن فيهم حياة غير مشاكلة للعالم ولا متوافقة معه، ولا مع عاداته ولا أعماله، وهم بحاجة إلى أن يكون لهم اختبارٌ شخصي في الحصول على معرفة مشيئة الله. فعلى كلّ فرد منّا أن يسمع الله مخاطباً قلبَه. فعندما يسكن كلُّ صوتٍ آخر وفي هدوءٍ وسكوتٍ ننتظر أمام الرب فإنّ سكون النفس يجعل صوتَ الله أكثرَ وضوحاً. إنّه يأمرنا قائلاً: « كُفُّوا وَاعْلَمُوا أَنِّي أَنَا اللهُ » (مزمور ٤٦:١٠). هذا هو الاستعداد الفعّال لكلِّ عملٍ نقدّمه لله. ففي وسط الجموع الراكضة والمسرعة في سيرها وإجهادِ أعمالِ الحياةِ القويّةِ الزائدة نجد أنّ ذاك الذي ينتعش هكذا سيُحاط بجوّ من النور والسلام. وسيحصل على هبةٍ جديدةٍ من القوّة الجسمانيّة والعقليّة. وسينبعث من حياتِه عبيرٌ وسيعلنُ قوةً إلهيّةً تصلُ إلى قلوب الناس.

٤ لمسة الإيمان

« إِنْ مَسَسْتُ ثَوبِهِ فَقَطْ شُفِيتُ » (مرقس ٩: ٢١). إنّ امرأةً مسكينةً هي التي نطقت بهذا الكلام، وقد تألّمت من مرضٍ جعل حياتها عبئاً ثقيلاً مدى اثنتي عشرة سنة. وقد أنفقت كلّ أموالِها على الأطباء والعقاقير ليقول لها الأطباء إنّ مرضَها لابُرء منه. ولكنّها عندما سمعت عن الشافي العظيم انتعشت آمالها. فجعلت تفكّر قائلة: «لو أمكنني الاقتراب منه فقط لأكلّمه فقد أنال الشفاء».

كان المسيح سائرا في طريقه إلى بيت يايرس معلّم اليهود الذي كان قد التمس منه أن يأتي ويشفي ابنتَه بتوسّلات من قلبٍ كسيرٍ قائلاً: « ابْنَتِي الصَّغِيرَةُ عَلَى آخِرِ نَسَمَةٍ. لَيْتَكَ تَأْتِي وَتَضَعُ يَدَكَ عَلَيْهَا لِتُشْفَى فَتَحْيَا » (مرقس ٥: ٢٣). هذه التوسّلات حرّكت قلب يسوع العطوف الحنون، ففي الحال ذهب مع ذلك الرئيس إلى بيته.

وكانا يسيران على مهلٍ لأنّ الجموع كانت تزحمُ المسيحَ من كلِّ جانب. وإذ كان المخلّص يشقُّ لنفسه طريقاً في وسط ذلك الزحام اقترب من المكان الذي كانت المرأة المريضةُ واقفةً فيه. كانت قد حاولت مراراً عديدةً أن تدنوَ منه، ولكن بلا جدوى. أمّا الآن فقد سنحت لها الفرصة. لم تجد وسيلةً للكلام معه، ولم تحاول تأخيرَ تقدّمِه البطيء، ولكنّها كانت قد سمعت أنّ الشفاء يتحقق بمجرّد لمس ثيابه، وخوفاً من أن تفلت منها فرصتُها الوحيدةُ للشفاء تقدّمت إلى الأمام قائلة لنفسها: « إِنْ مَسَسْتُ ثَوبِهِ فَقَطْ شُفِيتُ ».

لقد عرف المسيح كلَّ ما جال بخاطرها، وكان يشقُّ طريقه إلى حيث كانت واقفة، وقد تحقق من شدّةِ حاجتها، فكان يساعدها على ممارسة إيمانها.

وإذ كان ماراً بها مدّت يدها وأفلحت في لمس هُدبِ ثوبه فقط. وفي تلك اللحظة علمت أنّها قد برئت. ففي تلك اللمسة الواحدة تركّز إيمانُ حياتِها، وفي الحال زال ألمُها وضعفُها. وفي الحال أحسّت بهزّةٍ كما من تيار كهربائي يخترق كلُّ أنسجةِ كيانِها. وملأ نفسها احساساً بالصحّة الكاملة: «علمت في جسمها أنّها قَدْ بَرِئْتَ من الداء» (مرقس ٥:٢٩).

رغبت تلك المرأةُ الشاكرةُ في التعبير عن شكرها للشافي القدير الذي أسدى إليها بلمسة واحدة أكثر مما فعل الأطباء في اثنتي عشرةَ سنةٍ طويلةٍ، ولكنّها لم تكن لتجرؤَ على ذلك. فبقلبٍ شكورٍ حاولت الانسحاب من وسط ذلك الجمع، وإذا بيسوعَ يتوقّفَ فجأةً عن السير، وإذ تطلّع فيما حوله سأل قائلا: «من الذي لمسني»؟.

نظر إليه بطرس في دهشةٍ وأجابه قائلا: « يَا مُعَلِّمُ الْجُمُوعُ يُضَيِّقُونَ عَلَيْكَ وَيَزْحَمُونَكَ وَتَقُولُ مَنِ الَّذِي لَمَسَنِي » ؟ (لوقا ٨: ٤٥).

فقال يسوع: « قَدْ لَمَسَنِي وَاحِدٌ لأَنِّي عَلِمْتُ أَنَّ قُوَّةً قَدْ خَرَجَتْ مِنِّي » (لوقا ٨: ٤٦). لقد أمكنه أن يميّزَ لمسةَ الإيمان من اللمسات الفجائيّة الطارئة التي كان يلمسه بها ذلك الجمع العديم الاكتراث. لقد لمسه واحدٌ لقصدٍ عميق. وقد حصل على مطلبه.

إنّ المسيح لم يسأل السؤال ليعرف سرّاً كان خافياً عليه، بل كان لديه درسٌ ليعلّمه لتلاميذه وللشعب وللمرأة. فقد رغب في أن يلهمَ المتألّمين بالرجاء. وأراد أن يبرهنَ على أنّ الإيمان هو الذي أتى بالقوّةِ الشافية. ينبغي ألاّ تُغفلَ ثقةُ المرأةِ بدون أن يعلّقَ عليها. فينبغي أن يتمجّدَ الله باعترافها الشكور. وقد أرادها المسيح أن تفهمَ انّه يمتدح عملَ إيمانِها. ولم يُردها أن تنصرفَ بنصف بركة فقط. لم يكن لها أن تظلَّ تجهلُ معرفتَه لآلامِها ومحبَّته الرحيمة وامتداحَه لإيمانها بقدرته على أن يخلّص إلى التمام كلّ من يُقبلون إليه.

إذ اتّجه المسيح ببصره نحوَ المرأةِ أصرّ على معرفة الذي لمسه. فإذ وجدت أن لا جدوى من التسترِ تقدّمت إلى الأمام مرتعدةً وطرحت نفسَها عند قدميه. وبدموعِ الشكر أخبرته أمام كلِّ الشعب لماذا لمست ثوبَه وكيف برئت في الحال. كانت تخشى لئلا يكون لمسُها لثوبه عملاً يدلُّ على الغطرسة، ولكنّ المسيحَ لم ينطق بكلمةِ لومٍ واحدة بل تكلّم فقط بكلام الاستحسان. وقد صدر كلامُه من قلبه المحبِّ العطوف على آلام البشر. قال لها بكلِّ لطفٍ. « ثِقِي يَا ابْنَةُ إِيمَانُكِ قَدْ شَفَاكِ اِذْهَبِي بِسَلاَمٍ » (لوقا ٨: ٤٨). فأدخلت تلك الكلماتُ سروراً عظيماً إلى قلبها ولم يُعدْ الخوفُ يُنغّص عليها فرحها.

إنّ ذلك الجمعَ المحبَّ للاستطلاع المتزاحم على يسوع لم تُمنح لأحدٍ منه قوّةُ محيّية، أمّا تلك المرأة المتألّمة التي لمسته بإيمانٍ فنالت الشفاء. وكذلك في الروحيات فإنّ الاتصال العرضي يختلف عن لمسة الإيمان. إنّ الاعتقادَ المجرّدَ أنّ المسيح هو مخلّص العالم لا يمكنه أن ينيلَ النفسَ الشفاء. فالإيمان الذي للخلاص ليس هو مجرّد المصادقة على حقّ الإنجيل، إنّما الإيمان الحقيقي هو الذي يقبل المسيحَ كالمخلّصِ الشخصي. لقد بذل الله ابنَه الوحيدَ حتى أنا بإيماني به لا أهلك، بل تكون لي الحياة الأبدية(يوحنا٣:١٦). فعندما آتي إلى المسيح حسب كلمته، عليَّ أن أومن بأنني قد حصلت على نعمته المخلّصة. والحياة التي أحياها الآن إنّما أحياها «فِي الإِيمَانِ إِيمَانِ ابْنِ اللهِ الَّذِي أَحَبَّنِي وَأَسْلَمَ نَفْسَهُ لأَجْلِي» (غلاطية ٢:٢٠).

إنّ كثيرين يفهمون الإيمانَ على أنّه رأي. لكنّ الإيمانَ المخلّصَ هو صفقة بموجبها يرتبط من يقبلون المسيحَ بعهدِ صلةٍ مع الله. والإيمان الحيّ يعني مزيداً من الحيويّة والنشاط واتكالاً واثقاً بموجبه تصيرُ النفسُ قوّةً غالبةً بنعمة المسيح.

إنّ الإيمانَ قوّة غالبة أقوى من الموت. ولو أنّ المرضى يستطيعون أن يُثبّتوا أنظارَهم بالإيمان في الشافي القدير لكنّا نرى نتائجَ عجيبةً ومدهشة. فهو يُحيي الجسد والنفس.

وفي خدمتنا لضحايا العادات الشريرة بدلاً من أن نوجّهَ أنظارَهم إلى اليأس والدمار اللذين هم منساقون إليهما لنوجّهَ أنظارَهم إلى يسوع. ثبّتوا أنظارَهم في أمجاد السماويات. إنّ هذا سيحقق شفاءَ الجسدِ والنفسِ أكثر من أهوال الهاوية عندما يوضع نصبَ عيونِ العاجزين والذين يبدو عليهم اليأس.

« بِمُقْتَضَى رَحْمَتِهِ خَلَّصَنَا »

إن عبداً لقائدِ مئةٍ كان مطروحاً مفلوجاً. كان الخدم عند الرومان عبيداً يُشترون ويُباعون في الأسواق، وفي الغالب كانوا يعاملون بمنتهى الامتهان والقسوة. ولكنّ قائدَ المئةِ كان مشفقاً وعطوفاً على خادمه وكان يتوق إلى شفائه. وكان يؤمن بأنّ يسوعَ يستطيع أن يشفيه. لم يكن قد رأى المخلّص، ولكنّ الأخبار التي كان قد سمعها ألهمته الإيمان. وبالرغم من تمسّكِ اليهود بالرسميّات والطقوس فقد كان هذا الروماني مقتنعاً بأنّ دينهم أسمى من دينه وأفضل. لقد حطّم ونقضَ من قبل سياجاتِ التعصّب القومي والكراهية التي قد فصلت بين الفاتحين والمغلوبين على أمرهم. ولقد أبدى احترامَه لخدمة الله وأبدى لليهود عطفاً وإشفاقاً كمن هم عبيده الساجدون له. ووجد في تعاليم المسيح التي وصلته أخبارُها ما كانت تحتاجُه النفس. وكل ما هو روحي في داخله استجاب لأقوال المخلّص. ولكنّه ظنّ نفسَه غيرَ مستأهلٍ لأن يقتربَ، فطلب من شيوخ اليهود أن يسألوه بشأن شفاء عبده.

فتقدّم أولئك الشيوخ بطلبهم إلى يسوع قائلين له في إلحاح: « إِنَّهُ مُسْتَحِقٌّ أَنْ يُفْعَلَ لَهُ هذَا لأَنَّهُ يُحِبُّ أُمَّتَنَا وَهُوَ بَنَى لَنَا الْمَجْمَعَ » (لوقا ٧: ٤،٥).

ولكن فيما كان يسوع في طريقه إلى بيت قائد المئة وصلته رسالة من قائد المئة نفسه يقول له: « يَا سَيِّدُ لاَ تَتْعَبْ لأَنِّي لَسْتُ مُسْتَحِقّاً أَنْ تَدْخُلَ تَحْتَ سَقْفِي » (لوقا ٧:٦).

فإذ يواصل المخلّص السير في طريقه، يأتيه قائدُ المئةِ بنفسه ليكملَ الرسالة قائلا: «لَمْ أَحْسِبْ نَفْسِي أَهْلاً أَنْ آتِيَ إِلَيْكَ ». «لكِنْ قُلْ كَلِمَةً فَيَبْرَأَ غُلاَمِي. لأَنِّي أَنَا أَيْضًا إِنْسَانٌ مُرَتَّبٌ تَحْتَ سُلْطَانٍ لِي جُنْدٌ تَحْتَ يَدِي وَأَقُولُ لِهذَا اذْهَبْ فَيَذْهَبُ وَلآخَرَ ائْتِ فَيَأْتِي وَلِعَبْدِي افْعَلْ هذَا فَيَفْعَلُ » (لوقا ٧: ٧؛ متى ٨:٨و٩).

وكأنّما قائد المئة يقول: «إني أمثّل سلطان روما وجنودي يعتبرون سلطاني أسمى سلطانٍ، كذلك أنت تمثّلُ سلطانَ الإله السرمدي وكلُّ الخلائق رهن كلمتِك. فتستطيع أن تأمرَ المرضَ فيمضي ويطيع كلمتَك. قل كلمة فيبرأ غلامي».

قال له المسيح: « كَمَا آمَنْتَ لِيَكُنْ لَكَ. فَبَرَأَ غُلاَمُهُ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ » (متى ٨:١٣).

لقد امتدح شيوخ اليهود قائدَ المئة أمام المسيح بسبب الإحسان الذي أسداه إلى «أُمَّتَنَا » قائلين: إنّه مستحقٌ لأنّه «بَنَى لَنَا الْمَجْمَعَ». أمّا قائدُ المئة فقال عن نفسه: «لَسْتُ مُسْتَحِقّاً ». ومع ذلك فهو لم يخَفْ من أن يسأل العونَ من يسوع. إنّه لم يركن إلى صلاحِه ولكنّه اعتمد على رحمة المخلّص. وكانت حجّتُه الوحيدة هي حاجتُه الشديدة.

إنّه بإمكان كلِّ إنسان أن يأتي إلى المسيح بنفس هذه الكيفيّة: « لاَ بِأَعْمَال فِي برّ عَمِلْنَاهَا نَحْنُ بَلْ بِمُقْتَضَى رَحْمَتِهِ خَلَّصَنَا » (تيطس ٣: ٥). فهل تحسّ أنّك لكونك خاطئاً فأنت لا تستطيع أن ترجو الحصول على بركة من الله؟ اذكر أنّ المسيح قد أتى إلى العالم ليخلّص الخطاة. ليس لدينا ما نستحقّ لأجله أن ننالَ حظوةً لدى الله. والحجة التي يمكننا التقدّم بها الآن وفي كلِّ وقت هي حالة العجز التام التي نحن فيها، والتي تجعل قوّته الفادية ضرورةً لازمةً لنا كلَّ اللزوم. فإذ ننبذ كلَّ اعتمادٍ على الذات يمكنّنا أن نشخصَ في صليبِ جلجثة قائلين:

«إني ضعيف خاطيء لا عون لي إلاّ الصليب»

« إِنْ كُنْتَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُؤْمِنَ. كُلُّ شَيْءٍ مُسْتَطَاعٌ لِلْمُؤْمِنِ » (مرقس ٩: ٢٣). الإيمان هو الذي يربطنا بالسماء ويمنحنا قوّةً لمقاومة قوات الظلمة، ففي المسيح أعدّ الله الوسائل

الكفيلة بإخضاع كلِّ صفةٍ شرّيرةٍ ومقاومة كلَّ تجربة مهما تكن قسوتُها. ولكنّ كثيرين يحسّون بأنّه يعوزهم الإيمان، ولذلك يظلّون بعيدين عن المسيح. فليُلقِ هؤلاء أنفسَهم، وهم شاعرون بعجزهِم وعدمِ استحقاقهم، على رحمة مخلّصهم العطوف. لا تنظروا إلى ذواتِكم بل إلى المسيح. فذاك الذي شفى المرضى وأخرج الشياطين وهو يجول بين الناس، لا يزالُ هو نفسُه الفادي القدير. إذاً تمسَّك بمواعيدِه على أنّها أوراقٌ من شجرةِ الحياة، فهو القائل: « مَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ لاَ أُخْرِجْهُ خَارِجًا » (يوحنا ٦: ٣٧). وإذ تُقبل إليه آمن بأنَّه يقبلك لأنّ هذا ما وعد به. ولن تهلك طالما تفعل ذلك – لن تهلكَ أبداً.

«الله بيَّن محبته لنا لأنّه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا» (رومية ٥:٨).

«إِنْ كَانَ الله مَعْنَا فَمَنْ عَلَينَا. اَلَّذِي لَمْ يُشْفِقْ عَلَى ابْنِهِ بَلْ بَذَلَهُ لأَجْلِنَا أَجْمَعِينَ، كَيْفَ لاَ يَهَبُنَا أَيْضًا مَعَهُ كُلَّ شَيْءٍ» ؟ (رومية ٨: ٣١و٣٢).

((فَإِنِّي مُتَيَقِّنٌ أَنَّهُ لاَ مَوْتَ وَلاَ حَيَاةَ وَلاَ مَلاَئِكَةَ وَلاَ رُؤَسَاءَ وَلاَ قُوَّاتِ وَلاَ أُمُورَ حَاضِرَةً وَلاَ مُسْتَقْبَلَةً وَلاَ عُلْوَ وَلاَ عُمْقَ وَلاَ خَلِيقَةَ أُخْرَى تَقْدِرُ أَنْ تَفْصِلَنَا عَنْ مَحَبَّةِ اللهِ الَّتِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنَا» (رومية ٨: ٣٨–٣٩).

« تَقْدِرْ أَنْ تُطَهِّرَنِي »

كان مرضُ البَرَصِ من أرهبِ الأمراض المعروفةِ في الشرق. فلكونه مرضاً سريعَ العدوى ولا بُرءَ منه وذا تأثير مرعبٍ لضحاياه أخافَ أكثرَ الناسِ شجاعةً. وكان اليهود يعتبرونه قضاءً من الله بسبب الخطيّة، ولذلك كان يُدعى «الضربة» و«إصبع الله». وإذ كان متأصّلاً في الجسم ولا يمكن استئصالُه، ومميتاً، كان يُنظر إليه كرمزٍ للخطية.

وبموجب الناموس الطقسي كان يُحكم على الأبرص بأنّه نجسٌ. وكلّ ما يلمسه يتنجّس. وكانت أنفاسُه تُفسد الهواءَ وتلوّثه. وكان يُطرد من مساكنِ الناسِ كمن قد مات. والذي كان يُشتبه فيه بأنّه قد أُصيب بهذا المرض كان عليه أن يعرضَ نفسَه على الكهنة

الذين كان عليهم أن يفحصوه ويحكموا في أمره. فإن حُكِمَ عليه بأنّه أبرصُ كان يُعزل بعيداً عن عائلته ويُقطع من جماعة إسرائيل، ويُحكم عليه بأن يعاشرَ المصابين بمثل مرضه دون سواهم. وحتى الملوك والرؤساء لم يمكن إعفاؤهم من هذا الحكم. فالملك الذي يُصاب بهذا المرضِ المخيفِ كان ينبغي له أن يتنازلَ عن صولجان الملك ويهربَ من المجتمع.

وعلى الأبرص أن يحملَ لعنةَ دائِه بعيداً عن أصدقائه وأقربائه. وكان مُلزَماً بأن يذيع نبأٌ كارثته، وأن يمزّقَ ثيابَه ويصرخ منذراً بالخطر، محذّراً الجميع حتى يهربوا من عدواه. وإنّ الصرخة القائلة: «نجس نجس» التي كان يَنطق بها ذلك المنفي الوحيد بنغمةٍ نائحةٍ حزينةٍ كانت إنذاراً يسمعه الناسُ بالخوف والاشمئزاز.

وقد كان في الإقليم الذي خدم فيه المسيح كثيرون من هؤلاء المتألمين، وإذ وصلهم نبأُ عملِه كان بينهم واحد انبثق الإيمان في قلبه. فلو أمكنه الذهاب إلى يسوع فقد يشفى. ولكن كيف يمكنه أن يجدَ يسوع؟ وكيف يمكنُه أن يعرضَ نفسَه على الشافي وقد حُكِم عليه بالنفي الدائم ؟ وهل سيشفيه المسيح؟ ألا يلعنُه كما قد فعل الفريسيون والأطباء أيضاً وينذرُه بالهروب من مساكن الناس؟

إنّه يفكّر في كلِّ ما قيل له عن يسوع. إنّه لم يطرد أحداً ممن جاءوا يطلبون منه العون. فيعقدُ ذلك الرجلُ التعسُ العزمَ على أن يجد المخلّص. فمع كونه مطروداً بعيداً عن المدن فربّما يمكنه أن يلتقيَ به عبر أحد المسالك الفرعيّة في الطرق الجبليّة أو يجدَه وهو يعلّم خارج المدن. نعم إنّ الصعوبات عظيمة، ولكن هذا هو رجاؤه الوحيد.

إنّ الأبرص إذ يقفُ من بعيدٍ تلتقط أذناه كلماتٍ قليلةً مما ينطق به المخلّص. ويراه وهو يضع يديه على المرضى. ويرى العُرجَ والعميَ والمفلوجين والذين هم في دور الاحتضار من هولِ الأمراض المتعددة، يقومون أصحّاء وهم يسبّحون الله على خلاصهم، فيتشدد إيمانُه. ثم يقترب أكثرَ فأكثرَ إلى ذلك الجمع المصغي إليه. إنّه ينسى كلَّ

التقيّدات المفروضة عليه وسلامةَ الشعب والخوفَ الذي به ينظر إليه جميعُ الناس. فهو لا يفكّر في غير الرجاء المبارك في الشفاء.

إنّ منظرَه كريهٌ. لقد أغار عليه المرضُ إغاراتِه المخيفة، ومنظرُ جسمه المتعفّن مرعبٌ. فإذ يراه الناس يتراجعون. وفي رعبهم يترامون بعضهم على بعض للهروب من ملامسته. بعضُهم يحاولون منعه من الاقتراب من يسوع ولكنّهم عبثا يحاولون. إنّه لا يراهم ولا يسمعهُم. وتعبيرُهم عن اشمئزازهم منه لا يؤثّرُ فيه، فهو لا يرى إلاّ ابنُ الله وحدَه ولا يسمع إلاَّ صوتَه المُحيي للمحتضرين.

فإذ يتقدّمُ إلى يسوعَ يخرُّ عند قدميه بهذه الصرخة: « يَا سَيِّدُ إِنْ أَرَدْتَ تَقْدِرْ أَنْ تُطَهِّرَنِي » (متى ٨:٢).

فيجيبه يسوع وقد مدّ يدَه ولمسه قائلاً: « أُرِيدُ فَاطْهُرْ » (متى ٨: ٣).

ففي الحال يحدثُ تغييرٌ في الأبرص. فدمُه يصير دمَ الصحّةِ، وأعصابُه تصير حسّاسةً، وعضلاتُه تصير قوّيةً، وسطحُ جلدِ جسمِه الأبيضِ بياضاً غيرَ عادي والمُغطّى بالقشور، الذي هو من خصائصِ البرصِ يختفي ويصيرُ لحمُه كلحمِ صبّي صغير.

ولو علم الكهنةُ بالحقائق الخاصّةِ بشفاء الأبرصِ لكانت كراهيّتُهم للمسيح تجعلهم يحكمون حكما غادرا. وقد رغب يسوع في الحصول على حكمٍ لا محاباة فيه، ولذلك هو يأمرُ الرجلَ ألاّ يقول لأحدٍ عن الشفاء بل أن يقدّم نفسَه في الهيكل بلا إبطاء ومعه القربان قبل أن تنتشرَ أيُّ أخبار كاذبة عن المعجزة. ولكن قبلما يقبلُ الكهنةُ مثل ذلك القربان كان يُطلب منهم أن يفحصوا مقدّمَه ويشهدوا بأنّه قد شُفي تماماً.

وقد أُجريَ هذا الفحص. والكهنة الذين كانوا قد حكموا على الأبرص بالنفي شهدوا الآن بأنّه شُفي. وأعيدَ الرجل الذي شُفيَ إلى بيته ومجتمعه، وقد أحسّ بأنّ هبةَ الصحّةِ ثمينةٌ جداً. لقد فرح وتهلّل بنشاط الرجولة وبعودته إلى أسرته، ولكن بالرغم من تحذير

يسوع لم يستطع أن يخفي حقيقةَ شفائِه أكثرَ من ذلك، وبفرحٍ عظيمٍ كان يجول معلناً قدرةُ ذاك الذي أبرأه.

عندما أتى هذا الرجل إلى يسوع كان «مملوءاً برصاً». فقد تغلغل سمُّ البرصِ القتّالِ في كلِّ جسمه. وحاول التلاميذ أن يمنعوا سيّدَهم من ملامسته لأنّ من لمس الأبرص صار هو أيضاً نجساً. ولكنّ يسوع إذ وضع يده على الأبرص لم يتنجّس. وقد طهُرَ البرص. وهذا يصدقُ على برصِ الخطيّة – المتأصّل والمميت والذي يستحيلُ تطهيرُه بقوّةٍ بشريّةٍ: «كلّ الرأس مريض وكلّ القلب سقيم. من أسفل القدم إلى الرأس ليس فيه صحّة بل جرح وإحباط وضربة طرية» (إشعياء١:٥و٦). ولكنّ يسوعَ إذ يأخذ جسمَ بشرّيتنا لا يُصاب بالعدوى ولا يتنجّس. ففي وجوده وجُدت نعمة الشفاء للخاطيء، وكلّ من يخرّ عند قدميه قائلاً بإيمان: : « يَا سَيِّدُ إِنْ أَرَدْتَ تَقْدِرْ أَنْ تُطَهِّرَنِي » سيسمع جوابَه القائل : «أُرِيدُ فَاطْهُرْ».

ففي بعض مناسبات الشفاء لم يمنحُ يسوعَ البركةَ المطلوبةَ في الحال. ولكن في حالة البرص ما إن قُدّمَ الطلبُ حتى أُجيبَ فوراً. إننا عندما نصلّي طالبين بركاتٍ أرضيةً قد تتأخّرُ الإجابةُ، أو قد يعطينا الله شيئا آخر غير ما طلبناه، ولكنّ الأمَر لا يكون كذلك عندما نطلب الخلاصَ من الخطيّة. إنّه يريد أن يطهّرنا من الخطية ويجعلنا أولاداً له ويقدّرنا أن نحيا حياةَ القداسة. إنّ المسيحَ « بَذَلَ نَفْسَهُ لأَجْلِ خَطَايَانَا لِيُنْقِذَنَا مِنَ الْعَالَمِ الْحَاضِرِ الشِّرِّيرِ حَسَبَ إِرَادَةِ اللهِ وَأَبِينَا » (غلاطية ١: ٤)، « وَهذِهِ هِيَ الثِّقَةُ الَّتِي لَنَا عِنْدَهُ أَنَّهُ إِنْ طَلَبْنَا شَيْئًا حَسَبَ مَشِيئَتِهِ يَسْمَعُ لَنَا. وَإِنْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّهُ مَهْمَا طَلَبْنَا يَسْمَعُ لَنَا نَعْلَمُ أَنَّ لَنَا الطِّلِبَاتِ الَّتِي طَلَبْنَاهَا مِنْهُ » (١يوحنا ٥: ١٤،١٥).

لقد نظر يسوع إلى المتضايقين والمثقّلي القلوب، والذين ذبلت آمالهم وضُربت، والذين كانوا يحاولون بالأفراح الأرضيّة أن يهدّئوا أشواق نفوسهم، فدعا الجميع ليجدوا الراحة فيه.

«فَتَجِدُوا رَاحَـةً»

إنّه بكلِّ رقةٍ ولطفٍ أمر الشعبَ الكادحَ قائلا: « اِحْمِلُوا نِيرِي عَلَيْكُمْ وَتَعَلَّمُوا مِنِّي لأَنِّي وَدِيعٌ وَمُتَوَاضِعُ الْقَلْبِ فَتَجِدُوا رَاحَةً لِنُفُوسِكُمْ » (متى ١١: ٢٩).

لقد وجَّه المسيح كلامَه هذا إلى جميع بني الإنسان. وسواء علم الناس أم لم يعلموا فجميعهم متعبون وثقيلو الأحمال. والجميع يرزحون تحت أحمال لا يستطيع أحد غير المسيح أن يرفعها عن كواهلهم. وأثقلُ حملٍ نحمله هو حملُ الخطيّة. فلو تُركنا لنحمل هذا الحمل فلابدّ أن يسحقَنا. ولكنّ ذاك الذي هو بلا خطيّة أخذ مكاننا، « وَالرَّبُّ وَضَعَ عَلَيْهِ إِثْمَ جَمِيعِنَا » (إشعياء٥٣: ٦).

لقد حمل ثقلَ آثامنا وهو سيرفع الحملَ عن كواهلنا المُتعبة، وسيمنحنا الراحةَ. وهو سيحمل أيضا الهمَّ والحزنَ. وهو يدعونا لأن نُلقي كلَّ همّنا عليه لأنّه يحملنا على قلبه.

إنّ أخانا الأكبرَ هو بجوار العرش السرمدي. وهو ينظر إلى كلِّ إنسان يتّجه بنظره إليه كمخلّص. إنّه يعرف بالاختبار ما هي ضعفات البشريّة وما هي احتياجاتنا وأين تكمن قوّةُ تجاربنا، لأنّه «مُجَرَّبٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِثْلُنَا بِلاَ خَطِيَّةٍ » (عبرانيين٤:١٥). فيّا ابن الله المُرتعد إنّه ساهرٌ عليك. هل أنت مجرّب؟ إنّه سيخلّص. أضعيفٌ أنت؟ هو سيقوّي. أم أنت جاهلٌ؟ هو سيُنير. أجريح أنت؟ هو سيشفي. إنّ الربّ «يحصي عدد الكواكب» ومع ذلك فهو «يُشفي المُنكسري القلوب ويجبرُ كسرَهم» (مزمور ١٤٧:٤و٣).

مهما تكن همومُك وتجارُبك فابسط قضيتَك أمام الرب. وستتشدد روحُك وتقوى على الاحتمال. وسيفتح أمامَك الطريقَ لتحرر نفسَك من كلِّ ارتباك وصعوبة. وعلى قدر ما تعرف أنّك ضعيفٌ وعاجزٌ – بقدر ذلك ستتقوّى بقوّتهِ. وكلما ثقلُت أحمالُك ازدّدت إحساساً ببركةِ الراحةِ في إلقائها على حامل أثقالك.

قد تفصلُ الظروفُ بين الأصدقاء، وقد تُباعدُ بيننا وبينَهم مياهُ البحر الصاخبة. ولكن لا ظرفَ ولا مسافةَ يمكن أن يفصلانا عن المخلّص. فأينما نكون هو عن يميننّا ليعضّدنا ويحفظنا ويسندنا ويُفرحنا. إنّ محبةَ المسيح لمفديه هي أعظم من محبّةِ الأم لابنها. إنّه امتيازُ أن نستريح في محبّتِه قائلين: إني سأتّكلُ عليه لأنّه قد بذل حياتَه لأجلي».

قد تتغيّرُ محبّةُ الإنسان، أمّا محبّةُ المسيح فلا يعتريها تغيير. فعندما نصرخ إليه في طلب العون تمتدُّ يدَه لإنقاذنا.

« فَإِنَّ الْجِبَالَ تَزُولُ وَالآكَامَ تَتَزَعْزَعُ أَمَّا إِحْسَانِي فَلاَ يَزُولُ عَنْكِ وَعَهْدُ سَلاَمِي لاَ يَتَزَعْزَعُ قَالَ رَاحِمُكِ الرَّبُّ » (إشعياء ٥٤: ١٠).

٥ شفاء النفس

إنّ كثيرين ممن أتوا إلى المسيح في طلب الشفاء كانوا قد جلبوا المرض على أنفسهم، ومع هذا فإنّه لم يرفض أن يشفيهم. وعندما خرجت القوّة منه ودخلت في تلك النفوس تبكّتوا على الخطية، وكثيرون شفوا من أمراضهم الروحية كما من أدوائهم الجسدية.

وكان من جملة هؤلاء مفلوج كفرناحوم. فكالأبرص كان هذا المفلوج قد فقد كلّ أمل في الشفاء. كان مرضُه نتيجةَ حياة الخطيّة، وقد زاد الندم مرارةَ آلامه. وعبثا لجأ إلى الفريسيين والمعلمين في طلب الفرج، فقد حكموا بأن لا شفاء يُرجَى له ونبذوه كخاطيء، سيموت تحت غضب الله.

غاصت روح ذلك المفلوج في أعماق هاوية اليأس. ثم سمع عن أعمال يسوع. إنّ أناساً آخرين كانوا خطاة وعاجزين مثله قد شفوا فتشدد وتشجع ليؤمن بأنّه هو أيضاً قد يُشفى لو أمكن حمله إلى المخلّص. ولكنّ أمله سقط وضاع عندما تذكّر علّة دائه، ومع ذلك فهو لم يطرح عنه إمكانية الشفاء.

كان مطلبه الأعظم الراحة من حمل الخطية. وكان يتوق لرؤية يسوع والحصول على يقين الغفران والسلام بينه وبين السماء. وحينئذ سيكون قانعا بأن يحيا أو يموت حسب مشيئة الله.

لم يكن هنالك وقت ليضيّعه. إنّ لحمه التالف البالي قد بانت فيه علائم الموت، فتوسّل إلى أصدقائه أن يحملوه على سريره إلى يسوع وهذا ما شرعوا في عمله بكلّ

سرور. ولكنّ الجموع التي احتشدت في البيت الذي كان فيه المخلّص وحوله كانوا كثيرين جداً والزحام على أشدّه، بدا أنّه يستحيل على ذلك المريض وأصدقائه أن يصلوا إليه أو حتى يقتربوا منه ليسمعوا صوته. كان يسوع يعلّم في بيت بطرس. وطبقا لعادتهم كان تلاميذه جالسين حوله « وَكَانَ فَرِّيسِيُّونَ وَمُعَلِّمُونَ لِلنَّامُوسِ جَالِسِينَ وَهُمْ قَدْ أَتَوْا مِنْ كُلِّ قَرْيَةٍ مِنَ الْجَلِيلِ وَالْيَهُودِيَّةِ وَأُورُشَلِيمَ » (لوقا ٥: ١٧). لقد أتى كثيرون من هؤلاء كجواسيس إذ كانوا يطلبون أن يجدوا علّة على يسوع. وخلف هؤلاء اجتمع الشعب المختلط المشتاق الوقور، ومحبّو الاستطلاع والعديمو الإيمان. وقد مثُل في ذلك البيت كثير من القوميات المختلفة وكل طبقات المجتمع، « وَكَانَتْ قُوَّةُ الرَّبِّ لِشِفَائِهِمْ » (لوقا ٥: ١٧). إنّ روح الحياة كان يحتضن ذلك الجمع، ولكن الفريسيين والمعلّمين لم يميّزوا حضوره. لم يكونوا يحسّون بأيّة حاجة، ولم يكن الشفاء لأجلهم. فقد « أَشْبَعَ الْجِيَاعَ خَيْرَاتٍ وَصَرَفَ الأَغْنِيَاءَ فَارِغِينَ » (لوقا١: ٥٣) .

حاول حاملو ذلك المفلوج مراراً وتكراراً أن يشقّوا لأنفسهم طريقاً في وسط ذلك الجمع، ولكنّ كلّ محاولاتهم كانت عبثاً. وقد نظر الرجل المريض فيما حوله في أسى لا يُعبّر عنه. وكيف يتخلّى عن الأمل في حين أنّ العون الذي يتوق إليه كان هكذا قريبا؟ وبناء على اقتراحه صعد به أصدقاؤه إلى السطح، وبعدما كشفوا السقف دلّوه عند قدمي يسوع.

لقد قوطع كلام السيد، ونظر المخلّص إلى ذلك الوجه المحزن المفجع، ورأي تينك العينين المتوسلتين مثبتتين فيه، وعرف جيّداً أشواق تلك النفس المثقلة. إنّ المسيح هو الذي أدخل التبكيت إلى ضميره وهو لم يزل بعد في بيته. وعندما تاب عن خطاياه وآمن بقدرة يسوع على شفائه، باركت رحمة المخلّص قلبه. لقد لاحظ يسوع أوّل بصيص من الإيمان ينمو ويصير اقتناعا بأنّه هو معين الخاطيء الوحيد، ورأى هذا الاقتناع ينمو ويشتدّ مع كل مجهود بذله للمجيء إلى حضرته. إنّ المسيح هو الذي اجتذب ذلك

المتألّم إلى نفسه. والآن بكلام وقع على أذنيه كوقع الموسيقي قال له المخلّص: «ثِقْ يَا بُنَيَّ مَغْفُورَةٌ لَكَ خَطَايَاكَ» (متى ٩: ٢).

ها هو حِملُ الإثم يتدحرج بعيدا عن نفس الرجل المريض. إنّه لا يستطيع أن يشكّ. إنّ كلام المسيح يعلن عن قدرته على معرفة أفكار القلب، فمن يستطيع أن ينكر قدرته على غفران الخطايا؟ فها الرجاء يحتلّ مكان اليأس، والفرح يحلّ في مكان الحزن الضاغط الأليم. للألم الذي أصاب جسم الرجل وتغيّر كل كيانه. وإذ لم يقدم طلبا آخر كان مضجعاً في سلام وسكون وسعادة لم يستطيع أن يعبر عنها بالكلام.

وقد كان كثيرون يراقبون باهتمام لاهث كلّ حركة في ذلك العمل العجيب الذي يحدث أمامهم، كما شعر كثيرون أنّ كلام المسيح كان دعوة لهم. ألم تكن نفوسهم سقيمة بالخطية؟ ألم يكونوا مشتاقين إلى التحرر من هذا العبء؟

ولكنّ الفريسيين لخوفهم من أن يفقدوا سيطرتهم على ذلك الجمع تفكروا في قلوبهم قائلين: «لِمَاذَا يَتَكَلَّمُ هذَا .. بِتَجَادِيفَ. مَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَغْفِرَ خَطَايَا إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ» (مرقس ٢:٧).

فإذ حدّق يسوع ببصره إليهم، الأمر الذي جعلهم يجبنون وينكمشون ويتراجعون، قال: «لِمَاذَا تُفَكِّرُونَ بِالشَّرِّ فِي قُلُوبِكُمْ. أَيُّمَا أَيْسَرُ أَنْ يُقَالَ مَغْفُورَةٌ لَكَ خَطَايَاكَ. أَمْ أَنْ يُقَالَ قُمْ وَامْشِ. وَلكِنْ لِكَيْ تَعْلَمُوا أَنَّ لابْنِ الإِنْسَانِ سُلْطَانًا عَلَى الأَرْضِ أَنْ يَغْفِرَ الْخَطَايَا. حِينَئِذٍ قَالَ لِلْمَفْلُوجِ. قُمْ احْمِلْ فِرَاشَكَ وَاذْهَبْ إِلَى بَيْتِكَ» (متى ٩:٤-٦).

حينئذ فالرجل الذي حُمِل إلى يسوع على نقّالة، قام واقفاً على قدميه بمرونة الشباب وقوّته. وفي الحال: «قَامَ لِلْوَقْتِ وَحَمَلَ السَّرِيرَ وَخَرَجَ قُدَّامَ الْكُلِّ ، حَتَّى بُهِتَ الْجَمِيعُ وَمَجَّدُوا اللهَ قَائِلِينَ مَا رَأَيْنَا مِثْلَ هذَا قَطُّ» (مرقس ٢:١٢) .

كان الحال يستدعي استخدام القوّة الخالقة لإعادة الصحّة إلى ذلك الجسم البالي المتعفّن، ولا شيء أقل من ذلك. فنفس الصوت الذي تكلّم فمنح الحياة للإنسان

المجبول من تراب الأرض تكلّم مانحاً الحياة للمفلوج المحتضر. ونفس القوّة التي منحت للجسم الحياة جدّدت القلب. وذاك الذي عند الخلق «قَالَ فَكَانَ .. أَمَرَ فَصَارَ» (مزمور ٣٣:٩). تكلّم بكلام الحياة للنفس المائتة بالذنوب والخطايا. إنّ شفاء الجسد كان برهاناً على القدرة التي جددت القلب. لقد أمر المسيح المفلوج أن يقوم ويمشي قائلا: «لِكَيْ تَعْلَمُوا أَنَّ لابْنِ الإِنْسَانِ سُلْطَانًا عَلَى الأَرْضِ أَنْ يَغْفِرَ الْخَطَايَا».

لقد وجد المفلوج في المسيح الشفاء لكلّ من النفس والجسد. كان بحاجة إلى شفاء النفس قبلما أمكنه تقدير قيمة صحة الجسد. وقبلما أمكن شفاء مرض الجسد كان ينبغي أن يمنح المسيح للعقل راحة ويطهّر النفس من الخطية. فينبغي ألاّ نغفل هذا الدرس. يوجد آلاف من الناس اليوم يتألمون من المرض الجسدي، وهم كالمفلوج يتوقون لسماع هذه الرسالة: «مَغْفُورَةٌ لَكَ خَطَايَاكَ». إنّ حمل الخطية بما يتبعه من عدم الراحة والرغائب غير القانعة هو أساس أمراضهم. إنّهم لا يستطيعون أن يجدوا راحة أو إسعافا حتى يأتوا إلى شافي النفوس. والسلام الذي لا يمكن أن يمنحه أحد سواه يعيد للعقل نشاطه وقوّته، وللجسم صحّته.

كان تأثير مُعجزة شفاء المفلوج على الشعب عظيماً حتى لكأنّ السماء قد انفتحت وكشفت عن أمجَاد العالم الأفضل. وإذ مرّ الرجل الذي شُفَيّ في وسط ذلك الجمع مسبحا الله عند كلّ خطوة وحاملاً سريره الذي كان، بنظره، في مثل وزن الريشة، تراجع الناس إلى الوراء ليفسحوا له الطريق، وبوجوه ارتسمت عليها الدهشة والذهول نظروا إليه وهم يتهامسون بسكون قائلين: «إِنَّنَا قَدْ رَأَيْنَا الْيَوْمَ عَجَائِبَ!» (لوقا ٥: ٢٦) .

وفي بيت المفلوج كان ابتهاجٌ عظيمٌ عندما عاد إلى عائلته حاملا فراشه بكلّ سهولة، ذلك الفراش الذي منذ قليل حُمِل هو عليه من بينهم بتمهّل. وقد تجمّعوا حوله وعيونهم تملأها دموع الفرح وهم لا يكادون يجرؤون على تصديق عيونهم. ووقف هو أمامهم في ملء قوة رجولته. وتانك الذراعان اللتان كانتا تريان بلا حياة أصبحتا الآن سريعتين في

إطاعة إرادته. ولحمه، الذي كان منكمشاً وقاتم اللون صار الآن نضراً متورّداً. وكان يمشي بخطوات ثابتة وطليقة. وعلى كلّ قسمات وجهه ارتسمت آيات الفرح والرجاء، وحلّت سيماء الطهارة والسلام في مكان آثار الخطيّة والألم. وقد صعدت من جوانب ذلك البيت أصوات الحمد والفرح، وتمجّد الله في ابنه الذي قد أعاد الرجاء إلى اليائس والقوّة إلى المضروب بالمرض. وقد كان هذا الرجل وعائلته مستعدين أن يبذلوا حياتهم لأجل المسيح. ولم يعكّر صفاء إيمانهم أيّ شكّ، كلاّ ولا أفسد عدم الإيمان ولاءهم لذاك الذي أدخل النور إلى بيتهم المظلم.

« بَارِكِي يَا نَفْسِي الرَّبَّ وَكُلُّ مَا فِي بَاطِنِي لِيُبَارِكِ اسْمَهُ الْقُدُّوسَ. بَارِكِي يَا نَفْسِي الرَّبَّ وَلاَ تَنْسَيْ كُلَّ حَسَنَاتِهِ. الَّذِي يَغْفِرُ جَمِيعَ ذُنُوبِكِ. الَّذِي يَشْفِي كُلَّ أَمْرَاضِكِ الذي يفدي من الحفرة حياتك .. فيتجدد مثل النسر شبابك. الرب مجري العدل والقضاء لجميع المظلومين .. لم يصنع معنا حسب خطايانا ولم يجازنا حسب آثامنا .. كما يترأف الأب على البنين يترأف الرب على خائفيه. لأنّه يعرف جبلتنا يذكر أنّنا تراب نحن» (مزمور ١٠٣: ١-١٤).

« أَتُرِيدُ أَنْ تَبْرَأَ ؟ »

« وَفِي أُورُشَلِيمَ عِنْدَ بَابِ الضَّأْنِ بِرْكَةٌ يُقَالُ لَهَا بِالْعِبْرَيَّةِ «بَيْتُ حِسْدَا» لَهَا خَمْسَةُ أَرْوِقَةٍ . فِي هذِهِ كَانَ مُضْطَجِعًا جُمْهُورٌ كَثِيرٌ مِنْ مَرْضَى وَعُمْيٍ وَعُرْجٍ وَعُسْمٍ ، يَتَوَقَّعُونَ تَحْرِيكَ الْمَاءِ » (يوحنا ٥: ٢ و٣).

في فترات خاصّة كانت مياه هذه البركة تتحرّك، وكان الجميع يعتقدون أنّ ذلك نتيجة قوّة إلهيّة فائقة، وأنّ من ينزل أوّلاً إلى البركة بعد تحريك الماء كان يبرأ من أي مرض اعتراه. وقد زار ذلك المكان مئات من المرضى، ولكن عند تحريك الماء كان الجمع المنتظر قوماً كثيرين جداً بحيث كانوا يندفعون إلى الأمام ويدوسون تحت أقدامهم من هم أضعف منهم من الرجال والنساء والأولاد. وكثيرون لم يستطيعوا

الاقتراب من البركة. وكثيرون ممن قد أفلحوا في الوصول إليها ماتوا على حافتها. وقد أقيمت أروقة حول ذلك المكان ليحتمي فيها المرضى من الحرّ في النهار ومن الصقيع في الليل. ووجد بعض من قضوا الليل في هذه الأروقة وهم يزحفون إلى حافة البركة يوماً بعد يوم مُتعلقين بذلك الأمل العقيم في الشفاء.

وكان يسوع في أورشليم. وإذ كان يتمشى وحده ويبدو عليه أنّه مستغرق في التأمّل والصلاة أتي إلى البركة. ورأي المرضى التعساء يراقبون ما كانوا يظنّون أنّه فرصتهم الوحيدة للشفاء. كان يتوق لاستخدام قوته الشافية في شفاء كلّ مريض، ولكنّ ذلك اليوم كان يوم سبت، وكانت جماهير كثيرة ذاهبة إلى الهيكل للعبادة، وعرف هو أن عمل شفاء كهذا حينئذ قد يثير تعصّب اليهود، وبذلك يقصّرون أمد عمله.

لكنّ المخلّص رأى حالة من أتعس الحالات. تلك كانت حالة إنسان كان أعرج وكسيحاً مدّة ثمان وثلاثين سنة. وكان مرضه يُعزى لحدّ كبير، إلى عاداته الشرّيرة، وكان يُنظر إليه على أنّه دينونة من الله، فإذ كان الرجل وحيداً بلا صديق وهو يحسّ بأنّه محروم من رحمة الله قضى ذلك المريض سنين طويلة في الشقاء. ففي الوقت الذي كان ينتظر أنّ الماء سيتحرّك فيه كان الذين أشفقوا على عجزه يحملونه إلى الأروقة، ولكن في اللحظة المواتية لم يجد أحداً يساعده في النزول إلى الماء. لقد رأى تَمّوُّج الماء، ولكنّه لم يستطع الوصول إلى أبعد من حافة البركة. إنّ آخرين ممن كانوا أقوّى منه كانوا يغطسون في الماء قبله، فلم يتمكّن المريض المسكين العاجز من أن يناضل نضالاً ناجحاً ضد تلك الجموع الزاحفة من الناس الأنانيّين. وكلّ محاولاته العنيدة للوصول إلى ذلك الهدف الواحد وجزعه وخيبته المستمرّة كانت تنهك، البقيّةَ الباقية من قوّته.

كان الرجل المريض مضطجعاً على فراشه، وبين حين وآخر كان يرفع رأسه لكي ينظر إلى البركة، وإذا بوجه لطيف عطوف رحيم ينحني عليه ويسأله: «أَتُرِيدُ أَنْ تَبْرَأَ؟» هذا السؤال استرعى انتباهه. لقد دخل الرجاء إلى قلبه. وأحسّ بأنّه سيحصل على المعونة

بطريقة ما.التشجيع سرعان ما اختفى. فقد ذكر كم من مرّة حاول الوصول إلى البركة، والآن لم يعد لديه كبيرُ أملٍ في أنّه سيعيش حتى يتحرّك الماء مرّة أخرى. فحوّل وجهه بعيداً وهو يقول في إعياء: «يا سيد لَيْسَ لِي إِنْسَانٌ يُلْقِينِي فِي الْبِرْكَةِ مَتَى تَحَرَّكَ الْمَاءُ. بَلْ بَيْنَمَا أَنَا آتٍ يَنْزِلُ قُدَّامِي آخَرُ» (يوحنا ٥: ٧).

فيأمره يسوع قائلا: «قُمِ احْمِلْ سَرِيرَكَ وَامْشِ» (يوحنا ٥:٨). فيشخص الرجل في يسوع برجاء جديد. إنّ التعبير الذي على وجهّه ونبرات صوته لا شبيه لها. إنّ نفس حضوره يبدو أنّه ينشر المحبة والقوة. وها هو إيمان ذلك الكسيح يتمسّك بكلمة المسيح. وبدون سؤال يجعل إرادته تطيع، وإذ يفعل هذا يستجيب كلّ جسمه.

إنّ كلّ أعصابه وعضلاته تهتز بحياة جديدة، وتكتسب أعضاء جسمه الكسيح نشاطاً صحياً. فإذ يثب على قدميه يسير في طريقه بخطوات ثابتة طليقة شاكراً الله وفرحاً بقوته التي رجعت إليه من جديد.

لم يعط المسيح المفلوج أي وعد بالمعونة الإلهية. كان بإمكان الرجل أن يقول له: «يا سيد وإذا كنت تشفيني فسأطيع كلمتك». وكان يمكنه أن يتوقّف ليشكّ، وهكذا كان يضيّع رجاءه الوحيد في الشفاء. ولكن لا، فلقد آمن بكلمة المسيح بأنّه قد شُفي، وفي الحال قام بتلك المحاولة فمنحه الله القوّة، وإذ أراد أن يمشي مشى. إنّه إذ عمل بكلمة المسيح شُفي.

إنّنا بسبب الخطيّة قد انفصلنا عن حياة الله. وقد أُصيبت أرواحنا بالشلل. ومن ذواتنا نحن عاجزون عن أن نحيا حياة القداسة كما كان ذلك الرجل عاجزاً عن المشي. إنّ كثيرين متحقّقون من عجزهم، إنّهم يتوقون إلى تلك الحياة الروحية التي تجعلهم في حالة توافق مع الله ويحاولون الحصول عليها. ولكن عبثاً. وفي يأسهم يصرخون قائلين: «وَيْحِي أَنَا الإِنْسَانُ الشَّقِيُّ! مَنْ يُنْقِذُنِي مِنْ جَسَدِ هذَا الْمَوْتِ؟» (رومية ٧:٢٤). لينظر هؤلاء اليائسون المكافحون إلى فوق. إنّ المخلّص ينحني فوق مقتنى دمه قائلاً لكلّ

منهم برقّة وحنان لا يُعبّر عنهما: «أَتُرِيدُ أَنْ تَبْرَأَ؟» إنّه يأمرك أن تقوم بصحّة وسلام. فلا تنتظر حتى تشعر بأنّك قد شُفيت. آمن بكلمة المخلص. وسلّم إرادتك للمسيح واعزم أن تخدمه، وإذ تطيع كلمته تحصل على القوّة. وأيّاً يكن العمل الشرّير والشهوة المستبدّة التي بسبب الانغماس الطويل فيها تكبِّل النفس والجسد، فإنّ المسيح قادر ومشتاق أن يخلّص. وهو يهب الحياة للنفس التي هي ميّتة «بالذنوب» (أفسس٢:١)، ويحرر الأسير الممسك بالشرّ وسوء الحظ وسلاسل الخطية.

إنّ الإحساس بالخطيّة قد سمم منابع الحياة. ولكنّ المسيح يقول: «إني سآخذ عنك خطاياك وأمنحك السلام. لقد اشتريتك بدمي فأنت لي. ونعمتي ستقوّي إرادتك الضعيفة وسأزيل عذابك الناتج عن ندامتك على الخطية». وعندما تهاجمك التجارب ويكتنفك الهمّ والارتباك، وعندما تكون مهموماً وخائفاً وموشكاً على الاستسلام لليأس انظر إلى يسوع فتنقشع الظلمة التي تكتنفك أمام النور الذي يشعّ من حضرته. وعندما تكافح الخطية لتسيطر على نفسك وتثقّل ضميرك انظر إلى المخلّص. إنّ نعمته كافية لإخضاع الخطية. اجعل قلبك الشكور المرتعب أمام عدم اليقين يلتفت إليه. تمسّك بالرجاء الموضوع أمامك. إنّ المسيح ينتظر ليتبّناك في أسرته. وقوّته ستعين ضعفك، وسيقودك خطوة فخطوة. ضع يدك في يده ودعه يقودك.

لا تحسّ مطلقاً أنّ المسيح بعيد عنك، فهو أبداً قريب. إنّ حضورَه المحبَّ يحيط بك. أطلبه كمن يتوق إلى أن يوجد منك. إنّه لا يرغب فقط في أن تلمس ثيابه بل أن تسير معه في شركة دائمة.

«اذْهَبِي وَلاَ تُخْطِئِي أَيْضاً»

كان عيد المظال قد انتهى منذ قليل، وكان الكهنة والمعلمون في أورشليم قد أحبطت مؤامراتهم ضد يسوع. وعندما أقبل المساء «مَضَى كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى بَيْتِهِ. أَمَّا يَسُوعُ فَمَضَى إِلَى جَبَلِ الزَّيْتُونِ» (يوحنا ٧: ٥٣؛ ٨: ١).

لقد ترك يسوع المدينة باهتياجها وشغبها والجموع المشتاقة والمعلّمين الغادرين وانطلق إلى بساتين الزيتون حيث أمكنه الانفراد مع الله. ولكنّه عاد إلى الهيكل في الصباح الباكر، وإذ اجتمع الشعب حوله جلس يعلمهم.

ولكن سرعان ما قوطع، فإنّ جماعة من الفريسيين والكتبة دنوا منه وهم يسحبون امرأة يكاد يقتلها الرعب اتّهموها، بأصوات قاسية متحمسة، بأنّها قد كسرت الوصية السابعة. فإذ دفعوها أمام يسوع قالوا وهم يتصنّعون الاحترام الريائي: «يَا مُعَلِّمُ هذِهِ الْمَرْأَةَ أُمْسِكَتْ وهي تزني في ذات الفعل. وَمُوسَى فِي النَّامُوسِ أَوْصَانَا أَنَّ مِثْلَ هذِهِ تُرْجَمُ. فَمَاذَا تَقُولُ أَنْتَ» (يوحنا ٨:٥). إنّ احترامهم الكاذب كان يخفي وراءه مؤامرة دفينة لإهلاكه، فلو أطلق يسوع المرأة لاتُّهم باستخفافه بناموس موسى، ولو أعلن أنّها تستحقّ الموت لاشتكوا عليه للرومان بأنّه يدّعي لنفسه سلطة هي من حقّ الرومان وحدهم.

نظر يسوع إلى ذلك المشهد – إلى الضحيّة المرتعبة وهي مجلّلة بعارها، وإلى أولئك الأحبار الصارمي الوجوه المجرّدين حتى من العطف الإنساني، وقد انقبضت روحه الطاهرة النقيّة من ذلك المنظر. وإذ لم يُبد أيّة علامة تدلّ على أنّه قد سمع سؤالهم، انحنى وثبّت عينه على الأرض وابتدأ يكتب في التراب.

فإذ نفذ صبرهم أمام تأخيره وعدم اكتراثه الظاهر اقترب منه أولئك المشتكون ملحّين في طلب اهتمامه، ولكن إذ وقعت أبصارهم على الأرض عند قدميه حيث كان هو ينظر سكتت أصواتهم، فقد رأوا أمام عيونهم خفايا حياتهم الشرّيرة مسطورة على الأرض.

وإذ قام يسوع وثبّت عينيه على أولئك الشيوخ المتآمرين قال لهم: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ بِلاَ خَطِيَّةٍ فَلْيَرْمِهَا أَوَّلاً بِحَجَرٍ» (يوحنا ٨:٧). ثم انحنى مرّة أخرى واستأنف الكتابة.

إنّه لم يطرح ناموس موسى جانباً ولا تعدّى سلطة روما. فانهزم المشتكون. والآن إذ تمزّقت ثياب قدّاستهم الكاذبة عنهم وقفوا مُذنبين ومحكوماً عليهم أمام الطهارة الكاملة.

وإذ ارتعبوا خشية أن يفتضح شر حياتهم الخفي أمام الشعب فبرؤوس منحنية وبعيون ذليلة انسحبوا، تاركين ضحيتهم مع المخلص الرحيم.

انتصب المسيح، وإذ نظر إلى المرأة قال لها: «أين هم أولئك المشتكون عليك. أما دانك أحد فقالت لا أحد يا سيد فقال لها يسوع ولا أنا أدينك. اذهبي ولا تخطئي أيضا» (يوحنا ٨: ١٠ و١١).

كانت المرأة قد وقفت أمام يسوع مطأطأة الرأس ومرتعدة خوفا. إن قوله: «من كان منكم بلا خطية فليرمها أولا بحجر» كان في نظرها بمثابة حكم الموت ولم تجرؤ على أن ترفع عينيها إلى وجه المخلص، ولكنها بكل سكون انتظرت الحكم عليها. ولشدة دهشتها رأت المشتكين عليها يرحلون صامتين مرتبكين. وحينئذ وقعت على مسمعها كلمات الرجاء: «ولا أنا أدينك. اذهبي ولا تخطئي أيضا» فذاب قلبها. وإذ طرحت نفسها عند قدمي يسوع سكبت محبتها وشكرها في دموعها التي سكبتها. وبدموع الحزن والانسحاق اعترفت بخطاياها.

كان هذا بالنسبة لها بدء حياة جديدة، حياة الطهارة والسلام المكرسة لله. إن يسوع إذ رفع هذه النفس الساقطة أجرى معجزة أعظم من شفاء أعظم مرض جسدي مستعص. لقد شفي المرض الروحي الذي نهايته الموت الأبدي. وصارت هذه المرأة التائبة واحدة من أخلص تابعيه. فبمحبة مضحية وتكريس برهنت على شكرها له على رحمته الغافرة. لم يقدم العالم لهذه المرأة الخاطئة سوى الاحتقار والازدراء، ولكن السيد البار الذي بلا خطية رثى لضعفها ومد لها يد العون. ففي حين أن الفريسيين المرائين نبذوها قال لها يسوع: «اذهبي ولا تخطئي أيضا».

إن يسوع لا يريد أن من قد دفع في فدائهم هذا الثمن الغالي يصيرون ألعوبة لتجارب العدو. وهو لا يريدنا أن ننهزم ونهلك. إن ذاك الذي سد أفواه الأسود في الجب والذي سار مع الشهود الأمناء في وسط أتون النار ما تزال له نفس الرغبة في أن يعمل

لأجلنا لنقهر كلّ شرّ في طبيعتنا. واليوم هو يقف أمام مذبح الرحمة مقدّما لله صلوات من يستنجدون به. إنّه لا يطرد أي إنسان نائح منسحق القلب أبداً، بل يقدّم عفواً مجانياً لكلّ من يقبلون إليه في طلب الغفران والتجديد. إنّه لا يخبر أيّاً كان كلّ ما يريد أن يعلنه، ولكنّه يأمر كلّ نفس خائفة مرتعدة أن تتشجع. فكلّ من أراد، يمكنه أن يتمسّك بقوّة الله، ويتصالح معه. فيصنع الله صلحاً معه.

إنّ النفوس التي تتجه إلى يسوع لتلجأ إليه يرفعها فوق اتهامات الألسن ومخاصماتها. ولا يمكن لأي إنسانٍ أو أي من الملائكة الأشرار أن يتهم هذه النفوس بالخيانة. إنّ المسيح يوحّدهم في طبيعته الإلهية البشرية. إنّهم يقفون إلى جوار حامل الخطايا العظيم في النور الذي يشعّ عليهم من عرش الله.

إنّ دمَ يسوع المسيح يطهّر «مِنْ كُلِّ خَطِيَّةٍ» (١يوحنا ١:٧).

«مَنْ سَيَشْتَكِي عَلَى مُخْتَارِي اللهِ ؟ اَللهُ هُوَ الَّذِي يُبَرِّرُ . مَنْ هُوَ الَّذِي يَدِينُ ؟ اَلْمَسِيحُ هُوَ الَّذِي مَاتَ ، بَلْ بِالْحَرِيِّ قَامَ أَيْضًا ، الَّذِي هُوَ أَيْضًا عَنْ يَمِينِ اللهِ ، الَّذِي أَيْضًا يَشْفَعُ فِينَا» (رومية ٨: ٣٣،٣٤) .

غنيمة العاتي تفلت

لقد برهن المسيح على أنّ له السيادة التامّة على الرياح والأمواج والناس الذين فيهم شياطين. فذاك الذي سكّن العاصفة وهدأ البحر المضطرب تكلّم بالسلام للعقول الحائرة التي غلبها الشيطان على أمرها.

كان يسوع يتكلّم في مجمع كفرناحوم عن أنّه قد أُرسل ليحرّر عبيد الخطية. ولكنّه قوطع بصيحةِ رعبٍ. ذلك أنّ رجلاً مجنوناً اندفع من بين الشعب إلى الأمام وصرخ قائلا: «آهِ مَا لَنَا وَلَكَ يَا يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ. أَتَيْتَ لِتُهْلِكَنَا أَنَا أَعْرِفُكَ مَنْ أَنْتَ قُدُّوسُ اللهِ» (لوقا ٤:٣٤).

انتهر يسوع الشيطان قائلا: «اخْرَسْ وَاخْرُجْ مِنْهُ. فَصَرَعَهُ الرُّوحُ النَّجِسُ وَصَاحَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ وَخَرَجَ مِنْهُ ولم يضرّه شيئاً» (لوقا ٤:٣٥).

إنّ السبب في مرض هذا الرجل وبلواه كان أيضا بسبب حياته هو. لقد استهوته مسرّات الخطيّة وفكرّ في أن يجعل الحياة عيدا للأكل والطرب وكرنفالاً عظيماً. إنّ عدم اعتداله، وطيشه قد أفسدا وشوّها السجايا النبيلة في طبيعته، فسيطر الشيطان عليه سيطرةً تامةً. وقد استولى عليه الندم بعد فوات الفرصة. فعندما كان يمكنه أن يضحي بالغنى والمسرّات ليستردّ رجولته الضائعة صار ضحيّةً عاجزةً في قبضة الشرّ.

وإذ كان في حضرة المخلّص أُوقِظ ليتوق إلى الحرّية، ولكنّ الشيطان قاوم قوّة المسيح. فعندما حاول الرجل أن يلجأ إلى يسوع في طلب العون وضع الروح الشرّير في فمه كلاماً، فصرخ من عذاب الخوف لقد أدرك المجنون جزئياً أنّه في حضرة من يستطيع أن يطلقه حرّاً، ولكن عندما حاول أن يصير في متناول تلك اليد القويّة سيطرت عليه إرادةُ شخصٍ آخر ونطق بكلام شخص آخر.

وكان الصراع بين رغبته وقوّة الشيطان صراعاً رهيباً. وقد بدا وكأنّ ذلك الإنسان المعذّب ينبغي أن يفقد حياته في ذلك الصراع مع العدوّ الذي دمَّر رجولته، ولكنّ المخلّص تكلّم بسلطان وحرّر الأسير، فوقف الرجل الذي كان فيه الشيطان أمام الناس المندهشين حرّاً رابط الجأش.

وبصوت الفرح شكر الله على خلاصه. فالعين التي كانت منذ قليل تتقد بنار الجنون صارت تشعّ منها أنوار الذكاء وتفيض بدموع الشكر. وقد أبكمت الدهشةُ الشعبَ. وحالما استردّوا أنفاسهم واستطاعوا الكلام جعلوا يقولون بعضهم لبعض: «مَا هُوَ هذَا التَّعْلِيمُ الْجَدِيدُ لأَنَّهُ بِسُلْطَانٍ يَأْمُرُ حَتَّى الأَرْوَاحَ النَّجِسَةَ فَتُطِيعُهُ» (مرقس ١:٢٧).

توجد جماهير كثيرة اليوم ممن هم تحت سيطرة الأرواح الشريرة تماماً كما كان مجنون كفرناحوم. فكلّ من يختارون ترك وصايا الله يضعون أنفسهم تحت سيطرة

الشيطان. كثيراً ما يتحرّش الإنسان بالشرّ ظنّاً منه أنّه يستطيع التخلّص منه متى أراد، ولكنّه يُغوَى وينجرف قليلاً قليلاً حتى يجد نفسه تحت سيطرةِ إرادةٍ أقوى من إرادته. وهو لا يقوى على التخلّص من قوّتها الخفيّة. فقد تتحكّم فيه الخطيّة السرّية أو الشهوة المتجبّرة وتأسره فيمشي عاجزاً كمجنون كفرناحوم.

مع ذلك فإنّ حالته غير ميئوس منها. إنّ الله لا يسيطر على عقولنا رغم إرادتنا. ولكن لكلّ إنسان الحرية في اختيار السلطان الذي يريد أن يخضع له. إنّه لم ينحدر أحد إلى دركة سحيقة وليس أحد فاسداً جدّاً إلاّ ويمكنه أن يجد الخلاص في المسيح. إنّ المجنون وهو في بيت الصلاة أمكنه أن ينطق بكلام الشيطان وحده، ومع ذلك فإنّ صراخ قلبه الذي لم ينطق به قد سُمع. إنّ كلّ صرخة تصدر من النفس المحتاجة وإن لم يُعبّر عنها بالكلام لابدّ أن تُسمَع. والذين يرضون بالدخول في عهد مع الله لا يُتركون لسلطان الشيطان أو لضعف طبيعتهم.

«هَلْ تُسْلَبُ مِنَ الْجَبَّارِ غَنِيمَةٌ وَهَلْ يُفْلِتُ سَبْيُ الْمَنْصُورِ .. هكَذَا قَالَ الرَّبُّ حَتَّى سَبْيُ الْجَبَّارِ يُسْلَبُ وَغَنِيمَةُ الْعَاتِي تُفْلِتُ وَأَنَا أُخَاصِمُ مُخَاصِمَكِ وَأُخَلِّصُ أَوْلاَدَكِ» (إشعياء ٤٩: ٢٤،٢٥).

وذاك الذي بالإيمان سيفتح باب القلب للمخلّص سيكون التغيير الذي يحدث فيه مدهشاً وعجيباً.

«هَا أَنَا أُعْطِيكُمْ سُلْطَانًا»

إنّ السبعين تلميذا الذين أرسلهم المسيح فيما بعد حصلوا، شأنَ الرسل الاثني عشر، على هبات فائقة كختم لرسالتهم. فلما أكملوا عملهم رجعوا بفرح قائلين: «يَارَبُّ حَتَّى الشَّيَاطِينُ تَخْضَعُ لَنَا بِاسْمِكَ» فأجابهم يسوع قائلا: «رَأَيْتُ الشَّيْطَانَ سَاقِطًا مِثْلَ الْبَرْقِ مِنَ السَّمَاءِ» (لوقا ١٠: ١٧ و١٨).

على أتباع المسيح أن ينظروا إلى الشيطان على أنّه عدوّ منهزم من الآن فصاعداً. كان يسوع وهو على الصليب مزمعاً أن يحرز الانتصار لأجلهم، وكان يريدهم أن يقبلوا هذا الانتصار على أنّه ملك لهم. فقد قال: «هَا أَنَا أُعْطِيكُمْ سُلْطَانًا لِتَدُوسُوا الْحَيَّاتِ وَالْعَقَارِبَ وَكُلَّ قُوَّةِ الْعَدُوِّ وَلاَ يَضُرُّكُمْ شَيْءٌ» (لوقا ١٠: ١٩) .

إنّ قوّة الروح القدّس القادر على كل شيء هي الحصن لكلّ ذي نفس منسحقة. وكلّ من يطلب منه الحماية بتوبة وإيمان فلن يسمح المسيح بأن يقع تحت سلطان العدوّ. نعم إنّ الشيطان هو مخلوق قويّ جبار، ولكن شكراً لله فإنّ لنا مخلّصاً قديراً قد طرد الشرّير من السماء. إنّ الشيطان يُسرّ عندما نتحدث عن عظم قوّته. فلماذا لا نتحدث عن يسوع؟ ولماذا لا نعظّم ونمجّد قوّته ومحبّته.

إنّ قوس الوعد المحيطة بالعرش في الأعالي هي شهادة على أنّه: «هكَذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ» (يوحنا ٣: ١٦). إنها تشهد للكون بأسره على أنّ الله لن يترك أولاده في صراعهم ضد الشر. وهي تؤكّد لنا القوّة والحماية طالما العرش نفسه باقٍ وثابت.

٦ خلصوا ليخدموا

الوقت هو صباح أحد الأيام عند بحر الجليل. فلقد أتى يسوع وتلاميذه إلى الشاطيء إثر ليلة عاصفة قضوها على سطح الماء في عرض البحر. وها هو نور الشمس المشرق يلمس البحر واليابسة كما ببركة السلام. ولكن ما أن تطأ أقدامهم الشاطيء حتى يستقبلهم منظر أرهب من منظر البحر الصاخب المتلاطم الأمواج. فمن أحد المخابيء التي بين القبور يندفع إليهم مجنونان كأنّما يريدان أن يمزّقاهم إرباً إرباً. وكانت تتدلّى من أيدي هذين الرجلين أجزاء من سلاسل كانا قد كسراها عند هروبهما من الحبس. إنّ لحمهما ممزّق يسيل منه الدمُ وعيونهما تسطع من خلال شعرهما الطويل الأشعث. وكأنّ صورة الإنسان قد امَّحت منهما تماماً فأصبحا أكثر شبهاً بالوحوش البرية منهما بالبشر.

فيهرب التلاميذ ورفاقهم رعباً، ولكنّهم في الحال يجدون أنّ يسوع لم يهرب معهم فيعودون للبحث عنه، وإذا هو واقف حيث تركوه. فذاك الذي هدّأ العاصفة، والذي قبل ذلك التقى بالشيطان وهزمه لا يهرب أمام هذه الشياطين. فإذ يقترب الرجلان من يسوع وهما يصرّان بأسنانهما والزبد يغطي شفاههما، يرفع يدَه التي أمرت الأمواج بأن تهدأ، فلم يستطع الرجلان أن يقتربا أكثر من ذلك. إنّهما يقفان أمامه هائجَين ولكن عاجزين.

وبسلطانٍ يأمر الأرواح الشريرة بأن تخرج منهما. إنّ الرجلين التعيسين يتحققان من أنّ شخصاً قريباً منهما يستطيع تخليصهما من الشياطين التي تعذّبهما. فيخرّان عند قدمي المخلص ليتوسّلا إليه في طلب رحمته. ولكن عندما تنفرج شفاههما تتكلم الشياطين على لسانيهما قائلة: «مَا لَنَا وَلَكَ يَا يَسُوعُ ابن الله. أجئتَ إلى هنا قبل الوقت لتعذبنا»؟ (متى ٨:٢٩).

لكنّ الأرواح الشريرة تُرغَم على الإفراج عن فريستيها، فيحدث تغيير عجيب في المجنونين، فالنور ينبثق في عقليهما وتلمع عيونهما بالذكاء. ووجهاهما اللذان تشوَّها بحيث صارا على صورة الشيطان يصبحان الآن هادئين. وأيديهما الملوّثة بالدمِ تهدأ، ثم يرفع الرجلان صوتهما بالشكر لله.

وفي أثناء ذلك فالشياطين إذ خرجت من ذينك الرجلين دخلت في الخنازير وساقتها إلى الهلاك، فأسرع رعاة الخنازير ليذيعوا الخبر، فاجتمعت المدينة كلّها لملاقاة يسوع. لقد كان المجنونان رعباً للإقليم كله، أمّا الآن فإنّ هذين الرجلين لابسان وعاقلان وجالسان عند قدمي يسوع يصغيان إلى أقواله ويمجّدان اسم من قد شفاهما. ولكنّ شهود هذا المنظر العجيب لا يفرحون. فخسارة الخنازير تبدو في نظرهم أخطر من خلاص هذين الرجلين اللذين كانا في أسر الشيطان، فيتجمعون في رعب حول يسوع ويتوسّلون إليه أن ينصرف من تخومهم فيجيبهم إلى طلبهم، وينزل إلى السفينة في الحال، ووجهته الشاطيء الآخر.

ولكنّ شعور المجنونين اللذين شفيا يختلف عن ذلك اختلافاً بيِّناً، فهما يرغبان في أن يكونا في صحبة مخلصهما. فبوجودهما في محضره يحسّان بأنّهما بمأمن من الشياطين التي قد عذّبت حياتهما وأضاعت رجولتهما. فإذ يزمع يسوع أن يدخل القارب يظلاّن ملازمين له ويجثوان عند قدميه ويتوسّلان إليه أن يسمح لهما بالبقاء إلى جانبه حيث يمكنهما سماع أقواله. ولكنّ يسوع يأمرهما بالذهاب إلى بيتهما حتى يخبرا بكم صنع الرب بهما.

هنا لهما عمل يعملانه – أن يذهبا إلى بيتٍ وثنيّ ويتحدثا عن البركات التي نالاها من يسوع. إنّه يصعب عليهما مفارقة المخلّص، وستصادفهما صعوبات كثيرة وتحدق بهما المتاعب من جرّاء معاشرتهما لمواطنيهما الوثنيين. وإنّ طول أمدِ انقطاعهما عن معاشرة

الناس يجعلهما غير مؤهلين للقيام بهذا العمل. ولكن إذ يعيّن لهما المسيح واجبهما يُبديان استعدادهما للطاعة.

لم يكتفيا بإخبار أهلهما وجيرانهما عن يسوع بل طافا في كلّ أنحاء المدن العشر، وكانا في كلّ مكان يعلنان للناس عن قدرته على أن يخلّص ويصفان كيف حررهما من الشياطين.

مع كون أهل كورة الجرجسيين لم يقبلوا يسوع فإنّه لم يتركهم في الظلام الذي قد اختاروه. فعندما أمروه بالانصراف عن تخومهم لم يكونوا قد سمعوا كلامه. كانوا يجهلون طبيعة ما قد رفضوه. ولذلك أرسل إليهم النور عن طريق ذينك الرجلين اللذين لا يرفضون الإصغاء إليهما.

كان قصد الشيطان من غرق قطيع الخنازير أن يبعد الناس عن المخلّص ويمنع الكرازة بالإنجيل في ذلك الإقليم. ولكنّ نفس هذا الحادث أيقظ أهل الإقليم جميعا كما لم يكن يمكن لأي شيء آخر أن يوقظهم، وحوَّل انتباههم إلى المسيح. فمع أنّ المخلّص نفسه قد رحل فإنّ الرجلين اللذين قد شفاهما ظلاّ باقيين كشاهدين لقدرته. فذانك اللذان كانا وسيطين لسلطان الظلمة صارا قناتين للنور ورسولَين لابن الله. وعندما عاد يسوع إلى المدن العشر تجمهر الناس حوله ولمدة ثلاثة أيام سمع آلاف من كلّ الإقليم المجاور رسالةَ المخلص.

كان الرجلان المجنونان اللذان شفيا أوّلَ المرسلين الذين أرسلهم المسيح ليكرزوا بالإنجيل في إقليم المدن العشر. إنّ هذين الرجلين قد أصغيا إلى كلام السيد وقتا قصيراً جداً، ولم تسمع آذانهما عظةً واحدةً من عظاته، ولم يستطيعا أن يعلّما الناس مثلما كان يستطيع التلاميذ الذين رافقوه كلّ يوم. ولكنّهما استطاعا أن يخبرا الناس بما قد عرفاه، بما قد رأياه وسمعاه بأنفسهما وما أحسّا به من قدرة المخلّص. وهذا ما يستطيع كلّ واحد

أن يفعله ممن قد لمست نعمة الله قلوبهم. هذه هي الشهادة التي يدعـو إليها ربنا والتي يهلك العالم لسبب حاجته إليها.

إنّ الإنجيل يجب أن يُقدَّم لا كنظرية عديمة الحياة بل كقوة حية لتجديد الحياة. إنّ الله يريد أن يشهد خدامُه لهذه الحقيقة وهي أنّه بواسطة نعمته يمكـن أن يتحلّـى النـاس بصفات شبيهة بصفات المسيح ويمكنهم أن يفرحـوا بيقين محبتـه العظيمـة. إنّـه يريدنـا أن نشهد لحقيقة كونه لا يقنع حتى تعـود إلى كلّ من يقبلـون الخـلاص حقوقُهم ومركزُهم وامتيازاتُهم المقدّسة كبنيه وبناته.

وحتّى الذين كانت حياتُهم وتصرفاتُهم مغيظةً لله إلى الغاية القصوى هو يقبلهم مجاناً. وعندما يتوبون يمنحهم روحه القدوس ويرسلهم إلى محلّة العصاة الخـائنين ليذيعـوا أنبـاء رحمته. والذين انحطّوا بحيث أمسوا آلاتٍ بيد الشيطان، يتغيّرون بقوّة المسيح فيصيرون رسلَ البرّ ويُرسَلون ليخبروا الناس بكم صنع الربّ بهم ورحمهم.

بك تسبيحي دائمـاً

إنّ المرأة بعد أن شُفيت بلمسة الإيمان في كفرناحوم أرادهـا المسيح أن تعـترف بالبركة التي نالتها. فالهبات التي يمنحها الإنجيل ينبغي ألاّ يحصـل عليها النـاس خلسة أو أن يتمتعوا بها في الخفاء.

«أَنْتُمْ شُهُودِي يَقُولُ الرَّبُّ وَأَنَا اللهُ» (إشعياء ٤٣: ١٢).

إنّ اعترافَنا بأمانـة الله هـو وسيلة السماء المختـارة لإعلان المسيح للعـالم. علينـا أن نعترف بنعمته كما قد ظهرت في قديسيه منـذ القديم. ولكـن ما سيكون أفعل هـو شهادة اختبارنا. إننا نكون شهوداً لله عندما نعلن في أنفسنا فاعلية القوة الإلهيـة. لكـلّ فـرد حياة متميزة عن الآخرين جميعاً واختبار يختلـف اختلافاً جوهرياً عـن اختباراتهم. والله يريـد

أن يرتفع حمدنا إليه متميزاً بطابعنا الشخصي. هذه الاعترافات الثمينة لمدح مجد نعمته عندما تسندها حياة مسيحية، لها قوة لا تقاوم تعمل على خلاص النفوس.

إنّه لأجل فائدتنا وخيرنا كوننا نحفظ كلّ هبة من الله جديدة في ذاكرتنا. فبهذه الوسيلة يتقوى الإيمان ويتشدد ليطلب وينال ما هو أكثر فأكثر. يوجد تشجيع لنا في أقل بركة ننالها نحن أنفسنا من الله أكثر من كلّ البيانات التي يمكننا أن نقرأها عن إيمان الآخرين واختبارهم. إنّ النفس التي تستجيب لنعمة الله تشبه جنّة رياًّ. مثل ذلك الإنسان تنبت صحته سريعاً ونوره يضيء ويشرق في الظلمة، ومجد الرب عليه يُرى.

« مَاذَا أَرُدُّ لِلرَّبِّ مِنْ أَجْلِ كُلِّ حَسَنَاتِهِ لِي. كَأْسَ الْخَلاَصِ أَتَنَاوَلُ وَبِاسْمِ الرَّبِّ أَدْعُو أُوفِي نُذُورِي لِلرَّبِّ مُقَابِلَ كُلِّ شَعْبِهِ » (مزمور ١١٦: ١٢-١٤) .

«أُغَنِي لِلرَّبَّ فِي حَيَاتِي وَأُرَنِّمُ لإِلهِي مَا دُمْتُ مَوْجُودًا. فيلذ له نشيدي وأنا أفرح بالربّ» (مزمور ١٠٤:٣٣و٣٤).

«من يتكلم بجبروت الرب. من يخبر بكل تسابيحه»؟ (مزمور ١٠٦:٢).

«ادعوا باسمه. عرفوا بين الأمم بأعماله. غنوا له رنموا له. أنشدوا بكل عجائبه. افتخروا باسمه القدوس. لتفرح قلوب الذين يلتمسون الرب» مزمور ١٠٥:١و٢و٣).

«لأن رحمتك أفضل من الحياة شفتاي تسبحانك .. كما من شحم ودسم تشبع نفسي وبشفتي الابتهاج يسبحك فمي. إذا ذكرتك على فراشي في السهد ألهج بك. لأنك كنت عونا لي وبظل جناحيك أبتهج» (مزمور ٦٣:٣-٧).

«على الله توكلت فلا أخاف. ماذا يصنعه بي الإنسان. اللهم عليَّ نذورك. أوفي ذبائح شكر لك. لأنك نجيت نفسي من الموت. نعم ورجليَّ من الزلق لكي أسير قدام الله في نور الأحياء» (مزمور ٥٦:١١-١٣).

«يا قدوس إسرائيل تبتهج شفتاي إذ أرنم لك. ونفسي التي فديتها. ولساني أيضا اليوم كله يلهج ببرك».

«أنت.. متكلي منذ صباي.. بك تسبيحي دائماً» (مزمور ٧١:٢٢-٢٤و٥و٦).

«أذكر اسمك في كل دور... من أجل ذلك تحمدك الشعوب» (مزمور ٤٥:١٧).

«مَجَّانًا أَخَذْتُمْ ، مَجَّانًا أَعْطُوا»

ينبغي ألاّ تُحَد دعوة الإنجيل أو تحصر في حيّز ضيق، فتقدم للمختارين القليلين الذين نظن أنّهم سيكرموننا إذا قبلوها. بل يجب أن تُقدّم الرسالة للجميع. إنّ الله عندما يبارك أولاده فالبركة ليست لهم وحدهم ولكنّها لأجل العالم. وعندما يمنحنا هباته فذلك لكي نضاعفها بتوزيعها واقتسامها مع الآخرين.

إنّ المرأة السامرية التي تحدثت مع يسوع عند بئر يعقوب ما إن وجدت المخلّص حتى أتت بالآخرين إليه. وقد برهنت على أنّها رسول أكثر فاعلية من تلاميذه أنفسهم. إنّ التلاميذ لم يروا في السامرة شيئاً يدلّ على أنّها حقل مشجع. وكانت أفكارهم مركّزة في عمل عظيم يُعمَل في المستقبل. ولم يروا أنه يوجد حولهم حصاد يجب أن يُجمَع. ولكن عن طريق المرأة التي احتقروها جيء بكلّ المدينة لتسمع يسوع. لقد حملت النور إلى مواطنيها في الحال.

هذه المرأة تمثّل تأثير الإيمان العملي بالمسيح. فكلّ تلميذ حقيقي يولد في ملكوت الله كمُرسل. وما إن يعرف المخلّص حتى يرغب في أن يُعرّف الآخرين به. إنّه لا يستطيع أن يحبس الحقّ المخلّص والمقدّس في قلبه. فالذي يشرب من الماء الحيّ يصير فيه ينبوع حياة، وهكذا فالمتناول يصبح معطياً. إنّ نعمة المسيح في النفس تشبه نبع ماء في القفر يفيض منه الماء لإنعاش الجميع، ويجعل من هم موشكون على الهلاك راغبين في

شرب ماء الحياة. ونحن إذ نقوم بهذا العمل نحصل على بركة أعظم مما لو عملنا لأجل أنفسنا فقط. فإذ نعمل على نشر بشرى الخلاص نصير قريبين من المخلّص.

إنّ الرب يقول عمّن يقبلون نعمته:

« وَأَجْعَلُهُمْ وَمَا حَوْلَ أَكَمَتِي بَرَكَةً وَأُنْزِلُ عَلَيْهِمِ الْمَطَرَ فِي وَقْتِهِ فَتَكُونُ أَمْطَارَ بَرَكَةٍ ». (حزقيال ٣٤: ٢٦).

« وَفِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ الْعَظِيمِ مِنَ الْعِيدِ وَقَفَ يَسُوعُ وَنَادَى قَائِلاً إِنْ عَطِشَ أَحَدٌ فَلْيُقْبِلْ إِلَيَّ وَيَشْرَبْ. مَنْ آمَنَ بِي كَمَا قَالَ الْكِتَابُ تَجْرِي مِنْ بَطْنِهِ أَنْهَارُ مَاءٍ حَيٍّ » (يوحنا ٧ : ٣٧و٣٨).

فالذين يتناولون عليهم أن يوزعوا على الآخرين. إنّ صرخات طلب العون تأتي من كلّ صوب. والله يطلب رجالاً ليخدموا بني جنسهم بفرح. هنالك أكاليل لا تبلى يجب الظفر بها، وملكوت السموات يجب الحصول عليه، ويجب إنارة العالم الذي يكاد أن يهلكه الجهل.

« أَمَا تَقُولُونَ إِنَّهُ يَكُونُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ ثُمَّ يَأْتِي الْحَصَادُ. هَا أَنَا أَقُولُ لَكُمُ ارْفَعُوا أَعْيُنَكُمْ وَانْظُرُوا الْحُقُولَ إِنَّهَا قَدِ ابْيَضَّتْ لِلْحَصَادِ. وَالْحَاصِدُ يَأْخُذُ أُجْرَةً وَيَجْمَعُ ثَمَرًا لِلْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ » (يوحنا ٤: ٣٥و٣٦).

لمدة ثلاث سنين كان التلاميذ يرون مثال يسوع العجيب ماثلاً أمامهم. وكانوا يسيرون معه ويحادثونه يوماً بعد يوم، وهم يستمعون لأقواله التي تمنح الفرح للمتعبين والثقيلي الأحمال ويرون مظاهر قدرته نحو المرضى والمُعذَّبين. وعندما حان الوقت الذي فيه يتركهم منحهم نعمة وقوة ليسيروا بعمله قدماً باسمه. كان عليهم أن ينشروا نور إنجيله، إنجيل المحبة والشفاء، وقد وعدهم المخلّص أنه سيكون حاضراً معهم دائماً، وبواسطة الروح القدس سيكون أقرب إليهم مما كان وهو يسير بين الناس بهيئة منظورة.

ونحن علينا أن نعمل العمل الذي عمله التلاميذ. فيجب على كلّ مسيحيّ أن يكون مرسلاً. علينا أن نخدم من هم بحاجة إلى العون بالعطف والحنان والرفق، محاولين التخفيف من آلام الإنسانيّة المعذّبة وويلاتها بغيرة وعدم أنانيّة.

بإمكان الجميع أن يجدوا عملاً يعملونه. ولا حاجة بأحدٍ أن يحسّ أنّه لا مكان له حيث يمكنه أن يعمل لأجل المسيح. إنّ المخلّص يوحّد نفسه مع كلّ فرد من بني الإنسان. إنّه ابن الإنسان، وبهذا هو أخ لكلّ ابن وابنة من نسل آدم. وعلى أتباعه ألاّ يحسّوا بأنّهم منفصلون عن العالم الهالك الذي حولهم. إنّهم جزء من نسيج الإنسانية العظيم، والسماء تنظر إليهم كإخوة للخطاة كما للقديسين.

يوجد ملايين فوق ملايين من بني الإنسان العائشين في المرض والجهل لم يسبق لهم قطّ أن سمعوا عن محبة المسيح لهم. فلو أخذنا مكانَهم وأخذوا هم مكانَنا ما الذي كنّا نريدهم أن يفعلوه معنا؟ كل هذا علينا أن نفعله لأجلهم طالما هو في مقدورنا. إنّ قانون المسيح للحياة الذي به إمّا أن يثبت الإنسان أو يسقط في يوم الدين هو هذا: «كُلُّ مَا تُرِيدُونَ أَنْ يَفْعَلَ النَّاسُ بِكُمُ افْعَلُوا هكَذَا أَنْتُمْ أَيْضًا بِهِمْ» (متى ٧: ١٢).

إنّنا مدينون بكل ما جُعِل لنا حظوة وامتيازاً أكثر من غيرنا – سواء أكان ذلك تهذيباً أو ثقافة أو نبلَ أخلاقٍ أو تربيةً مسيحيةً أو اختباراً دينياً – نحن مدينون بكلّ ذلك لمن هم أقل حظوةً منا. وعلينا أن نخدمهم بقدر استطاعتنا. فإن كنّا أقوياء علينا أن نسند ونعضد أيدي الضعفاء.

إنّ ملائكة المجد الذين يرون دائماً وجه الآب الذي في السموات يفرحون بأن يخدموا أولاده الأصاغر. وإنّ الملائكة يوجدون دائما حيث تكون الحاجة إليهم على أشدها، مع الذين يخوضون أعنف المعارك ضد الذات، والذين بيئتهم تثبّط عزائمهم إلى الحد الأقصى. وذوو النفوس الضعيفة المرتعدة الذين يتصفون بصفات كثيرة معيبة وكريهة هم عهدتهم الخاصة. وما يعتبره الأنانيون خدمة مذلّة، أي خدمة من هم تعساء وفي كلّ

شيء هم أدنى خلقاً، إنّما هو خدمة الخلائق الطاهرة الخالية من الخطية، القادمة من السموات العليا.

إنّ يسوع لم يعتبر السماء مكاناً محبوباً أو مرغوباً فيه بينما كنّا نحن هالكين. لقد ترك المواطن السماوية ليحيا حياة العار والهوان ويموت موتاً مشيناً. فذاك الذي كان غنيّاً بكنوز السماء التي لا تقدّر بثمن افتقر لكي نستغني نحن بفقره. وعلينا نحن أن نسير في الطريق الذي سار فيه.

ينبغي لمن يصير ابناً لله أنه منذ ذلك الحين ينظر إلى نفسه كحلقة في السلسلة المدلاة لتخليص العالم، ومتحداً بالمسيح في تدبير رحمته إذ يخرج معه ليطلب ويخلص الهالكين.

كثيرون يحسّون أنّه امتياز عظيم أن يزور الإنسان مشاهد حياة المسيح على الأرض ويسير في الأماكن التي وطئتها قدماه، وينظر إلى البحيرة التي أحب أن يعلّم بجوارها والتلال والوديان التي طالما وقعت عليها عيناه. ولكننا في غير حاجة للذهاب إلى الناصرة أو كفرناحوم أو بيت عنيا حتى نقتفي آثار خطوات يسوع. إننا نجد آثار قدميه إلى جوار أسرّة المرضى، وفي مواطن الفقر، وفي الأزقة المزدحمة في المدن الكبيرة، وفي كل مكان توجد فيه قلوب بشرية بحاجة إلى العزاء.

علينا أن نشبع الجياع ونكسو العراة المتألمين والمحزونين. علينا أن نخدم البائسين ونلهم بالرجاء قلوب القانطين العديمي الرجاء.

إنّ محبة المسيح الظاهرة في الخدمة الخالية من الأثرة ستكون أفعلَ في إصلاح فاعلِ الشرّ مما يمكن أن يفعله السيف أو محكمة القضاء. إن حدّ السيف وحكم القضاء لازمان لإلقاء الرعب في قلب من يتعدّى القانون، ولكنّ المرسلَ المحبَّ في إمكانه أن يفعل أكثرَ من هذا. كثيراً ما يحدث أنّ القلب الذي يقسّيه التوبيخ تذيبه محبة المسيح.

إنّ المرسل، فضلاً عن كونه قادراً على تخفيف آلام الجسم، يستطيع أن يقود الخاطيء إلى الطبيب العظيم الذي يستطيع أن يطهّرَ النفس من برص الخطية. إنّ الله يقصد عن طريق خدامه أن يسمع المرضى والتعساء ومن بهم أرواح شريرة، صوته. وعن طريق الوسائط البشرية يريد أن يكون معّزياً لا يعرف العالم له مثيلاً.

لقد بذل المخلّص حياتَه الغاليةَ لكي يقيم كنيسةً قادرةً على خدمة المتألمين والحزانى والمجرَّبين. وقد يكون هنالك جماعة من المؤمنين الفقراء غير متعلّمين وليس من يعرفهم، ومع ذلك ففي المسيح يمكنهم أن يعملوا عملا في البيت وفي المجتمع وحتى في «الأقاليم البعيدة» تكون نتائجه بعيدة المدى كالأبدية.

إنّ هذا الكلام الذي وُجِّه إلى التلاميذ الأوّلين يُوَجَّه إلى أتباع المسيح اليوم إذ يقول:

« دُفِعَ إِلَيَّ كُلُّ سُلْطَانٍ فِي السَّمَاءِ وَعَلَى الأَرْضِ فَاذْهَبُوا وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الأُمَمِ». «اذْهَبُوا إِلَى الْعَالَمِ أَجْمَعَ وَاكْرِزُوا بِالإِنْجِيلِ لِلْخَلِيقَةِ كُلِّهَا» (متى ٢٨: ١٨و١٩ ، مرقس ١٦: ١٥).

ثمّ إنّ لنا وعد حضوره إذ يقول: «هَا أَنَا مَعَكُمْ كُلَّ الأَيَّامِ إِلَى انْقِضَاءِ الدَّهْرِ» (متى ٢٨: ٢٠).

واليوم لا توجد جماهير محبّة للاستطلاع تتقاطر إلى البرية لترى المسيح وتسمعه. وصوتُه لا يُسمع في الشوارع المزدحمة بالناس. ولا يُسمع صوت من جانب الطريق يقول: «يسوع الناصري مجتاز» (لوقا ١٨:٣٧). ومع ذلك فإنّ هذه الكلمة تصدق اليوم. إنّ المسيح يسير في شوارعنا غيرَ منظور. إنّه يأتي إلى بيوتنا برسائل الرحمة. إنّه ينتظر ليتعاون مع من يطلبون أن يخدموا باسمه. إنّه في وسطنا ليشفي ويبارك إذا قبلناه.

« هَكَذا قَالَ الربّ فِي وَقْتِ الْقُبُولِ اسْتَجَبْتُكَ وَفِي يَوْمِ الْخَلاَصِ أَعَنْتُكَ فَأَحْفَظُكَ وَأَجْعَلُكَ عَهْدًا لِلشَّعْبِ لإِقَامَةِ الأَرْضِ لِتَمْلِيكِ أَمْلاَكِ الْبَرَارِيِّ. قَائِلاً لِلأَسْرَى اخْرُجُوا. لِلَّذِينَ فِي الظَّلاَمِ اظْهَرُوا».

« مَا أَجْمَلَ عَلَى الْجِبَالِ قَدَمَيِ الْمُبَشِّرِ الْمُخْبِرِ بِالسَّلاَمِ الْمُبَشِّرِ بِالْخَيْرِ الْمُخْبِرِ بِالْخَلاَصِ الْقَائِلِ لِصِهْيَوْنَ قَدْ مَلَكَ إِلهُكِ» (إشعياء ٨:٤٩ و٩؛ ٧:٥٢).

«أَشِيدِي تَرَنَّمِي مَعًا يَا خِرَبَ .. لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ عَزَّى شَعْبَهُ .. فَدَى أُورُشَلِيمَ .. قَدْ شَمَّرَ الرَّبُّ عَنْ ذِرَاعِ قُدْسِهِ أَمَامَ عُيُونِ كُلِّ الأُمَمِ فَتَرَى كُلُّ أَطْرَافِ الأَرْضِ خَلاَصَ إِلهِنَا» (اشعياء٥٢: ٩و١٠).

١ عامل مع اللّه

في خدمة الشفاء ينبغي للطبيب أن يكون عاملاً مع المسيح. لقد خدم المخلّص كلاّ النفسِ والجسدِ. والإنجيل الذي علّم به كان رسالة الحياة الروحيّة واسترداد الصحّة الجسمانيّة. فلقد كان الخلاص من الخطية وشفاء الأمراض مرتبطَين معاً. ونفسُ الخدمة مُسلّمةُ ليد الطبيب، فعليه أن يتّحد مع المسيح في سدّ حاجات أخوتِه البشر الروحيّة والجسديّة، أن يكون رسولَ رحمةٍ للمرضى إذ يأتيهم بالعلاج للجسد وللنفس المريضة بالخطيّة.

والمسيح هو الرئيس الحقيقي لمهنة الطبّ. وحيث أنّه الطبيب الأعظم فهو يقف إلى جانب كلّ من يخاف الله ممّن يزاولون هذه المهنة ويعملون لتخفيف آلام بني الإنسان. وفي حين يستخدم الطبيب علاجاتِ الطبيعة لأمراض الجسد عليه أن يوجّه أنظارَ مرضاه إلى ذاك الذي يستطيع أن يشفي أمراض النفس والجسد جميعاً. وما يستطيع الأطبّاء أن يساعدوا فقط في عمله يتمّمه المسيح، إنّهم يحاولون أن يساعدوا الطبيعة في عمل الشفاء أمّا المسيح فهو نفسُه الشافي. فبينما يحاول الطبيب أن يحفظ الحياة فالمسيح يمنح الحياة.

نبع الشفاء

لقد كشف المخلّص في معجزاته عن القوّة التي تعمل باستمرار لأجل الإنسان لتسندَه وتشفيه. إنّ الله يعمل عن طريق وسائل الطبيعة يوماً فيوماً وساعة فساعةً وبرهةً فبرهة لحفظِنا أحياءَ ولبنائِنا واستردادِ صحّتنا وقوانا. فمتى حصلت إصابة في أيّ جزءٍ من

أجزاء الجسم تبدأ عمليّة شافية في الحال، وتبدأ وسائل الطبيعة في العمل لاستردادِ الصحّة والسلامة. ولكنّ القوّةَ العاملةَ عن طريق هذه الوسائل هي قوّةُ الله. فكلّ القوّة المانحة الحياة هي منه. فحين يُشفى إنسانٌ من المرض فالله هو الذي يشفيه.

إنّ المرضَ والألمَ والموت هي عملُ قوّةٍ معاديـة، فالشيطان هو المُهلك أمّا الله فهو المحيي.

إنّ الكلامَ الذي قيل لشعب الله قديماً يصدقُ اليوم على من يستردّون صحّةَ الجسدِ وصحّةَ النفسِ إذ قال الله «أَنَا الرَّبُّ شَافِيكَ» (خروج ١٥: ٢٦).

إنّ ما يريده الله لكلّ كائن بشري معبّر عنه بهذه الكلمات: «أَيُّهَا الْحَبِيبُ فِي كُلِّ شَيْءٍ أَرُومُ أَنْ تَكُونَ نَاجِحًا وَصَحِيحًا كَمَا أَنَّ نَفْسَكَ نَاجِحَةٌ» (٣يوحنا ٢).

وهو أيضاً: «الَّذِي يَغْفِرُ جَمِيعَ ذُنُوبِكِ. الَّذِي يَشْفِي كُلَّ أَمْرَاضِكِ الذي يُفدي من الحفرة حياتك الذي يُكلّلك بالرحمة والرأفة» (مزمور ١٠٣: ٣و٤).

الخطيّة هي علّة المرض

إنّ المسيح عندما شفى المرضى كان يُحذّر كثيرين من المصابين قائلاً: «لاَ تُخْطِئْ أَيْضًا ، لِئَلاَّ يَكُونَ لَكَ أَشَرُّ» (يوحنا ٥: ١٤). وهكذا علّمهم أنّهم قد جلبوا المرض على أنفسهم بتعدّيهم نواميس الله، وأنّ الصحّة يمكن حفظُها بالطاعة وحدها.

وينبغي للطبيب أن يعلّم مرضاه أنّه يجب عليهم أن يتعاونوا مع الله في عمليّة الاسترداد. إنّ الطبيب لديه يقينٌ متزايدٌ بحقيقة كون المرض هو نتيجةَ الخطيّة. وهو يعرف أنّ نواميسَ الطبيعة والوصايا العشر، سواءً بسواء، هي إلهيّة، وأنّه بواسطة إطاعتها فقط يمكن أن تُستردّ الصحّةُ أو تحفظ. إنّه يرى كثيرين يتألّمون نتيجةً لأعمال ضارّة ويمكن أن تعودَ الصحّةُ إليهم إذا عملوا ما في مقدورهم لاسترداد صحّتهم وقواهم. إنّهم

بحاجة إلى أن يتعلّموا أنّ كلّ عمل يتلف القوى البدنيّة أو العقليّة أو الروحيّة هو خطيّة، وأنّ الصحّة يجب أن تُكتسب بالطاعة للقوانين التي قد سنّها الله لخير الإنسانيّة جمعاء.

عندما يرى طبيب مريضاً يتألّم من مرض جاء نتيجة لعاداتٍ سيّئةٍ في الأكل والشرب أو غير ذلك من العاداتِ الخاطئةِ ومع ذلك يهمل أن يخبرَه بحقيقةِ الأمرِ فإنّما هو يوقع الضررَ بواحدٍ من بني جنسه. فالسكّيرون والمعتوهون والذين أسلموا أنفسَهم للخلاعة – كلّ هؤلاء يستنجدون بالطبيب ليُعلنَ لهم بكلّ صراحة ووضوح أنّ الألمَ ناتج عن الخطيّة. والذين يُدركون مباديءَ الحياة عليهم أن يكونوا جادّين في محاولات منع أسبابِ المرض. فإذ يرى الطبيب الصراعَ الدائمَ مع الألم ويسعى جاهداً بلا انقطاع في تخفيفِ الألم كيف يمكنه السكوت؟ أيكون محسناً وخيّراً ورحيماً إذا لم يُعلّم المرضى وغيرهم أنّ الاعتدالَ التامَّ هو علاجٌ للمرضى؟

شريعة الله للحياة

ليكن واضحاً أنّ طريقَ وصايا الله هو طريقُ الحياة. لقد وضع الله نواميسَ الطبيعة ولكنّ نواميسَه ليست تحتيماً تعسّفياً. فكلُّ نهيٍ من نواهيه سواء أكان في القوانين الصحّيةِ أو القانون الأدبيّ يتضمّن وعداً. فإذا أطعناه فإنّ البركةَ تلازم خطواتِنا. والله لا يرغمنا أبداً على عمل الصواب. إنّما هو يحاول أن يُنقذَنا من الشرّ ويقودنا في طريق الخير.

يجب توجيهُ الانتباه إلى الوصايا والقوانين التي أُعطيت لشعب الله قديماً. فلقد أعطاهم الله تعليماً محدّداً عن عاداتهم في الحياة. وأعلمهم بالقوانين الخاصّة بالخير الجسدي والروحي، وعلى شرط إطاعتهم يؤكّد لهم قائلاً: «يَرُدُّ الرَّبُّ عَنْكَ كُلَّ مَرَضٍ» (تثنية ٧: ١٥). «وَجهوا قلوبكم إلى جميع الكلمات التي أنا أُشْهِدُ عَلَيْكُمُ بها» «لأنّها هي حياة للذين يجدونها ودواءٌ لكلّ الجسد» (تثنية٣٢: ٤٦؛ أمثال ٤:٢٢).

يريدنا الله أن نصلَ إلى مقياسِ الكمال الذي صار ميسوراً لنا بواسطة عطيّة المسيح. إنّه يدعونا لكي نجعل اختيارَنا إلى جانب الصواب، ونرتبط بالأجناد السماويين، ونديـن بالمباديءِ الكفيلةِ بأن تعيدَ إلينا صورةَ الله. وهو قد أعلـن لنا مباديءَ الحياةِ في كلمته المكتوبة وفي سفرِ الطبيعة العظيم. وعملُنا هو أن نحصلَ على معرفةِ هذه المباديء، وأن نتعاون معه، بالطاعة، في إعادة الصحّة إلى الأبدان والنفوس.

إنّ الناسَ بحاجةٍ إلى أن يتعلّموا أنّه في إمكانهم الحصول على بركات الطاعة في ملئها متى قبلوا نعمةَ المسيح ليس إلاّ. فنعمته هي التي تمنح الإنسانَ القوّةَ على إطاعة شرائع الله. وهذا ما يقدّره على كسر قيود العبوديّة للعادة الشرّيرة، هذه هي القوّة الوحيدة التي تصيّره وتحفظه ثابتاً في طريق الحقّ.

عندما يقبل الإنسان الإنجيل في طهارته وقوّته يكون الإنجيل علاجاً للأدواء التي منشأها الخطيّة. إنّ شَمْسَ الْبِرِّ تُشْرِقُ «وَالشِّفَاءُ فِي أَجْنِحَتِهَا» (ملاخي٤: ٢). ليس كلّ ما يمنحه هذا العالم يمكنه أن يُجبر قلباً كسيراً أو يمنح للعقل سلاماً أو يزيل الهمومَ أو يطرد المرض. فالشهرة والذكاء والمواهب – كلّ هذه أعجز من أن تُفرح القلب الحزين أو تعيد الصحّة التالفة. ولكنّ حياةَ الله في النفسِ هي رجاء الإنسان الوحيد.

إنّ المحبّة التي يملأ بها المسيح كلّ كيان الإنسان هي قوّة محيية ومنعشة. وهي تلمس كلَّ جزء حيويّ فيه – كالعقل والقلب والأعصاب – بلمسة الشفاء. وبواسطتها تستيقظ أسمى قوى الكيان وتصحو للعمل. وهي تحرّر النفسَ من الإثم والحزن والقلق والهمّ الذي يسحق قوى الحياة. ويأتي معها الهدوءُ ورباطةُ الجأش. وهي تغرس في النفس الفرحَ الذي لا يمكن لأيّ شيء أرضي أن يتلفَه – الفرحَ في الروح القدس، الفرح الذي يمنحُ الصحّة والحياة.

إنّ كلمات مخلّصنا القائلة « تَعَالَوْا إِلَيَّ .. وَأَنَا أُرِيحُكُمْ» (متى ١١: ٢٨). هي وصفة لأجل شفاء الأدواء البدنيّة والعقليّة والروحيّة. ومع أنّ الناس هم الذين جلبوا على

أنفسهم الآلام إذ أخطأوا فهو ينظر إليهم نظرة العطف والرثاء. ففيه يمكنهم أن يجدوا العون. وهو يصنع العظائم لمن يثقون به.

مع أنّ الخطيّة ظلّت مدى أجيالٍ طويلةٍ تشدّد قبضتَها على الجنس البشري، ومع أنّ الشيطانَ قد ألقى ظلالاً سوداء من تفسيره لكلمة الله عن طريق الأكاذيب والمخادعات، وجعل الناس يشكّون في صلاحه تعالى فإنّ رحمة الآب ومحبّته لم تكفّ عن أن تنسكب في سيول غزيرة على الأرض. فلو أنّ بني الإنسان يفتحون نوافذ النفس إلى ناحية السماء، مقدّرين الهباتِ الإلهيّة فسينسكب فيض من القوّة الشافية عليهم.

إنّ الطبيبَ الذي يرغب في أن يكون عاملاً مع المسيح ومقبولاً لديه لابدّ أن يبذلَ الجهدَ حتى يكون كفؤا في كلّ ناحية من نواحي عمله. إنّه يدرس بكلّ اجتهاد ليكون مؤهّلاً تماماً للاضطلاع بتبعات مهنته، ويسعى دائماً للوصول إلى مقياس أعلى، طالباً معرفة أغزر ومهاراتٍ أعظمَ وتمييزاً وإدراكاً أعمق. وينبغي لكلّ طبيب أن يتحقق من أن من يقوم بعملٍ ضعيفٍ ناقصٍ فإنّه، فضلاً عن كونه يُوقع الأذى بالمرضى، يُوقع أيضاً الظلمَ بزملائه الأطبّاء. والطبيب الذي يقنع بمقياس منخفض من المهارة والمعرفة لا يُحقّر مهنةَ الطبِّ وحسب، بل هو يُهين المسيح، الطبيب الأعظم.

والذين يجدون أنّهم غيرَ أهلٍ للعمل الطبّي ينبغي لهم أن يختاروا مهنةً أخرى أمّا من هم مؤهّلون لرعاية المرضى وإنّما ثقافتهم ومؤهلاتهم الطبّية محدودة فيحسن بهم ممارسة نواحي هذا العمل الأكثر تواضعاً من عمل الطبيب، خادمين بأمانة كممرضين وممرّضات. وبالخدمة الصابرة تحت إرشاد الأطباء المهرة يستزيدون من العلم دائماً، وإذ يحسنون استخدام كلِّ فرصة في الحصول على المعرفة ففي الوقت المناسب يصيرون مؤهّلين تماماً لعمل الطبيب. وأنتم أيها الأطباء الأكثرَ حداثةً فإذ أنتم «عاملون مع (الطبيب الأعظم) .. لا تقبلوا نعمة الله باطلاً ..» ولا تجعلوا «عثرة في شيء لئلا تُلام

الخدمة (خدمة المرضى) بل فِي كُلِّ شَيْءٍ نُظْهِرُ أَنْفُسَنَا كَخُدَّامِ اللهِ» (٢ كورنيثوس ٦:١-٤).

إنّ قصد الله لأجلنا هو أن نتقدّم دائماً صُعَدا. إنّ الطبيب المرسلَ الحقيقيَّ يتقدّم في المهارة في مزاولة مهنة الطبّ. والأطبّاء المسيحيّون الموهوبون الذين عندهم مهارة فائقة في مهنتهم يجب البحث عنهم وتشجيعهم على العمل في خدمة الله في الأماكن التي يمكنهم فيها تعليم غيرهم وتدريبهم حتى يصيروا أطباء مرسلين.

وعلى الطبيب أن يجمع لنفسه نورَ كلمة الله، وأن ينمو في النعمة نموّاً مطّرداً. وبالنسبة إليه ينبغي ألاّ تكون الديانة مجرّدَ قوّةٍ بين غيرها من القوى بل يجب أن تكون هي القوّةُ السائدةُ على كلّ القوى الأخرى، وعليه أن يعملَ مدفوعاً ببواعث سامية مقدّسة – بواعث قوّية لأنّها منبثقة من ذاك الذي بذل نفسه ليمنحنا القوّة للانتصار على الشرّ.

وإذا كان الطبيب يحاول بكلّ أمانة واجتهاد أن يجعلَ نفسَه كفؤاً في مهنته، ويكرّس نفسه لخدمة المسيح ويقضي وقتاً في فحص قلبه فسيدرك كيف يحيط بأسرار دعوته المقدّسة. وقد يدّرب نفسَه ويعلّمها بحيث يرى كلّ من هم في دائرة عمله وتأثيره سمو التهذيب والحكمة اللذين يكتسبهما ذاك الذي له اتّصال بإله الحكمة والقوّة.

معين إلهي في غرفة المرض

إنّ المجالَ الذي يكون فيه الإنسان في أشدّ حاجة إلى شركة أوثق مع المسيح إنّما هو عمل الطبيب. والذي يريد أن يُمارس واجبات الطبيب على وجهها الصحيح عليه أن يحيّا الحياةَ المسيحيّةَ يوماً فيوماً وساعةً فساعة. إنّ حياةَ المريض هي في يدي الطبيب. فلو أهمل في تشخيص حالة مريضٍ مرّةً واحدةً، أو قدّم وصفةً طبّيةً مخطئةً في حالة مرض خطرة أو تحرّكت يدهُ حركة غير ماهرة في أثناء إجراء عمليّة حتى ولو قيدَ شعرةٍ

فستُضحَّى بحياةٍ وينتهي أجل نفس. فما أخطرَ هذه الفكرة! وكم هو أمرٌ هامٌ جدّاً أن يكون الطبيب تحت سيطرةِ الطبيب الأعظم.

إنّ المخلّص لعلى استعداد أن يعينَ كلّ من يدعونه في طلب الحكمة وصفاء الذهن. ومن ذا الذي يحتاج إلى الحكمة وصفاء الذهن أكثرَ ممّا يحتاج الطبيبُ الذي يتوقّف على أحكامِه وتقديراتِه الشيءُ الكثير؟ فعلى من يحاول إطالةَ عمر إنسان أن ينظر بإيمان إلى المسيح ليوجّه كلّ حركة من حركاته. فالمخلّص يعطيه لباقة ومهارة وهو يعالج الحالات الصعبة.

إنّ الفرصَ المعطاةَ لمن يسهرون على المرضى مدهشة وعجيبة جدّاً، عليهم في كلّ ما يُعمل لأجل استرداد صحّة المريض أن يفهموا أنّ الطبيب يحاول أن يساعدهم حتى يتعاونوا مع الله في محاربة المرض. علّموهم حتى يحسّوا أنّهم في كلّ خطوة يتّخذونها بالاتفاق مع شرائع الله يمكنهم أن ينتظروا معونة القوّة الإلهيّة.

إنّ المرضى والمتألّمين يثقون ثقةً أعظم بالطبيب الذي هم موقنون أنّه يحبّ الله ويتّقيه. وهم يعتمدون على كلامه. بل هم يحسّون بالطمأنينة والأمان وهم في حضرة ذلك الطبيب وتحت إرشاداتِه وتدبيراتِه.

والطبيب المسيحيّ إذ يعرف الربّ يسوع فإنَّه امتياز له أنّه بالصلاة يلتمسُ حضورَه إلى حجرة المريض. وقبل إجراء أيّة عملية خطرة ليسأل الطبيبُ معونةَ الطبيب الأعظم. ليؤكّدَ للمريض أنّ اللهَ يستطيع أن يجعلَه يجوز في محنتِه بسلام، وأنّه في كلِّ أوقات الضيق هو الملجأ الأمين لجميع المُتكلّين عليه. والطبيب الذي لا يفعل هذا يخسر حالةً بعد حالة كان في مقدوره، لولا ذلك، إنقاذُها. فإذا أمكنه أن يتكلّم الكلام الذي يلهم المريض الإيمان بالمخلّص العطوف الذي يحسّ بكلّ وخزةٍ من وخزات الألم، واستطاع أن يعرض حاجاتِ النفس عليه في الصلاة ففي غالب الأحيان تمرّ الأزمةُ بسلام.

إنّ ذاك الذي يعرف خفيّاتِ القلب هو وحدَه يعلم مقدارَ الرعدة والخوف اللذين بهما يرضى كثيرون من المرضى أن تُجرى لهم عمليّة على يدِ جرّاح. إنّـهم يكونـون متحققين من خطرهم. ولئـن كـانوا يثقـون بمـهارة الطبيـب، يعلمـون أنّـه ليـس معصوماً. ولكنّهم إذ يـرون الطبيـبَ منحنياً يصلّـي طالباً مـن الله العـونَ فذلـك يلهمـهم بالثقة. والشـكرُ والثقـةُ يفتحان القلب لقوّة الله الشافية. ومن ثمّ تنتعشُ كلُّ قوى الكيان وتنتصر قوى الحياة.

ثمّ إنّ حضور المخلّص هو أيضاً عنصر من عناصر القوّة للطبيب نفسه. في أحيان كثيرة تجلب تبعاتُ واحتمالاتُ عمله رعباً لروحـه. إنّ اضطراب عـدم اليقين والخـوف قـد يفقد اليدَ مهارتَها. ولكنّ إيقانَ الطبيب من أنّ المشير الإلهـي بجانبـه ليرشـدَه ويعضّده، يمنحـه الهدوءَ والشجاعة. إنّ لمسةَ المسيح على يدِ الطبيب تجلب الحيويّة والراحـة والاطمئنـان والثقة والقوّة.

بعدما تمرّ الأزمةُ بسلام ويبدو النجاح ظاهراً ليقضِ الطبيب مع المريض لحظاتٍ قليلةً في الصلاة. عبّر أيها الطبيب عـن شـكرك لأجـل حفظ تلـك الحيـاة. وإذ يقدّم المريـضُ شكره للطبيب فليوجّه الحمدَ والشكرَ إلى الله. قـل للمريـض إنّ حياتَـه قـد حُفظـت لأنّـه كان تحت رعايةِ الطبيب السماوي وحفظه.

فالطبيب الذي يسير على هذا النهج إنّما يرشد مريضَه إلى ذاك الذي هو معتمـد عليـه لأجل الحياة والذي يستطيع أن يخلّص إلى التمام كلّ الذين يقبلون إليه.

خدمـة النفـوس

ينبغي أن يدخلَ في عمل الطبيب المرسلِ حنينٌ عميـقٌ نحـو النفـوس. إنّ الطبيـبَ يُسلّم إليه أغلى وديعةٍ سُلّمت لإنسـان، مثلـه في ذلـك مثـل خـادم الإنجيـل تمامـاً. وسـواء تحقق كلُّ طبيب ذلك أم لا فإنّه مؤتمنٌ على أمرِ شفاءِ النفّوس.

في أثناء التعامل مع المرض والموت كثيراً ما تغيب عن بال الأطبّاء الحقائقُ الخطيرة، حقائقُ الحياة العتيدة. ففي مسعاهم الجادّ لتفادي الخطر على الجسم ينسون الخطرَ الذي يهدّد النفس. فالشخصُ الذي يخدمونه ربّما يكون قد كفّ عن التشبّث بالحياة. فإنّ فرصَ الحياة تنساب منه وتفلت من قبضته. والطبيب لابدّ من أن يلتقي بهذه النفس أمامَ كرسي دينونة المسيح.

كثيراً ما تضيع منّا أثمنُ البركاتِ إذ نهمل التكلّم بالكلمة في وقتها. فإذا لم نراقب الفرصةَ الذهبيّةَ فستضيع. وعند سرير المريض ينبغي ألاّ ينطق أحدٌ بكلام يمسّ أيّةَ عقيدة أو يلجأ إلى المجادلات. بل يجب توجيه نظر المريض إلى ذلك الذي يريد أن يخلّص كلّ من يأتون إليه بإيمان. إذاً حاول أيها الطبيب بكلّ غيرة ولطف ورقّة أن تقدّم المعونة للنفس التي تتأرجح بين الحياة والموت.

إنّ الطبيبَ الذي يعلم أن المسيحَ هو مخلّصه الشخصي لأنّه هو نفسه قد أُتيَّ به إلى ملجأ (الدهور)، يعلم كيف يتعامل مع النفس المرتعدة المذنبة المريضة بالخطيّة التي تتّجه إليه في طلب العون. يمكنه أن يجيب عن هذا السؤال: «ماذا ينبغي أن أفعل لكي أخلص»؟ ويمكنه أن يتلو قصّة محبّة الفادي. ويمكنه أن يتحدّث من واقع اختباره عن قوّة التوبة والإيمان. وفي كلمات بسيطة جادّة يمكنه أن يتقدّم بحاجة تلك النفس إلى الله في الصلاة. ويستطيع أيضاً أن يُشجع المريض على أن يسأل رحمة المخلّص الرؤوف ويقبلها. فإذ يخدم هكذا عند سرير المريض محاولاً أن ينطق بالكلام الذي يجيء بالعون والعزاء فالربّ يعمل معه وبواسطته. وإذ يتّجه عقل المريض إلى المخلّص فإنّ سلام المسيح يملأ قلبه، والصحّة الروحيّة التي تأتيه تُستخدمُ كيدِ الله المعيّنة في إعادة الصحّة إلى جسمه.

إنّ الطبيب إذ يعتني بالمريض كثيراً ما تواتيه الفرصة لخدمة أصدقاء ذلك المريض. فإذ يراقبون عند سرير المريض، وهم شاعرون بعجزهم عن أن يصدّوا عنه وخزةً واحدةً

من وخزات الألم، فإنّ قلوبهم تلين. والحزن الذي يَخفى عن الآخرين كثيراً ما يخبر به الطبيب. حينئذ تحين الفرصةُ له ليوجّهَ أفكارَ هؤلاء المحزونين إلى ذاك الذي قد دعا المتعبين والثقيلي الأحمال ليأتوا إليه. وكثيراً ما يمكن تقديمُ الصلاة لأجلهم ومعهم إذ يعرض الطبيب حاجاتِهم على شافي كلّ الأدواء ومخفّف كلّ الأحزان.

مواعيـد الله

إنّ لدى الطبيبِ فرصاً ثمينةً لإرشاد مرضاه إلى مواعيدِ كلمة الله. عليه أن يُخرجَ من كنزه جدداً وعتقاء، متحدّثاً هنا وهناك بكلماتِ التعزية والإرشاد التي يشتاق الناس إليها. ليجعل الطبيبُ عقلَه خزانةً للأفكار الجديدة. وليدرسَ كلمةَ الله باجتهاد حتى يكون على درايةٍ وعلمٍ بمواعيدها. وليتعلّم تلاوةَ كلام العزاء الذي كان المسيح ينطق به وهو يخدم على الأرض عندما كان ينطقُ بتعاليمه ويشفي المرضى. وعليه أن يتحدّثَ عن معجزاتِ الشفاء التي أجراها المسيح وعن لطفه ومحبّته. وعليه ألاّ يهمل أبداً في توجيه أفكارِ مرضاه إلى المسيح، الطبيب الأعظم.

إنّ نفسَ القوّة التي استخدمها المسيح وهو يسير بين الناس بهيئة منظورة، هي في كلمته. فبكلمته شفى يسوع المرض وأخرج الشياطين، وبكلمته هدّأ البحرَ وأقام الموتى، وقد شهد الناس أنّ كلامه كان بسلطان. لقد تكلّم بكلمة الله كما قد كلّم كلّ أنبياء ومعلّمي العهد القديم. إنّ الكتاب المقدّس كلّه هو إعلان عن المسيح.

ينبغي أن تُقبلَ الكتبُ المقدّسة على أنّها كلام الله إلينا، ليس فقط مكتوباً بل منطوقاً به إلينا. عندما أتى المرضى والمتألّمون إلى المسيح فهو لم يشاهد من طلبوا منه العون وحدهم بل كلّ من يأتون بمثل تلك الحاجة وبإيمان كإيمانهم مدى الأجيال. عندما قال للمفلوج « ثِقْ يَا بُنَيَّ . مَغْفُورَةٌ لَكَ خَطَايَاكَ» (متى ٩: ٢)، وعندما قال للمرأة في كفرناحوم: « ثِقِي يَا ابْنَةُ ، إِيمَانُكِ قَدْ شَفَاكِ ، اِذْهَبِي بِسَلاَمٍ» (لوقا ٨: ٤٨) كان يخاطب آخرين من المرضى المحزونين المُثقّلين بالخطيّة الذين ينبغي أن يطلبوا منه العون.

وهذا ينطبق على كلّ مواعيد كلمة الله، ففيها يحدّث الربّ كلاً منّا على انفراد، موجّهاً كلامَه إلينا مباشرة كما لو كان في إمكاننا أن نصغى إلى صوته. وفي هذه المواعيد يوّصل المسيح نعمتَه وقوّته إلينا. إنّها أوراق من تلك الشجرة التي «لِشِفَاءِ الأُمَمِ» (رؤيا ٢٢:٢). فإذ يقبلها الإنسانُ ويستوعبها فهي تصير قوّة للخلق وإلهاماً وزاداً للحياة. ولا شيء آخر يمكن أن تكون له مثل هذه القوّة. ولا شيء سواها يمكنه أن يلهمَ النفس بالشجاعة والإيمان اللذين يمنحان الكيان كلَّه الحياةَ والنشاط.

وحسبما تُتاح للطبيب فرصة، فليردد على سمع الإنسان الذي يقف مرتعداً وخائفاً على حافة القبر، والإنسان الذي أنهكه حملُ الألم والخطيّة، أقوالَ المخلّص – لأنّ كلّ أقوال الكتاب المقدّس هي أقواله:

«لاَ تَخَفْ لأَنِّي فَدَيْتُكَ. دَعَوْتُكَ بِاسْمِكَ. أَنْتَ لِي. إِذَا اجْتَزْتَ فِي الْمِيَاهِ فَأَنَا مَعَكَ وَفِي الأَنْهَارِ فَلاَ تَغْمُرُكَ. إِذَا مَشَيْتَ فِي النَّارِ فَلاَ تُلْذَعُ وَاللَّهِيبُ لاَ يُحْرِقُكَ. لأَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلهُكَ قُدُّوسُ إِسْرَائِيلَ مُخَلِّصُكَ .. إِذْ صِرْتَ عَزِيزًا فِي عَيْنَيَّ مُكَرَّمًا وَأَنَا قَدْ أَحْبَبْتُكَ». « أَنَا أَنَا هُوَ الْمَاحِي ذُنُوبَكَ لأَجْلِ نَفْسِي وَخَطَايَاكَ لاَ أَذْكُرُهَا ». « لاَ تَخَفْ فإِنِّي مَعَكَ» (إشعياء٤٣: ١–٤ و٢٥و٥).

«كما يترأف الأب على البنين يترأف الرب على خائفيه. لأنّه يعرف جبلتنا يذكر أننا تراب نحن» (مزمور١٠٣: ١٣و١٤).

« اِعْرِفِي فَقَطْ إِثْمَكِ أَنَّكِ إِلَى الرَّبِّ إِلهِكِ أَذْنَبْتِ ». « إِنِ اعْتَرَفْنَا بِخَطَايَانَا فَهُوَ أَمِينٌ وَعَادِلٌ ، حَتَّى يَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَيُطَهِّرَنَا مِنْ كُلِّ إِثْمٍ» (إرميا ٣:١٣؛ ١يوحنا ١:٩).

«قد محوت كغيم ذنوبك وكسحابة خطاياك. ارْجَع إِلَيَّ لأَنِّي فَدَيْتُكَ» (إشعياء ٤:٢٢).

«هلم نتحاجج يقول الرب إن كانت خطاياكم كالقرمز تبيض كالثلج. إن كانت حمراء كالدودي تصير كالصوف. إن شئتم وسمعتم تأكلون خير الأرض» (إشعياء١: ١٨و١٩).

« مَحَبَّةً أَبَدِيَّةً أَحْبَبْتُكِ ، مِنْ أَجْلِ ذلِكَ أَدَمْتُ لَكِ الرَّحْمَةَ ». «حجبت وجهي عنك لحظة وبإحسان أبدي أرحمك» (إرميا٣١: ٣؛ إشعياء ٥٤:٨).

((لاَ تَضْطَرِبْ قُلُوبُكُمْ». « سَلاَمًا أَتْرُكُ لَكُمْ. سَلاَمِي أُعْطِيكُمْ. لَيْسَ كَمَا يُعْطِي الْعَالَمُ أُعْطِيكُمْ أَنَا. لاَ تَضْطَرِبْ قُلُوبُكُمْ وَلاَ تَرْهَبْ » (يوحنا ١٤: ١و٢٧).

«ويكون إنسان كمخبأ من الريح وستارة من السيل كسواقي ماء في مكان يابس كَظِلِّ صَخْرَةٍ عَظِيمَةٍ فِي أَرْضٍ مُعْيِيَةٍ» (إشعياء ٣٢ : ٢).

« اَلْبَائِسُونَ وَالْمَسَاكِينُ طَالِبُونَ مَاءً وَلاَ يُوجَدُ. لِسَانُهُمْ مِنَ الْعَطَشِ قَدْ يَبِسَ. أَنَا الرَّبُّ أَسْتَجِيبُ لَهُمْ. أَنَا إِلهَ إِسْرَائِيلَ لاَ أَتْرُكُهُمْ» (إشعياء ٤١:١٧).

«هكذا يقول الرب صانعك»: « لأَنِّي أَسْكُبُ مَاءً عَلَى الْعَطْشَانِ ، وَسُيُولاً عَلَى الْيَابِسَةِ أَسْكُبُ روحي عَلَى نَسلِكَ وَبَرَكَتِي عَلَى ذُرِيَتِكَ» (إشعياء ٤٤:٢و٣).

« اِلْتَفِتُوا إِلَيَّ وَاخْلُصُوا يَا جَمِيعَ أَقَاصِي الأَرْضِ» (إشعياء٤٥: ٢٢).

«هو أخذ أسقامنا وحمل أمراضنا». «وَهُوَ مَجْرُوحٌ لأَجْلِ مَعَاصِينَا ، مَسْحُوقٌ لأَجْلِ آثَامِنَا . تَأْدِيبُ سَلاَمِنَا عَلَيْهِ ، وَبِحُبُرِهِ شُفِينَا» (متى٨: ١٧؛ إشعياء٥٣: ٥).

٢ الطبيب معلم ومرشد

الطبيب الحقيقي هو معلّم ومرشد. إنّه يعترف بأنّه مسؤول ليس عن المرضى الذين هم تحت رعايته المباشرة وحسب، بل أيضاً تجاه المجتمع الذي يعيش فيه .. فهو يقف حارساً للصحّة البدنيّة والأدبيّة كلتيهما. إنّه يسعى ليس فقط ليعلّم الطرق الصائبة في معالجة المرضى بل ليشجّع على العادات الصالحة للمعيشة، ولينشر معرفة المباديء الصائبة.

الحاجة لتعليم مباديء الصحّة

لم يكن تعليم مباديء الصحّة لازماً في أيّ وقت مضى أكثر مما هو لازم الآن. فبالرغم من التقدّم المدهش في النواحي المتعلّقة بوسائل الراحة للحياة حتى بالمسائل الصحّية ومعالجة المرض، فإنّ انحطاط النشاط الجسدي وقوّة الاحتمال أمر مفزع، وهو يتطلّب اهتمامَ وانتباهَ كلِّ من يحرصون على خير أخوتهم البشر وسلامتهم.

إنّ مدنيّتنا المصطنعة تُشجّع على انتشار الشرور المقوّضة للمباديء السليمة. فالعادة والزيّ هما في حالة حرب مع الطبيعة، لأنّ الممارسات التي يفرضانها والانغماسات التي يتعهّدانها تُضعف بكيفيّة مستمّرة من القوّة البدنيّة والعقليّة، وتُثقّل كاهل الجنس البشري بعبءٍ لا يمكن احتماله. إنّ عدم الاعتدال والجريمة والمرض والشقاء منتشرة في كلّ مكان.

كثيرون يتعدّون قوانين الصحّة جهلاً منهم، وهم بحاجة إلى تعليم وإرشاد. ولكنّ الغالبيّة الكبرى يعرفون أفضل مما يفعلون. إنّهم بحاجة إلى إقناعهم بجعل معرفتهم مرشداً للحياة. ولدى الطبيب فرصٌ كثيرة لنشر معرفة مباديء الصحّة وإرشاد الناس إلى

أهميّة العمل بها. وبواسطة التعليم الصائب يستطيع أن يساهم بقسط كبير في القضاء على الشرور التي تسبّب ضرراً بليغاً.

استعمال العقاقير أو المخدّرات

وهنالك تصرّف يمهّد الطريق لقدر هائل من المرض بل لشرور أخطر، هو الإكثار من استعمال العقاقير السامّة. كثيرون من الناس عندما يهاجمهم المرض لا يكلّفون أنفسهم مشقّة البحث عن سبب مرضهم، فيجعلون همّهم الوحيد التخلّصَ من الألم والإزعاج. وهكذا يلجأون إلى استعمال عقاقير مجهولة لا يعرفون إلاّ القليل عن خواصّها الحقيقيّة، أو يلجأون إلى طبيب في طلب دواء يُبطل ويمنع نتيجةَ سوء فِعلهم دون التفكير في إحداث تغيير في عاداتهم الضارّة. فإذا لم يحصلوا على فائدة سريعة يجرّبون دواءً آخرَ فآخر، وهكذا يستمرّ الشرّ.

فالناس بحاجة إلى أن يتعلّموا أنّ العقاقير لا تُشفي المرض. لا جدل في أنّها أحياناً تجلب راحة سريعة، فيبدو على المريض وكأنّه قد شُفيَ نتيجة لتعاطيها. ذلك لأنّ لدى الطبيعة قوّةً حيويةً كافيةً لطرد السمّ وتصحيح الظروف التي سبّبت المرض. فالصحّة تُستردّ بالرغم من العقاقير. ولكن في معظم الحالات كلّ ما يعمله الدواء المخدّر هو أنّه يغيّر شكل المرض وموضعه. وفي أكثر الحالات يبدو وكأنّ الإنسانَ قد تغلّب على مفعول السمّ إلى حين، ولكنّ النتائج تبقى في الجسم وتُحدث ضرراً بليغاً فيما بعد.

كثيرون من الناس بتعاطيهم العقاقير السامّة يجلبون على أنفسهم أمراضاً تلازمهم مدى الحياة، وقد هلكت أرواح كثيرة كان يمكن إنقاذُها باستعمال وسائط الشفاء الطبيعيّة. إنّ السموم التي تحتوي عليها الكثير ممّا يُدعى أدوية تعمل على تكوين عادات وأمزجة وقابليّات ينتج عنها الدمار لكلا النفس والجسد. إنّ كثيراً من العقاقير المجهولة التي يقال عنها إنّها أدوية مباحة، بل حتى بعض العقاقير التي يصفها الأطباءُ، لها تأثير كبير في التمهيد لعادة تعاطي الخمر وعادة تعاطي الأفيون والمورفين التي هي جميعاً لعنة هائلة على المجتمع.

قـوّة الطبيعـة المُنعشــة والمجـددة

إنّ الأملَ الوحيد في تحسّن الأحوال هو في تعليم الناس المباديء الصائبة. ليعلّم الأطباء الناس أنّ القوّة المجدّدة ليست في العقاقير بل في الطبيعة، وأنّ المرض مجهود تبذله الطبيعة لتحرير الجسم من الحالات التي تحدث نتيجة لتعدّي قوانين الصحّة. وفي حالة المرض ينبغي التأكد من السبب. ينبغي تغيير الظروف غير الصحيّة وإصلاح العادات الخاطئة، وهـذا يساعد الطبيعـة في مسعاها لطـرد الأجسـام الغريبـة وإعـادة الحـالات الصحيحة إلى الجهاز البدني.

العلاجـات الطبيعيـة

إنّ الهواء النقيّ ونـور الشمس والتعفف والراحة والرياضة البدنيّة والغذاء المناسب وشرب الماء والثقة بقدرة الله – هذه هي العلاجات الحقيقية. وينبغي أن يكون كـلّ إنسان على علم بقوى الطبيعة العلاجيّة وكيف يستخدمها. وضروري أن يفهم الإنسان المباديء المتضمّنة في معالجة المرضى وأن يتدرّب تدريباً عملياً يُمكّنه من استخدام هذه المعرفة استخداماً صائباً.

إنّ استخدامَ العلاجات الطبيعيّة يتطلّب قدراً من الحرص والجهد، الأمر الـذي لا يرغب الكثيرون في بذله. إنّ عمليّة الطبيعة في الشفاء والبناء هي تدريجيّة. والضجرون يعتبرونها بطيئة. إنّ التخلـيّ عن الانغماسات الضارّة يتطلّب تضحية. ولكن في النهاية سيُكتشف أنّ الطبيعة، وقد تحررت من العوائق، تقوم بعملها قياماً حسناً وبحكمة. والذين يثابرون على الطاعة لنواميسها سيحصدون الجزاء في صحّة البدن وصحّة الذهن.

إنّ اهتماماً أقلّ من اللازم بكثير يكرس، عادة لحفظ الصحّة. إنّ منع المرض بالوقاية منه لأفضل بكثير من معرفة كيفيّة معالجته عندما يُصيب الإنسان. وواجب كلّ إنسان لأجل نفسه ولأجل الإنسانية أن يتعرّف على قوانين الحياة ويطيعها بكلّ إخلاص ونزاهة.

يجب أن يكون الجميع ملمّين وعلى علم بذلك الجهاز الذي هو أعظم جهاز مدهش، وأعني به جسمَ الإنسان. وعليهم أن يفهموا وظائف أعضاء الجسم المختلفة واعتماد كلّ عضو على غيره لتقوم الأعضاء كلهُّا بعملها على الوجه الصحيح. عليهم أن يدرسوا تأثير العقل في الجسم وتأثير الجسم في العقل، والقوانين التي يسيران بموجبها.

التدريب على الكفاح في الحياة

إنّنا لا نتجاوز الحدّ مهما شدّدنا على أنّ الصحّة لا تتوقّف على المصادفة. ولكنّها تأتي نتيجة لإطاعة القانون. هذا ما يعترف به المتبارون في الألعاب الرياضية واختبار القوّة. هؤلاء الرجال يقومون بأعظم الاستعدادات الحريصة. إنّهم يخضعون لتدريب كامل وتمرين دقيق. وينظّمون بكلّ حرص كلّ عادة جسمانيّة، لعلمهم بأنّ الإهمال أو الإفراط أو عدم الاكتراث الذي يُضعف أيّ عضو أو وظيفة في الجسم أو يعجزها لابدّ من أن يُلحق بصاحبه الهزيمة.

فكم هو أهمّ جداً ذلك الحرص لأجل ضمان النجاح في كفاح الحياة. إنّنا لا نشتبك في معارك تمثيليّة وهميّة، ولكنّنا نثير حرباً تتوقّف عليها نتائج أبديّة. إنّنا نواجه أعداءَ لا تراهم العين. فالملائكة الأشرار يحاولون السيطرة على كلِّ إنسان. إنّ كلّ ما يضرّ بالصحّة لا يقلل من النشاط الجسماني فقط، ولكنّه فوق ذلك يُضعف القوى العقليّة والأدبيّة. فالإفراط في أيّ عملٍ غير صحّي يُزيد من صعوبة التمييز بين الصواب والخطأ، وبالتالي يزيد من صعوبة مقاومة الشرّ. كما أنّه يزيد من خطر الفشل والهزيمة.

«الَّذِينَ يَرْكُضُونَ فِي الْمَيْدَانِ جَمِيعُهُمْ يَرْكُضُونَ وَلكِنَّ وَاحِدًا يَأْخُذُ الْجَعَالَةَ» (١كورنثوس ٩: ٢٤). أمّا في الحرب التي نحن مشتبكون فيها فيمكن لكلّ من يدربون أنفسهم على إطاعة مباديء الحقّ أن ينتصروا. إنّ ممارسة هذه المباديء في شؤون الحياة الصغيرة كثيراً ما يُنظر إليها على أنّها غير مهمّة – مسألة أتفه من أن تستحقّ الانتباه. ولكن بالنظر إلى الشؤون المعرّضة للخطر لا يوجد شيء أصغر مما يجب علينا عمله. فكلّ

عمل يلقي بثقل في الميزان الذي يقرر نصرة الحياة أو هزيمتها. والكتاب يأمرنا قائلا: «هكَذَا ارْكُضُوا لِكَيْ تَنَالُوا» (١كورنثوس ٩: ٢٤).

لقد كانت الرغبة أو الشهوة غير المعتدلة في قلب أبوينا الأولين كفيلة بحرمانهما من عدن. إنّ الاعتدال في كلّ شيءٍ له دخل في إعادتنا إلى عدن أكثر مما يدرك الناس.

وبالإشارة إلى ضبط النفس الذي كان يتدرّب عليه المتبارون في الألعاب الإغريقية قديماً يكتب بولس الرسول قائلا: : «كُلُّ مَنْ يُجَاهِدُ يَضْبُطُ نَفْسَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ. أَمَّا أُولئِكَ فَلِكَيْ يَأْخُذُوا إِكْلِيلاً يَفْنَى وَأَمَّا نَحْنُ فَإِكْلِيلاً لاَ يَفْنَى. إِذاً أَنَا أَرْكُضُ هكَذَا كَأَنَّهُ لَيْسَ عَنْ غَيْرِ يَقِينٍ. هكَذَا أُضَارِبُ كَأَنِّي لاَ أَضْرِبُ الْهَوَاءَ بَلْ أَقْمَعُ جَسَدِي وَأَسْتَعْبِدُهُ حَتَّى بَعْدَ مَا كَرَزْتُ لِلآخَرِينَ لاَ أَصِيرُ أَنَا نَفْسِي مَرْفُوضًا» (١كورنثوس ٩: ٢٥-٢٧).

أساس الإصلاح

إنّ تقدّم الإصلاح يتوقّف على الاعتراف الصريح بالحقّ الأساسي. ففي حين أنّ الخطرَ يكمن في الفلسفة الضيّقة المتزمّتة واستقامة الرأي الجامدة الصارمة من ناحية، فمن الناحية الأخرى يوجد خطر عظيم من حرّية الرأي المُستهترة. إنّ أساس كلّ إصلاح دائم هو شريعة الله. فعلينا أن نبيّن الحاجة إلى إطاعة هذه الشريعة في سطور صريحة واضحة. وينبغي أن تظلّ مبادئها ماثلة أمام أنظار الناس. إنّها أبديّة وغير متساهلة كالله نفسه.

ومن أعظم المؤثّرات المحزنة للارتداد الأصلي الأوّل فقدان الإنسان قوّة ضبط النفس. وعلى قدر ما نستردّ هذه القوّة يمكن أن يكون هنالك تقدّم ونجاح حقيقي.

الجسم هو الواسطة الوحيدة التي عن طريقها ينمو الذهن والنفس لأجل بناء الخلق. ولهذا يصوِّب عدّو النفوس تجاربَه لإضعاف قوى الجسم وتحقيرها والحطّ منها. ونجاحُه في هذا معناهُ إخضاع الإنسان كلّه للشرّ. إنّ ميول طبيعتنا الجسدّية ما لم تكن تحت سيطرة قوّة أسمى لابدّ من أن تؤدي بنّا إلى الدمار والموت.

ينبغي إخضاعُ الجسد. ويجب أن تسودَ عليه القوى الأسمى في الإنسان. ومن اللازم أن تُسيطر الإرادةُ على العواطف والأهواء. والإرادةُ نفسها يجب أن تخضع لله. وقـوّة العقل السامية التي تقدّسها النعمة الإلهيّة هي التي ينبغي أن تسوَد في حياتنا.

إنّ مطالبَ الله ينبغي أن تقتنع بها ضمائرُنا. وعلى الرجال والنساء أن يستيقظوا إلى واجب ضبط النفس والحاجة إلى الطهارة والتحرر من كلّ شهوة مفسدة وكل عادة دنسة. وهم بحاجة إلى الاقتناع بحقيقة كون كلّ قوى العقل والجسد هبةً من الله وينبغي حفظَها في أفضل حالة ممكنة لأجل خدمته.

في ذلك الطقس القديم الذي كان رمزاً إلى الإنجيل لم يكن يُسمح لأحد بالإتيان بذبيحة فيها عيب ما إلى مذبح الله. فالذبيحة التي ترمز إلى المسيح كان ينبغي أن تكون بلا عيب. وكلمة الله تشير إلى هذا كمثال لما ينبغي أن يكون عليه أولاد الله. فتقول: «ذَبِيحَةً حَيَّةً»، «مُقَدَّسَةً وَبِلاَ عَيْبٍ»، «مَرْضِيَّةً عِنْدَ اللهِ» (رومية١٢: ١؛ أفسس ٥:٢٧).

الحاجة إلى القـوّة الإلهيـة

بدون قوّة لا يمكن تحقيقُ أيّ إصلاح حقيقي. إنّ الحواجزَ البشرّيةَ ضد الميول الطبيعيّة والمكتسبة إن هي إلاّ كشاطيءِ رمليّ ضدّ السيل الجارف. إنّنا لا نستطيع مقاومة التجارب التي تهاجمنا من الداخل ومن الخارج ما لم تَصِر حياة المسيح قوةً مُحيّيةً في حياتنا.

لقد أتى المسيح إلى العالم وعاش بموجب شريعة الله حتى يتسنّى للإنسان أن يسيطرَ سيطرة كاملة على ميوله الطبيعيّة التي تفسد النفس. وكطبيب للنفس والجسد هو يمنح النصرة على الشهوات المحاربة. لقد أعدّ كلّ ما يساعد الإنسان وييسّر له امتلاكَ كمالِ الخلق.

وعندما يُسلّم الإنسان نفسَه للمسيح فالعقلُ يخضع لضبط الشريعة، ولكنّها الشريعة الملكيّة التي تعلن الحرّية لكلّ أسير. وإذ يصير الإنسان واحداً مع المسيح يتحرر. فالخضوع لإرادة المسيح معناه استرداد الرجولة الكاملة.

الطاعة لله هي التحرر من عبوديّة الخطيّة ومن الشهوات والنوازع البشرّية. ويمكن للإنسان أن يقفَ منتصراً على نفسه، منتصراً على ميوله، منتصراً على الرياسات والسلاطين وعلى ولاةِ العالم على ظلمة هذا الدهر وعلى «أَجْنَادِ الشَّرِّ الرُّوحِيَّةِ فِي السَّمَاوِيَّاتِ» (أفسس ٦: ١٢).

إنّ البيت هو أحوج ما يكون إلى هذا التعليم، ولا يمكن أن يكون هذا التعليم منتجاً لخير أعظم مما في البيت. إنّ للوالدين دخلاً في نفس أساس العادة والخلق. وحركة الإصلاح يجب أن تبدأ بتقديم مباديء شريعة الله لهم على أنّ لها علاقة بالصحّة البدنيّة والأدبيّة كلتيهما. بيّنوا لهم أنّ الطاعة لكلمة الله هي حامينا الوحيد من الشرور التي تكتسح العالم إلى الهلاك. ثمّ وضّحوا لهم مسؤولية الوالدين، ليس فقط عن أنفسهم بل أيضاً عن أولادهم. إنّهم يقدّمون لأولادهم مثالاً وقدوةً إمّا للطاعة أو للعصيان. فبقدوتهم وتعليمهم يتقرر مصيرُ عائلاتهم. والأولاد يكونون كما يصنعهم والدوهم.

ولو أمكن للوالدين أن يتّتبعوا نتيجة عملهم ويروا كيف أنّهم بقدوتهم وتعليمهم يؤيّدون ويزيدون قوّة الخطيّة أو قوّة البرّ فلابدّ من أن يحدث تغيير ولابدّ من أن يترك كثيرون التقاليدَ والعاداتِ ويقبلون المباديءَ الإلهيّةَ للحياة.

قوّة القدوة

إنّ الطبيب الذي يخدم في بيوت الشعب ساهراً عند أسِرَّةِ المرضى مخففاً آلامهم مُرجعاً إياهم من تخوم الهاوية. ومتكلّماً بكلام الرجاء للمحتضرين، يظفر بثقتهم ومحبّتهم، الأمر الذي لا يُعطى إلاّ لنفر قليل. وحتى خادم الإنجيل نفسه لا تُعطى له مثل هذه الإمكانيات العظيمة أو مثل هذا التأثير البعيد المدى.

إنّ قدوة الطبيب التي لا تقلّ عن تعليمه ينبغي أن تكون قوّة إيجابيّة في جانب الصواب. فقضيّة الإصلاح تتطلّب رجالاً ونساءً يكون عمل حياتهم مثالاً لضبط النفس. وإنّ مّمارسة المباديء التي نراعيها في الأذهان هي التي تعطيها وزناً وقيمة. فالعالم بحاجة

إلى إظهار وإعلان عملي لما يمكن لنعمة الله أن تفعله لتعيد إلى بني الإنسان مركزهم، معطية إيّاهم السيادةَ على أنفسهم. ليس من شيءٍ يحتاجه العالم قدر حاجتِه إلى معرفة قوّة الإنجيل المخلّصة المُعلنة في الحياة المُتشبّهة بحياة المسيح.

إنّ الطبيب يكون دائماً على اتصال بمن يحتاجون إلى قوّة وتشجيع المثال الصائب. يوجد كثيرون ضعفاء في القوّة الأدبّية. هؤلاء تعوزهم قوّة ضبط النفس وتغلبهم التجربةُ بسهولة. والطبيب في مقدوره مساعدة هؤلاء الناس فقط على قدر ما يعلن في حياتِه من قوّة المبدأ التي تمكّنه من الانتصار على كلّ عادة مضّرة وكلّ شهوة نجسة. ويجب أن يُرى في حياته عمل القوّة الإلهية. فان أخفق في هذا فمهما يكن كلامه فعّالاً أو مُقنعاً فإنّ تأثيره يكون في جانب الشرّ.

كثيرون ممن قد صارت أخلاقهم حطاماً بفعل عاداتهم الشرّيرة الخاطئة يلتمسون مشورة الطبيب ومعالجته. إنّهم منسحقون وضعفاء ومُجَّربون ويحسّون بجهلهم وغبائهم وعجزهم على الانتصار. أمثال هؤلاء ينبغي ألاّ يكون هنالك شيء في بيئتهم يشجعهم على الاستمرار في التمسّك بأفكارهم ومشاعرهم التي صيّرتهم إلى تلك الحال التي وصلوا إليها. فهم بحاجة إلى أن يتنسّموا جوّاً من الطهارة والنقاوة والفكر النبيل. فكم تكون المسؤوليّة رهيبةً عندما يكون الذين كان ينبغي أن يكونوا قدوة صالحة لهم، مستَعبَدين لعاداتٍ كريهة، وقدوتهم تضفي على التجربة قوّة جديدة!

الطبيب وعمل الاعتدال

كثيرون يأتون ليتعالجوا عند الطبيب ممّن قد دُمّرت نفوسهُم وأجسامُهم بسبب تعاطيهم التدخين أو المسكرات. فالطبيب الذي هو أمين نحو مسؤوليته ينبغي له أن يخبرَ هؤلاء المرضى بعلّة آلامهم. أمّا إذا كان هو نفسُه مدمناً للتدخين أو المسكرات فأيّ وزن وأيّة قيمة تكون لكلامه؟ فمع إحساسه بانغماسه في هذه العادات، أفلن يتردّد في تبصير

مريضه بنقطة الداء أو الضربة التي في حياته؟ وما دام هو نفسه يتعاطى هذه الأشياء فكيف يمكنه إقناع الشباب بآثارها المضرّة؟

وكيف يمكن للطبيب أن يقف في المجتمع مثالاً للطهارة وضبط النفس، وكيف يستطيع أن يكون عاملاً فعّالاً في قضيّة الاعتدال في حين أنّه هو نفسه مدمن لعادة شرّيرة؟ وكيف يستطيع أن يخدمَ خدمةً مقبولةً عند أسَّرة المرضى والمحتضرين في حين أنّ نَفَسَه هو ذاته نَفَسٌ كريهٌ تفوح منه رائحةُ الخمر والتبغ؟

وإذ يوقع الطبيبَ الاضطرابُ والتشويشُ في أعصابه ويظلم عقلُه بتعاطيه للسموم المخدّرة كيف يمكنه أن يكون أميناً للثقة التي وضعت فيه كطبيب ماهر؟ وكم يغدو من المستحيل عليه أن يميّزَ الأمور بسرعة أو يعمل بدقّة!

وإذا لم يحفظ القوانينَ التي تحكم كيانه بل يختار ما يُرضي مزاجَه الأنانيَّ مُضحيّاً بسلامة الجسم وصفاء الذهن، ألاّ يعلن بذلك أنّه غيرُ أهلٍ لأن يؤتمَن على أرواح الناس التي هو مسؤول عن سلامتها؟

صعوبات في عمل الطبيب

مهما يكن مبلغُ مهارة الطبيب وأمانته فإنّ في عمله، كما يبدو، كثيراً من المشكّلات والهزائم. فكثيراً ما يفشل عملُه في إنجاز ما يصبو إلى إنجازه. ومع أنّ المرضى يستردّون صحّتهم فقد لا يكون ذلك ذا نفع حقيقيّ لهم ولا للعالم. كثيرون تُستردّ لهم الصحّة فقط ليعودوا إلى تكرار الانغماس في ما جلب عليهم المرضَ قبلاً. وبنفس الشوق واللهفة الماضية يعودون للانغماس في الشهوات والجهالات من جديد. فعمل الطبيب لأجلهم يبدو وكأنّه جهدٌ ضائعٌ.

لقد جاز المسيح في نفس هذا الاختبار، ومع ذلك فهو لم يكفّ عن بذل جهوده لأجل نفسٍ واحدةٍ متألّمة. فمن بين البرص العشرة الذين قد طهروا لم يقدر هذه الهبة

غيرُ رجلٍ واحدٍ وكان سامرّياً غريب الجنس. فلأجل ذلك الرجل الواحد شفى المسيح العشرة. فإذا لم يظفر الطبيب بقسط من التقدير أعظمَ مما ظفر به المخلّص فليتعلّم درساً من الطبيب الأعظم. لقد قيل عن المسيح إنّه «لاَ يَكِلُّ وَلاَ يَنْكَسِرُ». «مِنْ تَعَبِ نَفْسِهِ يَرَى وَيَشْبَعُ» (اشعياء ٤٢:٤؛ ٥٣: ١١).

لو أنّ نفساً واحدةً أرادت قبول إنجيل نعمة المسيح لكان الرب يسوع قد اختار حياة التعب والاتضاع وموت العار لكي يخلّص تلك النفس. ولو أنّ إنساناً واحداً يتسامى ويصل إلى حياة النبل والكرامة وصار أهلاً لأن يضيءَ في مواطن الرب بواسطة جهودنا ألا يكون ذلك سبباً كافياً لأجله نفرح؟

إنّ واجباتِ الطبيب شاقة ومتعبة. ولكي يتممها بأعظم نجاح فهو بحاجة إلى مزاج قويّ وصحّة جيّدة. فالرجل الضعيف أو السقيم لا يستطيع مواصلةَ العمل المُضني الخاص بدعوة الطبيب. والذي تعوزه قوّة ضبط النفس الكاملة لا يمكنه أن يكون صالحاً لمعالجة كلّ أنواع الأمراض.

إنّ الطبيب إذ يُحرَم في غالب الأحيان من النوم، ويُهمل حتى في تناول الطعام، ويكون منقطعاً إلى حدّ كبير عن تمتّعات المجتمع والامتيازات الدينيّة فإنّ حياته تبدو أنّها مكتنفة بظلام دائم. فالآلام والأحزان التي يشاهدها والمرضى الذين يعتمدون عليه وهم متلهّفون إلى معونته، واتصاله بالمحزونين – كلّ ذلك يسقم قلبَه ويكادّ يلاشي ثقتَه بالإنسانية.

وفي المعركة التي يخوضها الطبيب ضدّ المرض والموت يبذل قواه إلى أقصى حدود الاحتمال. وإنّ ردّ الفعل الناتج عن هذا الإجهاد العظيم فيه اختبارُ قاسٍ لخلُقه إلى أبعد حدّ. وحينئذ تشتدّ التجربة إلى أقصى حدود قوّتها. إنّ الطبيب أكثر من كلّ إنسان يحترف أيّةَ مهنة أخرى، بحاجة إلى ضبط النفس وطهارة الروح والإيمان الذي يتمسّك

بالسماء. فلأجل غيره ولأجل نفسه لا يمكنه إغفالُ القانون الجسدي. فالتهوّر في العادات الجسديّة يؤدّي إلى التهوّر في الآداب.

الواقي الوحيد

إنّ سلامةَ الطبيب الوحيدة هي، في كلّ الظروف، أن يعملَ بموجب المبدأ، متقوّياً ومتسامياً بالعزم الثابت الذي يوجد في الله وحده. عليه أن يقفَ في جلال خلُقه الأدبي. وعليه أن يحيّا يوماً فيوماً وساعة فساعة ولحظة فلحظة كمن هو أمام العالم غير المنظور. أن يتشدّد «كأنه يرى من لا يُرَى».

البرّ متأصّل في التقوى، فلا يمكن لإنسان أن يظلّ محتفظاً بالحياة الطاهرة القويّة أمام بني جنسه ما لم تكن حياتُه مستترة مع المسيح في الله. فعلى قدر ما يعظم نشاطُ الإنسان بين الناس ينبغي أن تكون شركةُ قلبه مع السماء أوثق وأقرب.

وكلّما كانت واجبات الطبيب معجّلةً وملحّةً وكلّما عظمت مسؤولياتُه، عظمت تبعاً لذلك، حاجتُه إلى قوّة الله، وينبغي افتداءُ الوقت من الأمور الزمنيّة للتأمّل في الأمور الأبديّة. وعليه أن يقاوم العالمَ المتعدّي الحدود والزاحف عليه، الذي يريد أن يضغطَه بحيث يفصل بينه وبين نبع القوّة. وعليه، أكثر من جميع الناس، بالصلاةِ ودرس الكلمة، أن يضع نفسَه في حمى ترس الله الواقي، وعليه في كلّ ساعة أن يحيّا في اتصال دائم وشركة واعية مع مباديء الحقّ والبرّ والرحمة التي تُعلن صفاتِ الله في النفس.

وبقدر ما يقبل الإنسان كلمة الله ويطيعها فهي تطبع بقوّتها وتلمس بحياتها كلَّ نبعٍ من ينابيع النشاط وكلَّ طورٍ من أطوار الخلق. وهي تُطهّر كلّ فكر وتُنظّم كلّ رغبة. فالذين يجعلون كلمة الله متّكلهم سيكونون رجالاً ويتقوون. إنّهم يرتفعون فوق كلّ الأشياء السفلى حتى يصلوا إلى جوٍّ نقيٍّ خالٍ من النجاسة.

وعندما يكون الإنسان في شركة مع الله فإنّ ذلك العزم القويم الذي لا التواء فيه الذي حفظ يوسف ودانيال في وسط فساد البلاط الوثني سيجعل حياتَه حياةَ الطهارة التي لا يدانيها دنس. وثياب أخلاقه ستكون بلا عيب. وسيظهر في حياته نورُ المسيح الذي لا يشوبه ظلام.ومن فوقه سيلمع نورُ كوكب الصبحِ المنيرِ بثبات ومجد لا يعتريه تغييرٌ أو أفول.

مثل هذه الحياة ستكون عنصراً من عناصر القوّة في المجتمع. وستصير حاجزاً يصدّ الشرّ وحمى للمجَرّبين ونوراً هادياً للذين في وسط الصعوبات والمخاوف والمفشّلات يبحثون عن الطريق المستقيم.

❷ التعليم والشفاء

إنّ المسيح عندما أرسل التلاميذ الاثنى عشر في السفرة الكرازية الأولى أمرهم قائلا: «فيما أنتم ذاهبون اكرزوا قائلين إنّه قَدِ اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّماوَاتِ. اِشْفُوا مَرْضَى. طَهِّرُوا بُرْصًا أَقِيمُوا مَوْتَى أَخْرِجُوا شَيَاطِينَ. مَجَّانًا أَخَذْتُمْ مَجَّانًا أَعْطُوا» (متى ١٠: ٧و٨).

أمّا السبعون الذين أرسلهم بعد ذلك فقال لهم: « وَأَيَّةُ مَدِينَةٍ دَخَلْتُمُوهَا .. اِشْفُوا الْمَرْضَى الّذينَ فِيهَا. وَقولوا لَهُمْ قَدِ اقْتَرَبَ مِنْكُمْ مَلَكُوتُ اللهِ» (لوقا١٠: ٨ و٩). وكان حضور المسيح وقوّته معهم فرجع السبعون بفرح قائلين « يَا رَبُّ حَتَّى الشَّيَاطِينُ تَخْضَعُ لَنَا بِاسْمِكَ!» (لوقا ١٠:١٧).

وبعد صعود المسيح ظلّ العمل نفسه متقدّماً. وقد تكرّرت مشاهد خدمته الخاصة «واجتمع جمهور المدن المحيطة إلى أورشليم حاملين مرضى ومعذّبين من أرواح نجسة وكانوا يبرأون جميعهم» (أعمال ١٦:٥).

أمّا التلاميذ «فَخَرَجُوا وَكَرَزُوا فِي كُلِّ مَكَانٍ وَالرَّبُّ يَعْمَلُ مَعَهُمْ» (مرقس ١٦: ٢٠). « فَانْحَدَرَ فِيلُبُّسُ إِلَى مَدِينَةٍ مِنَ السَّامِرَةِ وَكَانَ يَكْرِزُ لَهُمْ بِالْمَسِيحِ. وَكَانَ الْجُمُوعُ يُصْغُونَ بِنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِلَى مَا يَقُولُهُ فِيلُبُّسُ .. لأَنَّ .. الَّذِينَ بِهِمْ أَرْوَاحٌ نَجِسَةٌ كَانَتْ تَخْرُجُ صَارِخَةٍ .. وَكَثِيرُونَ مِنَ الْمَفْلُوجِينَ وَالْعُرْجِ شُفُوا. فَكَانَ فَرَحٌ عَظِيمٌ فِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ» (أعمال٨: ٥–٨).

إنّ لوقا، كاتب الإنجيل الذي يحمل اسمه، كان طبيباً مرسلاً. فالكتاب المقدّس يقول عنه إنّه «الطَّبِيبُ الْحَبِيبُ» (كولوسي٤: ١٤). وقد سمع بولس الرسول عن مهارته كطبيب

وطلبه باحثاً عنه كمن قد أوكل الربّ إليه عملاً خاصاً، فظفر بتعاونه. وكان لوقا يرافقه بعض الوقت في سفراته من مكان إلى مكان. وبعد وقت ترك بولس لوقا في فيلبي بمكدونية. وفي هذه المدينة ظلّ يخدم عدّة سنين كطبيب وكمعلّم للإنجيل. وفي عمله كطبيب كان يخدم المرضى وحينئذ كان يصلّي طالباً أن تستقّر قوّة الله الشافية على المصابين بالأمراض، وهكذا انفتح الطريق لرسالة الإنجيل. إنّ نجاح لوقا كطبيب أتاح له فرصاً كثيرة للكرازة بالمسيح بين الأمم. وتدبير الله لنا هو أن نخدم كما قد خدم التلاميذ. إنّ شفاء الجسّد مرتبط برسالة الإنجيل. وفي عمل الإنجيل يجب أن لا ينفصل التعليم عن الشفاء إطلاقاً.

كان عمل التلاميذ هو نشر معرفة الإنجيل، وقد أُسند إليهم عمل نشر البشرى التي أتى بها المسيح إلى الناس، في كلّ العالم، وقد قاموا بذلك العمل للناس في جيلهم، ففي جيل واحد حُمل الإنجيل إلى كلّ أمّة تحت السماء.

إنّ تقديم الإنجيل للعالم هو العمل الذي أسنده الله لمن يحملون اسمه. وإنّ الإنجيل هو الترياق الوحيد لخطيّة الأرض وشقائها. إنّ أوّل عمل لمن يعرفون قوّة رسالة نعمة الله الشافية هو أن يعرّفوا بها كلّ بني الإنسان.

الحاجة إلى الإنجيل

عندما أرسل المسيح التلاميذ برسالة الإنجيل كان الإيمان بالله وبكلمته موشكاً أن يرحل عن العالم. فبين شعب اليهود الذين كانوا يعترفون بأنّ عندهم معرفة الرب كانت كلمته قد أُلقيت جانباً ليستعاض عنها بتقاليد الناس وآرائهم ونظرّياتهم. إنّ الطموح الأناني وحبّ التفاخر والمباهاة والطمع في الكسب استبدّت بأفكار الناس. وكما تركهم توقيرهم لله كذلك فارقتهم رحمتهم للناس. فكانت الأثرة هي المبدأ السائد، فأجرى الشيطان إرادته في جلب الشقاء والانحطاط على البشرّية.

وقد استحوّذت القوّات الشيطانيّة على الناس وتسلّطت عليهم. وأجساد الناس التي خُلقت لتكون مسكناً لله صارت مسكناً للشياطين. وحواسّ الناس وأعصابهم وأعضاء أجسامهم استخدمتها قوات خارقة الطبيعة في الانغماس في أنجس الشهوات. وقد طُبعت وجوه الناس بطابع الشيطان نفسه، وانعكست عليها سيماء أجناد الشرّ التي امتلكتهم.

وما هي حالة العالم اليوم؟ ألم يتلاش الإيمان بالكتاب فعلاً بسبب الانتقاد الأعلى والآراء المنتشرة اليوم كما قد حدث ذلك بفعل التقليد وتعاليم معلّمي اليهود في أيّام المسيح؟ ألا يتحكّم الطمع والطموح وحبّ الملذّات بكلّ قوّة في قلوب الناس اليوم كما كانت فيما مضى؟ وفي العالم المُعترف بالمسيحيّة بل حتى في الكنائس المُعترفة بالمسيح ما أقلّ من يسلكون بموجب المباديء المسيحيّة! وفي التجارة والعمل، وفي المحيط الاجتماعي والبيتي، وحتى المحيط الديني ما أقلّ من يجعلون تعاليم المسيح قانوناً لحياتهم اليوميّة! أليس حقّاً أنّ «العدل يقف بعيداً .. والاستقامة لا تستطيع الدخول .. والحائد عن الشرّ يُسلب؟» (إشعياء٥٩: ١٤و١٥).

إنّنا عائشون في وسط وباء الجريمة الذي يقف حياله الرجال المفكّرون خائفو الله في كلّ مكان مشدوهين. إنّ قلم الإنسان لأعجز من أن يصف الفساد المستشري. وكلّ يوم يطلع علينا بأخبار جديدة عن المنازعات السياسيّة والرشوة والفسق. وكلّ يوم يجيء بأخباره المحزنة عن التمرّد وعدم الاكتراث لآلام البشريّة والقضاء على حياة الناس بوسائل وحشيّة شيطانيّة. وكلّ يوم يشهد عن تفاقم الجنون والقتل والانتحار. من ذا الذي يشكّ في أنّ القوّات الشيطانيّة تعمل بين الناس بنشاط أعظم لتصيب العقول بالخبل والفساد وتنجّس الجسد وتهلكه.

وفي حين أنّ العالم مملوء بهذه الشرور فإنّ الإنجيل في غالب الأحيان يُقدّم في غير اكتراث بحيث لا يؤثر في ضمائر الناس وحياتهم إلاّ تأثيراً طفيفاً جدّاً. وفي كلّ مكان توجد قلوب تصرخ في طلب شيء لا تملكه. إنّهم يشتاقون إلى القوّة التي تعطيهم

النصرة على الخطيّة، التي تحرّرهم من عبودية الشرّ، القوّة التي تمنح الصحّة والحياة والسلام. إنّ كثيرين ممّن عرفوا قبلاً قوّة كلمة الله يعيشون في أوساط لا يعترف الناس فيها بالله، وهم يتوقون إلى وجود الله معهم.

إنّ العالم اليوم يحتاج إلى ما كان مفتقراً إليه منذ تسعة عشر قرناً خلت – أي إعلان المسيح. توجد حاجة إلى عمل إصلاح عظيم، ولكنّ الاسترداد أو الشفاء الجسدي والعقلي والروحي لا يتمّ بغير نعمة المسيح.

طريقة المسيح في الوصول إلى الشعب

إنّ طريقة المسيح هي وحدها التي تُعطي لنا النجاح في الوصول إلى الشعب. لقد اختلط المُخلّص بالناس كمن كان يحبّ لهم الخير. وبرهن لهم على عطفه وخدم حاجاتِهم وظفر بثقتهم. ثمّ أمرهم قائلا لكلّ منهم: «اتْبَعْنِي».

هنالك حاجة للاقتراب من الناس بواسطة المجهود الشخصي. فلو صرفنا وقتاً أقلّ في إلقاء العظات وكرّسنا وقتاً أكبر في الخدمة الفردّية لرأينا نتائج أعظم. ينبغي إسعاف المساكين ورعاية المرضى وتعزية المحزونين والثكالى وتعليم الجهّال وتقديم النصح والإرشاد لعديمي الخبرة. علينا أن نبكي مع الباكين ونفرح مع الفرحين. فإذ نكون مزوّدين بقوّة الإقناع وقوّة الصلاة وقوّة محبّة الله فهذا العمل لا ولن يكون عقيماً بلا ثمر.

وعلينا أن نذكر دائماً أنّ هدّف الطبيب المُرسل هو أن يوجّه أنظار الناس المرضى بالخطيّة من الرجال والنساء إلى إنسان جلجثة الذي يرفع خطية العالم. فإذ ينظرون إليه يتغيّرون بحيث يصيرون مثله. وعلينا نحن أن نشجّع المرضى والمتألّمين على أن ينظروا إلى يسوع ويحيوا. ليجتهد الخدّام في جعل الذين أصابتهم أمراض الجسد والعقل بالضعف وخور العزيمة يثبّتون أنظارهم دائماً في المسيح الطبيب الأعظم. وجّهوا أنظارهم إلى ذاك الذي يستطيع أن يشفي أمراض الجسد والروح. أخبروهم عن ذاك الذي يرثي لضعفاتهم. شجّعوهم على أن يسلّموا أنفسهم لرعاية من قد بذل نفسه ليجعل

حصولَهم على الحياة الأبديّة ممكناً. تحدّثوا عن محبّته وأخبروهم عن قدرته على أن يخلّص.

هذا هو الواجب السامي والامتياز الثمين للطبيب المُرسَل. وإنّ الخدمة الفردّية كثيراً ما تُمهّد الطريق لهذا. وفي كثير من الأحيان يصل الله إلى القلوب عن طريق الجهود التي نبذلها لتخفيف الآلام الجسدّية.

إنّ عمل الطبيب المُرسَل هو عمل الرائد الذي يُمهّد الطريق للإنجيل. ففي خدمة الكلمة وفي خدمة الطبيب المُرسَل يجب الكرازة بالإنجيل والسير بموجبه.

الممرضون والممرضات

هناك في كلّ مجتمع تقريباً كثيرون ممّن لا يسمعون الكرازة بكلمة الله أو يحضرون أيّة خدّمة دينيّة. فإذا أردنا أن يصل الإنجيل إليهم، علينا أن نحمله إلى بيوتهم. وأحياناً كثيرة تكون خدمة حاجاتِهم الجسديّة هي المنفذ الوحيد الموصّل إليهم. إنّ الممرضين والممرضات المُرسَلين الذين يهتمّون بالمرضى ويفرجون كرب المساكين يجدون فرصاً كثيرة ليصلّوا معهم ويقرأوا لهم من كلمة الله ويحدّثوهم عن المخلّص. باستطاعتهم أن يصلّوا مع العاجزين ومن أجلهم، الذين لا قوّة إرادة لهم على ضبط شهيّتهم التي عملت الشهوة على إفسادها. وبإمكانهم أن يدخلوا شعاعاً من الرجاء في حياة المهزومين والمُثَبطي العزيمة. إنّ محبّتهم الخالصة، إذ تُظهرها أعمال اللطف المُجرّدة عن كلّ غرضٍ ستجعلُ من السهل على المُتألّمين أن يؤمنوا بمحبّة المسيح.

كثيرون لا يؤمنون بالله، وقد ضاعت ثقتهم بالناس، ولكنّهم يقدّرون أعمال العطف والعون. فعندما يرون إنساناً يدخل إلى بيوتهم ليخدم المرضى ويطعم الجياع ويكسو العراة ويُعزّي الحزانى وبكلّ رقّة يوجّه أنظارَهم جميعاً إلى ذاك الذي ليس الخادم البشري إلاّ رسولاً لمحبّته ورحمته – عندما يرون هذا ويعلمون أنه ليس مسوقا إلى هذا العمل حبّاً في كسب مديح الناس أو طمعاً في جزاءٍ أرضي، فلابدّ أن تتأثّر قلوبهم. حينئذ

ينبثق الشكر من قلوبهم ويضطرم فيهم الإيمان، ويرون أنّ الله يهتّم بهم، وحينئذ يكونون مُستعدّين للاستماع إلى كلمته عندما تُتلى عليهم.

وسواء في المرسليّات الأجنبيّة أو في الحقل المحلّي فإنّ المُرسَلين، الرجال منهم والسيّدات لابدّ أن يُرحَّب بهم من كلّ الناس ترحيباً عظيماً، وسيجدون أنّ نفعهم قد زاد كثيراً لو استطاعوا أن يخدموا المرضى. والسيّدات اللاتي يذهبن كمُرسلات إلى البلدان الوثنيّة يمكنهن بهذه الوسيلة أن يجدن فرصة لتقديم الإنجيل لنساء تلك البلدان عندما يكون كلّ بابٍ للوصول إليهنّ مغلقاً. فعلى كلّ خدّام الإنجيل أن يعرفوا كيف يقدّمون العلاجات البسيطة الكفيلة بأن تخفف الألم وتزيل المرض.

تعليم مباديء الصحة

ينبغي أن يكون خدّام الإنجيل قادرين أيضاً على تعليم الناس المباديء الصحّية للحياة. إنّ المرض موجود في كلّ مكان ويمكن تفادي الشيء الكثير منه لو انتبه الناس إلى قوانين الصحّة. إنّ الناس يحتاجون إلى أن يروا أهميّة مباديء الصحّة وتأثيرها بالنسبة لخيرهم في هذه الحياة وفي الحياة العتيدة. وعليهم أن ينتبهوا إلى مسؤولياتِهم تجاه المسكن البشري الذي قد أعدّه خالقهم مسكناً له، والذي يريدهم أن يكونوا وكلاء أمناء عليه. ويجب أن ينطبع على قلوبهم الحقّ الذي تحمله كلمة الله المقدّسة إذ تقول:

« فَإِنَّكُمْ أَنْتُمْ هَيْكَلُ اللهِ الْحَيِّ كَمَا قَالَ اللهُ إِنِّي سَأَسْكُنُ فِيهِمْ وَأَسِيرُ بَيْنَهُمْ وَأَكُونُ لَهُمْ إِلهًا وَهُمْ يَكُونُونَ لِي شَعْبًا » (٢ كورنثوس٦: ١٦).

إنّ آلافاً من الناس يحتاجون وبكلّ سرور يقبلون أن يتعلّموا عن الطرق البسيطة لمعالجة المرضى – تلك الطرق التي بدأت تحلّ في مكان استخدام العقاقير السامّة. توجد حاجة مُلحّة لتعلّم ما يتعلّق بإصلاح الغذاء الصحّي، فالعادات الخاطئة في الأكل واستعمال الطعام غير الصحّي يُعزى إليها، إلى حدّ كبير، عدم الاعتدال والجرائم والتعاسة التي هي لعنة على العالم.

وعند تعليم مباديء الصحّة يجب أن تذكر دائماً هدفَ الإصلاح – إنّ الغايةَ منه هي ضمانُ أسمى تطوّر للجسم والعقل والنفس. بيّن أنّ نواميسَ الطبيعةِ لكونها نواميس الله فالمقصود منها هو خيرُنا، وإنّ الطاعة لها ترقى بسعادتنا في هذه الحياة وتعين على التأهّب للحياة الآتية.

اجعل الناس يدرسون إعلان محبّة الله وحكمته في أعمال الطبيعة. قُدهم إلى دراسة ذلك النظام أو البناء الآلي المدهش، ألا وهو الجسم البشري والقوانين التي تسيطر عليه. إنّ من يشاهدون براهين محبّة الله والذين يدركون شيئاً من حكمة نواميسه وإحسانها ونتائج الطاعة لابدّ أن ينظروا إلى واجباتهم والتزاماتِهم من وجهة نظر أخرى تختلف اختلافاً بيّناً. فبدلاً من أن ينظروا إلى حفظ قوانين الصحّة على أنّه تضحية أو إنكار للذّات فلابدّ أن ينظروا إليه، كما هو في حقيقته، كبركة لا يمكن تقديرها.

وعلى كلّ خادم للإنجيل أن يحسّ بأنّ إعطاءَ دروس في مباديء العيشة الصحّية هو جزء من العمل المُعيّن له. وتوجد حاجة عظمى إلى هذا العمل، والعالم متفتّح له.

يوجد في كلّ مكان ميل للاستعاضة بالعمل المنظم عن العمل الفردي "أي استبدال المجهود الفردي بعمل المنظمات والمؤسّسات". إنّ الحكمة البشرية تميل إلى التوحيد والتركيز والتوطيد وبناء كنائس ومؤسّسات عظيمة. وكثيرون يتركون للمؤسّسات عمل الإحسان والخير، ويعفون أنفسهم من الاتصال بالعالم وقد فترت قلوبهم. وهكذا يصيرون قوماً انطوائيين جامدي العواطف، فتذوى محبّتهم لله والإنسان وتموت.

إنّ المسيح يسند إلى تابعيه عملاً فرديّاً – عملاً لا يمكن إتمامه عن طريق الإنابة أو التفويض. فخدمة المرضى والفقراء وتقديم الإنجيل للهالكين ينبغي ألاّ تُترك لِلِجان أو الجمعيّات الخيريّة. إنّ مطلب الإنجيل هو المسؤوليّة الفرديّة والعمل الفردي والتضحية الفرديّة.

لقد أمر المسيح قائلاً: « اخْرُجْ إِلَى الطُّرُقِ وَالسِّيَاجَاتِ وَأَلْزِمْهُمْ بِالدُّخُولِ حَتَّى يَمْتَلِيءَ بَيْتِي » (لوقا ١٤: ٢٣). إنّه يجعل الناس على اتصال بمن يطلبون تقديم النفع والعون لهم. « أن تُدْخِلَ الْمَسَاكِينَ التَّائِهِينَ إِلَى بَيْتِكَ » (إشعياء ٥٨: ٧). « إِذَا رَأَيْتَ عُرْيَانًا أَنْ تَكْسُوهُ » « وَيَضَعُونَ أَيْدِيَهُمْ عَلَى الْمَرْضَى فَيَبْرَأُونَ » (مرقس ١٦: ١٨). فعن طريق الاتصال المباشر وعن طريق الخدمة الفرديّة تُقَّدم بركات الإنجيل للناس.

الجميع خـدّام

إنّ الله إذ أعطى النور لشعبه قديماً لم يعمل من خلال أيّة طبقة بذاتها. فقد كان دانيال أحد أمراء يهوذا، كما كان إشعياءُ أيضاً من النسل الملوكي، وكان داودُ راعياً للغنم، وعاموسُ كان راعياً. وزكريّا كان مسبيّاً من بابل، وإليشع كان حرّاثاً للأرض. وقد أقام الربّ أنبياء وأمراء وشرفاء وأدنياء ليكونوا مُمثلين له، وعلّمهم الحقائق التي كان عليهم أن يقدّموها للعالم.

إنّ الرب يعيّن لكلّ من يصير شريكاً في نعمته عملاً يقوم به لأجل الآخرين. وعلى كلّ فرد منّا أن يقف في قرعته ومكانه قائلاً: «هأنذا أرسلني» (إشعياء٦: ٨). إنّ المسؤوليّة موضوعة على الجميع – على خادم الكلمة والمُمرض المُرسَل والطبيب المسيحي وكلّ فرد مسيحي، سواء أكان تاجراً أو مزارعاً أو صاحبَ مهنة أو رجلاً ميكانيكياً. وعملنا هو أن نُعلن للناس إنجيلَ الخلاص. وكلّ مشروع أو عمل نقوم به ينبغي أن يكون وسيلةً لهذه الغاية.

والذين يضطلعون بالعمل المُعيّن لهم لن يكونوا فقط بركة للآخرين ولكنّهم هم أنفسهم سيتباركون. إنّ إحساسَهم بأنّهم قد أدّوا واجبهم خيرَ أداءٍ سيكون له تأثيرٌ منعكسٌ على نفوسهم. فاليائسون ينسون يأسهم والضعفاء يصيرون أقوياء والجّهال يصبحون أذكياء والجميع سيجدون في المسيح الذي دعاهم، معيناً لا يكلّ ولا يخيب.

الكنيسة مدرسة

إنّ كنيسة المسيح مُنظّمة لأجل الخدمة. وكلمة السرّ عندها هي الخدمة. فأعضاؤها جنود يجب تدريبهم على الحرب تحت قيادة رئيس خلاصهم. والخدّام والأطباء والمُعلّمون المسيحيون لهم عمل أكثر اتساعاً ممّا يعرف الكثيرون. ففضلاً عن كونهم يخدمون الشعب يجب أن يعلّموهم أن يخدموا. ينبغي لهم ألاّ يقتصروا على تقديم المبادىء الصحيحة بل عليهم أن يدرّبوا سامعيهم على نشر هذه المبادىء. فالحقّ إذا لم يعش الناس بموجبه ولم يُنشر بينهم يفقدُ قوّتَه المانحة الحياة والشفاء. ويمكن الاحتفاظ ببركته فقط على قدر ما نشاركه مع الآخرين.

إنّ سير خدمتنا لله على نسقٍ واحدٍ مملّ، وهو أمر ينبغي إبطاله. فعلى كلّ عضو في الكنيسة أن يقوم بنوعٍ ما من أنواع الخدمة للسيّد. البعض لا يمكنهم القيام بمثل ما يقوم به آخرون، إنّما يجب على كلّ واحد أن يبذلَ قصاراه ليصدّ تيّارَ المرضِ والضيقِ الذي يكتسح العالم. وكثيرون قد يرغبون في أن يعملوا إذا وجدوا من يعلّمهم كيف يبدأون، فهم بحاجة إلى التعليم والتشجيع.

ينبغي أن تكون كل كنيسةٍ مدرسةً لتعليم الخدّام المسيحيين. وعلى أعضائها أن يتعلّموا كيف يقدّمون دراساتٍ كتابية، وكيف يديرون ويعلّمون في فصول مدارس السبت، وأفضل طريقة لمساعدة الفقراء ورعاية المرضى، وكيف يخدمون غير المتجدّدين. وينبغي أن تكون هنالك مدارس للصحّة ومدارس للطهو وشتى أنواع عمل المعونة المسيحيّة. كما ينبغي ألاّ يُكتفى بالتعليم بل يجب أن يكون هناك عمل فعلي تحت إشراف مُعلّمين مُحنّكين. وعلى المُعلّمين أن يسيروا في الطليعة في العمل بين الشعب، وإذ يشترك معهم آخرون سيتعلّمون من مثالهم. إنّ شخصاً واحداً يصلح لأن يكون قدوة لهو أفضل من تعاليم كثيرة.

وعلى الجميع أن يرقّوا ويثقّفوا قوّاهم الجسمانيّة والعقليّة إلى أقصى حدود قدرتهم حتى يخدموا الله أينما تدعوهم عنايتُه. إنّ نفس النعمة التي منحها المسيح لبولس وأبلّوس والتي ميّزتهما بالصفات الروحيّة تُمنَح اليوم للمُرسَلين المسيحيين المكرّسين. إنّ الله يريد أن يكون عند أولادِه ذكاءٌ ومعرفة حتى يُعلن مجدُه في عالمنا بوضوح وقوّة لا يدانيهما خطأ.

أنجح الخدّام

إنّ الخدّام المُتعلّمين الذين هم مكرّسون لله يستطيعون أن يقوموا بالخدمة في تنوّعٍ أعظم من حيث الطرق والوسائل، ويستطيعون أن ينجزوا عملاً أوسع وأكثر امتداداً مما يستطيع أن يقوم به غير المتعلّمين. إنّ تدريب عقولهم يعطيهم مركزاً ممتازاً للخدمة. أمّا الذين ليست لهم مواهب عظيمة ولا نالوا قسطاً وافراً من التعليم فقد يقدّمون للآخرين خدماتٍ مقبولةً. إنّ الله يستخدم الأشخاص المُستعدّين لأن يُستخدَموا. فليس الأشخاص الأكثر نبوغاً وذكاءً أو الأعظمَ في مواهبهم هم الذين يأتي عملُهم بأعظمِ النتائج وأكثرها دواماً. فالحاجةُ هي إلى رجالٍ ونساءٍ سمعوا رسالة من السماء. إنّ أعظم الخدّام تأثيراً هم الذين يستجيبون للدعوة « اِحْمِلُوا نِيرِي عَلَيْكُمْ وَتَعَلَّمُوا مِنِّي » (متى ١١:٢٩).

إنّ المُرسلين الذين يُحتاجُ إليهم هم الذين يخدمون بقلوبهم. فالذي يمسّ الله قلبه هو الذي يمتليء بشوقٍ عظيم وحنينٍ طاغٍ نحو من لم يعرفوا محبّته قطّ. إنّ حالتهم تملأه إحساساً بالشقاء الشخصي. فإذ يضع حياته في كفّه يخرج كرسول أرسلته السماء وألهمته ليقوم بعمل يمكن للملائكة أن يتعاونوا معه فيه.

إذا كان الذين حباهم الله وأودع في قلوبهم قدراً كبيراً من الذكاء والمواهب الفذّة يستخدمون مواهبَهم في أغراض أنانيّة، فبعد فترة اختبار سيُترَكون ليسيروا في طريقهم. فالله يأخذ الرجال الذين لا يبدو أنّهم يملكون مواهب غنيّة والذين لا يثقون بذواتهم

كثيراً. وهـو سيُبّدل الضعف بالقوّة لأنّهم يثقون بأنّه سيفعل بهم ما لا يستطيعون عمله لأنفسهم. والله يقبل الخدمة التي من كلّ القلب وهو بنفسه يُكمّل النقص.

كثيراً ما اختار الربّ خدّاماً ليعملوا معه. فمن لم تُتح لهم الفرصة إلاّ لتحصيل قسط محدود من العلم في المدرسة – هؤلاء الناس استخدموا قوّاهم بكلّ اجتهاد، فكافأ الربّ ولاءهم لعمله واجتهادَهم وتعطّشَهم للمعرفة. لقد رأى دموعهم وسمع صلاتهم. فكما حلّت بركته على المسبّين في بلاط بابل كذلك هو يمنح الحكمة والمعرفة لخدّامه اليوم.

إنّ الذين نالوا حظّاً قليلاً من العلوم المدرسيّة والذين ليس لهم مقام مرموق في المجتمع أحرزوا في بعض الأحيان نجاحاً باهراً في ربح النفوس بنعمة المسيح. وسرّ نجاحهم هو في ثقتهم بالله. لقد كانوا كل يوم يتعلّمون من ذاك الذي هو عجيب في مشورته وعظيم في قدرته.

فينبغي تشجيع مثل هؤلاء الخدّام. إنّ الربّ يجعلهم على اتصال بذوي المقدرة الملحوظة الممتازة ليسدّ الثغرات التي يتركها الآخرون. إنّ سرعتَهم في رؤية ما يجب عمله واستعدادَهم لمعونة كلّ المحتاجين وأقوالهم الرقيقة وأعمالهم الصالحة – كلّ هذه تفتح أمامهم الأبوابَ النافعةَ التي لولا ذلك كانت تظلّ موصدة. إنّهم يقتربون ممّن هم في ضيق أو اضطراب، وإنّ قوّة الإقناع التي تصحب أقوالَهم تستطيع أن تجتذبَ نفوساً كثيرة خائفة إلى الله. إنّ عملهم يثبت ما يمكن لآلاف آخرين أن يعملوه لو أرادوا.

حياة أكثر اتساعاً

لا شيء مثل خدمة الإنسان للآخرين يستطيع أن يوقظ في النفس غيرةً مُضحّية ويوّسع أفقَ الخُلُق ويقوّيه. إنّ كثيرين من المُعترفين بالمسيحيّة عندما يحاولون إقامة علاقاتٍ بينهم وبين الكنيسة لا يفكّرون في غير أنفسهم. فهم يرغبون في التمتّع بشركة الكنيسة واهتمام الراعي، ثمّ يصيرون أعضاء في كنائس كبيرةٍ وناجحة، ويكتفون بأن يعملوا قليلاً لأجل الآخرين. وهم بهذه الوسيلة يحرمون أنفسهم من أثمن البركات. إنّ

كثيرين يحصلون على نفع كبير إذ يضحّون بعشرائهم المُحبّين للّهو والتفكّه. إنّهم بحاجة للذهاب إلى حيث تدعو الحاجةُ إلى جهودهم في العمل المسيحي، ويمكنهم أن يتعلّموا الاضطلاع بالمسؤوليات.

إنّ الأشجار التي تنمو وهي متقاربة في مكانٍ واحدٍ لا تنمو نموّاً صحّياً أو ثابتاً قويّاً، ولهذا فالبستاني ينقلها حتى يكون لديها مجال للنمو. وإنّ عملاً شبيهاً بهذا قد يكون ذا نفعٍ لأعضاء الكنائس الكبيرة. فهم بحاجة إلى أن يكونوا في الأماكن التي فيها يُحتاج إلى قوّى نشاطهم في الخدمة المسيحيّة الناشطة. إنّهم يخسرون حياتَهم الروحيّة ويصيرون عاجزين كأقزام لأنّهم لا يقومون للآخرين بخدمة مُضحيّة. فلو نُقلوا إلى حقل كرازي قد يصبحون أقوّياء ونشيطين.

ولكن لا حاجة لأحدٍ أن ينتظر حتى يُدعى للذهاب إلى حقلٍ بعيد قبل البدء في مساعدة الآخرين، فأبوابُ الخدمةِ مفتوحة في كلّ مكان. إنّ كلّ من حولنا يحتاجون إلى معونتنا، فالأرملة واليتيم والمريض والمحتضر والحزين والخائف والجاهل والمنبوذ موجودون في كلِّ مكان.

ينبغي لنا أن نحسّ أنّ واجبنا الخاصّ هو أن نخدمَ من يعيشون في جوارنا. إذاً ادرس كيف يُمكنك أن تقدّم أفضلَ خدمة ومعونة لمن لا يهتمّون بالأمور الدينيّة. وإذ تزور أصدقاءَك وجيرانَك برهن لهم على اهتمامك بخيرهم الروحي والزمني أيضاً. حدّثهم عن المسيح كالمخلّص غافر الخطايا. وادعُ جيرانَك إلى بيتك واقرأ معهم من الكتاب المقدّس الثمين ومن الكتب التي تُوضّح تعاليمه. ثمّ ادعهم للاشتراك معك في التسبيح والصلاة. إنّ المسيح نفسَه يحضر إلى هذه الاجتماعات الصغيرة كما قد وعد، وستتأثر القلوب بنعمته.

على أعضاء الكنائس أن يدرّبوا أنفسَهم على القيام بهذا العمل. وهو عمل هام وجوهري، مثله مثل تخليص النفوس المكتنفة بالظلمة في البلدان الأجنبيّة. وفي حين

يحسّ البعض بثقل حمل النفوس العائشة في بلاد بعيدة فليحسّ الكثيرون ممّن هم في الوطن بمسؤولية النفوس الغالية التي حولهم ويعملوا بنفس الاجتهاد لأجل خلاصهم.إنّ كثيرين يأسفون لكونهم يعيشون حياة ضيّقة. هؤلاء أنفسهم في مقدورهم أن يجعلوا حياتَهم مُتّسعةً وذات تأثير لو أرادوا. فالذين يحبون يسوع من كلّ القلب والفكر والنفس ويحبّون القريب كالنفس أمامهم حقل مُتسع فيه يمكنهم استخدام مقدرتهم وتأثيرهم.

الفرص الضئيلة

ينبغي ألاّ يغفل أحد الفرص الضئيلة في انتظار عمل أكبر. فأنت يُمكنك أن تقوم بالعمل الصغير بنجاح، ولكنّك قد تفشل فشلاً ذريعاً في محاولة القيام بعمل أعظم فيخور عزمك. إنّك إذ تعمل بقوّتك العمل الذي تجده يدك ينمو استعدادُك وكفاءتُك للقيام بعمل أكبر. إنّ أناساً كثيرين إذ استخفّوا بالفرص المُقدّمة لهم كلّ يوم وأهملوا الأشياء الصغيرة التي تحت يدهم أصابهم العقم والذبول.

لا تعتمد على المعونة البشرّية. انظر إلى ما هو أعلى من البشر، إلى ذاك الذي أقامه الله ليحمل أحزاننا ويتحمّل أوجاعنا ويسدّ أعوازنا. فإذ تعتمد على وعد الله وكلمته ابدأ بالعمل أينما تجد عملاً تعمله، وتقدّم إلى الأمام بإيمان لا يتزعزع. إنّ الإيمان بحضور المسيح هو الذي يمنح النفس قوّة وثباتاً. فاعمل باهتمام غير أناني وبجهد مُضنٍ ونشاط مثابر دؤوب.

إنّ الحقول التي كانت الظروف فيها رديئة وغير مواتية ومثّبطة للعزائم بحيث امتنع كثيرون عن الذهاب إليها حدثت فيها تغييرات وإصلاحات عظيمة نتيجة لجهود الخدّام المُضحّين. لقد خدم أولئك بصبر ومثابرة غير مُتكلين على القوّة البشريّة بل على الله فأعانتهم نعمتُه. ولن يُعرف مقدار العمل الصالح الذي أُنجز بهذه الكيفية في هذا العالم، ولكن النتائج المباركة ستُرى في الأبدية العظيمة.

خدّام يعولون أنفسهم

في أمكنة كثيرة يستطيع المُرسلون الذين يقومون بإعالة أنفسهم أن يخدموا بنجاح. إنّ بولس الرسول عمل في نشر معرفة المسيح في كلّ أنحاء العالم كمُرسَل يعول نفسَه. فإذ كان يُكرز بالإنجيل كلّ يوم في المدن العظيمة في آسيا وأوروبا كان يشتغل في حرفة صانع ليعول نفسه وزملاءه. وإنّ كلماته الوداعيّة التي خاطب بها شيوخ أفسس مبيّناً طريقته في العمل تتضمّن تعاليمَ ثمينةً لكلّ خادم للإنجيل.

قال: «أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ .. كَيْفَ كُنْتُ مَعَكُمْ كُلَّ الزَّمَانِ .. كَيْفَ لَمْ أُؤَخِّرْ شَيْئًا مِنَ الْفَوَائِدِ إِلاَّ وَأَخْبَرْتُكُمْ وَعَلَّمْتُكُمْ بِهِ جَهْرًا وَفِي كُلِّ بَيْتٍ .. فضة أو ذهب أو لباس أحد لم اشته. أنتم تعلمون أَنَّ حَاجَاتِي وَحَاجَاتِ الَّذِينَ مَعِي خَدَمَتْهَا هَاتَانِ الْيَدَانِ. فِي كُلِّ شَيْءٍ أَرَيْتُكُمْ أَنَّهُ هكَذَا يَنْبَغِي أَنَّكُمْ تَتْعَبُونَ وَتَعْضُدُونَ الضُّعَفَاءَ مُتَذَكِّرِينَ كَلِمَاتِ الرَّبِّ يَسُوعَ أَنَّهُ قَالَ مَغْبُوطٌ هُوَ الْعَطَاءُ أَكْثَرُ مِنَ الأَخْذِ» (أعمال ٢٠: ١٨-٣٥).

إنّ كثيرين اليوم لو تشرّبوا نفس روح التضحية هذه لأمكنهم أن يصنعوا عملاً صالحاً بمثل هذه الطريقة. ليبدأ اثنان أو أكثر بالخروج معاً للخدمة الكرازية، وليزوروا الناس، مُصلّين ومُسبّحين وكارزين، ومُوضّحين الكتب، خادمين المرضى. فيمكن للبعض أن يعولوا أنفسَهم من بيع الكتب، وآخرون يمكنهم أن يعملوا في حرفة أو صنعة يدويّة كالرسول، أو أيّة ناحية أخرى من نواحي العمل. فإذ يتقدّمون في عملهم موقنين بعجزهم ودائماً يعتمدون على الله بكلّ تواضع فإنّهم يكتسبون اختباراً مباركاً. إنّ الربّ يسوع يسير أمامهم، وإنّهم لواجدون بين الأغنياء والفقراء كلّ رضى ومعونة.أمّا الذين تدّربوا للقيام بعمل الطبيب المُرسَل في البلدان الأجنبيّة فليتشجّعوا في الذهاب بلا توانٍ حيث ينتظرون أن يخدموا ويبدأوا في العمل بين الناس وأن يتعلّموا اللغة وهم يخدمون. وسرعان ما سيكونون قادرين على أن يعلّموا الناس التعاليم البسيطة في كلمة الله.

توجد حاجة إلى رُسل الرحمة في كلّ أنحاء العالم. وتوجد دعوة موجّهة إلى العائلات المسيحيّة لأن يدخلوا في مجتمعات يعيش أهلها في الظلام والخطأ، والذهاب إلى حقول أجنبيّة ليتعرّفوا على حاجات إخوتهم البشر، ويعملوا من أجل تقدّم عمل الربّ. فإذا ذهبت مثل تلك واستقرّت في أماكن مُظلمة حيث يكتنف الناسَ ظلامُ روحيٌ، وجعلت نور حياة المسيح يشعّ منها، فما أنبل العمل العظيم الذي يُمكن أن يتمّ.

هذا العمل يتطلّب إنكارَ الذات. ففي حين أنّ كثيرين ينتظرون حتى تُزال كلّ العقبات من طريقهم فالعمل الذي يمكنهم أن يعملوه لا يتمّ. وكثيرون يموتون بلا رجاء ولا إله. إنّ بعض الناس، في سبيل الحصول على ميزة تجاريّة أو اجتناء معرفة علميّة، يجازفون بالدخول إلى أقاليم غير مُستقرّة، وبكلّ سرور يتحمّلون المشاق والتضحيات. ولكن ما أقلّ من يرغبون في الانتقال بعائلاتهم إلى الأقاليم المُحتاجة إلى الإنجيل، لأجل خير بني البشر.

إنّ الخدمة الحقيقة هي الوصول إلى الناس أينما يوجدون وأيّاً كان مركزهم أو حالتهم، وتقديم العون لهم بكلّ وسيلة ممكنة. بمثل هذا المجهود يُمكنك أن تكسب القلوب وتفتح الباب للوصول إلى النفوس الهالكة.

وفي كلّ عملك اذكر أنّك مُرتبط بالمسيح وجزء من تدبير الفداء العظيم. إنّ محبّة المسيح يجب أن تفيض في حياتك في تيّارٍ شافٍ ومانح للحياة. وإذ تحاول جذب الآخرين ضمن محيط محبّته اجعل طهارةَ كلامِك وأريحيّة خدمتك وفرحَ تصرّفاتِك وسلوكَك شهادةً لقوّةِ نعمته. قدّم للعالم مثالاً طاهراً وبارّاً عنه بحيث يراه الناس في جماله.

اللباقة واللطف

إنّه لا يوجد كثيرُ نفعٍ من محاولة إصلاح الآخرين بمهاجمة ما نعتبره عاداتٍ مخطئة. مثل هذا المجهود كثيراً ما ينجم عنه ضررٌ أكثرَ من الخير. إنّ المسيح في حديثه مع المرأة السامرّية، بدلاً من أن يذمّ بئرَ يعقوب، قدّم لها شيئاً أفضلَ. فقد قال لها: « لَوْ كُنْتِ

تَعْلَمِينَ عَطِيَّةَ اللهِ وَمَنْ هُوَ الَّذِي يَقُولُ لَكِ أَعْطِينِي لأَشْرَبَ لَطَلَبْتِ أَنْتِ مِنْهُ فَأَعْطَاكِ مَاءً حَيًّا» (يوحنا ٤: ١٠). وقد حوّل مجرى الحديث إلى الكنز الذي كان سيمنحه، مُقدّماً لتلك المرأة شيئاً أفضل مّما كانت تملك، أي الماءَ الحيّ، فرحَ ورجاءَ الإنجيل.

هذا مثال للكيفيّة التي علينا أن نخدم بها. فعلينا أن نُقدّم للناس شيئاً أفضل مما يملكون أيّ سلامَ المسيح الذي يفوق كلّ عقل. علينا أن نخبرَهم عن شريعة الله المقدّسة التي هي صورة طبق الأصلِ من صفاته وتعبيرٌ عمّا يريدهم أن يصيروا إليه. بينوا لهم التفوّق العظيم الذي لمجد الله الذي لا يزول، فوق أفراح العالم ومسرّاته الزائلة. وحدّثوهم عن الحرّية والراحة اللتين توجدان في المخلّص. فقد أعلن قائلا: «مَنْ يَشْرَبُ مِنَ الْمَاءِ الَّذِي أُعْطِيهِ أَنَا فَلَنْ يَعْطَشَ إِلَى الأَبَدِ» (يوحنا ٤:١٤).

علُّوا يسوع قائلين بأعلى صوتكم: « هُوَذَا حَمَلُ اللهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيَّةَ الْعَالَمِ!»(يوحنا ١: ٢٩). إنّه هو وحده الذي يستطيع أن يُشبع أشوّاق القلب ويمنح النفس سلاماً.

إنّ المُصلحين، من بين كلّ الناس في العالم، ينبغي أن يكونوا بعيدين كلّ البعد عن الأنانيّة، وأكثرَ الناسِ رفقاً ولطفاً. ويجب أن يُرى في حياتهم الصلاحُ الحقيقي الذي للأعمال غير الأنانيّة. إنّ الخادم الذي يُظهر عدمَ اللطف، ويبدو عليه الضجرُ من جهل الآخرين أو عصيانهم، ويكون متسرّعاً في كلامه ويتصرّف في غير تفكير، قد يغلق باب الوصول إلى القلوب بحيث لا يمكنه الوصول إليهم أبداً.

فكما ينزل الندى والطلّ والسيول الهادئة على النباتات الذابلة فكذلك لينزل الكلام بلطفٍ ونحن نحاولُ ربحَ الناس وإبعادَهم عن الخطأ والضلال. إنّ تدبير الله هو الوصول إلى القلب قبل كلّ شيء. ولنتكلّم بالحقّ في محبّة، واثقين به أنّه سيمنحه قوّة لإصلاح الحياة. والروح القدس سيوصّل إلى النفس الكلام الذي يُقال بمحبّة.إنّنا بالطبيعة معتدّون بذواتِنا ومتشبّثون بآرائنِا، لكن عندما نتعلّم الدروس التي يُريد المسيح أن يُعلّمنا إياها فإنّنا نصير شركاء في طبيعته، ومنذ ذلك الحين نحيا حياتَه. إنّ مثال المسيح

العجيب، ورقّته التي لا تُبارى التي بها تغلغل إلى مشاعر الآخرين حين كان يبكي مع الباكين ويفرح مع الفرحين، ينبغي أن يكون له تأثير عميق في أخلاق كلّ من يتبعونه بإخلاص. فبكلام وأعمال اللطف يجتهدون في تعبيد الطريق أمام الأقدام المتعبة.

كلمة مقولة في وقتها

« أَعْطَانِي السَّيِّدُ الرَّبُّ لِسَانَ الْمُتَعَلِّمِينَ لأَعْرِفَ أَنْ أُغِيثَ الْمُعْيِيَ بِكَلِمَةٍ » (اشعياء ٥٠:٤).

إنّنا نرى حولنا في كلّ مكان نفوساً مُتألّمةً. وإنّنا نجد أمثالَ هؤلاء الناس هنا وهناك وفي كلّ مكان. فلنبحث عن هؤلاء المُتألّمين ولنكلّمهم بالكلمة المقولة في وقتها لنعزّي قلوبهم. ولنكن دائماً قنواتٍ تجري فيها مياهُ الرحمة والحنان المنعشة.

في كلّ علاقاتنا ومعاشراتِنا لنذكر أنّه توجد في اختبارات الآخرين فصول مختومة ومحجوبة عن عيون الناس. وعلى صفحات الذاكرة توجد تواريخ مُحزنة مصونة بحرص شديد بعيداً عن عيون المتطّفلين. فقد سُجلت فيها تفاصيل محاربات مع الظروف القاسية وربّما متاعب في الحياة العائليّة التي من يوم إلى يوم تُضعفُ الشجاعةَ والثقةَ والإيمان. والذين يخوضون معركة الحياة في ظروف قاسية يمكن تشديدهم وتشجيعهم بلفتات قليلة لا تُكلّف سوى جهدَ محبّة ضئيلِ. لمثل هؤلاء تُعتبر المصافحة القوّية من صديق مخلص أمين أثمن من الذهب والفضة. فكلام الشفقة والرفق يكون مقبولاً ومحبباً إلى النفس كابتسامة الملائكة.

إنّ جماهير كثيرةً من الناس الذين يكافحون ضدّ الفاقة عليهم أن يكدّوا بكلّ قوّتهم في مقابل أجور زهيدة وبالجهد يستطيعون الحصول على أتفه ضروريّات الحياة. فالكدّ والحرمان بدون أمل في تحسّن الأحوّال، كلّ ذلك يجعل عبءَ الحياة ثقيلاً عليهم جدّاً. وعندما تُضاف إلى هذه القائمة الآلام والأمراض فإنّ الإنسان يكاد ينوء بحمله. فإذ تُضنيهم الهمومُ والظلمُ لا يعلمون إلى أين يتّجهون في طلب النجدة، فعليك بمؤاساتهم

في تجاربهم وكروبهم وخيبة آمالهم. وهذا يُمهّد لك الطريق لتمُدّ لهم يد العون. حدّثهم عن مواعيد الله وصلّ معهم ولأجلهم وألهم قلوبهم بالرجاء.إنّ كلمات الفرح والتشجيع التي تُقال عندما تكون النفس سقيمة ونبضات الشجاعة منخفضة – هذه يعتبرها المُخلّص موجّهةً إليه بالذات. وعندما تُفرح القلوب فإنّ ملائكة السماء يتطّلعون في استحسان وفرح.

لقد ظلّ الربّ من جيل إلى جيل يسعى ليوقظ في نفوس الناس الإحساس بأخوّتهم الإلهيّة. فكونوا عاملين معه في هذا العمل. ففي حين أنّ عدم الثقة والنفور يسودان على العالم يجب على تلاميذ المسيح أن يُظهروا الروح السائدة في السماء.

فتكلّموا كما يودّ هو أن يتكلّم، وتصرّفوا كما يوّد هو أن يتصرّف. وأعلنوا حلاوةَ صفاتِه وجمالها على الدوام. أظهروا تلك الثروةَ الطائلةَ من المحبّة الكامنة في كلّ تعاليمه وكلّ معاملاته مع الناس. إنّ أحقرَ الخدّام يمكنهم بالتعاون مع المسيح أن يلمسوا أوتاراً تصل إلى أقاصي الأرض وتعلو نغماتُها الشجيّة مدى أجيال الدهور.إنّ الأجناد السماويين مُنتظرون ليتعاونوا مع البشر ليُعلنوا للعالم ما يمكن أن تصير إليه الخلائق البشريّة وما يمكن عمله، بالاشتراك مع العنصر الإلهي لخلاص النفوس المُشرفةِ على الهلاك. إنّه لا توجد حدود لمقدار النفع والخير العميم الذي يمكن تحقيقه على يد الإنسان الذي، إذ يُلقي بالذات جانباً، يفسح المجال لعمل الروح القدس في قلبه، ويحيّا حياةً مُكرّسةً لله بالتمام. إنّ كلّ من يكرّسون الجسدَ والنفسَ والروحَ لخدمته سيقبلون باستمرار فيضاً وهباتٍ جديدةً من القوّة الجسديّة والعقليّة والروحيّة. فموارد السماء التي لا تنفد هي رهنُ طلبهم. والمسيح يمنحهم نسمةَ روحه أي حياةَ حياته. والروح القدس يبذل أقصى قوّة وأسماها لتعمل في الذهن والقلب. ونحن يمكننا بواسطة النعمة المُعطاة لنا أن نُحرز الانتصارات التي بسبب آرائنا الخاطئة التي سبقت فخطرت لنا وبسبب النقص في أخلاقنا وضعف إيماننا وضآلته تبدو مستحيلة.

إنّ كلّ من يُسلم نفسه لخدمة الربّ دون أن يُبقي شيئاً لنفسه تُعطى له قوّة لبلوغ نتائج غير محدودة. هؤلاء الناس يصنع الله معهم عظائم. وهو سيؤثر في أذهان الناس بحيث يرى في حياتهم إتمامَ المواعيد الخاصةَ بالحياة العتيدة حتى وهم بعد في هذا العالم.

« تَفْرَحُ الْبَرِّيَّةُ وَالأَرْضُ الْيَابِسَةُ ، وَيَبْتَهِجُ الْقَفْرُ وَيُزْهِرُ كَالنَّرْجِسِ. يزهر إزهارا ويبتهج ابتهاجاً ويرنم. يدفع إليه مجد لبنان بهاء كرمل وشارون. هم يرون مجد الرب بهاء إلهنا. شدّدوا الأيادي المُسترخيّة والركب المُرتعشة ثبتوّها قولوا لخائفي القلوب تشدّدوا لا تخافوا هوذا إلهكم ..

حينئذ تَتَفْتَحَ عُيُونَ الْعُمْيِ وآذان الصم تتفتح، حينئذ يقفز الأَعْرَجُ كالإيل ويترنّم لسان الأخرس لأَنَّهُ قَدِ انْفَجَرَتْ فِي الْبَرِّيَّةِ مِيَاهٌ ، وَأَنْهَارٌ فِي الْقَفْرِ.

ويصير السراب أجماً والمعطشةُ ينابيعَ ماء .. وتكون هناك سكّة وطريق يُقال لها الطريق المُقدّسة لا يعبر فيها نجس بل هي لهم. من سلك في الطريق حتى الجُهَّال لا يضلّ.

لا يكون هناك أسد. وحش مفترس لا يصعد إليها. لا يوجد هناك، بل يسلك المفديّون فيها. مَفْدِيُّو الرَّبِّ يَرْجِعُونَ وَيَأْتُونَ إِلَى صِهْيَوْنَ بِالتَّرَنُّمِ ، وَعَلَى رُؤُوسِهِمْ فَرَحٌ أَبَدِيٌّ . ابْتِهَاجٌ وَفَرَحٌ يُدْرِكَانِهِمْ . يَهْرُبُ الْحُزْنُ وَالتَّنَهُّدُ » (إشعياء٣٥: ١-١٠).

❷ إعانة المجرّبين

إنّ المسيح أحبّنا لا لأنّنا نحن أحببناه أولاً، بل إذ «ونحن بعد خطاة» مات لأجلنا.

إنّه لا يعاملنا بحسب استحقاقنا. فمع أنّ خطايانا كانت تستحقّ الدينونة فهو لا يديننا. وسنة بعد سنة احتمل ضعفنا وعجزنا وجهلنا مع إنكارنا لفضله وعصياننا. وبالرغم من تيهانّنا وقساوة قلوبنا وإهمالنا لكلمته المقدّسة فإنّ يدَه ما تزال ممدودة إلينا.

والنعمة صفة من صفات الله يهبها لبني الإنسان غير المستحقّين. إنّنا لم نطلبها ولكنّها هي أُرسلت للبحث عنا. إنّ الله يسرّ بأن يمنحنا نعمته لا لأنّنا مستحقّون بل لعدم استحقاقنا. إنّ حقّنا الوحيد في رحمته هو حاجتنا العظمى.

والربّ الإله بواسطة يسوع المسيح يبسط يده طول النهار ليدعو الخطاة والساقطين. وهو سيقبل الجميع ويرحّب بالجميع. إنّ مجده هو أن يعفو عن أعظم الخطاة. وهو سيسلب من الجبّار غنيمته ويحرّر الأسير. وسينتشل الشعلة من الحريق. وهو سيُدلي سلسلة رحمته الذهبيّة إلى أعمق أعماق الشقاء البشري وينتشل النفس المنحطّة الملوّثة بالخطيّة.

إنّ كلّ كائن بشري هو موضوع الاهتمام المحبّ لذاك الذي بذل نفسه ليرجع الناس إلى الله. والنفوس المذنبة العاجزة المعرّضة للهلاك بسبب مكايد الشيطان وأشراكه تجد رعاية كما يرعى الراعي غنم رعيته.

إنّ مثال المخلّص يجب أن يكون مقياساً لخدمتنا للمجرّبين والخطاة. فنفس الاهتمام والرقّة والصبر والاحتمال التي أظهرها نحونا علينا نحن أن نُظهرها نحو

الآخرين. فقد قال: « كَمَا أَحْبَبْتُكُمْ أَنَا تُحِبُّونَ أَنْتُمْ أَيْضًا بَعْضُكُمْ بَعْضًا » (يوحنا ١٣: ٣٤). فإن كان المسيح يسكن فينا فسنعلن محبّته المُنكرة لنفسها نحو كلّ من نتعامل معهم. وإذ نرى الرجال والنساء بحاجة إلى العطف والعون فإنّنا لا نسأل قائلين: «هل هم مستحقون؟» بل نسأل قائلين: « كيف يمكننا مساعدتهم؟».

فالأغنياء والفقراء والعال والدون والأحرارُ والعبيدُ هم خاصّة الله. فذاك الذي بذل نفسه ليفتدي الإنسان يرى في كلّ كائن بشري قيمة تفوق أي تقدير محدود. فعلينا أن نُدرك تقديره لقيمة النفس بسرّ الصليب ومجده. فمتى فعلنا هذا فسنحسّ أنّ الخلائق البشرّية مهما تكن قد كلّفت ثمناً غالياً جدّاً بحيث ينبغي عدم معاملتها بفتور أو احتقار. وسنتحقق أهمية خدمة بني جنسنا حتى يرتفعوا إلى عرش الله.

إنّ الدرهم المفقود في المثل الذي ضربه المخلص مع أنّه كان مطروحاً في الأوساخ والأقذار كان ما يزال قطعة فضية. وقد فتّشت عنه صاحبته لأنه كان ذا قيمة. وهكذا كلّ نفس وإن تكن منحطّة بسبب الخطية فهي مُعتبرة غالية القيمة في نظر الله. وكما كان الدرهم يحمل صورة السلطان الحاكم وعنوانه فكذلك الإنسان عند خلقه كان يحمل صورة الله وعنوانه. ومع أنّ النفس قد شوّهت وأظلمت بسبب تأثير الخطيّة فإنّ آثار الكتابة تُرى باقية على كلّ نفس. والله يريد أن يسترد تلك النفس وأن يعيد رسم صورته عليها بالبرّ والقداسة.

حاجتنا إلى الرحمة والحنان

ما أقلّ ما نشارك المسيح في عطفه نحو ما ينبغي أن يكون أقوى رباط للاتحاد بيننا وبينه – أي الحنان على النفوس المنحطّة المُذنبة المتألّمة الميتة بالذنوب والخطايا! إنّ قساوة القلب التي يُظهرها الإنسان لأخيه الإنسان هي أشنع خطيّة نرتكبها. إنّ كثيرين يظنّون أنّهم إنّما يُمثّلون عدالة الله في حين أنّهم يخفقون إخفاقاً تاماً في تمثيل رقّته وحنانه وحبّه العظيم. وفي الغالب ما يكون الذين يقابلونهم بالعبوسة والقسوة واقعين

تحت ضغط التجربة. إنّ الشيطان يصارع مع هذه النفوس ولذلك فالكلام القاسي الخالي من العطف يُثبّط عزائمهم ويجعلهم يسقطون فريسة لقوّة المجرّب.

كيف نصل إلى القلوب

إنّ تعاملنا مع العقول أمر دقيق. إنّما ذاك الذي يعرف خفايا القلب هو وحده الذي يستطيع أن يأتي بالناس إلى التوبة. وحكمته وحدها هي التي تستطيع أن تمنحنا النجاح في الوصول إلى الهالكين. قد تقف جامد الشعور وتقول: «أنا أقدس منك»، ولا يهمّ مبلغ صحّة محاجّتك أو مبلغ الصدق في أقوالك فإنّها لن تمّسَ القلوب. ولكنّ محبّة المسيح الظاهرة في الكلام والأعمال هي التي تجد طريقها إلى النفس، في حين أنّ ترديد الوصايا أو الحجج لا ينجز عملاً.

إنّنا بحاجة إلى مزيد من عطف المسيح، ليس فقط العطف على من يبدو لنا أنّهم بلا عيب، بل العطف على النفوس المسكينة المتألّمة المكافحة التي كثيراً ما تقع في الخطيّة فتخطيء وتتوب وتُجرَّب وتيأس. علينا أن نذهب إلى بني جنسنا، وكرئيس كهنتنا الأعظم الرحيم نرثي لضعفاتهم.

لقد دّعا المسيح المنبوذَ والعشّارَ الخاطيءَ ومحتقرَ الأمم وبلطف محبّته ألزمهم بالمجيء إليه. والطبقة الوحيدة التي لم يؤيدها ولم يشجعها قطّ هم أولئك الذين وقفوا منعزلين معتدّين بذواتهم، وفي ترفّعهم وكبريائهم جعلوا ينظرون من عليائهم إلى الآخرين.

لقد أمرنا المسيح قائلاً: « اخْرُجْوا إِلَى الطُّرُقِ وَالسِّيَاجَاتِ وَأَلْزِمْهُمْ بِالدُّخُولِ حَتَّى يَمْتَلِئَ بَيْتِي » وامتثالاً لهذا الأمر علينا بالذهاب إلى الأمم القريبين منّا والبعيدين عنّا. فينبغي أن يسمع «العشارون والزواني» دعوة المخلّص. وبواسطة شفقة رسله واحتمالهم تصير الدعوة قوّة ملزمة لرفع من هم غائصون في عمق أعماق الخطيّة.

إنّ البواعث المسيحيّة تتطلّب منّا أن نعمل بعزم ثابت واهتمام حيّ وإلحاح متزايد في خدمة النفوس التي يحاول الشيطان إهلاكها. ويجب ألاّ يُخفض أيّ شيء من حرارة النشاط الغيّور المشتاق لأجل خلاص الهالكين.

لاحظوا أنّه في كلّ كلمة الله نجد بكلّ وضوح روح الإلحاح والتوسّل إلى الرجال والنساء في الإتيان إلى المسيح. فعلينا بانتهاز كلّ فرصة في السرّ والعلانية، مُقدّمين كلّ حجّة ومُلّحين بكلّ وازع ذي أهمّية عظيمة في اجتذاب الناس إلى المخلّص. علينا بكلّ قوّتنا أن نلحّ عليهم ليلتفتوا إلى يسوع ويقبلوا حياته، حياة إنكار الذات والتضحية. ويجب أن نبيّن لهم أنّنا ننتظر منهم أن يفرحوا قلب المسيح باستخدام كلّ هبة من هباته في تمجيد اسمه.

بالرجاء خلصنا

«لأنّنا بالرجاء خلصنا» (رومية٢٤:٨). ينبغي إقناع الساقطين ليحسّوا بأنّه لم يمضِ الوقت الذي يمكنهم فيه أن يكونوا رجالاً. إنّ المسيح قد أكرم الإنسان بأن وضع ثقته فيه، وهكذا وضعه في موضع الكرامة. وحتى الذين سقطوا سقوطاً مشيناً عاملهم بالاحترام. لقد كان من أسباب الألم الدائم الذي حلّ بالمسيح كونه احتكّ بالعداوة والانحطاط والنجاسة. ولكنّه لم ينطق قطّ بكلمة تدّل على أنّ مشاعره قد صُدمت أو أنّ ذوقه الرفيع قد جُرح. فمهما كانت العادات الشريرة أو التعصّبات الشديدة أو الأهواء المسيطرة على بني الإنسان فقد واجهها كلّها بالعطف الحنون. ونحن إذ نأخذ من روحه فسنعتبر جميعَ الناسِ أخوةً لنا، لهم تجارب ومحن كتجاربنا، يسقطون كثيراً ويجاهدون لينهضوا من سقوطهم، ويحاربون المثبّطات والصعوبات، ويتوقون إلى العطف والعون. حينئذ نلتقي بهم بكيفيّة لا تُثبّط عزائمهم أو تنفّرهم بل توقظ الرجاء في قلوبهم. فإذ يتشجّعون هكذا يمكنهم أن يقولوا بثقة: «لا تشمتي بي يا عدوتي إذا سقطت أقوم إذا جلست في الظلمة فالرب نور لي» «يقيم دعواي ويجري حقي. سيُخرجني إلى النور.

سأنظر بره». «تطلع إلى جميع سكان الأرض. المصور قلوبهم جميعاً» (ميخا ٧:٨و٩ ؛ مزمور ٣٣:١٤و١٥).

إنّه يأمرنا ونحن نتعامل مع المُجرّبين والمخطئين قائلا: « نَاظِرًا إِلَى نَفْسِكَ لِئَلاَّ تُجَرَّبَ أَنْتَ أَيْضًا » (غلاطية ٦: ١). فإذ نحسّ بضعفاتنا فإنّنا نرثى لضعفات الآخرين.

«لأَنَّهُ مَنْ يُمَيِّزُكَ. وَأَيُّ شَيْءٍ لَكَ لَمْ تَأْخُذْهُ» ؟ (١ كورنثوس٤: ٧). ((لأَنَّ مُعَلِّمَكُمْ وَاحِدٌ .. وَأَنْتُمْ جَمِيعاً إِخْوَةٌ » (متى ٢٣: ٨). «وأما أنت فلماذا تُدين أخاك. أو أنت أيضاً لماذا تزدري بأخيك؟» (رومية١٤: ١٠). «فلا نُحاكم أيضاً بعضنا بعضاً بل بالأحرى احكموا بهذا أنّ لا يوضع للأخ مصدمة أو معثرة» (رومية ١٤: ١٣).

توجيه النظـر إلى الأخطـاء

إنّه أمر مذلّ ومُحقّر للإنسان دائماً أن يوجّه نظره إلى أخطائه. وينبغي ألاّ يزيد أحد من مرارة هذا الاختبار بتوجيه اللوم الذي لا حاجة إليه. إنّه لم يُصلَحُ أيّ إنسان بواسطة التوبيخ، بل إنّ كثيرين قد صُدّوا وتقسّت قلوبهم ضدّ التوبيخ والتبكيت. ولكنّ الروح الرقيقة والسيرة اللطيفة الجذّابة يمكنهما أن تربحا المخطيء وتسترا كثرة من الخطايا.

إنّ بولس الرسول وجد أنّه من اللازم له أن يوبّخ الخطايا، ولكن انظروا بأيّ حرص واهتمام حاول أن يبرهن على صداقته للمخطئين! وبأيّ جزع أوضح لهم سبب عمله! لقد جعلهم يفهمون أنّ إيلامه إيّاهم قد آلمه. وقد برهن على ثقته وعطفه نحو من كانوا يكافحون لينتصروا.

قال: «لأني من حزن كثير وكآبة قلب كتبت إليكم بدموع كثيرة لا لكي تحزنوا بل لكي تعرفوا الْمَحَبَّةَ الَّتِي عندي وَلاَ سِيَّمَا مِنَ نحوكم» (٢ كورنثوس٢: ٤). « لأَنِّي وَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَحْزَنْتُكُمْ بِالرِّسَالَةِ لَسْتُ أَنْدَمُ ، مَعَ أَنِّي نَدِمْتُ .. اَلآنَ أَنَا أَفْرَحُ ، لاَ لأَنَّكُمْ حَزِنْتُمْ ، بَلْ لأَنَّكُمْ حَزِنْتُمْ لِلتَّوْبَةِ .. فإنّه هوذا حزنكم هذا عينه بحسب مشيئة الله كَمْ أَنْشَأَ فِيكُمْ مِنَ

الاجْتِهَادِ بَلْ مِنَ الاحْتِجَاجِ بَلْ مِنَ الْغَيْظِ بَلْ مِنَ الْخَوْفِ بَلْ مِنَ الشَّوْقِ بَلْ مِنَ الْغَيْرَةِ بل من الانتقام. في كل شئ أظهرتم أنفسكم أنكم أبرياء في هذا الأمر .. من أجل هذا قد تعزينا» (٢ كورنثوس ٧:٨-١٣).

((أَنَا أَفْرَحُ إِذاً أني أثق بكم في كل شيء» (٢ كورنثوس ٧: ١٦). «أَشْكُرُ إِلهِي عِنْدَ كُلِّ ذِكْرِي إِيَّاكُمْ دَائِماً فِي كُلِّ أَدْعِيَتِي مُقَدِّمًا الطِّلْبَةَ لأَجْلِ جَمِيعِكُمْ بِفَرَحٍ ، لِسَبَبِ مُشَارَكَتِكُمْ فِي الإِنْجِيلِ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ إِلَى الآنَ » «وَاثِقًا بِهذَا عَيْنِهِ أَنَّ الَّذِي ابْتَدَأَ فِيكُمْ عَمَلاً صَالِحًا يُكَمِّلُ إِلَى يَوْمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ. كَمَا يَحِقُّ لِي أَنْ أَفْتَكِرَ هذَا مِنْ جِهَةِ جَمِيعِكُمْ لأَنِّي حَافِظُكُمْ فِي قَلْبِي» (فيلبي١: ٣-٥؛ ١: ٦ و٧). «إذاً يا إخوتي الأحباء والمشتاق إليهم يا سروري وإكليلي اثبتوا هكذا في الرب أيها الأحباء» (فيلبي٤: ١). «لأَنَّنَا الآنَ نَعِيشُ إِنْ ثَبَتُّمْ أَنْتُمْ فِي الرَّبِّ » (١تسالونيكي ٣:٨).

لقد كتب بولس إلى هؤلاء الإخوة على أنّهم «قديسون في المسيح يسوع». ولكنّه لم يكتب لمن كانوا كاملين في أخلاقهم، بل كتب إليهم كرجال ونساء يجاهدون ضدّ التجربة، وكانوا في خطر السقوط. وقد وجّه أنظارهم إلى «إِلهُ السَّلاَمِ الَّذِي أَقَامَ مِنَ الأَمْوَاتِ رَاعِيَ الْخِرَافِ الْعَظِيمَ رَبَّنَا يَسُوعَ». وأكّد لهم قائلاً: «بِدَمِ الْعَهْدِ الأَبَدِيِّ» « يُكَمِّلُكُمْ فِي كُلِّ عَمَلٍ صَالِحٍ لِتَصْنَعُوا مَشِيئَتَهُ عَامِلاً فِيكُمْ مَا يُرْضِي أَمَامَهُ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ » (عبرانيين ١٣:٢٠و٢١).

عندما يحسّ المخطيء بخطئه فاحترس لئلا تدّمر عزّة نفسه. ولا تضعف همّته بعدم اكتراثك وعدم ثقتك. لا تقل في نفسك: «قبلما أمنحه ثقتي سأنتظر لأرى ما إذا كان سيثبت أم لا»، فكثيراً ما يسبّب عدم الثقة هذا العثرة للمجرّب.

علينا أن نجتهد في إدراك وفهم ضعف الآخرين. إنّنا لا نعرف إلاّ القليل عن التجارب التي تكتنف قلوب من كانوا قبلاً مقيّدين في سلاسل الظلام ويعوزهم العزم الصادق والقوّة الأدبيّة. إنّها حالة محزنة جدّاً يُرثى لها، حالة الإنسان الذي يتألّم لأنّ الندم يكاد

يسحقه. إنّه يشبه إنساناً مصعوقاً وهو يترنح غائصاً في الرماد. إنّه لا يستطيع أن يرى شيئاً واضحاً. فالعقل يكتنفه الظلام ولا يعلم أية خطوة يخطو. كم وكم من نفس مسكينة يُساء فهمها ولا يقدّرها أحدٌ التقدير الواجب وهي ممتلئة ضيقاً وعذاباً – شاة تائهة ضالّة. إنّه مثلها لا يستطيع أن يجد الله ومع ذلك فهو يشتاق شوقاً عظيماً إلى الغفران والسلام.

إذاً فلا ينطقنَّ أحدٌ بكلمة تسبّب له مزيداً من الألم! فالنفس التي تعبت من حياة الخطيّة ولكنّها لا تعرف أين تجد الراحة قدّم لها المخلّص الرحيم. امسك بيد ذلك الإنسان وارفعه وكلّمه بكلام التشجيع والرجاء، وساعده على أن يمسك بيد المخلّص.

ينبغي ألاّ تثبّط عزائمنا

إنّنا سرعان ما تضعف عزائمنا ونفشل من جهة الناس الذين لا يستجيبون فوراً لمجهوداتنا لأجلهم. ينبغي لنا ألاّ نكفّ مطلقاً عن أن نتعب لأجل نفس ما دام يوجد قبس من الرجاء. إنّ النفوس الغالية قد كلّفت مخلّصنا المُضحي بنفسه ثمناً غالياً جدّاً بحيث ينبغي لنّا ألاّ نُسلّمها لسلطان المجرّب باستخفاف.

إنّنا بحاجة إلى أن نضع نفوسنا في مكان المُجرَّبين. تأمّلوا في قوّة الوراثة وسلطانها وتأثير المعاشرات الرديئة والبيئة وسلطان العادات الخاطئة. فهل نندهش من أن ينحطّ كثيرون تحت ضغط كلّ هذه المؤثّرات؟ وهل نندهش من بطء تجاوبهم مع المساعي المبذولة لرفعهم.

إنّ الذين كانت تبدو عليهم الفظاظة والخشونة ولم يكن يُرجى منهم أيّ خير متى رُبحوا للإنجيل – هؤلاء يكونون في الغالب من أخلص تابعيه المدافعين عنه. إنّهم ليسوا فاسدين بالكلّية. بل تحت منظرهم الخارجي المنفّر توجد نوازع صالحة يمكن الوصول إليها. ولكن ما لم تكن هنالك يدٌ ممتدّة للعون فكثيرون قد لا يُصلِحون أنفسَهم البتّة، ولكن بالسعي الصبور الصادق يمكن رفعهم. أمثال هؤلاء هم بحاجة إلى الكلمات الرقيقة والاحترام المُشفق والعون الملموس الواضح. إنّهم بحاجة إلى تلك المشورة الرقيقة التي

لا تطفيء فتيلة الشجاعة الخامدة فيهم. فليتأمّل الخدّام الذين يعملون مع هؤلاء الناس في هذا الأمر.

سيوجد بعض من قد انحطّت عقولهم أمداً طويلاً بحيث أنّهم لن يصيروا في هذه الحياة إلى ما كان يمكن أن يصيروا إليه في ظروف أكثر موافقة. ولكن يمكن لأشعة شمس البرّ الساطعة أن تُشرق في النفس. وإنّه امتياز لهم أن تكون لهم الحياة التي تقاس بحياة الله. فاغرسوا فيهم الأفكار التي ترفعهم وتُعلّي شأنهم وترفع قدرهم. ولتوضح حياتكم لهم الفرق بين الرذيلة والطهارة والظلام والنور. دعوهم يطالعون في سيرتكم معنى كون الإنسان مسيحيّاً. إنّ المسيح قادر على أن يرفع أشرّ الناس ويضعهم في الموضع الذي فيه يُعترف بهم أنهم أولاد الله ووارثون مع المسيح في الميراث الذي لا يفنى.ويمكن لكثيرين بواسطة معجزة النعمة الإلهية أن يؤهلوا لحياة كلّها نفع وخير. فإذ كانوا محتقرين ومتروكين ضعفت عزائمُهم تماماً، وقد يبدو عليهم أنّهم عديمو المبالاة وبلداء. ولكن بفضل خدمة الروح القدس تختفي البلادة التي تجعل رفعهم من الحضيض أملاً بعيد المنال. والعقل البليد الثقيل الفهم المُظلم سيستيقظ. والمستعبد للخطية سيتحرّر. والرذيلة تختفي والجهل ينهزم. وبواسطة الإيمان العامل بالمحبّة يتطهّر القلب ويستنير الذهن.

٣ خدمة المدمنين

إنّ كلّ إصلاح حقيقيّ له مكانه في عمل الإنجيل ويرمي إلى السمّو بالنفس إلى حياة جديدة أشرف وأكرم. وإنّ الإصلاح الخاصّ بالاعتدال وضبط النفس يتطلّب معاضدة خاصّة من الخدّام المسيحيين. فعليهم أن يوجّهوا انتباه الناس إلى هذا العمل ويجعلوا منه موضوعاً حيّاً. وفي كلّ مكان يجب عليهم أن يقدّموا للناس مباديء الاعتدال الحقيقي ويطلبوا أن يتقدّم الناس ليوقّعوا التعهّد بالاعتدال(١). وينبغي بذل مجهود جدّي لأجل من هم مستعبدون للعادات الشرّيرة.

في كلّ مكان يوجد عمل ينبغي عمله لأجل من سقطوا بفعل عدم الاعتدال. إنّ كثيرين من الشباب مّمن هم في وسط الكنائس والمؤسسات الدينيّة والبيوت المعترفة بالمسيحيّة يختارون الطريق المُفضي إلى الهلاك. وبسبب عادات عدم الإعتدال يجلبون على أنفسهم المرض. وبسبب جشعهم في الحصول على المال لإنفاقه في الانغماس الخاطيء يسقطون في ممارسات غير نزيهة. فالصحّة والأخلاق تنهار. وهذه النفوس المسكينة البعيدة عن الله والمنبوذة من المجتمع تحسّ بأنّها بلا رجاء لا في هذه الحياة ولا الحياة الأخرى. إنّ قلوب الوالدين منسحقة. والناس يتحدّثون عن هؤلاء المخطئين كأنْ لا رجاء فيهم.

---

(١) المقصود بالاعتدال هو الامتناع التام عن كل ضار، وعدم الإفراط فيما هو نافع ومحلل.

ولكنّ الله لا يعتبرهم كذلك. فهو يدرك الظروف التي أوصلتهم إلى تلك الحالة، وهو ينظر إليهم برأفة وإشفاق. هذا الفريق من الناس يحتاج إلى المعونة. فلا تعطوهم إذاً مجالاً لأن يقولوا: «ليس من يسأل عن نفسي».

يوجد بين ضحايا عدم الإعتدال أناس من كلّ الطبقات وكلّ المهن. فالرجال ذوو المراكز السامية والمواهب العظيمة الفذّة خضعوا للانغماس في الشهوات إلى درجة صاروا عاجزين معها عن مقاومة التجربة. إنّ بعضاً منهم مّمن كانوا قبلاً يملكون أموالاً طائلة صاروا الآن بلا مأوى وبلا أصدقاء يقاسون أهوال الشقاء والمرض والانحطاط. لقد أضاعوا قوّة ضبط النفس. وما لم تمتدّ إليهم يد العون فسيغوصون إلى أعماق سحيقة، فإشباع شهوة النفس بالنسبة إلى هؤلاء الناس، فضلاً عن كونه جريمة أدبيّة، هو أيضاً مرض جسماني.

علينا في الغالب ونحن نساعد المدمنين أن نوجّه اهتمامنا الأوّل إلى حالتهم الجسديّة كما فعل المسيح مراراً عديدة. فهم بحاجة إلى طعام وشراب صحّي غير منبّه، وإلى ملابس نظيفة وفرص لتوفير نظافة الجسم. إنّهم بحاجة إلى أن يُحاطوا بجوّ من التأثير المسيحي الذي يعين النفس ويسمّو بها. وفي كلّ مدينة ينبغي إعدادُ مكانٍ فيه يمكن لأسرى العادة الشرّيرة أن يحصلوا على المعونة التي بها يكسرون القيود التي تكبّلهم. إنّ كثيرين من الناس يعتبرون المسكرَ العزاءَ الوحيدَ في الضيق. ولكن لا حاجة لأن يكون الأمرُ كذلك لو أنّ المعترفين بالمسيحيّة بدلاً من أن يمثّلوا دور الكاهن واللاوي يتبعون مثال السامري الصالح.

وفي تعاملنا مع ضحايا الإدمان لنذكر أنّنا لا نتعامل مع أناس عاقلين بل مع الذين هم في الوقت الحاضر تحت سلطان الشيطان. فيجب أن نتذرّع بالصبر والاحتمال. لا تفكّروا في المنظر المنفّر الكريه بل في النفس الغالية التي قد مات المسيح ليفتديها. فإذ يستيقظ السكّير ليشعر بانحطاطه فابذل كلّ ما في طوقك لتبرهن له على أنّك صديقه. لا تنطق

بكلمة واحدة من كلام اللوم أو التوبيخ. ولا توجّه إليه نظرة أو تعمل عملاً يعبّر عن تعييرك له أو نفورك واشمئزازك منه. من المرجّح جدّاً أنّ ذلك الإنسان المسكين يلعن نفسه. فساعده على النهوض. قلّ له كلاماً يشجّع إيمانه. حاول أن تشدّد كلّ سجيّة صالحة من سجايّا خلقه. علّمه كيف يرتفع ويتسامى إلى فوق. برهن له على أنّ في استطاعته أن يعيش بحيث يظفر باحترام بني جنسه. وساعده حتى يرى قيمة المواهب التي منحه الله إيّاها والتي أهمل هو في استثمارها.

ومع أنّ إرادته قد انحطّت وضعفت فإنّ له رجاء في المسيح. فهو سيوقظ في القلب نوازعٍ أسمى وأشواقاً أقدس. فعليك بتشجيعه ليتمسّك بالرجاء الموضوع أمامه في الإنجيل. افتح الكتاب المقدّس أمام الإنسان المجرّب المجاهد واقرأ له مواعيد الله مراراً وتكراراً. هذه المواعيد ستكون بالنسبة إليه كأوراق من شجرة الحياة. بكلّ صبر وطول أناة واصل جهودك حتى تتمسك تلك اليد المرتجفة برجاء الفداء بالمسيح، بفرح وشكر.

عليك بملازمة من تحاول مساعدتهم والتمسّك بهم بقوّة وإلاّ فلن تذوق طعم النصرة. إنّ التجارب ستلاحقهم على الدوام لارتكاب الشرّ. ومراراً كثيرة تكاد شهوة المسكر تغلبهم، وقد يسقطون مراراً، ولكن لا تكفّ عن بذل جهودك بسبب ذلك.

لقد قرّروا أن يبذلوا مجهوداً ليعيشوا للمسيح، ولكنّ قوّة إرادتهم قد ضعفت فينبغي لمن يسهرون على نفوس الناس كمن هم عتيدون أن يعطوا عنهم حساباً أن يحرسوهم بكلّ اهتمام وحذر. لقد فقدوا رجولتهم وينبغي لهم أن يستردّوها. إنّ كثيرين عليهم أن يجاهدوا ضدّ الميول القوّية الموروثة لفعل الشرّ. فمنذ ولادتهم ورثوا ميولاً غير طبيعية ونوازع شهوانيّة. هذه ينبغي التحفّظ منها بكلّ حذر. فمن الداخل والخارج يتصارع الخير والشرّ على السيّادة. إنّ الذين لم يسبق لهم أن مرّوا في ذلك الاختبار لا يعرفون قوّة الشهوة التي تكاد تكون قاهرة للصراع القائم بين عادات الانغماس، والتصميم على أن يعيش الإنسان معتدلاً وضابطاً لنفسه في كلّ شيء. ولابدّ أن يستعِرَ أوارُ هذه الحرب ويشتدّ لهيبها مراراً كثيرة.

كثيرون مّمن قد جُذبوا إلى المسيح لن تكون لديهم شجاعة لمواصلة الحرب ضدّ النهم والشهوات. ولكن ينبغي ألاّ يكون هذا مثبّطاً لهمّة الخادم. فهل الذين قد خلصوا من الأعماق السحيقة هم وحدهم الذين يرتدّون؟

واذكر أنّك لا تعمل وحدك. فالملائكة الخادمون يشتركون في الخدمة مع كلّ الأمناء من أبناء الله وبناته. والمسيح هو الذي يردّ النفوس. إنّ الطبيب العظيم يقف بنفسه إلى جوار خدّامه الأمناء قائلاً للإنسان التائب: « يَا بُنَيَّ مَغْفُورَةٌ لَكَ خَطَايَاكَ » (مرقس ٥:٢).

كثيرون هم المنبوذون الذين سيتمسّكون بالرجاء الموضوع أمامهم في الإنجيل ويدخلون ملكوت السموات، بينما آخرون مّمن بوركوا بفرص عظيمة ونور عظيم لم يُحسنوا استخدامها، سيُتركون في الظلمة الخارجيّة.

مساعدة الذات

إنّ ضحايا العادة الشريرة ينبغي إيقاظهم إلى ضرورة بذل مجهود لأجل أنفسهم. قد يبذل الآخرون أقصى جهد جدي ليرفعوهم، ويمكن أن تُقدّم نعمةُ الله لهم مجّاناً، ويمكن للمسيح أن يتوّسل، وملائكته قد يخدمون، ولكن ذلك كلّه قد يؤول إلى العبث ما لم يوقظوا هم أنفسهم ليحاربوا لأجل أنفسهم.

إنّ آخر ما قاله داود لسليمان الذي كان حينئذ شابّاً وكان مزمعاً أن يتوّج ملكاً على إسرائيل كان هذا القول: «تشدّد وكن رجلاً» (١ ملوك ٢:٢). وكلّ واحد من بني الإنسان الذي هو مرشّح لأن يلبس إكليلاً لا يُبلى توجّه إليه كلمات الوحي نفسها قائلة: «تشدّد وكن رجلاً».

والإنسان المُدمن المنغمس في شهواته يجب إقناعه بأن يرى ويحسّ بالحاجة إلى حدوث تغيير وإصلاح أخلاقي عظيم فيه إذا أراد أن يصير رجلاً. والله يدعو هؤلاء الناس

لينهضوا، وبقوّة المسيح يمكنهم أن يستردّوا رجولتهم الموهوبة لهم من الله، بعدما ضحّوا بها في سبيل انغماسهم الخاطيء.

كثيراً ما يحدث أنّ إنساناً إذ يحسّ بقوّة التجربة الهائلة، الشهوة الجذّابة التي تنتهي إلى الانغماس، يصرخ قائلا في يأس: «إني لا أستطيع مقاومة الشر». قلّ لهذا الإنسان إنّه قادر على المقاومة وأنّه يتحتّم عليه أن يقاومها. ربّما يكون قد انهزم مراراً عديدة، ولكن لا يتحتّم عليه أن ينهزم دائماً. إنّ قوّته الأدبيّة ضعيفة وهو مُستعبدٌ للعادة التي تكونت لديه مدى حياة الخطية التي عاشها. ووعوده وعزائمه تشبه حبالاً من الرمال. ومعرفته لوعوده التي أخلف فيها وعهوده التي حنث فيها تضعف ثقته بإخلاصه وتجعله يحسّ بأن الله لا يمكنه أن يقبله أو يتعاون معه في جهوده. ولكن لا حاجة به إلى اليأس.

إنّ من يتّكلون على المسيح لا يُستعبدون لأيّة عادة أو ميل موروث أو مكتسب. فبدلاً من أن يظلّوا عبيداً لطبيعتهم الدنيا عليهم أن يتحكّموا في كلّ نهم وكلّ شهوة. إنّ الله لم يتركنا لنحارب ضدّ الشرّ بقوّتنا المحدودة. فمهما تكن ميولنا الموروثة أو المكتسبة للخطأ يمكنّنا أن ننتصر بالقوّة التي هو مستعدّ أن يمنحنا إيّاها.

قــوّة الإرادة

يحتاج الإنسان المُجرّب لأن يدرك القوّة الحقيقة للإرادة. هذه هي القوّة الحاكمة في طبيعة الإنسان – قوّة العزم والاختيار. فكلّ شيء يتوقّف على عمل الإرادة الصائب، إنّ الرغائب في عمل الصلاح والتمسّك بالطهارة صائبة على قدر ما نُخرجها إلى حيّز التنفيذ، ولكن إذا وقفنا عند حدّ التمنّي والاستحسان فلا جدوى منها. إنّ كثيرين ينحدرون إلى الهلاك وهم يتمنّون ويتوقون للانتصار على ميولهم الشرّيرة. فهم لا يخضعون إرادتهم لله، ولا يختارون أن يخدموه.

لقد منحنا الله قوّة الاختيار، وواجبنا أن نستخدمها. إنّنا لا نستطيع أن نغيّر قلوبنا أو أن نضبط أفكارنا أو نتحكّم في نزعاتنا وعواطفنا. ولا يمكننا أن نجعل أنفسنا أطهارَ وأهلاً

لخدمة الله. ولكنّنا نستطيع أن نختار خدمة الله ونسلّمه إرادتنا، وحينئذ هو يعمل فينا أن نريد وأن نعمل من أجل مسرّته. وهكذا تصير كلّ طبيعتنا خاضعة لسيادة المسيح.

وعن طريق تدريب الإرادة تدريباً صائباً يحدث تغيير شامل في الحياة بجملتها، فإذ نخضع الإرادة للمسيح نصير حلفاء لقوّة الله، ونّنال قوّة من العلاء لتحفظنا ثابتين. فكلّ من يقرن إرادته البشرية الضعيفة المتقلقلة بقوّة إرادة الله المقتدرة التي لا تتزعزع تصير الحياة الطاهرة النبيلة، حياة النصرة على النهم والشهوات، أمراً ميسوراً لديه.

معرفة مباديء الصحّة

إنّ من يكافحون ضدّ قوّة الشهوة ينبغي لهم أن يتعلّموا المباديء الصحيّة للمعيشة. ويجب تعريفهم أنّ انتهاك قوانين الصحّة بخلق حالات سقيمة واشتهاءات غير طبيعيّة، يضع الأساس لعادة شرب الخمر. إنّما فقط بالعيشة المطيعة لمباديء الصحّة يمكنهم أن ينتظروا التحرر من اشتهاء المنبّهات غير الطبيعية. وإذ يعتمدون على قدرة الله لتحطيم قيود الشهوة، عليهم أن يتعاونوا معه بالطاعة لنواميسه الأدبيّة والجسديّة.

يجب إمداد من يحاولون إصلاح حالهم بعمل أو وظيفة. ينبغي ألاّ يتعلّم من هم قادرون على العمل أن ينتظروا الحصول على الطعام والكساء والمسكن مجّاناً بلا ثمن. فلأجلهم كما لأجل غيرهم يجب ابتكار طريقة بها يدفعون ثمن ما يتناولونه. يجب أن نشجّعهم على كلّ جهد يقومون به لإعالة أنفسهم. هذا يقوّي عزّة النفس والاستقلال النبيل. كما أنّ انشغال العقل والجسم في عمل نافع أمر جوهري لحفظهم من التجربة.

إنّ من يخدمون الساقطين سيفشلون وتخيب آمالهم بالنسبة لكثيرين ممن كانت حالتهم تبشّر بالخير والإصلاح. فكثيرون يكون التغيّير الذي يحدث في عاداتهم وأعمالهم سطحياً. إنّهم يتأثّرون بالدوافع. ويبدو أنّهم قد أُصلحوا إلى حين ولكن لا يوجد تغيير حقيقي في القلب. إنّهم ما زالوا محبيّن لذواتهم ولهم نفس الاشتياق إلى المسرّات الغبيّة، ونفس الرغبة في الانغماس والإدمان. إنّهم لا يعرفون شيئاً عن عمل بناء الخُلُق ولا يمكن

أن يعوَّل عليهم كرجال ذوي مبدأ. لقد انحطّت وفسدت قواهم العقلية والروحيّة بسبب إشباع النهم والشهوات، وهذا يضعفهم. إنّهم متقلّبون وغير ثابتين. إنّ نوازعهم تميل إلى الشهوانيّة. هؤلاء الناس غالباً ما يكونون مصدر خطر للآخرين. فإذ يُنظر إليهم كمن هم رجالٍ ونساءٍ قد أُصلحت حياتهم وصاروا مستقيمين، تُسند إليهم مسؤوليات ويوضعون في مراكز فيها يفسد تأثيرهم الناس البسطاء.

وحتى الذين هم مخلصون في طلب الإصلاح ليسوا بعيدين عن خطر السقوط. وهم بحاجة إلى أن يُعاملوا بحكمة ورقّة عظيمين. إنّ الميل إلى تملّق وتمجيد من قد انتشلوا من الأعماق السحيقة، أحياناً يؤدّي بهم إلى الهلاك. كما أنّ اللجوء إلى دعوة الرجال والنساء لأن يقصّوا على جمع من الناس اختبار حياة الخطيّة التي عاشوها، فيه خطر عظيم على المتكلّم والسامعين. وإنّ التحدّث كثيراً عن مشاهد الشرّ مفسد للعقل والنفس. كما أنّ الشهرة التي تُعطى لمن قد أُنقذوا ضارّة بهم. فهذا يقود كثيرين لأن يحسّوا بأن حياتهم الخاطئة أعطتهم شهرة وامتيازاً. وإنّ محبّة الشهرة وروح الثقة بالنفس تُشجَّع فتكون مُهلكة للنفس. إنّما في عدم الإركان إلى الذات، والاعتماد على رحمة المسيح يمكنهم أن يثبتوا.

مساعدة الآخرين

كلّ من يقدّمون البرهان الكافي على التجديد الحقيقي يجب تشجيعهم على خدمة الآخرين. ينبغي ألاّ يصدّ أحد إنساناً يترك خدمة الشيطان ليخدم المسيح. فعندما يقدّم إنسانٌ البرهانَ على أنّ روح الله يجاهد معه قَدّمْ له كلّ تشجيع للدخول في خدمة الربّ: «وارحموا البعض مميزين» (يهوذا ٢٢). إنّ من هم حكماء بالحكمة التي تأتي من الله يرون نفوساً بحاجة إلى العون، أولئك الذين قد تابوا توبة صادقة، ولكنّهم بدون تشجيع، لا يجرؤون على التمسّك بالرجاء. إنّ الربّ يحرّك قلوب خدّامه للترحيب بهؤلاء المرتعبين التائبين إلى شركة محبّتهم. فأيّاً ما تكون الخطايا المحيطة بهم ومهما يكن انحدارهم سحيقاً، وسقوطهم مشيناً، فعندما يأتون إلى المسيح في انسحاق فهو سيقبلهم.

إذاً أعطوهم عملاً يعملونه لأجله. فإذا كانوا يرغبون في أن يخدموا في إصعاد الآخرين من جبّ الهلاك الذي قد نجوا هم منه فأعطوهم فرصة. اجعلوهم يعاشرون مسيحيّين مختبرين لكي يحصلوا على قوّة روحيّة، واملأوا قلوبهم وأيديهم بعمل يعملونه للسيّد.

عندما ينبثق النور في النفس فبعض من كان يبدو أنّهم مبيعون تماماً للخطيّة سيصيرون خدّاماً ناجحين للخطاة الذين كانوا هم أنفسهم في مثل حالهم قبلاً. فبواسطة الإيمان بالمسيح سيرتفع البعض إلى مراكز سامية للخدمة وتُسند إليهم مسؤوليات في عمل خلاص النفوس. إنّهم يرون مواطن الضعف في أنفسهم ويتحقّقون من فساد طبيعتهم. ويعرفون قوّة الخطيّة وسلطان العادة الشرّيرة. وهم موقنون بعجزهم عن الانتصار بدون معونة المسيح، ولذلك فإنّ صرختهم الدائمة هي هذه: «إني أُلقي بنفسي العاجزة عليك».

هؤلاء يمكنهم مساعدة الآخرين. إنّ من قد جُرّب وامتُحن والذي كاد الرجاء يتركه وإنّما خلص لدى سماع رسالة المحبّة، يمكنه أن يفهمَ علمَ تخليص النفوس. فمن هو عامرُ القلبِ بالمحبّة للمسيح لأنّه هو نفسه قد طلبه المخلّص وأعاده إلى الحظيرة، يعرف كيف يطلب الهالكين. إنّه يستطيع أن يُرشد الخطاةَ إلى حمل الله. لقد كرّس نفسَه لخدمة الله بدون تحفّظ وصار مقبولاً في المحبوب. إنّ اليدَ التي رُفِعت في حالة الضعف في طلب العون أُمسكت، فبواسطة خدمة أمثال هؤلاء سيُؤتى بكثيرين من الضالّين إلى الآب.

المسيح رجاء المجرّبين

إنّ كلّ نفس تُكافح لتنهض من حياة الخطيّة إلى حياة الطهارة يوجد لها عنصر القوّة العظيم الكائن في الاسم الذي «لَيْسَ اسْمٌ آخَرُ (سواه) تَحْتَ السَّمَاءِ قَدْ أُعْطِيَ بَيْنَ النَّاسِ بِهِ يَنْبَغِي أَنْ نَخْلُصَ» (أعمال ٤: ١٢). فالمسيح يقول: «إِنْ عَطِشَ أَحَدٌ» إلى الرجاء المريح وإلى الخلاص من الميول والنزعات الخاطئة «فَلْيُقْبِلْ إِلَيَّ وَيَشْرَبْ» (يوحنا ٧: ٣٧). إنّ علاج الرذيلة الوحيد هو نعمة المسيح وقدرته.

إنّ عزائم الإنسان الصالحة التي عزم عليها بقوّته لا تفيد شيئاً. ليس كلّ التعهّدات في العالم تستطيع أن تُحطّم قوّة العادة الشرّيرة. ولا يمكن للناس أبداً أن يمارسوا الاعتدال وضبط النفس في كلّ شيء ما لم تتجدّد قلوبهم بنعمة الله. إنّنا لا نستطيع أن نحفظ أنفسنا من الخطيّة لحظة واحدة. ففي كلّ لحظة نحن معتمدون على الله.

إنّ الإصلاح الحقيقي يبدأ بتطهير النفس. وإنّ خدمتنا للساقطين تصيب نجاحاً حقيقيّاً فقط حينما تُشكّل نعمة المسيح أخلاقَنا من جديد وترتبط نفوسُنا بالله ارتباطاً حيّاً.

لقد عاش المسيح حياة الطاعة الكاملة لشريعة الله، وفي هذا قدّم نفسه مثالاً وقدوة لكلّ إنسان. وعلينا نحن أن نحيا نفس الحياة التي عاشها هو في العالم، بقوّته وتحت إرشاده.

وإذ نخدم الساقطين فإنّ مطالبَ شريعة الله ولزوم الولاء له يجب أن تُطبع في الذهن والقلب. لا تُهمل في أن تُبيّن للناس أنّه يوجد فرق ملحوظ بين من يخدم الله ومن لا يخدمه. الله محبّة، ولكنّه لا يستطيع أن يتسامح مع من يصّر على الاستخفاف بوصاياه. إنّ قوانين حكمه موضوعة بحيث أنّ الناس لا يمكنهم الإفلات من عواقب عدم الأمانة. فالذين يكرمونه هم وحدهم الذين يكرمهم. إنّ تصرّف الإنسان في هذا العالم يقرّر مصيره الأبدي. فكما زرع لابدّ أن يحصد. والسبب لابدّ من أن تتبعه النتيجة.

لا شيء أقلّ من الطاعة الكاملة يمكن أن يفي مقياس مطالب الله. إنّه لم يترك مطالبه دون تحديد. وهو لم يفرض شيئاً غير لازم لكي يجعل الإنسان في حالة انسجام معه. وعلينا أن نوجّه عقول الناس الخطاة إلى النموذج الذي وضعه للأخلاق ونرشدهم إلى المسيح الذي بواسطة نعمته وحدها يمكن الوصول إلى هذا المقياس.

أخذ المخلّص على نفسه ضعفات البشريّة وعاش بلا خطيّة حتى لا يخاف الناس من أنّهم لا يستطيعون أن ينتصروا بسبب ضعف الطبيعة البشريّة. لقد أتى المسيح لكي نصير نحن شُرَكَاءَ الطَّبِيعَةِ الإِلهِيَّةِ »، وحياته تُعلن أنّ البشريّة وهي مرتبطة بالألوهيّة لا تخطيء.

انتصر المخلّص لكي يرى الإنسان كيف ينتصر. ولقد واجه كلّ تجارب الشيطان بكلمة الله. فإذ اتّكل على مواعيد الله الآب أُعطيت له قوّة لإطاعة وصاياه، ولم يستطع المجرّبُ أن يظفر بطائل. كان جوابُه على كلّ تجربة هو: «مكتوب». وهكذا أعطانا الله كلمته التي نستطيع بها أن نقاوم الشرّ. إنّ المواعيد العظمى والثمينة هي لنا حتى نصير بها شُرَكَاءَ الطَّبِيعَةِ الإِلهِيَّةِ، هَارِبِينَ مِنَ الْفَسَادِ الَّذِي فِي الْعَالَمِ بِالشَّهْوَةِ » (٢بطرس ١: ٣،٤).

قُل للإنسان المجرَّبَ ألاّ يُنظر إلى ظروفه أو إلى ضعف نفسه أو إلى قوّة التجربة بل إلى قوّة كلمة الله. فكلّ قوّتها هي لنا. يقول المرنّم: « خَبَأْتُ كَلاَمَكَ فِي قَلْبِي لِكَيْلاَ أُخْطِئَ إِلَيْكَ » فَبِكَلاَمِ شَفَتَيْكَ أَنَا تَحَفَّظْتُ مِنْ طُرُقِ الْمُعْتَنِفِ » (مزمور ١١٩:١١؛ ١٧:٤). حدّث الناس عن الشجاعة وارفعهم أمام الله بالصلاة. إنّ كثيرين مّمن قد انهزموا أمام التجربة يشعرون بالانسحاق والإذلال بسبب فشلهم فيحسّون أنه من العبث كونهم يقتربون إلى الله. ولكنّ هذا الخاطر هو من اقتراحات العدوّ. فعندما يخطئون ويحسّون بأنّهم لا يستطيعون أن يصلّوا قل لهم إنّ هذا هو وقت الصلاة. قد يكونون خجلين ويحسّون بإذلال عميق، ولكنّهم إذ يعترفون بخطاياهم فذاك الذي هو أمين وعادل يغفر خطاياهم ويطهّرهم من كل إثم.

لا شيء يبدو هكذا ضعيفاً عاجزاً، وهو بالحقيقة منيع لا يُقهر، مثل النفس التي تحسّ بتفاهتها وتعتمد بالتمام على استحقاقات المخلّص. فبواسطة الصلاة ودرس كلمة الله وبالإيمان بحضوره الدائم يُمكن لأضعف الناس أن يعيشوا على اتصال بالمسيح الحي وهو سيسندهم بيده التي لا تفلتهم أبداً.

المواعيد الثمينة

يُمكن لكلّ نفس تثبت في المسيح أن تجعل هذه الأقوال الثمينة ملكاً لها، فيمكنها أن تقول: «أراقب الرب أصبر لإله خلاصي. يسمعني إلهي. لا تشمتي بي يا عدوتي. إذا سقطت أقوم. إذا جلست في الظلمة فالرب نور لي» (ميخا ٧: ٧ و٨). « يَعُودُ يَرْحَمُنَا

يَدُوسُ آثَامَنَا وَتُطْرَحُ فِي أَعْمَاقِ الْبَحْرِ جَمِيعُ خَطَايَاهُمْ » (ميخا ٧: ١٩). وقد وعد الله قائلاً: « وَأَجْعَلُ الرَّجُلَ أَعَزَّ مِنَ الذَّهَبِ الإِبْرِيزِ وَالإِنْسَانَ أَعَزَّ مِنْ ذَهَبِ أُوفِيرَ » (إشعياء ١٢:١٣). «إذا اضطجعتم بين الحظائر فأجنحة حمامة مغشّاة بفضة وريشها بصفرة الذهب» (مزمور ١٣:٦٨).

إنّ من قد غفر لهم المسيح أكثر يحبّونه أكثر. هؤلاء هم الذين سيقفون أقرب الجميع من عرشه في اليوم الأخير.

«وَهُمْ سَيَنْظُرُونَ وَجْهَهُ ، وَاسْمُهُ عَلَى جِبَاهِهِمْ» (رؤيا ٢٢: ٤).

٤ إعانة المتعطلين والمشردين

يوجد رجال ونساء ذوو قلوب متسعة يهتّمون اهتماماً جدّياً بحالة الفقراء والوسائل التي يمكن الحصول عليها لتوفير الإسعاف والراحة لهم. إنّ السؤال الذي يحاول كثيرون بكلّ غيرة واجتهاد أن يجدوا له جواباً هو هذا: كيف يُمكن مساعدة المتعطّلين والشرّيدين في الحصول على البركات المشتركة التي تقدّمها عناية الله ويحيوا الحياة التي قصد الله أن يعيشها الإنسان؟ ولكن لا يوجد كثيرون حتى بين رجال التعليم والساسة ممن يدركون الأسباب الكامنة وراء حالة المجتمع الراهنة. إنّ من بيدهم زمام الحكم عاجزون عن أن يجدوا حلاً لمشكلة الفقر والتسول وكثرة انتشار الجرائم. إنّهم عبثاً يُحاولون إرساء أعمال التجارة على أساسٍ أعظم رسوخاً.

فلو اهتمّ الناس بالالتفات إلى ما تُعلّم به كلمة الله لوجدوا حلاً لهذه المشاكل التي تُربكهم. ويمكنّنا أن نتعلّم من العهد القديم الشيء الكثير عن مشكلة العمل وإسعاف الفقراء.

في تدبير الله نحو العبرانيين قديماً كان لكلّ أسرة بيت في الأرض ورقعة من الأرض كافية لحرثها واستثمارها. وهكذا توفّرت الوسيلة والحافز للحياة النافعة الكدود التي فيها يعول الإنسان نفسه. ولم يُدخل أيّ تدبير بشريّ تحسيناً على هذه الخطّة. هذا وإنّ الفقر والتعاسة الكائنين في العالم اليوم مرجعهما إلى ابتعاد الناس عن هذا التدبير.

وعندما سكن العبرانيون في كنعان قُسّمت الأرض بين الشعب كلّه، ولم يُستثنَ من هذا التوزيع بالتساوي غير اللاويين وحدهم، إذ كانوا خدّام المقدس. وقد أُحصيت الأسباط بعدد العشائر وأُعطيّ الميراث بالقسمة لكلّ عشيرة بحسب عدد أفرادها.

ومع أنّ الإنسان كان يبيع ملكه إلى حين فإنّه لم يكن ليبيع ميراث أولاده بشكل نهائي، فعندما يصير قادراً على أن يفُكّ أرضه كانت له الحريّة لأن يفعل هذا في أي وقت. والديون كانت تسقط في كلّ سنة سابعة. وفي السنة الخمسين أي سنة اليوبيل كانت كلّ الأراضي تعود إلى مالكها الأصلي.

وقد أمر الله قائلا: «والأرض لا تباع البتّة لأنّ لي الأرض وأنتم غرباء ونزلاء عندي. بل في كلّ أرض ملككم تجعلون فكاكاً للأرض. إذا افتقر أخوك فباع من ملكه يأتي وليّه الأقرب إليه ويفكّ مبيع أخيه .. ومن .. نالت يده ووجد مقدار فكاكه .. يرجع إلى ملكه. وإن لم تنل يدُه كفاية ليردّ له يكون مبيعه في يدّ شاريه إلى سنة اليوبيل» (لاويين٢٥: ٢٣).

«تقدسون السنة الخمسين وتنادون بالعتق في الأرض لجميع سكّانها. تكون لكم يوبيلاً وترجعون كلّ إلى ملكه وتعودون كل إلى عشيرته» (لاويين ٢٥:١٠).

وهكذا حُفظت لكلّ عشيرة أملاكها وعمل تدبير للحفظ والوقاية من الفقر المدقع والغنى الفاحش.

التعليم الصناعي

كان التعليم الصناعي عند العبرانيين معتبراً واجباً لازماً. فكان يُطلب من كلّ أبٍ أن يُعلّم أولاده حرفة نافعة. وكان عظماء العبرانيين يتدرّبون على أعمال صناعيّة. وكانت معرفة الواجبات الخاصّة بتدبير شؤون البيت معتبرة أمراً لازماً وجوهرّياً لكلّ امرأة. وكان الحذق في تأدية هذه الواجبات مُعتبَراً شرفاً وكرامة لسيدات الطبقة الراقية.

وكانت الصناعات المختلفة تُدرّس في مدارس الأنبياء. وكثيرون من الطلبة كانوا يعوّلون أنفسهم بمزاولة الأعمال اليدويّة.

الاهتمام بالفقراء

ومع ذلك فإنّ هذه الترتيبات لم تقض على الفقر تماماً. ولم يكن قصد الله أن يقضي على الفقر قضاءً تاماً. فقد كان الفقر من بين وسائله لنموّ الخُلُق. فلقد قال: «لأنه لا تفقد الفقراء من الأرض. لذلك أنا أوصيك قائلاً افتح يدك لأخيك المسكين والفقير في أرضك» (تثنية ١٥: ١١).

إن كان فيك فقيرٌ أحدٌ من إخوتك في أحد أبوابك في أرضك التي يعطيك الربّ إلهك فلا تقسِّ قلبك ولا تقبض يدك عن أخيك الفقير. بل افتح يدك له وأقرضه مقدار ما يحتاج إليه» (تثنية ١٥: ٧).

« إِذَا افْتَقَرَ أَخُوكَ وَقَصُرَتْ يَدُهُ عِنْدَكَ فَاعْضُدْهُ غَرِيبًا أَوْ مُسْتَوْطِنًا فَيَعِيشَ مَعَكَ» (لاويين ٢٥:٣٥).

«وعندما تحصدون حصيد أرضكم لا تكمل زوايا حقلك» (لاويين ١٩: ٩). «إذا حصدت حصيدك في حقلك ونسيت حزمة في الحقل فلا ترجع لتأخذها .. إذا خبطت زيتونك فلا تراجع الأغصان .. إذا قطفت كرمك فلا تعلله وراءك. للغريب واليتيم والأرملة يكون» (تثنية ٢٤:١٩-٢١).

ولا حاجة بأحد أن يخاف لئلا ينتهي به كرَمُه وسخاؤه إلى العوز والفاقة. فالطاعة لوصايا الله لابد أن تكون نتيجتها النجاح. فقد قال الله: «لأنه بسبب هذا الأمر يباركك الربّ إلهك في كل أعمالك وجميع ما تمتد إليه يدك». «تقرض أمماً كثيرة وأنت لا تقترض وتتسلط على أمم كثيرة وهم عليك لا يتسلطون» (تثنية١٥: ١٠).

مباديء التجـارة

إنّ كلمة الله لا تُقرّ أيّة سياسة من شأنها أن تُغني فريقاً من النـاس بإيقاع الظلم والألم على فريق آخر. ولا تُصادق عليها. بل هي تُعلّمنا أنّنا في كلّ صفقاتنا التجاريّة نضع أنفسنا في موضع من نتعامل معهم، ولا نلتفت فقط إلى أمورنا ومصالحنا بل أيضاً إلى أمور الغير ومصالحهم. إنّ من يحاول أن يستفيد من مصائب إنسان آخر ونكباته لينفع نفسه، أو من يريد أن ينفع نفسه عن طريق ضعف إنسان آخر أو عجزه أو عدم كفاءته هو متعدّ مباديء كلمة الله ووصاياه.

«لا تعوج حكم الغريب واليتيم ولا تسترهن ثوب الأرملة» (تثنية٢٤: ١٧). «إذا اقرضت صاحبك قرضاً فلا تدخل بيته لكي ترتهن رهناً منه. في الخارج تقف والرجل الذي تقرضه يخرج إليك الرهن إلى الخارج. وإن كان رجلاً فقيراً فلا تنم في رهنه» (تثنية (٢٤: ١٠– ١٢). «إن ارتهنت ثوب صاحبك فإلى غروب الشمس ترده. لأَنَّي رَؤُوفٌ» (خروج ٢٢:٢٦و٢٧). «فمتى بعت صاحبك مبيعاً أو اشتريت من يد صاحبك فلا يغبن أحدكم أخاه» (لاويين ٢٥:١٤).

«لا ترتكبوا جورا في القضاء لا في القياس ولا في الوزن ولا في الكيل» (لاويين ١٩: ٣٥). «لا يكن لك في كيسك أوزان مختلفة كبيرة وصغيرة. لا يكن لك في بيتك مكاييل مختلفة كبيرة وصغيرة» (تثنية ٢٥: ١٣ و١٤). ميزان حق ووزنات حق وإيفة حق وهين حق تكون لكم» (لاويين ٩: ٣٦).

«من سألك فاعطه ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده» (متى٥: ٤٢). «الشرير يستقرض ولا يفي أمّا الصديق فيترأف ويعطي» (مزمور ٣٧:٢١).

«هاتي مشورة اصنعي إنصافاً. اجعلي ظلك كالليل في وسط الظهيرة. استري المطرودين. لا تظهري الهاربين. ليتغرب عندك مطرودو موآب. كوني ستراً لهم من وجه المخرب» (إشعياء ١٦:٣و٤).

إنّ خطة الحياة التي أعطاها الله للعبرانيين كان القصد منها أن تكون درساً مرئياً يتعلّمه كل بني الإنسان. فلو نُفذّت هذه المباديء اليوم فكم كان العالم مختلفاً الآن عما هو عليه.

فرص للمشردين

ما يزال يوجد في رحاب أرجاء الطبيعة الواسعة مكان للمتأمّلين والمعوزين حيث يجدون منزلاً. ففي حضنها موارد تكفي لتزويدهم بالطعام. وفي أعماق الأرض بركات مخبوءة لكلّ من عندهم شجاعة وإرادة ومثابرة ليجمعوا كنوزها.

إن حرث الأرض وتفليحها، العمل الذي عيّنه الله للإنسان في عدن يفتح ميداناً فيه فرصة لكثيرين ليحصلوا على أقواتهم.

«اتَّكَلَ عَلَى الرَّبِّ وافعل الخير. اسكن الأرض وارع الأَمَانَةِ» (مزمور٣٧: ٣). إنّ آلافاً وربواتٍ مّمن تزدحم بهم المدن وهم يترقبون فرصة يحصلون فيها على القليل التافه من المال كان يمكنهم أن يعملوا في فلاحة الأرض. وفي كثير من الحالات لا يُشترى بتلك النقود القليلة خبز بل يوضع في جيب بائع الخمر ثمناً لمّا يُدمّر النفس والجسم.

إنّ كثيرين من الناس ينظرون إلى العمل كما لو كان عبوديّة واسترقاقاً، ويحاولون الحصول على معاشهم بتدبير المكايد بدلاً من العمل الشريف. إنّ هذه الرغبة في الحصول على لقمة العيش دون القيام بعمل تفتح باب التعاسة والرذيلة والجريمة على مصراعيه.

الأحياء الفقيرة في المدن

يوجد في المدن العظيمة جماهير غفيرة من الناس الذين لا يجدون من الرعاية والاعتبار قدر ما تجد الحيوانات البُكم. فكّروا في العائلات التي تزدحم بها المساكن الحقيرة، وأكثرها أقبية مظلمة تفوح منها الرطوبة والروائح العفنة. في هذه الأماكن

التعسة يولد الأطفّال ويشبّون ويموتون. إنّهم لا يرون شيئاً من جمال الأشياء الطبيعيّة التي خلقها الله لتبهج الحواس وتسمو بالنفس. فإذ يلبسون الأسمال ويكادون يموتون جوعاً يعيشون في وسط الرذيلة والحرمان، وتتشكّل أخلاقُهم في قالب التعاسة والخطيّة المحيطة بهم. إنّ الأطفال لا يسمعون اسم الله إلاّ مصحوباً بالتجاديف. والكلام البذيء والشتائم واللعنات تصكّ آذانهم. وأبخرة الخمر والتبغ والروائح الكريهة الجالبة للسآمة والاشمئزاز والانحطاط الأخلاقي – كلّ ذلك يُدمّر حواسّهم ويفسدها. وهكذا يتربّى أطفال كثيرون ليصبحوا مجرمين وأعداء للمجتمع الذي قد تركهم وألقى بهم في أحضان الشقاء والانحطاط.

ولكن ليس كلّ الفقراء في الأحياء المختلفة في المدن هم من هذه الطبقة. فإنّ بعض الرجال والنساء الخائفين الله قد وصلوا إلى أعماق الفقر بسبب الأمراض والنكبات، وفي كثير من الأحيان بسبب المكايد التي كان يحيكها لهم الناس الأشرار الذين يعيشون على امتصاص دماء جنسهم. وكثيرون من المستقيمين ذوي النيّة الحسنة يفتقرون لأنّه تعوزهم الخبرة الصناعيّة. وبسبب جهلهم تراهم غير أهل لمصارعة متاعب الحياة وصعوباتها. وإذ يدلفون إلى المدن يعجزون في الغالب عن أن يجدوا عملاً. وإذ يكونون مُحاطين بمناظر الرذيلة وضجيجها يتعرضون لتجارب هائلة. وإذ يُحشرون مع الأوغاد والفاسدين المُنحطين ويُحسبون منهم فلن يمكنهم، بدون مجهود وصراع فوق طاقة البشر أن يُحفظوا من الانحدار إلى الدرك نفسه. كثيرون من هؤلاء يتشبّثون باستقامتهم، ويفضّلون احتمال الآلام على ارتكاب الخطيّة. هذه الطبقة بوجه خاص بحاجة إلى المعونة والعطف والتشجيع.

حسنات الريف

لو أنّ الفقراء الذين تزدحم بهم المدن الآن استطاعوا أن يجدوا لهم بيوتاً في الريف فإنهم فضلاً عن كونهم يكسبون رزقهم سيجدون من الصحّة والسعادة ما لم يكونوا

يعرفون. قد يكون من نصيبهم العمل المضني والأجر الضئيل والتقتير وأحياناً المشقّات والحرمان والفاقة، ولكن ما أعظم البركة التي يحصلون عليها حين يتركون المدينة بمغرياتها على عمل الشرّ وضجتها وجرائمها ومشقّاتها وقذارتها ليذهبوا إلى الريف حيث يتوفّر لهم الهدوء والسلام والطهارة!

فبالنسبة إلى كثيرين ممن يعيشون في المدن ولا يجدون بقعة صغيرة بها عشب أخضر ليضعوا أقدامهم عليها، والذين من عام إلى عام لا يقع نظرهم إلاّ على الأقنية القذرة والأزقّة الضيّقة والجدران والطرق المصنوعة من الطوب، والسماء المنعقدة فيها سحب الغبار والدخان – لكن أن يُنقل هؤلاء إلى إقليم زراعي تحيط به الحقول الخضراء والغابات والتلال وجداول المياه والسماء الصافية وهواء الريف النقيّ لبدا ذلك أقرب ما يكون شبهاً بالسماء.

إنّهم إذ يكونوا منقطعين إلى حدّ كبير عن الاتّصال بالناس والاعتماد عليهم، ومنفصلين عن مقاييس العالم المُفسِدة وعاداته وعوامله المثيرة فإنّهم يصيرون أقرب إلى قلب الطبيعة. وحضور الله يصير أكثر واقعية لهم. وكثيرون يتعلّمون درس الاعتماد عليه. وفي الطبيعة قد يسمعون صوته يتحدّث إليهم مخاطباً قلوبهم بسلامه ومحبته، فتستجيب عقولهم ونفوسهم وأجسادهم إلى قوّته الشافية المانحة الحياة.

إنّ كثيرين من الناس، لكي يصيروا مجدّين وقادرين على إعالة أنفسهم، ينبغي أن يحصلوا على المساعدة والتشجيع والتعليم. يوجد كثير من العائلات الفقيرة الذين أفضل عمل كرازي يُعمل لهم هو مساعدتهم على السكنى في الأرض وتعلّم الكيفيّة التي بها يجعلون الأرض تنتج ما يكفي لإعالتهم.

إنّ الحاجة إلى مثل هذه المساعدة وهذا التعليم ليست قاصرة على المدن. فحتى في الريف بكلّ ما فيه من إمكانيات لحياة أفضل كثيرون من الفقراء هم في عوز شديد. فتوجد جماعات بأكملها محرومة من التعليم في المجالات الصناعيّة والصحيّة، كما توجد

عائلات تسكن في أكواخ تكاد تكون خالية من الأثاث والملابس، ولا عُدد عندهم ولا كتب، وهم محرومون من التمتعات ووسائل الراحة ومن وسائل التهذيب أيضاً. فالنفوس التي انحدرت إلى درجة البهائم والأجسام الضعيفة المشوّهة تكشف عن نتائج الشرّ الموروث والعادات الخاطئة. هؤلاء الناس ينبغي تعليمهم من الأساس. لقد عاشوا حياة عديمة الحيلة والتدبير، حياة خاملة وفاسدة، وهم بحاجة إلى أن يتدّربوا على العادات الصحيحة.

ولكن كيف يمكن إيقاظهم إلى ضرورة التحسّن والإصلاح؟ وكيف يمكن توجيههم إلى مثل أعلى للحياة؟ وكيف يمكن مساعدتهم على النهوض؟ وما الذي يمكن عمله حيث يتفشّى الفقر الذي يجب مقاومته في كلّ خطوة؟ لا شكّ أنّه عمل شاق. إنّ الإصلاح اللازم لن يتمّ ما لم تأت إلى الرجال والنساء مساعدة من قوّة خارجة عنهم. إنّ قصد الله هو أن يرتبط الأغنياء والفقراء معاً بربط وثيقة من العطف والعون. فعلى من عندهم وسائل ومواهب أن يستخدموا هذه الهبات في مباركة إخوتهم في الإنسانية.

المزارعون كمرشدين

إنّ المزارعين المسيحيين يستطيعون أن يقوموا بعمل كرازي حقيقي في مساعدة الفقراء ليجدوا بيوتاً على أرضهم وكيف يحرثون الأرض ويجعلونها مثمرة. علموّهم كيف يستخدمون أدوات الزراعة وكيف يزرعون الحبوب المختلفة وكيف يغرسون البساتين ويرعونها.

إنّ كثيرين ممن يحروثون الأرض يخفقون في الحصول على ثمرات مجزية كافية بسبب إهمالهم. بساتينهم لا تحصل على الرعاية الكافية، فهم لا يلقون البذار في الوقت المناسب. ولا يُعمل غير عمل سطحي في حراثة الأرض والعناية بها. وهم ينسبون إخفاقهم إلى عقم الأرض. وفي كثير من الأحيان تُقدّم شهادات كاذبة في ذم الأرض التي لو وجدت اهتماماً وخدمة كافية لجادت بمحاصيل غنيّة وفيرة. إنّ الخطط الضيقة

والقوّة الضئيلة المستخدمة والدراسة القليلة لأفضل الوسائل تنادي كلّها بأعلى صوت في طلب الإصلاح.

ينبغي تعليم الوسائل السدّيدة لكلّ من يرغب في التعلّم. فإنّ كان البعض لا يريدونك أن تحدّثهم عن الآراء المستحدثة التقدمية فقدم الدروس في غير ضجة، بل في هدوء وسكون. واحتفظ بثقافتك ومارسها في أرضك. وتكلّم قليلاً مع جيرانك متى استطعت الكلام، وليكن كلامك الفصيح في صالح الطرق الصائبة. وأوضح ما يمكن أن يعمل بالأرض متى خُدمت خدمة صائبة وكافية.

وسائل للعمل

ينبغي الاهتمام بإقامة صناعات مختلفة بحيث تجد العائلات الفقيرة عملاً. فعلى النجارين والحدادين وكلّ من له خبرة ومعرفة بأي نوع من أنواع العمل النافع أن يحسّوا بمسؤوليتهم في تعليم ومساعدة الجُهّال والعاطلين عن العمل.

وفي خدمة الفقراء يوجد حقل واسع للخدمة للنساء كما للرجال. فالطاهية ذات الكفاءة، ومدبّرة شؤون المنزل، والخياطة، والممرضة – هؤلاء جميعاً بحاجة إلى المساعدة. ليتعلّم أفراد العائلات الفقيرة كيفيّة طهو الطعام وصنع ملابسهم ورتقها وكيفيّة تمريض المرضى ورعاية البيت الرعاية السدّيدة. ليتعلّم الأولاد والبنات بعض الحرف أو الصناعات المفيدة تعليماً مستكملاً.

تمسّ الحاجة إلى عائلات المرسلين للإقامة في الأماكن المقفرة. ليذهب الفلاحون والإخصائيون في الأمور الماليّة والبناؤون ومن هم ماهرون في الفنون والحرف المختلفة، إلى الحقول المهملة ليصلحوا الأرض ويقيموا صناعات وليعدّوا لأنفسهم بيوتاً متواضعة وليساعدوا جيرانهم.

فأماكن الطبيعة الخشنة والأماكن البريّة قد جعلها الله جذّابة بوضع أشياء جميلة في وسط أقبح الأماكن. هذا هو العمل الذي يطلب منّا القيام به. حتى الأماكن الصحراوية في الأرض حيث يبدو المنظر منفراً يمكن أن تصبح كجنّة الله. «ويسمع في ذلك اليوم الصمّ أقوال السفر وتنظر في القتام والظلمة عيون العمي. ويزداد البائسون فرحاً ويهتف مساكين الناس بقدوس إسرائيل» (إشعياء٢٩: ١٨و١٩).

يُمكنّنا في غالب الأحيان أن نساعد الفقراء مساعدة فعّالة بتعليمهم في النواحي العملية. ومن القواعد المُسّلم بها أنّ من لم يتدرّبوا على العمل لا توجد عندهم عادات الاجتهاد أو المواظبة أو الاقتصاد أو إنكار الذات. ولا يعرفون كيف يديرون عملاً. وفي أحيان كثيرة يتلف ما كان يمكن أن يعول عائلاتهم في لياقة وراحة لو استخدم بحرص وتدبير واقتصاد، وذلك لعدم الحرص والحكم الصائب: «في حرث الفقراء طعام كثير. ويوجد هالك من عدم الحق» (أمثال ١٣:٢٣).

يمكننا أن نعطي للفقراء وبذلك نضرّهم إذ نعلّمهم التواكل والاعتماد على الغير. مثل هذا العطاء يُشجّع على الأنانيّة والعجز. وكثيراً ما يقود ذلك إلى الكسل والخمول والإسراف وعدم الاعتدال. فكلّ من يستطيع أن يكسب رزقه لا حقّ له في الاعتماد على الغير. إنّ المثل القائل: «العالم مدين لي برزقي فيه» جوهر الكذب والخداع والسرقة. فالعالم ليس مديناً لأحد برزقه مادام يستطيع أن يشتغل ويكسب رزقه بعرق جبينه.

الإحسان الصحيح هو الذي يساعد الناس على مساعدة أنفسهم. فإذا وقف إنسان على بابنا طالباً طعاماً ينبغي لنا ألاّ نصرفه جائعاً، فقد يكون فقره ناتجاً عن كارثة حلّت به. ولكن الإحسان الحقيقي يعني شيئاً أكثر من مجرّد تقديم العطايا. فهو يعني الاهتمام الخالص بخير الآخرين. علينا أن نتفهّم حاجات الفقراء والمتضايقين ونقدّم لهم المعونة التي تفيدهم أعظم فائدة. إنّ إعطاء الناس فكراً ووقتاً ومجهوداً شخصيّاً يكلّفك شيئاً أكثر من مجرد إعطائهم المال. ولكنّه أسلم أنواع الإحسان.

والذين يتعلّمون أن يكسبوا ما يتناولونه بكدّهم يكونون أكثر استعداداً لأن يتعلّموا كيف يحسنون إنفاقه. وإذ يتعلّمون الاعتماد على ذواتهم فإنّهم، فضلاً عن إعالتهم لأنفسهم، سيكونون قادرين على مساعدة الغير. علّموا من يضيعون الفرص المقدّمة لهم ويقتلون الوقت عبثاً أهميّة واجبات الحياة. علّموهم أنّ ديانة الكتاب لا تجعل الناس خاملين أو كسالى. لقد شجّع المسيح الناس دائماً على الاجتهاد في العمل. فقد قال للكسالى: « لِمَاذَا وَقَفْتُمْ هٰهُنَا كُلَّ النَّهَارِ بَطَّالِينَ ؟ » كما قال أيضاً: « يَنْبَغِي أَنْ أَعْمَلَ .. مَا دَامَ نَهَارٌ. يَأْتِي لَيْلٌ حِينَ لاَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَعْمَلَ » (متى٢٠: ٦؛ يوحنا ٤:٩).

الدروس المرئيــة

إنّه امتياز للجميع أن يقدّموا للعالم في الحياة المنزلية وفي عادتهم وأعمالهم ونظامهم، البرهان على ما يُمكن أن يفعله الإنجيل لمن يطيعونه. لقد أتى المسيح إلى عالمنا ليقدّم لنا مثالاً لما يمكن أن نصير إليه. وهو ينتظر من تابعيه أن يكونوا نماذج للاستقامة في كلّ صلات الحياة، كما يريد أن تُرى اللمسة الإلهيّة على كلّ الأمور الخارجية.

وينبغي أن تكون بيوتنا وبيئاتُنا دروساً مرئيّة تعلّم طرق التهذيب والإصلاح بحيث يحلّ الجدّ والمثابرة والنظافة والذوق السليم والتهذيب في مكان الكسل والقذارة والفظاظة والتشويش. ونحن نستطيع بحياتنا وقدوتنا أن نساعد الآخرين على اكتشاف ما هو منفّر في أخلاقهم أو بيئتهم، ويمكنّنا باللطف المسيحي أن نشجّعهم على الإصلاح. وإذ نُبدي اهتمامنا بهم فسنجد فرصة فيها نعلّمهم كيف يستخدمون قواهم ونشاطهم أحسن استخدام.

الرجاء والشــجاعة

لسنا نستطيع أن نعمل شيئاً بدون الشجاعة والمثابرة. كلّموا الفقراء وخائفي القلوب بكلام الرجاء والشجاعة. وإذا لزم الحال قدّموا برهاناً محسوساً على اهتمامكم بمساعدتهم عندما يقعون في مآزق. والذين كانت لهم امتيازات كثيرة ينبغي أن يذكروا

أنّهم هم أنفسهم مازالوا يخطئون في أشياء كثيرة، وأنّهم يتألّمون عندما يُشار إلى أخطائهم ويوضع أمامهم نموذجاً مناسباً لما يجب أن يكونوا عليه. اذكروا أنّ الرأفة والرفق لهما تأثير أفعل من اللوم. وإذ تحاولون أن تعلّموا الآخرين دعوهم يرون أنّكم تريدونهم أن يبلغوا أسمى قياس وأنّكم مستعدّون لتقديم العون لهم. وإذا أخفقوا في بعض الأمور فلا تتسرّعوا في إدانتهم.

البساطة وإنكار الذات

البساطة وإنكار الذات والاقتصاد التي هي دروس جوهريةّ جدّاً للفقراء عليهم أن يتعلّموها، يبدو أنّها دروس صعبة وغير مقبولة لديهم. إنّ مثال العالم وروحه يسببان الإثارة المستمرّة ويولّدان الكبرياء وحبّ الظهور والانغماس في الشهوات والإسراف والكسل. هذه الشرور تجلب الفاقة على آلافٍ من الناس وتحول دون نهوض آلافٍ غيرهم من الانحطاط والتعاسة. فعلى المسيحيين أن يشجّعوا الفقراء على مقاومة هذه التأثيرات.

لقد أتى يسوع إلى هذا العالم متواضعاً. وقد وُلد في عائلة متواضعة. فمع أنّه جلال السماء وملك المجد ورئيس كلّ جند ملائكة السماء فقد أخلى نفسه ليقبل جسد البشرية، ثم اختار حياة الفقر والاتّضاع. لم تكن له الفرص التي لا يملكها الفقراء، فقد كان التعب والمشقّة والحرمان جزءاً من اختباره اليومي، : « لِلثَّعَالِبِ أَوْجِرَةٌ وَلِطُيُورِ السَّمَاءِ أَوْكَارٌ وَأَمَّا ابْنُ الإِنْسَانِ فَلَيْسَ لَهُ أَيْنَ يُسْنِدُ رَأْسَهُ » (متى٩:٥٨).

إنّ يسوع لم يحاول أن يظفر بإعجاب الناس أو استحسانهم. ولم يكن قائداً لجيش. ولا كان ملكاً على مملكة أرضيّة. ولم يتزلّف إلى الأثرياء أو شرفاء العالم. ولم يُطالب بمركز أو مكانة بين رؤساء الأمة. كان يعيش بين الناس الوضعاء. واستخفّ بامتيازات المجتمع المصطنعة، كما تجاهل أرستقراطيةَ المولدِ والثروةِ والمواهب والعلم والمقام.

لقد كان هو رئيس السماء، ومع ذلك فهو لم يخترّ تلاميذه من بين الناموسيّين العلماء أو الرؤساء أو الكتبة أو الفريسيين، بل تجاوز عن هؤلاء لأنّهم كانوا يفاخرون بعلومهم

ومراكزهم. كانوا متشبّثين بتقاليدهم وخرافاتهم. فذاك الذي عرف خفايا كلّ القلوب اختار الفقراء الذين كانوا مستعدين لأن يتعلّموا. لقد أكل مع العشّارين والخطاة واختلط بعامة الشعب لا ليصير منحّطاً وأرضيّاً معهم، بل ليقدّم لهم بأقوال مثاله مباديء مستقيمة ويرفعهم فوق مستوى التعلّق بالأرضيّات والانحطاط.

حاول يسوع أن يصحّح مقياس العالم الكاذب للحكم على قيمة الناس. لقد وقف إلى جانب الفقراء لكي يرفع عن الفقر وصمة العار التي ألصقها العالم بالفقر. لقد جرّد الفقر إلى الأبد من عار الاحتقار إذ طوَّب المساكين قائلاً إنّ لهم ملكوت الله. وهو يوّجه انتباهنا إلى الذي سار هو فيه قائلا: « إِنْ أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ وَرَائِي فَلْيُنْكِرْ نَفْسَهُ وَيَحْمِلْ صَلِيبَهُ وَيَتْبَعْنِي » (لوقا ٩: ٢٣).

وعلى الخدّام المسيحيين أن يلاقوا الناس أينما يوجدون وأن يعلّموهم ليس في ترفّع وكبرياء بل في بناء الخُلُق. علّموهم كيف خدم المسيح وأنكر نفسه. ساعدوهم على أن يتعلّموا منه دروس إنكار الذات والتضحية. علّموهم أن يحترسوا من إرضاء الذات بمشاكلة العالم في أزيائه. إنّ الحياة هي أغلى وأكثر ازدحاماً بالتبعات الخطيرة المقدسة من أن تُنفق في إرضاء الذات.

أفضل ما في الحياة

إنّ الرجال والنساء بدأوا بالكاد يدركون هدف الحياة الحقيقي. إنّ البريق والمظاهر تجتذب انتباههم. وهم يطمعون في الشهرة العالمية. والناس يضحّون بأهداف الحياة الحقيقية في سبيل هذا. إنّ أفضل ما في الحياة – كالبساطة والأمانة والصدق والطهارة والاستقامة أن تُشترى أو تُباع. إنها تُعطى مجاناً للجهلاء كما للمتعلّمين، للعامل الفقير كما للسياسي المُكرّم. لقد أعدّ الله لكلّ واحد مسرّات يمكن أن يتمتّع بها الغني كالفقير سواءٍ بسواء – مسرّات توجد في تنمية وتغذية طهارة العقل وعدم الإثرة في العمل، وتنشأ عندما

يتحدّث الإنسان بكلام العطف والحنان وعندما يعمل أعمال الرحمة. فالذين يقومون بمثل هذه الخدمة يُشرق منهم نور المسيح على النفوس التي اكتنفتها الظلمات.

سيعطي الله النجاح

وأنت تساعد الفقراء في الأمور الزمنيّة لا تغفل أبداً حاجاتهم الروحيّة. لتشهد حياتك لقوّة المخلص الحافظة. ولتُعلن أخلاقك المقياس الذي يُمكن أن يبلغه الجميع. علّم بالإنجيل في دروس مرئيّة بسيطة. وليكن كلّ ما لك به علاقة، درساً لبناء الخُلُق.

وفي دائرة العمل المتواضعة يمكن لأضعف الناس المغمورين أن يكونوا عاملين مع الله وأن يحصلوا على الراحة والعزاء بحضور وعون نعمته. ويجب ألاّ ينهكوا أنفسهم بالجزع والهموم التي لا داعي لها. بل ليواصلوا العمل يوماً بعد يوم وليتمّموا بأمانة العمل الذي تعّينه لهم عناية الله، وهو يعتني بهم. إنه يقول:

«لاَ تَهْتَمُّوا بِشَيْءٍ بَلْ فِي كُلِّ شَيْءٍ بِالصَّلاَةِ وَالدُّعَاءِ مَعَ الشُّكْرِ لِتُعْلَمْ طِلْبَاتُكُمْ لَدَى اللهِ. وَسَلاَمُ اللهِ الَّذِي يَفُوقُ كُلَّ عَقْل يَحْفَظُ قُلُوبَكُمْ وَأَفْكَارَكُمْ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ» (فيلبي ٤:٦؛ ٤:٧).

إنّ رعاية الرب تشمل كلّ خلائقه. إنّه يحبهم جميعاً ولا يفرّق بينهم، إلاّ أنه يخص برأفته وعطفه العظيم أولئك الذين يدعون لحمل أثقل أعباء الحياة. يجب على أولاد الله أن يواجهوا التجارب والصعوبات، إنّما عليهم أن يرضوا بنصيبهم بروح الفرح متذكّرين أنّ الله سيعوض لهم بأفضل نعمة عن كلّ ما يهمل العالم أن يمنحهم إيّاه.

إنّنا عندما نأتي إلى مواضع حرجة يعلن الله قدرته ورحمته إجابة للصلاة المتواضعة. ثق به على أنّه الإله سامع الصلاة ومجيب الدعاء. وهو سيُعلن نفسه لك كمن يستطيع أن يُعين في كلّ ظرف طارىء. فذاك الذي خلق الإنسان ومنحه قواه الجسمية والعقلية والروحيّة العجيبة لن يمنع عنه ما هو لازم له لسدّ احتياجات الحياة التي قد أعطاها.

وذاك الذي أعطانا كلمته – الأوراق التي من شجرة الحياة – لن يمنع عنّا معرفة الوسيلة التي بها نمدّ بالطعام أولاده المحتاجين.

كيف يمكن لمن يمسك المحراث ويسوق الثيران أن يحصل على الحكمة؟ ذلك بكونه يطلبها كالفضّة وينقّب عليها كمن يبحث عن الكنوز، «يرشده بالحق يعلمه إلهه» (إشعياء٢٨: ٢٦). «هذا أيضاً خرج من قبل رب الجنود عجيب الرأي عظيم الفهم» (إشعياء ٢٨:٢٩).

إنّ من قد علّم آدم وحواء في الجنة كيف يعتنيان بالجنة ويحفظانها يريد أن يعلّم الناس اليوم. توجد حكمة لمن يسوق المحراث ويبذر الزرع. إنّ الله يفتح طرقاً للتقدّم إلى الأمام في وجه من يثقون به ويطيعونه. فليتقدّموا إلى الأمام بشجاعة متّكلين عليه ليسدّ إعوازهم حسب غنى صلاحه.

إنّ من قد أشبع الجموع بخمسة أرغفة وسمكتين قادر اليوم على أن يعطينا ثمر تعبنا. والذي قال لصيّادي الجليل: «القوا شباككم للصيد» وإذ أطاعوه ملأ شباكهم حتى كادت تتخرق، يطلب من شعبه أن يروا في هذا برهاناً على ما سيفعله لأجلهم اليوم. والإله الذي أعطى لبني إسرائيل المنّ من السماء وهم في البرّية ما يزال حيّاً يملك. وهو سيقود شعبه ويعطيهم مهارة وفهماً في العمل الذي دعوا لمزاولته. وهو سيمنح الحكمة لمن يجتهدون في إتمام واجبهم بأمانة وذكاء. وذاك الذي يملك العالم توجد تحت يده موارد غنيّة، وهو يبارك كلّ من يجتهدون مباركة الآخرين.

إنّنا بحاجة إلى أن نتّطلع نحو السماء بإيمان. وينبغي ألاّ تضعف شجاعتنا بسبب الفشل الظاهر ولا أن تخور قلوبنا بسبب التأخير. بل علينا أن نخدم بفرح ورجاء وشكر مؤمنين أنّ الأرض تخفي في باطنها كنوزاً غنية مذخورة للخدّام الأمناء ليدّخروها، مخازن أثمن من الذهب والفضة. إنّ الجبال والآكام تتغيّر والأرض بدأت تبلى كثوب، أمّا بركة الله التي تولم لشعبه وليمة في البريّة فلن تزول أو تنفد.

٥ الفقراء العاجزون

بعد عمل كلّ ما يمكن عمله في مساعدة الفقراء على مساعدة أنفسهم توجد أيضاً الأرملُة واليتيمُ والعجزةُ والقاصرونَ والمرضى المحتاجون إلى العطف والرعاية. فينبغي ألاّ يُهمل هؤلاء البتّة. إنّ الله نفسه يضعهم وديعةً لرحمة ومحبّة من قد جعلهم وكلاءه، ولرعايتهم الرقيقة.

أهل الإيمان

«فإذاً حسبما لنا فرصة فلنعمل الخير للجميع ولاسيما لأهل الإيمان» (غلاطية٦: ١٠).

وبمعنى خاصّ أنّ المسيح قد وضع على كنيسته واجب رعاية الفقراء من أعضائها. إنّه يسمح لإخوته الفقراء بالتواجد في كلّ كنيسة. وهم سيكونون بيننا دائماً وهو يضع على أعناق أعضاء الكنيسة مسؤوليّة شخصيّة لرعايتهم.

وكما أنّ أعضاء كلّ عائلة أمينة يهتمّون ببعضهم البعض فيخدمون المرضى ويسندون الضعفاء ويعلّمون الجهلاء ويدرّبون العديمي الخبرة، كذلك على«أهل الإيمان» أن يهتمّوا بالفقراء والعاجزين. وينبغي ألاّ يُغفل أمر رعاية هؤلاء لأيّ اعتبار كان.

الأرامل والأيتام

إنّ الأرملة واليتيم هما موضوع رعاية الله الخاصّة: أبو اليتامى وقاضي الأَرَامِلِ الله في مسكن قدسه» (مزمور٦٨: ٥).«بعلك هو صانعك رب الجنود إسمه ووليك قُدُّوسِ

إِسْرَائِيلَ إله كل الأرض يُدعى» (إشعياء٥٤: ٥).«اترك أيتامك أنا أحييهم. وأراملك عليَّ ليتوكلن» (إشعياء ٥٤:٥).

كثيراً ما يحدث أنّه عندما يُدعى أب لمفارقة أحبائه فهو يموت متّكلاً بالإيمان على وعد الله برعايتهم. إنّ الربّ يعول الأرملة واليتيم لا بمعجزة كأن يرسل إليهم المنّ من السماء، ولا كأن يرسل الغربان إليهم بالطعام، بل بمعجزة تحدث في قلوب بني الإنسان، تطرد الأنانيّة وتفتح ينابيع المحبّة المسيحيّة. إنّه يستودع المتألّمين والمتضايقين بين أيدي أتباعه كودائع ثمينة. إنّ لهم أقوى حقّ في عطفنا.

في البيوت المزوّدة بتمتّعات الحياة، في الجرار والأهراء الملأى بمنتجات الحقول من المحاصيل الكثيرة، وفي مخازن البضائع حيث تتكدّس منتجات المناسج، وفي الخزائن الممتلئة بالذهب والفضة – في هذه جميعها أعدّ الله وسائل إعالة هؤلاء المحتاجين الفقراء. إنّه يدعونا لنكون قنوات لعطايا سخائه.

كثيراً ما تكون هنالك أمّ أرملة مع أولادها اليتامى تحاول بكلّ شجاعة أن تحمل عبئها المزدوج، وفي أحيان كثيرة تكافح بقوّة فوق طاقتها لتُبقي صغارها معها ولتكفل لهم حاجاتِهم. وقلّما تجد وقتاً لتربيتهم وتعليمهم. وقلّما تجد فرصة فيها تحيطهم بمؤثّراتٍ تبهج حياتهم. إنّها بحاجة إلى التشجيع والعطف والمعونة الملموسة.

إنّ الله يدعونا لكي نعول هؤلاء الأولاد بالقدر الذي فيه نعوّض لهم عن رعاية أبيهم. فبدلاً من وقوفنا بعيداً نشكو من أخطائهم ومن الاضطراب الذي يحدثونه، لنساعدهم بكلّ وسيلة ممكنة. حاولوا أن تساعدوا الأمّ التي أضناها الهمّ وخفّفوا من أعبائها.

ثمّ هنالك الأولاد الكثيرون الذين حُرموا بالكليّة من إرشاد والديهم وتأثير البيت المسيحي الرادع. فليفتح المسيحيون قلوبَهم وبيوتَهم لهؤلاء الأولاد القاصرين. والعمل الذي أعطاهم إيّاه الله على أنّه واجب فردي ينبغي لهم ألاّ يحيلوه على بعض المؤسسات الخيرية أو يتركوه لفرص سخاء العالم وإحسانه. وإذا لم يكن لأولئك أقرباء

قادرون على رعايتهم فليقدّم لهم أعضاءُ الكنائس مساكنَ يعيشون فيها. إنّ الله الذي خلقنا رسم أنّنا نجتمع كعائلات، وطبيعةُ الطفل تنمو أفضلَ نموٍّ في جو المحبّة في البيت المسيحي.

إنّ كثيرين ممن ليس لهم أولاد يمكنهم أن يعملوا عملاً صالحاً في رعاية أولاد الغير. وبدلاً من الاهتمام بالقطط والكلاب المدلّلة وإغداق محبّتهم على تلك الحيوانات البكم ليصرفوا اهتمامهم إلى الأولاد الصغار الذين يستطيعون أن يشكّلوا أخلاقهم على المثال الإلهي. وجّهوا محبّتكم إلى الشريدين من أفراد الأسرة البشريّة. انظروا كم من هؤلاء الأولاد يمكنكم أن تربّوهم في تأديب الربّ وإنذاره. وبهذه الكيفيّة يمكن لكثيرين أن ينفعوا أنفسَهم نفعاً عظيماً.

العجزة والعجائز

وكذلك العجزة والعجائز هم بحاجة إلى مؤثّرات العائلة المفيدة. ففي بيوت الإخوة والأخوات في المسيح يمكن على وجه التقريب التعويض لهم عن خسارة بيوتهم. وإذا أمكن تشجيعهم على الإشتراك في مصالح البيت وأعماله فذلك يساعدهم على الإحساس بأنّ نفعَهم لم ينتهِ. أشعروهم بأنّكم تقدّرون نفعهم وأنّه باقٍ لهم عمل ليعملوه في خدمة الآخرين، وهذا يبُهج قلوبهم ويجعل حياتَهم ذاتَ قيمة.

وبقدر الإمكان ليمكث الذين يدلّ الشيب الذي علا رؤوسهم، وتعثّر خطواتهم على أنّهم قريبون من أبواب القبر – ليمكثوا بين أصدقائهم وعشرائهم الذين يعرفونهم. وليعبدوا الله بين من يعرفونهم ويحبّونهم. ولتُعن بهم الأيادي المحبّة الرقيقة.

ينبغي أن يكون امتياز أفراد كلّ عائلة أن يخدموا أقرباءهم كلّما استطاعوا ذلك. ومتى تعذّر هذا فالعمل يكون من اختصاص الكنيسة، وينبغي قبوله على أنّه امتياز كما هو واجب. فكلّ من فيهم روح المسيح لابدّ أن يقدّموا للضعفاء والمسنّين الاحترام الرقيق.

إنّ وجودَ واحدٍ من هؤلاء العاجزين في بيوتنا هو فرصة ثمينة لنا لنتعاون فيها مع المسيح في خدمته الرحيمة وتكوين أخلاقنا وتنميتها لتكون كأخلاقهِ. توجد بركة في معاشرة المسنّين للشباب. فالشباب يمكنهم إدخالَ نور الشمس إلى قلوب المسنّين وحياتهم. إنّ الذين أمسى تمسّكهم وتشبّثهم بالحياة واهناً وضعيفاً هم بحاجة إلى نفعِ الاتصال برجاء الشباب ونشاطهم. كما يمكن للشباب الاستفادة من حكمة الشيوخ واختبارهم. وهم، فوق الكلّ، بحاجة أن يتعلّموا درس الخدمة المُنكرة لنفسها. إنّ وجودَ إنسانٍ يكون بحاجة إلى العطف والاحتمال والمحبّة المُضحّية قد يكون بركةً لا تقدّر بثمن لكثير من العائلات. إنّه يُضفي حلاوةً ورقّةً على الحياة البيتيّة ويستدعي في الكبار والصغار تلكَ الفضائلَ التي هي على غرارِ فضائلِ المسيح التي تُجمّلهم بجمال إلهيّ وتغنيهم بكنوز السماء التي لا تفنى.

اختبار للخُلُق

قال المسيح: الْفُقَرَاءَ مَعَكُمْ فِي كُلِّ حِينٍ ، وَمَتَى أَرَدْتُمْ تَقْدِرُونَ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِمْ خَيْرًا » (مرقس١٤: ٧).«الديانة الطاهرة النقية عند الله هي هذه افتقاد اليتامى والأرامل في ضيقتهم وحفظ الإنسان نفسه بلا دنس من العالم» (يعقوب ١:٢٧).

إنّ المسيح إذ يضع العاجزين والفقراء في وسط من يعترفون بأنّهم أتباعه إنّما يفعل ذلك لكي يختبرهم. فمحبّتنا وخدمتنا لأولاده الفقراء تبرهن على خلوصِ محبّتنا له. وبإهمالنا إيّاهم نعلن أننا تلاميذُ كذبة وغرباءُ عن المسيح ومحبّته.

بيوت الأيتام

لو عُمل كلّ ما يمكن عمله لإسكان الأولاد الأيتام مع العائلات، فإنّه يبقى عدد كبير منهم بعد ذلك يحتاجون إلى رعاية. وكثيرون منهم ورثوا الشرّ. إنّه لا يُرجى منهم خير، وغير جذّابين. إنهم معوجّون ومتمرّدون، ولكنّهم مع ذلك مقتنى دم المسيح وهم في

نظره أعزّاء كما أنّ أولادنا نحن أعزّاء لدينا. وما لم تمتدّ إليهم يدُ العونِ فسيشبّون على الجهل وينساقون إلى الرذيلة والجريمة. ويمكن إنقاذُ كثيرين من هؤلاء الصغار بعمل ملاجيء لهم.

ولكي تكون مثل هذه المؤسسات ذات أثر فعّال يجب أن تكون على طراز قريب الشبه جدّاً من البيت المسيحي. فبدلاً من البنايات الضخمة ووضع عدد كبير من الأولاد معاً، لتكن تلك المؤسسات صغيرة وفي أماكن متعددة. وبدلاً من أن تكون في بلدة أو مدينة كبيرة أو قريبة منها أن تكون في الأريّاف حيث تتوّفر الأرض الزراعية التي تُزرع وحيث يكون الأولادُ على اتصال بالطبيعة ويمكنهم الحصول على فوائد من التدريب الصناعي.وينبغي للمسؤولين عن مثل هذا البيت أن يكونوا رجالاً ونساءً مُتّسعي الصدر ومتعلّمين ومضحّين، رجالاً ونساءً يضطلعون بالعمل حبّاً بالمسيح ويربّون الأولادَ له. وتحت مثل تلك الرحابة يمكن إعداد كثيرين من المشرّدين والمهملين ليصيروا أعضاء نافعين في المجتمع، ويكونوا أنفسهم فخراً للمسيح، ويمكنهم بدورهم أن يعينوا الآخرين.

الاقتصاد وإنكار الذات

كثيرون من الناس يحتقرون الاقتصاد إذ يخلطون بينه وبين البخل والشحّ. ولكنّ الاقتصاد متوافق مع السخاء. وفي الحقيقة أنّه لولا الاقتصاد ما كان هنالك سخاء حقيقي. فعلينا أن نقتصد حتى يمكنّنا أن نُعطي.

ولا يُمكن لإنسان أن يُمارس عملَ الخير حقيقة بدون إنكار ذات. فبحياة البساطة وإنكار الذات والاقتصاد الدقيق، وحدها يمكنّنا إنجاز العمل المُعيّن لنا كممثّلين للمسيح. ينبغي استئصالُ الكبرياءِ والطموح العالمي من قلوبنا. وفي كلّ عملنا ينبغي تنفيذ مبدأ الإيثار المُعلن في حياة المسيح. فعلى جدران بيوتنا وصورنا وأثاثات منازلنا ينبغي أن نقرأ القول: «أَلَيْسَ. أن تُدْخِلَ الْمَسَاكِينَ التَّائِهِينَ إِلَى بَيْتِكَ». وعلى خزائن

ملابسنا يجب أن نجد هذه الكتابة: «إِذَا رَأَيْتَ عُرْيَانًا أَنْ تَكْسُوهُ». وعلى المائدة الحافلة بالطعام الكثير نرى هذا القول: «أَلَيْسَ أَنْ تَكْسِرَ لِلْجَائِعِ خُبْزَكَ» (إشعياء ٧:٥٨).

إنّ أمامنا آلافاً من أبواب النفع مفتوحة. إنّنا كثيراً ما نّندب قلّة مواردنا. ولكن لو أنّ المسيحيين جادّون حقّاً لضاعفوا الموارد ألفَ ضعف. ولكنّها الأنانيّة والانغماس الذي يوصدُ البابَ بينّنا وبين النفع.

ما أكثر ما يُنفق المالُ على الأشياء التي هي مجرّد أصنام، الأشياء التي تحتلّ تفكيرنا ووقتَنا وقوّتَنا وكان يجب استخدامه في شؤون أسمى! وما أكثر المال الذي يُصرَف في إقامة بيوتٍ غاليةِ الثمن وأثاثاتٍ غالية القيمةِ والطعام المُترف الضارّ والانغماس الضارّ! وكم من المال يُبدّد في شراء الهدايا التي لا تفيد أحداً! إنّ المُعترفين بالمسيح ينفقون في هذه الأيّام على الأشياء التي لا داعي لها والتي هي في الغالب ضارّة، أكثر بما لا يُقاسُ ممّا يُنفقون على محاولة إنقاذ النفوس من المجرّب.

وكثيرون مّمن يعترفون بأنّهم مسيحيّون يصرفون أموالاً كثيرةً جداً في شراء الملابس بحيث لا يُوفّرون شيئاً لسدّ أعواز الآخرين. إنّهم يقولون إنّهم يجب أن يكون عندهم زينات وملابس غالية الثمن بغضّ النظر عن حاجات الذين لا يقدرون أن يوفّروا لأنفسهم أبسط الثياب إلاّ بشقّ النفس.

يا أخواتي لو أردتنّ أن تجعلن ملابسَكنّ مطابقة للقوانين الواردة في الكتاب لتوفّرت لديكنّ أموال طائلة لمساعدة أخواتِكن الفقيراتِ. ولا يتوفّر لديكن المال فقط بل الوقت أيضاً. هذا ما تمسّ الحاجة إليه. توجد كثيرات ممن تستطعن مساعدتهنّ بمقترحاتكنّ ولباقتكنّ ومهارتكنّ. أرينهنّ كيف يلبسن ملابسَ بسيطةً ومع ذلك يتوفّر فيها الذوق السليم. كثيراً ما تمتنع امرأة عن الذهاب إلى بيت الله بسبب رثاثة ثيابها وعدم لياقتها إذ هي على نقيض لبس الأخريات. كثيراً ما تكون هنالك روح حسّاسة تضمر شعوراً بالمذلّة

والمهانة المُرّة والظلم لوجود هذا البون الشاسع. وبسبب ذلك يساور الكثيراتِ الشكُّ في حقيقة الديانة فتتقسّى قلوبهنّ ضدّ الإنجيل.

إنّ المسيح يأمرنا قائلاً:« اجْمَعُوا الْكِسَرَ الْفَاضِلَةَ لِكَيْ لاَ يَضِيعَ شَيْءٌ ». ففي حين أن آلافاً من الناس يموتون كل يوم بسبب الجوع وسفك الدماء والنار والوبأ يليق بكلّ من يحبّ بني جنسه أن يحترس حتى لا يُتلف شيءٌ، ولا يُنفقُ شيءٌ لغير داعٍ مّما يمكن أن يفيد نفساً بشريّة.

ومن الخطأ أن نصرف وقتنا هباءٍ وأن نّنفق تفكيرَنا فيما لا ينفع. إنّنا نخسر كلّ لحظة نصرفها فيما لأنفسنا. فلو قدّرنا كلّ لحظة وصرفناها في النافع لوجدنا وقتاً لعمل كلّ ما نريد عمله لأنفسنا أو للعالم. وفي إنفاق المال وصرف الوقت والقوّة والفرص لينظر كلّ مسيحي له في طلب الإرشاد: « وَإِنَّمَا إِنْ كَانَ أَحَدُكُمْ تُعْوِزُهُ حِكْمَةٌ فَلْيَطْلُبْ مِنَ اللهِ الَّذِي يُعْطِي الْجَمِيعَ بِسَخَاءٍ وَلاَ يُعَيِّرُ فَسَيُعْطَى لَهُ » (يعقوب ١: ٥).

« أَعْطُوا تُعْطَوْا »

«أحسنوا وأقرضوا وأنتم لا ترجون شيئاً فيكون أجركم عظيماً وتكونوا بني العَلِيّ فإنه مُنْعِمٌ عَلَى غَيْرِ الشَّاكِرِينَ وَالأَشْرَارِ » (لوقا ٦: ٣٥).

«من يعطي الفقير لا يحتاج ولمن يحجب عنه عينيه لعنات كثيرة» (أمثال٢٨: ٢٧).

« أعطوا تعطوا كيلا جيدا ملبدا مهزوزا فائضا يعطون في أحضانكم » (لوقا ٦: ٣٨).

٦ الخدمة لأجل الأغنياء

إنّ كرنيليوس، قائد المئة الروماني، كان رجلاً غنياً ومن أسرة نبيلة. كان مركزه مركزاً ذا مسؤولية وكرامة. ومع أنّه قد وُلد وثنيّاً وترعرع في أحضان الوثنيّة وتربّى تربية وثنيّة وكانت ثقافته وثنيّة، فإنّه بفضل اتصاله باليهود حصل على معرفة الإله الحقيقي، وكان يتعبّد له مبرهناً على صدق إيمانه بصنعه الرحمة للمساكين. كان «يَصْنَعُ حَسَنَاتٍ كَثِيرَةً لِلشَّعْبِ وَيُصَلِّي إِلَى اللهِ فِي كُلِّ حِينٍ» (أعمال ١٠: ٢).

لم تكن لكرنيليوس معرفة بالإنجيل كما هو مُعلن في حياة المسيح وموته، فأرسل الله إليه رسالة من السماء مباشرة، وبواسطة رسالة أخرى أرشد بطرسَ الرسولَ ليزوره ويعلّمه. لم يكن كرنيليوس قد انضمّ إلى الكنيسة اليهودية وكان أحبار اليهود يعتبرونه وثنيّاً نجساً. ولكنّ الله كان عليماً بسلامة طويّته فأرسل رسلاً من عرشه ليشتركوا مع خادمه على الأرض في تعليم الإنجيل لهذا الضابط الروماني.

هكذا الحال اليوم، فالله يطلب نفوساً بين العظماء كما بين الأدنياء. يوجد كثيرون يشبهون كرنيليوس من الرجال الذين يريد أن يضمّهم إلى كنيسته. إنّ عواطفهم هي مع شعب الله ولكنّ الربُط التي تربطهم بالعالم تمسكهم بقوّة. فالحال يتطلّب شجاعة أدبيّة تجعل هؤلاء الناس يتّخذون موقفهم إلى جوار الفقراء. فينبغي بذل مجهود خاصّ لأجل هؤلاء الأشخاص الذين هم في خطر عظيم بسبب مسؤولياتهم ومعاشراتهم.

لقد قيل الشيء الكثير عن واجبنا نحو الفقراء المُهمَلين، أفلاّ ينبغي أن نوجّه بعض اهتمامنا إلى الأغنياء المُهمَلين؟ كثيرون ينظرون إلى هذه الطبقة كأنّها ميئوس منها، ولذلك لا يعملون إلاّ القليل لكي يفتحوا عيون الذين إذ أعماهم وبهرهم بريقُ المجدِ

الأرضي ما عادوا يحسبون للأبدية حساباً. إنّ آلافاً من الأثرياء انحدروا إلى القبر دون أن ينذرهم أحد. ولكن مع أنّ كثيرين من الأغنياء يبدو أنّهم عديمو الاكتراث فإنّ نفوسهم مثقّلة بالهموم: «من يحب الفضة لا يشبع من الفضة ومن يحب الثروة لا يشبع من دخل» (جامعة٥: ١٠). إنّ من يقول للأبريز «أنت مُتكلي» يكون قد جحد «الله مِنْ فَوْقُ» (أيوب٣١: ٢٤ و٢٨). «الأخ لن يفدي الإنسان فداء ولا يعطي الله كفارة عنه وكريمة هي فدية نفوسهم فغلقت إلى الدهر» (مزمور ٤٩:٧و٨).

الغنى والكرامة الأرضيّة لا يستطيعان إشباع النفس. إنّ كثيرين من بين الأغنياء يتوقون إلى اليقين الإلهي والرجاء الروحي. كثيرون يتوقون إلى ما يجعل نهاية للروتينيّة في حياتهم التي بلا هدف. وكثيرون في الحياة الرسميّة يحسّون بالحاجة إلى ما لا يملكونه. منهم يذهبون إلى الكنائس، لأنّهم يحسّون أنّهم في الكنيسة لا يستفيدون كثيراً. والتعليم الذي يسمعونه لا يمسّ قلوبهم. أفلاّ نُقدّم دعوة شخصية لهم؟

وبين ضحايا العوز والخطيّة يوجد من كانوا قبلاً يملكون ثروة. إنّ رجالاً من ذوي المهن المختلفة والمقامات المختلفة قد انغلبوا من فساد العالم بتعاطي الخمر والانغماس في الشهوات، فسقطوا في التجربة. ففي حين أنّ هؤلاء الساقطين يحتاجون إلى العطف والعون، ألاّ يجب توجيه بعض الاهتمام إلى من لم ينحدروا بعد إلى تلك الأعماق وإنّما هم سائرون على نفس النهج؟

إنّ آلافاً مّمن يشغلون مراكز ذات مسؤولية وكرامة هم منغمسون في عادات فيها الدمار للنفس والجسد. فخدّام الإنجيل والساسة والكتّاب، وأصحاب الغنى والمواهب، والرجال ذوو المقدرة في دنيا التجارة، والقوّة على النفع هم في خطر قاتل لأنّهم لا يرون ضرورة لضبط النفس في كلّ شيء. وهم بحاجة إلى من يوجّه انتباههم إلى ضرورة الاعتدال وضبط النفس، لا بطريقة ضيّقة أو تعسّفية، بل في نور قصد الله العظيم من نحو بني

الإنسان. فلو وُضعت أمامهم مباديء الاعتدال وضبطِ النفس الحقيقي لكان يوجد كثيرون من الطبقات الراقية الذين يعترفون بقيمتها ويقبلونها بكلّ إخلاص.

علينا أن نبيّن لهؤلاء الأشخاص نتيجة الانغماس الضارّ في إضعاف القوّة الجسميّة والعقليّة والأدبيّة. أقنعوهم بمسؤوليتهم كوكلاء على عطايا الله. بيّنوا لهم مقدار الخير الذي كان يمكنهم أن يسدّوه بالمال الذي ينفقونه الآن فيما يؤول إلى ضررهم فقط. ثمّ قدموا لهم عهد الامتناع التام طالبين منهم تكريس المال الذي ينفقونه على الخمر أو التبغ أو الانغماس في الشهوات، لإسعاف المرضى المساكين أو لتعليم الأولاد والشباب ليكونوا نافعين في العالم. ومثل هذا الالتماس لن يرفضه إلاّ القليلون.

هناك خطر آخر يتعرّض له الأثرياء على الخصوص، وهنا يجد الطبيب المُرسل ميداناً للعمل. فكثيرون مّمن هم ناجحون في العالم والذين لا يحقرون أنفسهم بارتكاب أشكال الرذيلة الشائعة يتعرّضون للهلاك عن طريق حبّ الغنى والولع بجمع المال. إنّ الكأس التي يصعب حملها ليست هي الكأس الفارغة بل هي الكأس الملأى إلى حافتها. فهذه الكأس هي التي تحتاج إلى وزنها وضبطها بكلّ حذر. إنّ البلايا والضيقات تجلب للإنسان الخيبة والحزن ولكنّ النجاح هو أخطرُ شيءٍ على الحياة الروحيّة.

إنّ من يقاسون من الضائقات ترمز إليهم العليقة التي رآها موسى في البريّة والتي مع أنّها كانت تشتعل بالنار لم تحترق. فلقد كان ملاك الربّ حالاً في وسط العُليقة. فكذلك نحن عندما تكتنفنا الضيقات والبلايا. إنّ مجد حضوره غير المنظور يكون معنا ليعزّينا ويعضّدنا. في غالب الأحيان تُطلب الصلاة لأجل المتألّمين من المرض أو الضيق، ولكن صلاتنا لازمة أشدّ اللزوم لأجل من أُعطيَ لهم النجاح والنفوذ.

في وادي الاتضاع حيث يحسّ الناس بحاجتهم ويعتمدون على الله لإرشاد خطواتهم تكون لهم سلامة تتناسب وموقفهم. ولكنّ الذين يقفون كما يبدو فوق برج عالٍ، والذين،

نظراً إلى مركزهم، يُنتظر أن تكون عندهم حكمة عظيمة – هؤلاء يتعرّضون لأشدّ المخاطر. فما لم يجعل هؤلاء الناس الله متّكلهم فإنّهم، لا محالة، ساقطون.

إنّ الكتاب لا يدين إنساناً لكونه غنيّاً إذا كان قد حصّل أمواله بالأمانة. ليس المال بل محبّة المال هي أصل لكلّ الشرور. إنّ الله هو الذي يُعطي الناس قوّة لاصطناع الثروة، وذاك الذي يتصرّف كوكيل لله وينفق أمواله في غير أنانية فإنّ المال الذي في يديه يكون بركة لمن يملكه وللعالم أيضاً. ولكنّ كثيرين إذ ينشغلون بالاهتمام بغنى العالم وكنوزه يمسون عديمي الشعور بمطالب الله وحاجات بني جنسهم. إنّهم يعتبرون أموالهم وسيلة لتمجيد أنفسهم. إنّهم يصلون بيتاً ببيت ويقرنون حقلاً بحقل، ويملأون بيوتهم بأسباب الترف، بينما حولهم في كلّ مكان خلائق بشرّية تقاسي أهوال الشقاء والجريمة والمرض والموت. فالذين يسلّمون أنفسهم بهذه الكيفيّة إلى خدمة الذات إنّما يربّون في أنفسهم لا صفات الله بل صفات الشرّير.

هؤلاء الناس هم بحاجة إلى الإنجيل. وهم بحاجة إلى أن يحوّلوا أنظارهم بعيداً عن الأمور الباطلة إلى الغنى الباقي الذي لا تُقدّر قيمته بثمن. ويحتاجون لأن يتعلّموا فرح العطاء وبركة كونهم عاملين مع الله.

والربّ يوصينا قائلا: «أَوصِ الأَغْنِيَاءَ فِي الدَّهْرِ الْحَاضِرِ» أَلاَّ يُلْقُوا رَجَاءَهُمْ «عَلَى غَيْرِ يَقِينِيَّةِ الْغِنَى بَلْ عَلَى اللهِ الْحَيِّ الَّذِي يَمْنَحُنَا كُلَّ شَيْءٍ بِغِنًى لِلتَّمَتُّعِ. وَأَنْ يَصْنَعُوا صَلاَحاً وَأَنْ يَكُونُوا أَغْنِيَاءَ فِي أَعْمَال صَالِحَةٍ وَأَنْ يَكُونُوا أَسْخِيَاءَ فِي الْعَطَاءِ كُرَمَاءَ فِي التَّوْزِيعِ مُدَّخِرِينَ لأَنْفُسِهِمْ أَسَاساً حَسَناً لِلْمُسْتَقْبَلِ لِكَيْ يُمْسِكُوا بِالْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ » (١تيموثاوس ٦: ١٧ – ١٩).

إنّ الأغنياء محبّي العالم وعابديه، لا يمكن اجتذابهم إلى المسيح بلمسة عرضيّة فجائيّة. هؤلاء الناس كثيراً ما يكون الوصول إليهم صعباً جدّاً، فينبغي للرجال والنساء

المُشبعين بالروح الكرازية والذين لن يفشلوا ولن تضعف همّمهم أن يبذلوا مجهوداً شخصيّاً لأجلهم.

إنّ البعض مؤهلّون لخدمة الطبقات الراقية بوجهٍ خاص. فعلى هؤلاء أن يطلبوا من الله الحكمة ليعرفوا كيف يصلون إلى هؤلاء الناس، وألاّ يكتفوا بالتعرّف بهم تعرّفاً سطحيّاً عرضيّاً، بل عليهم بواسطة المجهود الفردي والإيمان الحيّ أن يوقظوهم وينبّهوهم إلى حاجات نفوسهم، ويرشدوهم لمعرفة الحقّ كما هو في يسوع.كثيرون يظنّون أنّهم لكي يصلوا إلى الطبقات الراقية ينبغي لهم اتّخاذ طريقة للحياة والعمل توافق أذواقهم المتأنّقة، فيظنّون أنّ الظهور بمظهر الثراء، والمساكن الفخمة، والملابس الغالية الثمن، والأثاثات الثمينة، والبيئة الباذخة ومشاكلة العالم في عاداته، والطلاء الصناعي للمجتمع العصري، والثقافة العالية، والفصاحة في الخطابة – يظنّون أنّ ذلك كلّه لازم وجوهري. هذا خطأ. إنّ طريقة السياسة العالمية ليست هي طريقة الله في الوصول إلى الطبقات الراقية. فالذي يُمكّن من الوصول إليهم بكيفيّة فعّالة هو تقديم إنجيل المسيح لهم بكيفيّة ملائمة في غير أنانيّة.

ونحن يمكنّنا أن نتعلّم درساً من اختبار بولس الرسول عندما التقى بفلاسفة أثينا. إنّ بولس إذ قدّم الإنجيل أمام ذلك الجمع المحتشد في أريوس باغوس قرع منطقاً بمنطق وعلماً بعلم وفلسفة بفلسفة. وقد اندهش أحكم سامعيه وأُبكموا. فلم يمكن مجادلة كلامه. ولكنّ مجهوده لم يُثمرّ الثمرةَ المرجوّة. فقليلون هم الذين قبلوا الإنجيل. ومن ذلك الحين اختطّ بولس لنفسه خطّةً مختلفة للعمل والخدمة. لقد تجنّب الحجج المتقنة ومناقشة النظريّات، بل ببساطة أرشد الرجال والنساء إلى المسيح كمخلّص الخطاة. وقد كتب إلى أهل كورنثوس عن عمله بينهم يقول:

«وأنا لما أتيت إليكم أيها الاخوة أتيت ليس بِسُمُوِّ الْكَلاَمِ أَوِ الْحِكْمَةِ مُنَادِياً لكم بشهادة الله. لأَنِّي لَمْ أَعْزِمْ أَنْ أَعْرِفَ شَيْئًا بَيْنَكُمْ إِلاَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ وَإِيَّاهُ مَصْلُوباً .. وكلامي

وكرازتي لَمْ يَكُونَا بِكَلاَمِ الْحِكْمَةِ الإِنْسَانِيَّةِ الْمُقْنِعِ بَلْ بِبُرْهَانِ الرُّوحِ وَالْقُوَّةِ لِكَيْ لاَ يَكُونَ إِيمَانُكُمْ بِحِكْمَةِ النَّاسِ بَلْ بِقُوَّةِ اللهِ» (١ كورنثوس ٢:١-٥).

ومرّة أخرى كتب في رسالته إلى أهل رومية يقول:

«لأَنِّي لَسْتُ أَسْتَحِي بِإِنْجِيلِ الْمَسِيحِ لأَنَّهُ قُوَّةُ اللهِ لِلْخَلاَصِ لِكُلِّ مَنْ يُؤْمِنُ لِلْيَهُودِيِّ أَوَّلاً ثُمَّ لِلْيُونَانِيِّ» (رومية ١: ١٦).

ليتمسّك من يخدمون الطبقات الراقية بالكرامة وعزّة النفس الحقيقيّة، مُتذكّرين أنّ الملائكة يرافقونهم. وليختزنوا أقوال الله في العقل والقلب. علّقوا في قاعة الذاكرة كلام المسيح الثمين. فيجب عليكم أن تعتبروه أثمن من الذهب والفضة.

لقد قال المسيح إنّ دخول جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله. في خدمة هذه الطبقة تعترض القائمين بالعمل صعوباتٌ كثيرة ومفشّلاتٌ عديدة. وستنكشف أمورٌ محزنة. ولكن كلّ شيء مُستطاع عند الله. إنّه يستطيع أن يعمل وسيعمل بواسطة البشريّة في عقول الناس الذين كرّسوا حياتهم لجمع المال.

توجد معجزات يجب أن تُجرى في حوادث تجديد حقيقيّة، معجزات لا يفهمها أحد الآن. إنّ عظماء الأرض ليسوا أبعدَ من أن تصل إليهم قوّة الله صانع المعجزات. إذا كان الذين هم عاملون مع الله يقومون بواجبهم بشجاعة وأمانة فالله سيغيّر الناس الذين يحتلّون مراكز ذات مسؤولية ذوي الذكاء والنفوذ. وبواسطة قوة الروح القدس سيُقاد كثيرون لقبول المباديء الإلهية.

إنّ كثيرين إذ يتضح لهم أنّ الربّ ينتظر منهم أن يكونوا مّمثلين له لتخفيف آلام البشريّة فإنّهم سيستجيبون للدعوة ويقدّمون من أموالهم وعطفهم لخير الفقراء. وإذ تنجذب عقولهم بعيداً عن مصالحهم الذاتيّة فإنّ كثيرين سيسلّمون ذواتهم للمسيح، فبوزناتهم التي هي النقود والمال سيشتركون بفرح في عمل الخير والإحسان مع المُرسل المتواضع الذي كان وسيلة الله في خلاصهم. وإذ يستخدمون كنوزهم الأرضيّة

استخداماً صائباً فهم يكنزون لأنفسهم «كَنْزًا لاَ يَنْفَدُ فِي السَّمَاوَاتِ حَيْثُ لاَ يَقْرَبُ سَارِقٌ وَلاَ يُبْلِي سُوسٌ».

إنّ كثيرين إذ يتجددون للمسيح يصيرون آلاتٍ في يد الله لخدمة الآخرين من طبقتهم. وهم سيحسّون أنّ عمل الإنجيل مُسلّم بين أيديهم ليقدّموه لمن جعلوا هذا العالم نصيبهم وكلّ شيء بالنسبة لهم. وسيُكرّس الوقت والمال لله، والوزنات والتأثيرات سيكرسان لعمل ربح النفوس للمسيح.

والأبديّة وحدَها ستكشف عمّا قد أُنجز بواسطة هذا النوع من الخدمة وكم من النفوس التي أسقمها الشكّ وأتعبتها محبّة الأمور الدنيويّة والقلق أُتيَ بها إلى الشافي العظيم الذي يتوق لأن يُخلّص إلى التمام كلّ من يأتون إليه. إنّ المسيح هو المُخلّص المقام والشفاء في أجنحته.

١ في غرفة المريض

على من يخدمون المرضى أن يفهموا أهميّة الانتباه إلى قوانين الصحّة ومراعاتها بكلّ حرص. لا مكان تكون فيه الطاعة لهذه القوانين هامّة جداً كما في غرفة المريض. كما لا مكان آخر، فيه يتوقف الشيء الكثير على الأمانة في الأمور الصغيرة من جانب المعتنين بالمريض. وفي حالات المرض الخطير قد يحدث أنّ إهمالاً طفيفاً أو قليلاً من عدم الانتباه إلي حاجات المريض الخاصة أو المخاطر التي يتعرّض لها، أو إظهار الخوف أو الاهتياج أو الشكاسة، أو حتى عدم العطف – قد يحدث أنّ شيئاً من هذه يرجّح كفّة الميزان الذي يزن الحياة والموت ويحدر إلى القبر مريضاً كان يمكن أن يُشفى لولا ذلك.

إنّ مقدرة الممرضة تتوقف إلي حدّ كبير علي النشاط الجسماني. فعلى قدر ما تكون صحّتها حسنة تكون هي قادرة على تحمّل إجهاد الخدمة والسهر على المرضى وممارسة واجباتها بأكثر نجاح. وعلى من يهتمّون بالمرضى أن يلتفتوا التفاتاً خاصاً إلى الغذاء والنظافة والهواء النقي والرياضة البدنية. إنّ مثل هذا الحرص من جانب العائلة يقدّرهم أيضاً على احتمال الأثقال الزائدة الموضوعة عليهم، ويعينهم على منع انتقال المرض إليهم.

وحيثما يكون المرض خطيراً ويتطلّب أنّ ممرضة تلازم المريض ليلاً ونهاراً فيجب أن يُقسَّم العمل بين ممرضتين على الأقل، ممن يمكن الاعتماد عليهن حتى تتاح لكلّ منهما فرصة للراحة وممارسة التمرينات الرياضية في الهواء الطلق. هذا أمرٌ هام خصوصاً في الحالات التي يكون من الصعب فيها توفير مزيد من الهواء النقيّ في غرفة المريض. إنّه بسبب تجاهل أهميّة تجديد الهواء تكون التهوية مقيّدة ومحصورة فتتعرّض للخطر حياة المريض وحياة من تُعنى بأمره.

إذا روعي التحفظ والاحتياط الكافيان لا يبقى من داع لأن تصيب الأمراض غير المعدية أحداً من الآخرين. لتكن العادات صحيحة ومضبوطة. وبواسطة النظافة والتهوية الكافية لتحفظ غرفة المريض من العناصر السامّة. ففي هذه الحالات من المرجّح جداً أن يتعافى المريض، وفي معظم الحالات فإنّه لا الممرضات ولا أفراد العائلة تصيبهم عدوى المرض.

نور الشمس والتهوية ودرجة الحرارة

لأجل توفير أصلح وأفضل الظروف للمريض ليتماثل للشفاء يجب أن تكون الغرفة التي ينام فيها فسيحةً ومنيرةً ومبهجةً وأن تتوفّر الفرصة للتهوية الكافية. فأيّة غرفة في البيت تتوفّر فيها هذه المطالب يجب أن تختار لتكون هي غرفة المريض. وفي بيوت كثيرة لا تتوفّر وسائل التهوية الكافية ومن الصعب توفيرها، ولكن ينبغي بذل كلّ جهد لتنظيم وترتيب غرفة المريض بحيث يمرّ تيار من الهواء المتجدد فيها ليلاً ونهاراً.

وبقدر الإمكان يجب توفير درجة حرارة متوازنة في غرفة المريض. ويجب استعمال ميزان الحرارة. إنّ من يسهرون على المريض إذ يحرمون من النوم كثيراً أو يوقظون في الليل لرعاية المريض يتعرّضون للبرد والقشعريرة ولا يصلحون للحكم في أمر درجة الحرارة الصحّية السليمة.

الغذاء

ومن أهمّ واجبات الممرضة الاهتمام بغذاء المريض. ينبغي ألاّ يُسمَح للمريض بأن يتألّم أو يضعف ضعفاً غير لائق بسبب نقص التغذية، كما يجب عدم إجهاد قوى الهضم الضعيفة، ومراعاة الحرص في إعداد الطعام وتقديمه بحيث يكون سائغاً، ولكن يجب مراعاة الحكمة في جعله موافقاً لحاجات المريض، في الكمية والنوع. وفي أوقات النقاهة علي الخصوص عندما تكون الشهيّة قوّية وقبلما تستعيد أعضاء الهضم قوّتها يوجد خطر في حصول ضرر عن طريق الغذاء.

واجبات الممرضات

ينبغي للممرضات وكلّ من لهم دخل في غرفة المريض أن يكونوا بشوشين وهادئين وعندهم قوّة ضبط النفس. ينبغي تجنّب كل تسرّع أو اهتياج أو اضطراب. ويجب فتح الأبواب وإغلاقها بكلّ هدوء وعناية، وأن يكون البيت كلّه في حالة هدوء. وفي حالات الحمّى يجب الحرص الخاص عندما يحين وقت الأزمة وتكون الحمّى في طريق الزوال. حينئذ تدعو الضرورة إلى وجوب السهر المتواصل مع المريض. لقد تسبب الجهل والنسيان والتهوّر في موت كثيرين ممن كان يمكن أن تُكتب لهم الحياة لو حصلوا على رعاية كافية من الممرضات الفطنات المفكّرات.

زيارة المرضى

إنّ الشفقة التي أسيء توجيهها، وفكرة اللطف، والرقة الكاذبة تؤدّي إلي الإكثار من زيارة المرضى. فالذين اشتدّ مرضهم ينبغي ألاّ يزورهم أحد. إنّ الاهتياج الذي ينتج عن استقبال الزوار يُتعب المريض في الوقت الذي يكون فيه بأشدّ حاجة إلي الهدوء والراحة التي لا يعكّرها شيء.

أمّا الناقه من مرضه أو المريض بمرض مزمن فمما يُدخل السرور إلى نفسه ويفيده أن يعلم أنّ هنالك من يذكُره ويعطف عليه، ولكن إذا كان ذلك الصديق بدلاً من أن يزور المريض بنفسه، معرّضاً نفسه أو المريض للخطر، يرسل إليه رسالة عطف ورقّة أو هدية صغيرة فإنّ ذلك يكون أفضل وأفعل في النفس.

التمريض القانوني

في المصحّات والمستشفيات حيث يكون كثيرون من المرضى مع الممرضات بكيفيّة دائمة فالحال تدعو إلى بذل جهد أكيد من الممرضات أن يكنّ فرحاتٍ مبتهجاتٍ وأن يُظهرن اهتماماً واعتباراً فطناً في كلّ كلمة وكلّ عمل. في هذه المؤسسات يكون من

الأهميّة القصوى أن تحاول الممرضات القيام بعملهنّ بحكمة وبكيفيّة صائبة. إنهنّ بحاجة دائمة إلى أن يذكرن أنهنّ وهنّ يقمن بواجباتهنّ اليومية إنّما يخدمن الرب المسيح.

إنّ المرضى بحاجة إلى أن يسمعوا كلاماً حكيماً. فعلى الممرضات أن يدرسن الكتاب المقدس كلّ يوم حتى يستطعن أن يتكلّمن كلاماً ينير قلوب المرضى ويعينهم. إنّ ملائكة الله يكونون حاضرين في غرف المرضى حيث تقدّم لهم الخدمة، فيجب أنّ الجو المحيط بنفس من يقوم بالعلاج والخدمة يكون طاهراً وزكيَّ الرائحة. يجب على الأطباء والممرضات أن يعتنقوا مباديء المسيح. ويجب أن تظهرَ فضائلُه في حياتهم. وحينئذ فبكلّ أعمالهم وأقوالهم يجتذبون المرضى إلى المخلّص.

إنّ الممرضة المسيحيّة وهي تخدم المرضى وتعالجهم لاسترداد صحّتهم فهي بكلّ سرور ونجاح تجتذب فكرَ المريض إلى المسيح شافي النفس والجسم كليهما. فالأفكار المقدّمة، هنا قليل وهناك قليل، سيكون لها تأثيرها. وعلى الممرضات الأكبر سناً ألاّ يضيّعن أيّة فرصة مواتية دون استخدامها في توجيه التفات المريض إلى المسيح. فعليهنّ أن يكنّ أبداً مستعداتٍ لأن يمزجنَ الشفاء الروحي بالشفاء الجسدي.

على الممرضات أن يعلّمن المرضى بمنتهى الحنان والرقّة أنّ من يطلب الشفاء ينبغي أن يكفّ عن تعدّي شريعة الله. وعليه أن يكفّ عن اختيار حياة الخطية. إنّ الله لا يمكنه أن يباركَ إنساناً يداوم علي جلب المرض والألم على نفسه بإصراره على انتهاك شرائع السماء. ولكن بواسطة الروح القدس يأتي كقوّة شافية للذين يكفّون عن فعل الشرّ ويتعلّمون فعل الخير.

إنّ من لا يحبّون الله سيعملون جاهدين على الدوام ضدّ أفضل مصالح النفس والجسد. ولكنّ الذين ينتبهون إلى أهميّة العيش في طاعة الله في هذا العالم الحاضر

الشرّير سيكونون مستعدّين للابتعاد عن كلّ عادة خاطئة. وستمتليء قلوبهم بالشكر والمحبّة. وهم يعلَمون أنّ المسيح صديقهم. وفي حالات كثيرة فإنّ يقينهم بأنّ لهم مثل هذا الصديق يكون عاملاً في شفائهم من المرض أقوى من أفضل علاج يقدّم إليهم. ولكن كلا نوعي الخدمة لازمٌ وجوهري. فهما يسيران يداً بيد.

٢ الصلاة لأجل المرضى

يقول الكتاب: «يَنْبَغِي أَنْ يُصَلَّى كُلَّ حِينٍ وَلاَ يُمَلَّ» (لوقا ١٨: ١). وإذا كان هناك وقت يحسّ فيه الناس بحاجتهم إلى الصلاة فهو الوقت الذي فيه تخور قوّتهم ويبدو أنّ الحياةَ نفسَها تفلت من قبضتهم. كثيراً ما ينسى من هم متمتّعون بالصحّة المراحم العجيبة التي تُغدق عليهم بلا انقطاع يوماً فيوماً وسنة فسنة، ولا يقدّمون عنها واجباتِ الشكر والحمد لله على عطاياه. ولكن عندما يهجم المرضُ يذكر الناس الله. وعندما تخيب القوّة البشريّة يحسّ الناس بحاجتهم إلى معونة الله. وإنّ إلهنا الرحيم لا يحوّل وجهه أبداً عن النفس التي تطلب معونته بإخلاص. إنّه ملجأنا في المرض كما في الصحّة.

«كما يترأف الأب على البنين يترأف الرب على خائفيه لأنّه يعرف جبلتنا يذكر أننا تراب نحن» (مزمور١٠٣: ١٣و١٤).

«من طريق معصيتهم ومن آثامهم يذلون. كرهت أنفسهم كلّ طعام واقتربوا إلى أبواب الموت» (مزمور ١٠٧:١٧و١٨).

«فصرخوا إلى الرب في ضيقهم فخلصهم من شدائدهم. أرسل كلمته فشفاهم ونجّاهم من تهلكاتهم» (مزمور ١٠٧:١٩و٢٠).

إنّ الله مستعدّ أن يردّ للمريض صحّته الآن كما كان عندما نطق الروح القدس بهذه الأقوال على لسان المرنّم. والمسيح هو نفسه الطبيب الرحيم الآن كما كان إبّان خدمته على الأرض. ففيه البلسان الشافي لكلّ مرض، وهو يعيد القوّة لكل ضعيف. وعلى تلاميذه اليوم أن يصلّوا لأجل المرضى تماماً كما كان التلاميذ يصلّون قديماً. وسيتبع ذلك الشفاء

لأنّ «صلاة الإيمان تشفي المريض». إنّ لنا قوّة الروح القدس ويقين الإيمان الهادىء الذي يستطيع أن يطالب الله بمواعيده. إنّ وعد الرب هو هذا: «يَضَعُونَ أَيْدِيَهُمْ عَلَى الْمَرْضَى فَيَبْرَأُونَ» (مرقس ١٦: ١٨). وهو قول موثوق به الآن كما كان في عهد الرسل. إنّه يقدّم امتياز أولاد الله وينبغي لإيماننا أن يتمسّك بكلّ مشتملات الوعد. إنّ خدّام المسيح هم وسيلة عمله، وعن طريقهم يقصد أن يستخدم قوّته الشافية. وعملنا هو أن نقدّم المرضى والمتألمين إلى الله على أذرع إيماننا. وعلينا أن نعلّمهم أن يؤمنوا بالشافي العظيم.

إنّ المخلّص يريدنا أن نشجّع المرضى واليائسين والمعذّبين على التمسّك بقوّته. وبالإيمان والصلاة يمكن أن تتحوّل غرفة المريض إلى بيت إيل. ويمكن للأطباء والممرضات بالقول والعمل أن يقولوا بوضوح بحيث لا يُساء فهم هذا القول «إن الله في هذا المكان» ليخلّص لا ليهلك. والمسيح يريد أن يعلن حضوره في حجرة المريض إذ يملأ قلوب الأطباء والممرضات بحلاوة محبته. إذا كانت حياة من يُعنَون بالمريض حياة تمكَّن المسيح من أن يذهب معهم إلى سرير المريض فسيأتيه الاقتناع بأنّ المخلّص الرحيم حاضر، وهذا الاقتناع في ذاته سيفعل كثيراً في شفاء والجسد.

والله يسمع الصلاة. فلقد قال المسيح: «إن سألتم شيئاً باسمي فإني أفعله» (يوحنا١٤:١٤)، وقال أيضاً: «إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَخْدِمُنِي يُكْرِمُهُ الآبُ» (يوحنا ١٢: ٢٦). وإذا عشنا حسب كلمته فكلّ وعد من مواعيده الثمينة التي وعد بها سيتمّ لنا. إنّنا غير مستحقّين رحمته، ولكن عندما نسلّم أنفسنا له فهو يقبلنا. إنّه سيعمل لأجل من يتبعونه وعن طريقهم.

شروط الصلاة المستجابة

ولكن على قدر ما نطيع كلمة الرب فقط يمكننا أن نطالب بمواعيده. يقول المرنم: «إِنْ رَاعَيْتُ إِثماً فِي قَلْبِي لاَ يَسْتَمِعُ لِيَ الرَّبُّ» (مزمور ٦٦: ١٨). فإن قدّمنا له طاعة جزئية بنصف قلب فلن تتمّ مواعيده لنا.

في كلمة الله إرشاد متعلّق بالصلاة الخاصة لأجل شفاء المرضى. ولكنّ تقديم مثل تلك الصلاة هو عمل مقدّس جداً وينبغي ألاّ يُقدِمَ أحد عليه بدون تفكير حريص. ففي كثير من حالات الصلاة لأجل شفاء المرضى نجد أنّ ما يُسمى إيماناً ليس إلاّ غطرسة.

إنّ أناساً كثيرين يجلبون المرض على أنفسهم بالإفراط والانغماس في الشهوات. لم يعيشوا طبقاً للقانون الطبيعي أو مباديء الطهارة الدقيقة. وآخرون استخفّوا بقوانين الصحّة في عادات الأكل أو الشرب أو اللبس أو العمل. وفي غالب الأحيان يكون أي شكل من أشكال الرذيلة هو سبب ضعف العقل أو الجسم. ولو حصل هؤلاء الأشخاص على بركة الصحّة فإنّ كثيرين منهم قد يعودون لانتهاج نفس طريق عصيان قوانين الله الطبيعيّة والروحيّة في غير اكتراث، متعللين بالقول إنّه إذا كان الله يشفيهم إجابة للصلاة فإنّ لهم الحرّية في الاستمرار في أعمالهم المنافية للصحّة، والانغماس في الشهوات المفسدة بلا رادعٍ. فلو أجرى الله معجزةً في شفاء هؤلاء الناس فهو إنّما يشجّعهم على ارتكاب الخطية.

إنّه يكون جهداً ضائعاً كوننا نعلّم الناس أن ينظروا إلى الله كشافي لأسقامهم ما لم يتعلّموا أيضاً أن ينبذوا العادات غير الصحّية. فلكي يحصلوا على بركته استجابة للصلاة ينبغي لهم أن يكفّوا عن فعل الشرّ ويتعلّموا فعل الخير. وينبغي أن تكون بيئتهم صحية، وأن تكون عادات حياتهم صحيحة. وعليهم أن يعيشوا على وفاق مع شريعة الله الطبيعيّة والروحيّة.

الاعتراف بالخطية

والذين يرغبون في أن يُصلّى لأجلهم لكي يستردّوا صحتهم ينبغي أن يكون واضحاً لهم أنّ انتهاكهم لقانون الله، طبيعيّاً كان أم روحيّاً، هو خطية، فلكي يحصلوا على بركته ينبغي لهم أن يعترفوا بالخطيّة ويتركوها.

إنّ الكتاب يأمرنا قائلا: «اِعْتَرِفُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ بِالزَّلاَتِ وصلوا بعضكم لأجل بعض لكي تَشْفُوا» (يعقوب ٥ : ١٦). فالذي يسأل أن يُصلّى لأجله فلتُقدّم له مثل هذه الأفكار: " إننا لا يمكننا أن نعرف ما في قلبك ولا نعرف أسرار حياتك. فهذه لا يعرفها أحد سواك

أنت والله. فإذا تبت عن خطاياك فيجب عليك أن تعترف بها " والخطيّة الخاصة يجب الاعتراف بها للمسيح الوسيط الوحيد بين الله والناس. لأنّه: «إِنْ أَخْطَأَ أَحَدٌ فَلَنَا شَفِيعٌ عِنْدَ الآبِ يَسُوعُ الْمَسِيحُ الْبَارُّ» (يوحنا الأولى ٢ : ١). كلّ خطيّة هي إساءة إلى الله فيجب الاعتراف بها بواسطة المسيح. وكلّ خطيّة ترتكب علناً ينبغي الاعتراف بها علناً أيضاً. والخطأ المرتكب في حقّ أيّ إنسان يجب إصلاحه مع من قد أسيء إليه. إذا كان أناس ممن يطلبون الصحّة مذنبين بتكلّمهم بكلام الشرّ، أو أوجدوا نزاعاً في البيت أو بين الجيران أو في الكنيسة وأثاروا النفور والخصومات، وإذا كانوا بأيّ عمل خاطيء قد أوقعوا الآخرين في الخطيّة فهذه كلّها ينبغي الاعتراف بها أمام الله وأمام من قد وقعت الإساءة في حقهم: « إِنِ اعْتَرَفْنَا بِخَطَايَانَا فَهُوَ أَمِينٌ وَعَادِلٌ حَتَّى يَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَيُطَهِّرَنَا مِنْ كُلِّ إِثْمٍ » (يوحنا الأولى ١ : ٩).

ومتى أُصلِحت الأخطاء يمكننا أن نقدّم حاجات المرضى إلى الرب في إيمان هاديء بحسب ما يرشدنا روحه. إنّه يعرف كلّ فرد باسمه ويهتم بكلّ واحد كما لو لم يكن هناك إنسان آخر سواه بذل ابنه الحبيب لأجله. ولكون محبّة الله عظيمة جداً وثابتة جداً وباقية أبداً فيجب على المرضى أن يتشجّعوا ليثقوا به ويفرحوا. إنّ جزعهم على أنفسهم يؤدّي بهم إلى الضعف والمرض. فإذا تساموا فوق الكآبة والهمّ فإنّ رجاءهم في الشفاء سيكون أفضل، لأنّ «عين الرب على خائفيه الراجين رحمته» (مزمور ١٨:٣٣).

الخضـــوع لإرادة الله

في الصلاة لأجل المرضى ينبغي لنا أن نذكر أننا «لسنا نعلم ما نصلي لأجله كما ينبغي» (رومية ٢٦:٨). فإننا لا نعلم ما إذا كانت البركة التي نطلبها هي أفضل أم لا. لذلك يجب أن تتضمّن صلواتنا هذا الفكر «يا رب أنت تعرف سرائر النفس وأنت عالم بهؤلاء الأشخاص. إنّ يسوع شفيعهم قد بذل حياتَه لأجلهم. ومحبّته لهم أعظم مما يمكن أن تكون محبّتنا. لذلك فإذا كان مما يؤول إلى مجدك وخير المتألّمين فنسألك باسم

يسوع أن تعيد إليهم الصحّة. فإذا لم تكن إرادتك أن تجعلهم يصحّـون فنسأل أن تعزّيهم بنعمتك وتعضّدهم بحضورك معهم في آلامهم».

إنّ الله عالم بالنهاية من البداية. وهو يعرف قلوب جميع الناس، ويقرأ كلّ سرّ في النفس. وهو يعرف ما إذا كان الذين نقدّم صلواتِنا لأجلهم سيقدرون على احتمال التجارب التي ستهاجمهم لـو عاشوا أم لن يستطيعوا ذلك. ويعرف ما إذا كانت حياتهم ستجلب البركة أو اللعنة على أنفسهم وعلى العالم. هذا هو السبب الذي لأجله ينبغي لنا أن نقـول ونحن نقدّم صلواتنا لأجلهم بكلّ لجاجة: «ولكن لتكن لا إرادتي بل إرادتك» (لوقا٢٢: ٤٢). لقد أضاف يسوع كلمات الخضوع هذه لحكمة الله وإرادته وهو يصلّي في بستان جثسيماني قائلا: «يَا أَبَتَاهُ إِنْ أَمْكَن فَلتَعْبُرْ عَنِي هذِهِ الْكَأْسُ» (متى ٢٦: ٣٩). فإذا كانت هذه الكلمات مناسبة لذاك الذي هو ابن الله فكم يليق ببني الإنسان الضعفاء الخطاة أن ينطقوا بها.

إنّ التصرّف اللائق بنا هو أن نسلّم رغائبنا لأبينا السماوي الكلّي الحكمة، وحينئذ ففي ثقة تامّة نسلّم له كلّ شيء. نحن نعلم أنّ الله يسمع لنا متى سألنا منه شيئاً حسب مشيئته. أمّا كوننا نلحّ بطلباتنا بروح غير خاضعة فذلك ليس صواباً. ينبغي ألاّ تتخّذ صلواتنا هيئة الأمر بل هيئة التشفع.

توجد حالات فيها يعمل الله بكيفيّة فعّالة بقوّته الإلهيّة في استرداد الصحّة. ولكن ليس كلّ المرضى يشفون، فكثيرون يدفنون ليرقدوا في يسوع. إنّ يوحنا في جزيرة بطمس قد أمر بأن يكتب هذا القول: «طوبى للأموات الذين يموتون في الرب منذ الآن. نعم يقول الروح لكي يستريحوا من أتعابهم وأعمالهم تتبعهم» (رؤيا ١٤: ١٣). من هذا نعلم أنّه إذا لم تَعُد الحياة والصحّة لبعض الناس ينبغي ألاّ يحكم عليهم بأنّهم قليلو الإيمان لأجل ذلك.

إنّنا نرغب جميعاً في أن نحصل على إجابة سريعة ومباشرة لصلواتنا، ونجرَّب لأن نفشل عندما تتأخّر الإجابة أو تجاب صلواتنا بطريقة لم نكن ننتظرها. ولكنّ الله أحكم

وأعظم صلاحاً من أن يجيب صلواتنا دائماً في نفس الوقت وبنفس الكيفية التي نريدها. وهو سيعمل لأجلنا أكثر من أن يجيبنا إلى جميع رغائبنا. ولكوننا نستطيع أن نثق بحكمته ومحبّته فينبغي ألاّ نسأله المصادقة على إرادتنا، بل علينا أن نحاول الاندماج في قصده وإتمامه. إنّ رغائبنا يجب أن تنصهر في إرادته. هذه الاختبارات التي تمتحن الإيمان هي لخيرنا. ويظهر ما إذا كان إيماننا حقيقياً وخالصاً يستند على كلمة الله وحدها أو إذا كان متوقفا على الظروف وبالتالي يكون غير أكيد وقابلاً للتغيير. إنّ الإيمان يتقوّى بالتدريب والممارسة. ينبغي لنا أن نجعل الصبر يعمل عمله كاملاً، متذكّرين أنّه توجد مواعيد ثمينة في الكتاب لمن ينتظرون الرب.

لكن ليس الجميع يفهمون هذه المباديء، فكثيرون ممن يطلبون رحمة الرب الشافية يظنّون أنّه ينبغي أن تأتيهم إجابة مباشرة وسريعة لصلواتهم وإلاّ فلابدّ أن يكون إيمانهم ناقصاً. فلهذا السبب يحتاج من قد أضناهم المرض إلى من يعزّيهم بكلمات حكيمة حتى يتصرّفوا بفطنة. ينبغي لهم ألاّ يهملوا واجبهم نحو أصدقائهم الذين يخلفونهم، ولا أن يهملوا في استخدام وسائل الطبيعة لاسترداد الصحّة.

كثيراً ما يتعرّض الناس لخطر الخطأ هنا. فإذ يؤمنون أنّهم سيشفون إجابة للصلاة فالبعض يخشون من أن يفعلوا شيئا يبدو أنّه يدلّ على عدم الإيمان، ولكن عليهم ألاّ يهملوا في تدبير شؤونهم وتنظيمها كما يرغبون في أن يفعلوا لو كانوا يتوقّعون الموت. وينبغي ألاّ يخشوا النطق بكلام التشجيع أو النصح الذي يرغبون في النطق به أمام أحبّائهم عند ساعة الفراق.

وسائل العلاج – أمثلة الكتاب المقدس

على من يطلبون الشفاء بقوّة الصلاة ألاّ يهملوا استخدام وسائل العلاج التي تكون في متناولهم. إنّ استخدام مثل هذه العلاجات التي قد أعدّها الله لتخفيف الألم ومساعدة الطبيعة في عملها لاسترداد الصحّة ليس إنكارا للإيمان. وليس إنكارا للإيمان

كونهم يتعاونون مع الله ويضعون أنفسهم في أنسب حالة للشفاء. لقد أعطانا الله القدرة على تحصيل معرفة نواميس الحياة. فهذه المعرفة صارت في متناول أيدينا لكي نستخدمها. علينا باستخدام كلّ ما من شأنه أن يساعد على استرداد الصحّة، مغتنمين كلّ فرصة ممكنة، عاملين بالتوافق مع نواميس الطبيعة. فبعدما نصلّي لأجل شفاء المرضى يمكننا أن نعمل بنشاط أعظم، شاكرين الله لأنّ لنا امتياز التعاون معه، وطالبين بركته على الوسائل التي قد أعدّها بنفسه.

إنّ لنا مصادقة كلمة الله لأجل استخدام وسائل العلاج. إنّ حزقيا ملك يهوذا كان مريضاً فجاءه نبي الله برسالة يقول فيها إنّه لابدّ من أن يموت. فصرخ إلى الربّ والربّ سمع لصراخ عبده وأرسل إليه رسالةً تفيد بأنّه قد أضيف إلى عمره خمس عشرة سنة. ففي هذه الحالة كانت كلمة واحدة من الله كفيلة بأن تشفي حزقيا في الحال. ولكن أعطيت تعليمات خاصّة تقول: «ليأخذوا قرص تين ويضمّدوه على الدبل فيبرأ» (إشعياء ٢:٣٨).

وفي مرّة طلى المسيح بالطين عيني رجل أعمى، وأمره قائلا: «اذْهَبِ اغْتَسِلْ فِي بِرْكَةِ سِلْوَامَ .. فَمَضَى وَاغْتَسَلَ وَأَتَى بَصِيرًا» (يوحنا ٩: ١-٧). لقد أمكن أن يتمّ الشفاء بقوّة الشافي العظيم وحدها، ومع ذلك فقد استخدم المسيح وسائط الطبيعة البسيطة. فمع أنّه لم يقرّ المعالجة بواسطة العقاقير فقد صادق على استعمال علاجات الطبيعة البسيطة.

عندما نصلّي لأجل شفاء المرضى فمهما كانت النتائج ينبغي ألاّ نفقد إيماننا بالله. فإذا قدّرَ لنا أن نلاقي أحزان الثكل فلنقبل الكأس المرّة، متذكّرين أنّ يد الآب هي التي تقدّمها لنا. ولكن لو استُرَدّت الصحّة فينبغي ألاّ ننسى أنّ من يتناول الرحمة الشافية موضوع تحتم جديد نحو خالقه. عندما طهّر البرص العشرة لم يرجع ليبحث عن يسوع غيرُ رجلٍ واحدٍ جاء ليقدّم له التمجيد. فلا يكن أحد منّا كالتسعة غير

المفكرين الذين لم تتأثّر قلوبهم برحمة الله. «كل عطيّة صالحة وكلّ موهبة تامّة هي من فوق نازلة من عند أبي الأنوار الذي ليس عنده تغيير ولا ظلّ دوران» (يعقوب١ :١٧).

❸ استعمال وسائل العلاج

إنّ المرضَ لا يأتي أبداً دون سبب. فالطريق يُعدّ ويمهّد والمرض يُدعى بواسطة إغفال قوانين الصحّة. كثيرون يتألّمون نتيجةً لعصيان والديهم. فمع أنّهم غير مسؤولين عمّا فعله والدوهم فإنّه واجب عليهم أن يتأكدوا ما هي الأمور التي تُعتبر مخالفات لقوانين الصحّة وما هي الأمور التي هي خلاف ذلك. عليهم أن يتجنّبوا عادات والديهم الخاطئة. وعليهم بالمعيشة الصحيحة، أن يضعوا أنفسهم في ظروف أفضل.

ومع ذلك فإنّ السواد الأعظم من الناس يتألّمون من جرّاء تصرفهم الخاطيء. فهم يتغافلون عن مباديء الصحّة بعاداتهم في الأكل والشرب واللبس والعمل. إنّ تعدّيهم نواميس الطبيعة تترتّب عليه النتيجة الأكيدة، وعندما يهجم عليهم المرض فكثيرون منهم لا يُعزون آلامهَم إلى السبب الحقيقي، بل يتذمّرون على الله بسبب آلامهم. ولكنّ الله غير مسؤول عن الألم الذي يأتي نتيجة الاستخفاف بالنواميس الطبيعية.

لقد حبانا الله بكميّة معيّنة من القوّة الحيويّة. وقد كوّننا أيضاً وجعل في أجسامنا أعضاء مُعدّةً لاستمرار وظائف الحياة المختلفة، وهو يقصد أنّ هذه الأعضاء تعمل معاً في توافق وانسجام. فإذا كنّا بكلّ حرص نحافظ على قوّة الحياة ونحفظ تركيب الجسم الدقيق منتظماً فسينتج عن ذلك الصحّة، أمّا إذا أُنهِكت القوّةُ الحيويّةُ بسرعة عظيمة جداً فإنّ الجهاز العصبي يقترض قوّةَ لاستخدامها حالياً من مصادر القوّة التي له، ومتي أصيب عضو فكلّ الأعضاء تتأثّر. إنّ الطبيعة تتحمّل كثيراً من الإنهاك وسوء الاستعمال بدون مقاومة ظاهرة. وحينئذ تثور وتقوم بمجهود قاطعٍ باتٍّ لإزالة آثار سوء المعاملة الواقعة عليها. وإنّ مجهودها الذي تبذله لأجل إصلاح هذه الأحوال يظهر غالباً في الحمى وأشكال المرض الأخرى المختلفة.

العلاجـات المعقولـة

وعندما يتفاقم سوءُ استخدام الصحّة إلى حدّ بعيد بحيث ينتج عن ذلك المرض فإنّ المتألّم يستطيع أن يصنعَ لنفسه في الغالب ما لا يستطيع أن يفعلَه له أيّ إنسانٍ آخـر. وأوّل عملٍ يجب عملُه هو التأكد من صفةِ المـرضِ الحقيقيـة، وحينئذ يتقدّم للعمـل بذكـاء في إزالة سبب المرض. فإذا كان عمل الجهاز المتناسق قد اختلّ توازنه بسبب إجهاد العمـل أو الإفراط في الأكل أو غير ذلك من أسباب الخلـل والشذوذ فلا تحـاول إصلاح الخلـل بإضافة ثقل من العقاقير السامّة.

الشـفاء بالتغذيــة

كثيراً ما يكـون الإفراط في الأكـل هـو سبب المرض، والـذي تحتاجـه الطبيعـة هــو التخلّص من الثقل الذي في غير محلّـه الـذي أثقلـت بـه. وفي كثير مـن حـالات المـرض يكون أفضل علاج للمريض هو أن يصوم وجبةً أو وجبتين حتى تكون لدى جهاز الهضم المجهد فرصة للراحة. في أحيان كثيرة كان الغذاء المُقدّم مـن الفاكهـة مـدى أيّـام قليلـة سبب راحـة للعـاملين المُفكّريـن المجـهدي العقـول. وفي كثير مـن الأحيـان أدّت الفـترة القصيرة التي يمتنع فيها المتألّم عن تناول الطعام امتناعاً تامّاً والتي يعقبها أكـلٌ معتـدلٌ، إلى الشفاء عن طريق مجهود الطبيعة الشافي. إنّ الغذاء المعتـدلَ لمـدى شـهر أو شـهرين قد يقنع كثيرين من المرضى بأنّ طريقُ إنكار الذات هو طريق الصحّة.

الراحـة كعـلاج

بعض الأشـخاص يصابون بـالمرض نتيجـة الإجـهاد في العمـل. لمثـلِ هـؤلاء تكـون الراحةُ، والتحررُ مـن الهمّ، والغـذاء الخفيـف، جوهريّـةً في اسـترداد صحّتهم. أمّا الذيـن عقولهم متعبـة ومـن هم عصبيّـون بسبب الاسـتمرار في العمـل والوجـود في مكـان ضيّـق محتبس فإنّ زيارةً ينطلقون فيها إلى الأرياف حيث يمكنهم أن يعيشوا حياةً بسيطةً خاليـةً

من الهمّ، والاندماج في أمور الطبيعة ومشاهدها تقدّم لهم عوناً عظيماً. فإذ يتجوّلون في الحقول والغابات حيث يقطفون الأزهار ويستمعون إلى شدوِ الأطيار سيكون ذلك مساعداً على شفائهم أكثر من أيّة وسيلة أخرى.

استعمال الماء

الماء النقي، في الصحّة كما في المرض، هو بركة من أثمن بركات السماء. إنّ استعماله استعمالاً لائقاً يساعد على تقدّم الصحّة. فهو المشروب الذي قد أعدّه الله لإطفاء ظمأ الإنسان والحيوان. فإذ يُكثر الإنسان من شربه فهو يمدّ الجهاز البدني باحتياجاتِه ويساعد الطبيعةَ في مقاومة المرض. وإنّ استخدام الماء في الخارج هو وسيلة من أسهل الوسائل المُرضية في تنظيم الدورة الدموية. إنّ الاستحمامَ بالماء البارد مقوٍ عظيمُ الفائدة. والاستحمام بالماء الدافيء يفتح المسام وهكذا يساعد على طرد أوساخ الجسم والتخلّص منها. إنّ كلّاً من الحمام الساخن والفاتر يهديء الأعصاب وينظم الدورة الدموية.

ولكنّ كثيرين لم يدركوا قطّ، بالاختبار، الآثارَ النافعةَ التي تجيء نتيجةً لاستعمال الماء كما يجب، فهم يخافون منه. إنّ علاجاتِ الماء لا يقدّرها الناس كما ينبغي، ولأجل استخدامه بمهارة، فذلك يتطلّب عملاً يرفض كثيرون القيام به. ولكن ينبغي ألاّ يشعر أحد بأنّه مُعفى بسبب جهله أو عدم اكتراثه لهذا الأمر. توجد طرق كثيرة بها يمكن استخدام الماءِ في تخفيف الألم وإيقاف المرض. وينبغي للجميع أن يكونوا فطنين وأذكياء في استعماله في العلاجات البسيطة في البيت وينبغي للسيدات بوجه خاص أن يعرفن كيف يعنين بعائلاتِهنّ في الصحّة والمرض.

فائدة التمرينات الرياضية

العمل والحركة هما قانون وجودنا. إنّ كل عضو في الجسم له عمله المعين، وعلى إتمامه يتوقف نموّه وقوّته. إنّ النشاط الطبيعي لكلّ الأعضاء يعطي قوّة وحيويّة، بينما

الميل إلى عدم استخدامها يؤدّي إلى الانحلال والموت. اربط ذراعاً ولو لمدّة أسابيع قليلة ثم فكّ عنها الربط وحينئذ سترى أنّها أضعف من تلك التي كنت تستخدمها استخداماً معتدلاً أثناء تلك المدّة. إنّ الكسل ينتج عنه التأثير نفسه في كلّ الجهاز العضلي.

والكسل سبب خصبٌ للأمراض. أمّا التمرين فينشّط وينظّم الدورة الدموية، ولكن في حالة الكسل لا يجري الدم بحرّية والتغييرات التي فيه واللازمة جداً لأجل الحياة والصحّة لا تحدث. والجلد أيضاً يصير عديمَ النشاط. والأوساخ لا تُطرد كما كان يمكن لو نُشّطت الدورة الدموية بالتمرينات الرياضية النشيطة وحُفِظ الجلدُ في حالة صحيّة جيّدة وأُعطِيَ للرئتين قدرٌ كبير من الهواء النقيّ المتجدد. هذه الحالة التي يكون فيها الجهاز ألقى على عاتق الأعضاء المفرزة للفضلات والأوساخ عبئاً مضاعفاً فينتج عن ذلك المرض.

ينبغي عدم تشجيع المُقعَدين على عدم النشاط. فعندما يكون هنالك إرهاقٌ خطير من أيّة جهة، فأحياناً يمكن للراحة التامّة إلى حين أن تدرأ المرض الخطير، ولكن في حالة المرضى المقعدين يندر أن يكون من الضروري إيقافُ كلّ نشاط.

أمّا الذين قد اعتلّت صحّتهم بسبب الإجهاد العقلي فينبغي لهم أن يستريحوا من التفكير المُضني، ولكن ينبغي ألاّ نجعلهم يعتقدون أنّه من الخطر لهم أن يستخدموا قواهم العقلية كليّةً. فكثيرون يميلون لاعتبار حالتهم أسوأ مما هي في حقيقتها. فمثل هذه الحالة العقليّة لا تساعد على الشفاء، ويجب عدم تشجيعها.

إنّ الخدّام والمعلّمين والطلبة وغيرهم ممن يقومون بأعمال عقليّة، كثيراً ما يتألّمون من المرض نتيجة للإجهاد الشديد الذي لا يخفّف من شدته إلاّ التمرينات الرياضية. فالذي يحتاجه هؤلاء الناس هو مزيد من الحياة النشيطة العاملة. فالعادات المعتدلة بكلّ دقة مع التمرينات اللائقة تضمن النشاط العقلي والجسماني، وتعطي كلّ من يشتغلون بعقولهم قوّة على الاحتمال.

أمّا الذين قد أرهقوا قواهم الجسمانية فينبغي عدم تشجيعهم على إغفال العمل اليدوي كليّة. أمّا العمل، فلكي يُجتنى منه أعظم نفع، ينبغي أن يكون منظّماً ومقبولاً. فأفضل شيء هو ممارسة التمرينات في الخلاء. وينبغي تنظيمها بحيث تقوي بواسطة استخدامها الأعضاء التي قد أُضعِفت. وينبغي ممارستها بكلّ القلب. وعمل اليدين ينبغي ألاّ ينحطّ حتى يصير مجرّد عناءٍ ومشقّة.

عندما لا يكون لدي المُقعدين ما يشغل وقتهم وانتباههم فإنّ أفكارهم تصير مركّزة في أنفسهم فيغتمّون ويكتئبون ويصبحون سريعي الاهتياج. وكثيراً ما يفكّرون في أحاسيسهم الرديئة إلى أن يحسّوا بأنّهم أردأ مما هم في الحقيقة وعاجزون إطلاقاً عن عمل أي شيء.

في كلّ هذه الحالات يكون التمرين الرياضي الموجّه توجيهاً حسناً علاجاً فعالاً. وفي بعض الحالات يكون أمراً لا يُستغنى عنه لاسترداد الصحّة. فالإرادة تساير عمل اليدين، والذي يحتاجه هؤلاء السقماء هو إيقاظُ الإرادة. فعندما تكون الإرادةُ هاجعةً وساكنةً فالتصوّر يصير مخالفاً للمألوف، ويُمسي من المستحيل على الإنسان أن يقاومَ المرض.

إنّ قلّة النشاط هي أقسى لعنةٍ تأتي على معظم السقماء. أمّا الانشغال البسيط في عمل نافع في حين أنّه لا يرهق العقل أو الجسم فإنّ له تأثيراً مبهجاً في كليهما. إنّه يقوّي العضلات، ويصلح الدورة الدموية، ويقنع المُقعدَ بأنّه ليس عديم النفع في هذا العالم الذي كلّه حركة وعمل. قد يمكنه أن يعمل القليل جدّاً في باديء الأمر، ولكنّه سرعان ما يجد أنّ قوّته قد زادت، ويمكن أن تزيد كميّة العمل تبعاً لذلك.

إنّ التمرينات الرياضية تساعد المصابين بالتخمة بتحسين حالة الجهاز الهضمي. أمّا الانكباب على الدرس العنيف أو القيام بتمرينات رياضية قاسية بعد تناول الطعام مباشرة فيعرقل عملية الهضم، ولكنّ المشي مسافة قصيرة إذ يسير المرء مرفوع الرأس ومنتصباً يفيده فائدةً عظمى.

ولكن بالرغم من كلّ ما قيل وكتب عن التمرينات البدنيّة لا يزال كثيرون يهملونها. فالبعض يصابون بالبدانة بسبب إعاقة الجهاز وتعطيله، وآخرون يصابون بالنحول والوهن لأنّ قواهم الحيويّة ترهق في التخلّص من الطعام الزائد. فالكبد تزيد أعباؤها في محاولتها تطهير الأوساخ والشوائب، وينتج عن ذلك المرض.

أمّا الذين من عادتهم ملازمة الجلوس فينبغي لهم متى سمحت حالة الجو أن يقوموا بتمرينات بدنيّةٍ في الهواء الطلق في كلّ يوم صيفاً وشتاءً. والسير على الأقدام مفضّل على الركوب وسوق المركبات. لأنّ فيه تمريناً للعضلات. والرئتان تلزمان بالقيام بنشاط صحّي إذ يستحيل على الإنسان أن يسير بنشاط بدون أن يملأهما بالهواء.

مثل هذا التمرين يصير في حالات كثيرة أنفعَ للصحة من الدواء. فكثيراً ما ينصح الأطباء مرضاهم أن يقوموا برحلة عبر المحيط، أو أن يذهبوا إلى ينبوع مياه معدنيّة، أو أن يذهبوا لزيارة عدّة أماكن بقصد تغيير الهواء، بينما في حالات كثيرة لو أكلوا باعتدال وقاموا بتمرينات مبهجة صحّية فسيستردّون صحّتهم ويوفّرون الوقت والمال.

٤ معالجة المرض العقلي

إنّ الصلةَ بين العقل والجسم صلة وثيقة جداً. فمتى تأثّر أحدهما فالآخر يشعر معه. إنّ حالة العقل تؤثّر في الصحة إلى حدّ أبعد مما يعتقد الكثيرون. وإنّ كثيراً من الأمراض مرجعها إلى هبوط عقلي. فالحزن والجزع والتبرّم وتقريع الضمير والشعور بالذنب وعدم الثقة، هذه كلّها من شأنها أن تهدم قوى الحياة وتؤدي إلى الانحلال والموت.

أحياناً يجيء المرض ويتفاقم بالتصوّر. إنّ كثيرين تحالفهم الأسقام مدى العمر وكان يمكنهم أن يكونوا أصحّاء لو أنّهم فقط افتكروا هذا. وكثيرون يتصوّرون أنّ أقلّ تعرّض طفيف سيسبب لهم المرض، فيجيء المرض لأنّهم كانوا يتوقعونه. وكثيرون يموتون من مرض سببه خيالي.

إنّ الشجاعة والرجاء والعطف والمحبّة تساعد على الصحّة وتطيل العمر. إنّ العقل القانع والروح الفرحة هما صحّة للجسم وقوّة للنفس، «الْقَلْبُ الْفَرْحَانُ يُطَيِّبُ الْجِسْمَ» (أمثال ١٧: ٢٢).

وفي معالجة المرضى ينبغي ألاّ يُغفل تأثير القوّة العقليّة. فهذه القوّة أو السطوة لو استُخدمت استخداماً صائباً لصارت وسيلةً من أفعل الوسائل في مقاومة المرض.

تسلّط عقل على عقل

ويوجد، مع ذلك، شكلٌ من أشكال معالجة مرضى العقول هو من أفعل الوسائل للشرّ. فبواسطة هذا الذي يقال له علم، يخضع عقل لسلطان عقل آخر بحيث تندمج شخصيّة الإنسان الأضعف في شخصية العقل الأقوى. فيعمل إنسان إرادة إنسان آخر.

وهكذا يدّعون أنه يمكن تغيير مجرى الأفكار حتى أنّ البواعث المانحة الشفاء توهَب ويكون المرضى قادرين على مقاومة المرض والانتصار عليه.

وقد مارس طريقة الشفاء هذه جماعة كانوا يجهلون طبيعتها واتجاهها الحقيقيين. وكانوا يعتقدون أنّها وسيلة تفيد المريض، ولكنّ هذا الذي يدعونه علماً مبني على مباديء كاذبة. فهو غريب عن طبيعة المسيح وروحه، وهو لا يقود إلى ذلك الذي هو الحياة والخلاص. إنّ من يجتذب العقول إلى نفسه يقودها للانفصال عن مصدر قوّتهم الحقيقي.

إنّ الله لا يريد أنّ أي إنسان يخضع عقلَه وإرادتَه لسلطان آخر إذ يصير آلةً عاطلةً مستسلمة في يديه. وليس لإنسان أن يدمج شخصيّته في شخصية آخر. وعليه ألاّ ينظر إلى أي كائن بشري كمن هو مصدر الشفاء. بل ينبغي أن يكون اعتماده على الله. ففي عظمة رجولته المعطاة له من الله وكرامتها يجب أن يتسلّط عليه الله نفسُه لا أيّ عقل بشري.

ثم إنّ الله يريد أن يدخل الناس في صلةٍ مباشرةٍ بنفسه. ففي كلّ معاملاته مع بني الإنسان هو يعترف بمبدأ المسؤولية الشخصيّة. ويسعى لأن يشجّع الإنسان على الشعور بالاستقلال الشخصي والإحساس بحاجته إلى الإرشاد الشخصي. ويرغب في أن يجعل البشري في شركة مع الإلهي حتى يتغيّر الناس إلى شبه صورة الله. ولكنّ الشيطان يحاول أن يعطّل هذا القصد وهذه الرغبة، فهو يشجّع الناس على الاعتماد على غيرهم من الناس. وعندما تتحوّل الأفكار بعيداً عن الله فالمجرّب يستطيع أن يجعلهم تحت سيطرته. ويستطيع التسلّط على البشرية.

إنّ نظرية سيطرة عقل على عقل آخر ابتدعها الشيطان ليقحم نفسه كالعامل الرئيسي وليحلّ الفلسفة البشرية حيث ينبغي أن تكون فلسفة الله. ومن بين كلّ الضلالات التي تجد قبولاً بين الناس المعترفين بالمسيح لا توجد ضلالة وخداع أخطر أو كفيلة بأن تفصل الإنسان عن الله كهذه الضلالة. ومع أنّها تبدو وكأنّ لا ضرر منها فلو جُرِّبت في

المرضى لكان فيها هلاكهم لا شفاؤهم، فهي تفتح باباً يدخل منه الشيطان ليتسلّط على العقل الواقع تحت سيطرة غيره كما على العقل الذي يمارس التسلّط على عقول سواه.

ما أرهب السلطان الذي يُعطي هكذا للرجال والنساء الأشرار! وما أكثر الفرص التي تُمنح لمن يعيشون بالاستفادة من ضعف إنسانٍ آخر أو جهالاتِه! وكم من الناس، بواسطة التسلّط على العقول الضعيفة أو المريضة سيجدون وسيلة لإشباع الشهوات النجسة أو الطمع في الربح!

قدّم لهم المسيح

هنالك شيء لننشغل به أفضل من تحكّم إنسان في إنسان. فعلى الطبيب أن يعلّم الناس أن يحوّلوا أنظارهم عما هو بشري إلى الإلهي. فبدلاً من أن يعلّم المرضى الاعتماد على الخلائق البشرية لأجل شفاء النفس والجسد عليه أن يوجّه أنظارهم إلى ذاك القادر أن يخلّص إلى التمام كلّ من يأتون إليه. إنّ الذي خلق عقل الإنسان يعرف حاجاتِ العقل. فالله هو الذي يستطيع أن يشفي دون سواه. فعلى من هم مرضى بعقولهم وأجسامهم أن ينظروا إلى المسيح كالشافي، فهو القائل: «إنّي أنا حيّ فأنتم ستحيون» (يوحنا١٤: ١٩). هذه هي الحياة التي علينا أن نقدّمها للمرضى قائلين إنهم إذا كان عندهم إيمان بالمسيح كالشافي، وإذا كانوا يتعاونون معه مطيعين لقوانين الصحّة ومجتهدين في أن يكمّلوا القداسة في خوف الله فسيمنحهم حياتَه. فعندما نقدّم لهم المسيح بهذه الكيفيّة نقدّم لهم طاقةً وقوّةً لهما قيمتهما، لأنّهما يأتيان من فوق. هذا هو علم الشفاء الحقيقي للجسد والنفس.

العطف

إنّ الأمر يحتاج إلى حكمة عظيمة في معالجة الأمراض المتسببة من خلال العقل. فالقلب المتألّم المريض والعقل الخائف الخائر هو بحاجة إلى علاج هاديء لطيف.

كثيراً ما يكون في بيت ما، همّ أو اضطراب دائم كآكلة تنهش النفس وتلتهمها وتضعف قوّة الحياة. وأحياناً يحدث أنّ تقريع الضمير بسبب الخطيّة يدمّر البنية ويقضي على اتزان العقل. ولكن يمكن إفادة هذه الطبقة من السقماء بواسطة العطف والرقّة. غير أنّه على الطبيب أولاً أن يظفر بثقة هؤلاء الناس، ومن ثمّ يوجههم إلى الشافي العظيم. فإذا أمكن توجيه إيمانهم إلى الطبيب الحقيقي والثقة بأنّه قد أخذ قضيتهم على عاتقه فهذا يريح عقولَهم وغالباً ما يهبهم صحّةَ الجسم.

إنّ العطف واللباقة يبرهنان في الغالب على نفع أعظم للمريض، من أمهر معالجة تُقدّم بطريقة فاترة وفي عدم اكتراث. فمتى أتى طبيب إلى سرير مريض بروح فاترة وبلا اهتمام ونظر إلى الإنسان المريض بقليل من الاهتمام، وبالكلام والعمل يظهر أنّ تلك الحالة ليست مما يتطلّب انتباهاً، ثم يترك المريض نهباً لخواطره فقد أوقع به ضرراً حقيقياً. فالشكّ والخوف اللذان خلقهما عدمُ اكتراثِه يعكسان تأثيرَ العلاجات التي قد يصفها.

لو أمكن للأطباء أن يضعوا أنفسهم في مكان ذلك الإنسان الذي قد أذلّت الآلام روحَه وأضعفت إرادته، والذي يتوق إلى كلمات العطف واليقين لصاروا أكثر استعداداً لتقدير مشاعره. عندما تمتزج المحبة التي أظهرها المسيح للمرضى بمعرفة الطبيب فإنّ نفس وجود الطبيب يكون بركة.

ثم إنّ الصراحة في معالجة المريض، تلهمه الثقة، وهكذا تبرهن على أنّها مساعد هام جداً على الشفاء. هنالك بعض الأطباء الذين يعتبرون أنّه من السياسة والكياسة كونهم يُخفون عن المريض طبيعة وسبب المرض الذي يتألّم منه. إنّ كثيرين لخوفهم من إثارة المريض أو إخافته بتقرير الحقّ يضعون أمامه آمالاً كاذبةً بالشفاء بل حتى يسمحون له بأن ينحدر إلى الهاوية بدون أن ينذروه بخطره. كلّ هذا تصرّف غير حكيم. قد لا يكون أمراً مأموناً أو حسناً دائماً أن يطّلع المريض على مدى خطره كاملاً. فهذا قد يفزعه

ويؤخّر الشفاء أو يمنعه. وكذلك لا يمكن المصارحة بالحقيقة كاملة للذين أمراضهم هي بالأكثر خياليّة تصوريّة، فكثيرون من هؤلاء الناس غير واقعيين، ولم يدرّبوا أنفسهم على ضبط النفس. إنّ عندهم تصوّراتٍ غريبةً ويتصورون أشياء كاذبة كثيرة عن أنفسهم وعن الآخرين. هذه الأشياء حقيقية لهم والذين يعنون بهم هم بحاجة إلى إظهار الرفق الدائم والصبر واللباقة اللذين لا يكلاّن. فلو صورح هؤلاء المرضى بالحقيقة بالنسبة إلى أنفسهم فإنّ بعضهم يغضبون والبعض الآخر يخافون. لقد قال المسيح لتلاميذه: « إِنَّ لِي أُمُورًا كَثِيرَةً أَيْضًا لأَقُولَ لَكُمْ ، وَلكِنْ لاَ تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَحْتَمِلُوا الآنَ » (يوحنا ١٦: ١٢). ولكن مع أنّ الحقّ قد لا يقال كلّه في كل المناسبات فإنّه ليس من الضروري أبداً ولا يوجد ما يبرّر الخداع. وينبغي ألاّ ينحدر الطبيب أو الممرضة إلى المراوغة. فالذي يفعل هذا يضع نفسه في وضعٍ لا يمكن لله أن يتعاون معه فيه، وإذ يخسر ثقة مرضاه فهو بذلك يطرح بعيداً واحدة من أفعل المساعداتِ البشريّة على شفائهم.

قــوّة الإرادة

إنّ الناس لا يقدّرون قوّة الإرادة كما ينبغي. فلو حفظت الإرادة يقظةً ووُجّهت توجيهاً صائباً فستمنح النشاط لكلّ الجسم وتكون مساعداً عجيباً في حفظ الصحّة. وهي أيضاً قوة في معالجة المرض. فإذ تُدرّب في الاتجاه الصحيح فهي تسيطر على التفكير وتكون وسيلةً قوّيةً في مقاومة مرض العقل والجسد والانتصار عليه. إنّ المرضى إذ يستعملون قوّة الإرادةِ في وضع أنفسهم في علاقة صحيحة مع الحياة فإنّهم يستطيعون أن يعملوا الكثير في التعاون مع جهود الطبيب لشفائهم. يوجد آلاف من المرضى الذين يستطيعون أن يستردّوا صحّتهم لو أرادوا. والربّ لا يريدهم أن يكونوا مرضى، بل يريدهم أن يكونوا أصحّاء وسعداء، فعليهم أن يعزموا على أن يكونوا أصحّاء. كثيراً ما يستطيع السقماء مقاومة المرض بمجرّد رفضهم الاستسلام للمرض والبقاء في حالة الكسل، فإذ يرتفعون فوق متناول الآلام والأمراض ليشغلوا أنفسهم في عمل نافع يوافق قوّاتهم،

فبمزاولتهم هذا العمل والانتفاع بالهواء ونور الشمس بكلّ حريّة كثيراً ما يستردذ الإنسانُ المُضنى الجسم صحّته وقوّته.

مباديء الكتاب في العلاج

يوجد في أقوال الكتاب درسٌ ليتعلّمه من يرغبون في استعادة صحّتهم أو المحافظة عليها، فالكتاب يقول: « لا تسكروا بالخمر الذي فيه الخلاعة بل امتلئوا بالروح» (أفسس٥ :١٨). إنّ الشفاء أو الانتعاش الحقيقي للجسد والعقل لا يوجد في الاهتياج أو النسيان والغفلة الناشئة عن استعمال المنبّهات غير الطبيعية وغير الصحّية، ولا بواسطة النهم والانغماس في الشهوات الدنيا. يوجد كثيرون من المرضى الذين هم بلا إله وبلا رجاء. إنّهم يتألّمون من كبت رغباتهم وشهواتهم المشوّشة وإدانة ضمائرهم لهم. إنهم يفلتون هذه الحياة من أيديهم ولا أمل لهم في الحياة المستقبلة. فلا يُؤمّل من يعالجون المرضى أن يفيدوا هؤلاء الناس بمنحهم تمتّعاتٍ مثيرةً سخيفةً، فهذه الأشياء كانت هي اللعنة التي أصابت حياتهم. فالنفس الجائعة الظمأى ستظلّ في جوعها وظمئها طالما هي تحاول الحصول على الشبع في هذه الأشياء. فالذين يشربون من نبع الملذّات الأنانيّة ينخدعون. يظنون أن البهجة هي القوّة. وعندما ينتهي الاهتياج والإثارة ينتهي إلهامهم ويتركون نهباً للتذمّر واليأس.

إنّ السلام الدائم وراحةَ الروح الحقيقية ليس لهما غيرُ مصدر واحد. المسيح كان يقصد هذا عندما قال: « تَعَالَوْا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتْعَبِينَ وَالثَّقِيلِي الأَحْمَالِ وَأَنَا أُرِيحُكُمْ» (متى ١١: ٢٨). « سَلاَمًا أَتْرُكُ لَكُمْ . سَلاَمِي أُعْطِيكُمْ . لَيْسَ كَمَا يُعْطِي الْعَالَمُ أُعْطِيكُمْ أَنَا » (يوحنا ١٤: ٢٧). ولكنّه لا يعطي هذا السلام منفصلاً عن شخصه. فهو في المسيح ونحن يمكننا قبوله فقط متى قبلنا المسيح.

المسيح هو نبعُ الحياة. فما يحتاجه كثيرون هو أن تكون لهم معرفة أوضح به. هم يحتاجون إلى أن يتعلّموا بصبرٍ وبرفقٍ ولكن بغيرة أيضاً، كيف يمكن أن ينفتحَ الكيان كلّه

لقوّات السماء الشافية. فعندما ينير نورُ محبّةِ الله مخادعَ النفس المُظلمةَ فسينتهي الضجر وعدم الراحة وعدم القناعة وتُمنح الأفراح المشبّعة نشاطاً للعقل وصحّة وطاقة للبدن.

العون في كلّ تجربة

إنّنا في عالم كلّه آلام. فالصعوبات والتجارب والأحزان تترصّد لنا على طول الطريق المؤدّي إلى الوطن السماوي. ولكن يوجد كثيرون ممن يزيدون من أعباء الحياة بتوقعهم المستمرّ للمتاعب والضيقات، فإذا قابلتهم مصيبة أو فشلٌ يظنّون أنّ كلّ شيء مآله إلى الدمار، وأنّ نصيبهم هو أقسى نصيب، وأنّهم مقبلون على الفاقة بكلّ تأكيد. وهكذا يجلبون على أنفسهم التعاسةَ ويلقون ظلاً قاتماً على كلّ من حولهم. والحياة نفسها تمسي عبئاً عليهم. ولكن ليس ما يدعو إلى كلّ ذلك. والأمر يحتاج إلى بذل مجهود ثابت لتغيير مجرى تفكيرهم، ولكن ذلك التغيير هو في حيّز الإمكان. فسعادتهم في هذه الحياة وفي الحياة الأخرى موقوفة على تركيزِ أفكارهِم في الأشياء المُفرحة. فليحوّلوا أنظارَهم بعيداً عن الصورة المظلمةِ التي هي خياليّة، إلى المنافع والبركات التي قد نثرها الله في طريقهم، وإلى ما هو أبعد من ذلك إلى الأمور غير المنظورة والأبديّة.

لقد أعدّ الله عوناً لكلّ تجربة. عندما أتى بنو إسرائيل وهم في البريّة إلى مياه مارّة المرّة صرخ موسى إلى الربّ. ولم يُعد الله علاجاً جديداً. ولكنّه وجّه التفاتهم إلى ما كان في متناول أيدهم. كان ينبغي أن تُطرح في الماء شجرة كان هو قد خلقها، لكي تجعل الماء نقيّاً وعذباً. فلمّا تمّ ذلك شرب الشعب من الماء وانتعشوا. ففي كلّ تجربة سيمنحنا المسيح العون لو طلبناه. وستنفتح عيوننا لرؤية المواعيد الشافية المدوّنة في كلمته. والروح القدس علّمنا كيف نخصص لأنفسنا كلّ بركة يمكن أن تكون ترياقاً للحزن. وفي كلّ جرعة مرّةٍ تُقدّمُ لنا سنجد غصناً للشفاء.

وليس لنا أن نسمح للمستقبل بمشاكله القاسية وانتظاراته غير المُرضية أو المُشبعة، بأن يجعل قلوبَنا تخور أو تضعف، أو ركبَنا ترتعش، أو أيدينا ترتخي. يقول الإله القدير:

« لِيَتَمَسَّكُ بِحِصْنِي فَيَصْنَعُ صُلْحاً مَعِي. صُلْحًا يَصْنَعُ مَعِي » (إشعياء ٥:٢٧). إنّ من يسلّمون حياتهم لإرشاده وخدمته لن يوضعوا في مركز لم يعدّ هو له مؤونة. فمهما يكن مركزُنا فإن كنّا عاملين بكلمته فإنّ لنا مرشداً يهدي طريقنا، ومهما تكن الأمور التي تُربكنا وتُحيّرنا فإنّ لنا مشيراً أميناً، ومهما يكن ضيقنا أو حزننا أو وحشتنا فإن لنا صديقاً عطوفاً.

فإذا كنّا نضلّ بسبب جهلنا فالمخلّص لا يتركنا. فلا حاجة بنا البتّة إلى أن نحسّ بأننا وحدنا. الملائكة هم عشراؤنا. والمُعزّي الذي قد وعد المسيح بأن يرسلَه باسمه يمكث معنا. ففي الطريق المؤدّية إلى مدينة الله لا توجد صعوبات يعجز من يتّكلون عليه عن أن ينتصروا عليها. ولا توجد مخاطر لا يستطيعون النجاة منها. ولا يوجد حزن أو ضيم أو ضعف بشري إلاّ وأعدّ هو له علاجاً.

ولا حاجةَ بأحد لأن يستسلم للفشل واليأس. قد يأتيك الشيطان بهذا الاقتراح القاسي قائلا لك: «إنّ قضيتَك قضيّة خاسرة لا رجاء منها. وأنت لا يمكن إصلاحك أو فداؤك» ولكن لك في المسيح الرجاء. إنّ الله لا يأمرنا بأن ننتصر بقوّتنا الذاتية، ولكنّه يطلب منّا أن نكون قريبين منه، وإلى جانبه. ومهما تكن قوّة الصعوبات التي نرزح تحتها والتي تضغط نفوسنا وأجسادنا فإنه ينتظرنا ليعتقنا.

إنّ ذاك الذي اتّخذ لنفسه جسدَ بشريّتنا يعرف كيف يعطف على آلام البشرية. إنّ المسيح فضلاً عن كونه يعرف كلّ نفسٍ والحاجاتِ والتجاربَ الخاصة بتلك النفس فإنّه محيط بكلّ الظروف التي تهيّج وتربك النفس. إنّ يده ممدودة في عطف ورقّة لكلّ ابن متألّم. فالذين ينالون أكثر الألم ينالون أكبر عطف وإشفاق منه. إنّه يرثي لضعفاتِنا ويريدنا أن نضع مشاكلَنا ومتاعبنا عند قدميه ونتركها هناك.

ليس من الحكمة أن ننظرَ إلى أنفسنا ونختبر مشاعرَنا وانفعالاتِنا، فإذا فعلنا ذلك فالمجرِّب سيقدّم المشاكلَ والتجاربَ التي تُضعف الإيمان وتدمّر الشجاعةَ. وإذا درسنا

مشاعرنا بكلّ دقّة وأفسحنا المجال لأحاسيسنا فإنّ ذلك من شأنه أن يفسح المجال للشكّ، وهذا يوقعنا في الارتباك. فعلينا أن نحوّلَ أنظارنا عن أنفسنا إلى يسوع.

وعندما تهجم عليك التجارب، ويبدو أن الهمّ والحيرة والظلمة تكتنف نفسك فانظر إلى المكان الذي فيه شاهدت النور آخرَ مرّة. استرح في محبّة المسيح وتحت رعايته الحافظة. وعندما تحاول الخطيةُ أن تسيطر على القلب، وعندما يضايق الإثم النفس ويثقل الضمير، وعندما يغشى عدم الإيمان العقلَ اذكر أنّ نعمةَ المسيح كافية لقهر الخطيّة وطرد الظلام. فإذ ندخل في شركةٍ مع المخلّص فنحن ندخل إلى منطقة السلام.

مواعيد الشفاء

«الرب فادي نفوس عبيده وكلّ من اتكل عليه لا يعاقب» (مز٣٤: ٢٢). «فِي مَخَافَةِ الرَّبِّ ثقة شَديدة ويكون لِبنيه ملجأ» (أمثال ١٤:٢٦).

«وَقَالَتْ صِهْيَوْنُ قَدْ تَرَكَنِي الرَّبُّ وَسَيِّدِي نَسِيَنِي. هَلْ تَنْسَى الْمَرْأَةُ رَضِيعَهَا فَلاَ تَرْحَمَ ابْنَ بَطْنِهَا حَتَّى هؤُلاَءِ يَنْسَيْنَ وَأَنَا لاَ أَنْسَاكِ. هُوَذَا عَلَى كَفَّيَّ نَقَشْتُكِ» (إشعياء ٤٩: ٨-١٦).

« لاَ تَخَفْ لأَنِّي مَعَكَ . لاَ تَتَلَفَّتْ لأَنِّي إِلهُكَ . قَدْ أَيَّدْتُكَ وَأَعَنْتُكَ وَعَضَدْتُكَ بِيَمِينِ بِرِّي » (إشعياء ٤١:١٠).

«المُحمّلين عليّ مِنَ الْبَطْنِ المحمولين مِنَ الرَّحِمِ. وإلى الشيخوخة أنا هو وإلى الشيبة أنا أحمل. قد فعلت وأنا أرفع وأنا أحمل وأنجّي» (إشعياء ٤٦:٣و٤).

الشكر والحمد

لا شيء يؤول بالأكثر إلى ترقية صحّةِ الجسدِ والنفس أكثرَ مما تفعل روحُ الشكر والحمد. فهذا واجب لازم كلّ اللزوم لمقاومة الكآبة والأفكار والمشاعر المتبرّمة – وهو

واجب لازم كالصلاة. إذا كنّا سائحين في طريقنا إلى السماء فكيف نسير كفرقة من النائحين الباكين متأوّهين ومشتكين طول الطريق إلى بيت أبينا؟

إنّ المعترفين بالمسيحيّة الذين يشتكون بلا انقطاع، والذين يبدو أنّهم يظنّون أنّ الفرح والسعادة خطيّة، ليس عندهم دين حقيقي. والذين يجدون سروراً حزيناً في كلّ ما هو كئيب في العالم الطبيعي، والذين يختارون النظر إلى أوراق الأشجار اليابسة ويفضلون ذلك على جمع الأزهار الجميلة النضرة، والذين لا يبصرون جمالاً في الجبال العظيمة الشاهقة والسهول المكسوّة بالمروج الخضراء، والذين يغلقون أبواب حواسهم فلا يسمعون الصوت المفرح الذي يخاطبهم في الطبيعة، الذي هو عذبٌ وموسيقى للآذان المصغية – أمثال هؤلاء ليسوا في المسيح. إنّهم يجمعون لأنفسهم الكآبة والظلام في حين كان يمكنهم أن يحصلوا على الضياء، بل نور شمس البرّ (يسوع) الذي يشرق في قلوبهم والشفاء في أجنحته.

كثيراً ما يكون عقلك مظلماً بسبب الألم. حينئذ لا تحاول أن تفكّر. أنت تعرف أنّ يسوعَ يُحبّك. وهو يفهم ضعفَك. فيمكنك أن تفعل مشيئتَه بالارتماء بين ذراعيه.

من قوانين الطبيعة كون أفكارنا ومشاعرنا تتشجّع وتتشدّد عندما نعبّر عنها بالكلام. ففي حين أنّ الكلام يعبّر عن الخواطر فإنّه حقيقي أيضاً أنّ الأفكار تتبع الكلام. فإذا أردنا أن نُعطي لإيماننا تعبيراً أعظم، وأن نفرح أكثر بالبركات التي نعرفها ونملكها – برحمة الله ومحبّتِه العظيمة – فينبغي أن يكون عندنا إيمانٌ أكثرَ وفرحٌ أعظم. لا يمكن لأيّ لسانٍ أن يعبّر ولا يمكن لعقلٍ محدود أن يدرك البركةَ الناتجةَ من تقدير صلاح الله ومحبّته كما يجب. وحتى على الأرض يمكننا أن نملك الفرحَ كنبعِ ماء حيّ لا يجفّ أبداً، لأنّه يستمدّ مياهَه من الينابيع التي تفيض من عرش الله.

إذاً علينا أن نثقّف قلوبَنا وشفاهَنا لتنطق بالتسبيح لله من أجل محبّته الفائقة. علينا أن نثقّف نفوسَنا لتملك الرجاء ولتسكن في النور المشرق من صليب جلجثة. ويجب ألاّ

ننسى أبداً أنّنا أولادُ الملك السماوي، أبناءُ وبناتُ ربِّ الجنـود. فهو امتياز لنا أن نحتفظ باطمئنانٍ هاديءٍ في الله.

«وَلْيَمْلِكْ فِي قُلُوبِكُمْ سَلاَمُ اللهِ .. وَكُونُوا شَاكِرِينَ» (كولوسي ٣: ١٥). فإذ ننسى متاعبَنا وضيقاتِنا، لنحمد الله لأجل الفرصة المقدّمة لنا لنحيا لمجدِ اسمه. ولتكُنْ البركات الجديدة التي تُعطى لنا في كلّ يوم جديد موقظةً في قلوبنا الحمد لأجل هذه الأدلّة على محبّته التي ترعانا. عندما تفتح عينيك في الصباح أشكر الله على حفظه إيّاك طوال الليل. أشكره على سلامه الذي يفيض في قلبك. ليصعد شكرُك كبخورٍ عطِرٍ أو رائحةٍ زكيّةٍ إلى السماء صبحاً وظهراً ومساءً.

وعندما يسألك أحدٌ عن صحّتك فلا تحاول التفكير في شيء مُحزنٍ استدراراً للعطف عليك. ولا تتحدّث عن عدم إيمانك وأحزانك وآلامك. إنّ المجرّب يفرح إذ يسمع هذا الكلام. فعندما تتحدّث عن المواضيع المحزنة فأنت تمجّده. ينبغي ألا نفكّر أو نتكلّم عن قوّة الشيطان العظيمة للانتصار علينا. فكثيراً ما نسلّم أنفسنا بين يديه إذ نتحدث عن قوّته. فبدلاً من هذا لنتحدّث عن قدرة الله العظيمة على ربط كلّ مصالحِنا بمصالحه. تحدّث عن قدرة المسيح التي لا تُبارى وعن مجده. إنّ كلّ السماء مهتمّة بخلاصنا. وملائكة الله ألوف ألوف وربوات ربوات مرسلون لخدمة العتيدين أن يرثوا الخلاص. وهم يحرسوننا من الشرّ، ويصدّون عنّا قواتِ الظلمة التي تحاول إهلاكَنا. ألا يوجد سبب لأجلِه نشكر الله في كلّ لحظة، ونكون شاكرين حتى على ما يبدو أنّه صعوبات أو عقبات في طريقنا؟

غنّوا بتسابيح الحمد

عبّروا عن حمدكم وشكركم بالتسابيح. وعندما نُجرَّب فبدلاً من التعبير عن مشاعرنا فبالإيمان لنرفعَ تسبيحة شكر لله.

إنّ التسبيح هو سلاح يمكّننا على الدوام أن نحارب به الفشل. فإذ نفتح القلب هكذا لشمس حضور المخلّص فسننال منه الصحّة والبركة.

« اِحْمَدُوا الرَّبَّ لأَنَّهُ صَالِحٌ لأَنَّ إِلَى الأَبَدِ رَحْمَتَهُ. لِيَقُلْ مَفْدِيُّو الرَّبِّ الَّذِينَ فَدَاهُمْ مِنْ يَدِ الْعَدُوِّ» (مزمور ١٠٦: ١ و ١٠٧:١و٢).

«غنّوا له رنّموا له أنشدوا بكلّ عجائبه. افتخروا باسمه القدوس لتفرح قلوب الذين يلتمسون الرب» (مزمور١٠٥ :٢و٣).

«لأنه أشبع نفساً مشتهية وملأ نفساً جائعة خبزاً. الجلوس في الظلمة وظلال الموت موثقين بالذلّ والحديد... صرخوا إلى الرب في ضيقهم فخلصهم من شدائدهم. أخرجهم من الظلمة وظلال الموت وقطع قيودهم. فليحمدوا الرب على رحمته وعجائبه لبني آدم» (مزمور ١٠٧:٩-١٥).

«لماذا أنت منحنية يا نفسي ولماذا تئنّين فيّ. ترجّي الله لأنّي بعد أحمده خلاص وجهي وإلهي» (مزمور ٤٢:١١).

«اشْكُرُوا فِي كُلِّ شَيْءٍ لأَنَّ هذِهِ هِيَ مَشِيئَةُ اللهِ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ مِنْ جِهَتِكُمْ» (١تسالونيكي ٥: ١٨). هذا الأمر هو تأكيد بأنّه حتى الأمور التي تبدو معاكسةً لنا ستعمل لخيرنا. إنّ الله لا يأمرنا بأن نشكر على ما فيه ضررنا.

«الرب نوري وخلاصي ممن أخاف. الرب حصن حياتي ممن أرتعب؟» (مزمور ٢٧:١).

« لأَنَّهُ يُخَبِّئُنِي فِي مَظَلَّتِهِ فِي يَوْمِ الشَّرِّ. يَسْتُرُنِي بِسِتْرِ خَيْمَتِهِ أذبح في خيمته ذبائح الهتاف أغني وأرنم للرب» (مزمور ٢٧: ٥).

«انتظارا انتظرت الرب فمال إليَّ وسمع صراخي. وأصعدني من جُبّ الهلاك من طين الحمأة وأقام على صخرة رجلي ثبّت خطواتي وجعل في فمي ترنيمة جديدة تسبيحةً لإلهنا» (مزمور٤٠: ١-٣).

«الرب عزّي وترسي عليه اتكل قلبي فانتصرت. ويبتهج قلبي وبأغنيتي أحمده» (مزمور ٢٨:٧).

عمل الخير

من أقوي المعطّلات لشفاء المرضى تركيز الالتفاف على أنفسهم. فكثيرون من ذوي العاهات يحسّون أنّه ينبغي لكلّ إنسان أن يقدّم لهم العطف والعون، في حين أنّ ما يحتاجونه هو تحويل انتباههم بعيداً عن أنفسهم ليفكّروا في الآخرين ويرعوهم.

كثيراً ما تُطلب الصلاةُ لأجل المتألّمين والمحزونين والخائفين والخائرين وهذا صواب. فينبغي أن نصلّي ليشرقَ الله بنوره على العقول المظلمة ويعزّي القلوب الحزينة. ولكنّ الله يجيب الصلاة لأجل من يضعون أنفسهَم في مجرى بركاتِه. فعندما نقدّم الصلاة لأجل هؤلاء الحزانى يجب أن نشجّعهم حتى يحاولوا مساعدةَ من هم أشدّ احتياجاً منهم. وستنقشع الظلمةُ بعيداً عن قلوبهم حالما يحاولون مساعدة الآخرين. فعندما نحاول تعزيةَ الآخرين بالتعزية التي نتعزّى نحن بها فالبركة ترتدّ إلينا.

إنّ ما ورد في الإصحاح الثامن والخمسين من سفر إشعياء هو وصفة طبيّة لأمراض الجسد والنفس. فإذا رغبنا في الصحّة وفرحِ الحياة الحقيقي فعلينا أن نمارس عمليّاً القوانين المدوّنة في هذا الإصحاح. فالرب يقول عن الخدمة المقبولة لديه وبركاتها:

« أَلَيْسَ أَنْ تَكْسِرَ لِلْجَائِعِ خُبْزَكَ وَأَنْ تُدْخِلَ الْمَسَاكِينَ التَّائِهِينَ إِلَى بَيْتِكَ إِذَا رَأَيْتَ عُرْيَانًا أَنْ تَكْسُوهُ وَأَنْ لاَ تَتَغَاضَى عَنْ لَحْمِكَ. حينئذ ينفجر مثل الصبح نورك وتنبت صحتك سريعاً وَيَسِيرُ بِرُّكَ أَمَامَكَ وَمَجْدُ الرَّبِّ يَجْمَعُ سَاقَتَكَ. حينئذ تدعو فيجيب الرب تستغيث فيقول هأَنَذَا. إن نزعت مِنْ وَسَطِكَ النير والإيماء بالإصبع وكلام الإثم. أَنْفَقْتَ نَفْسَكَ لِلْجَائِعِ ، وَأَشْبَعْتَ النَّفْسَ الذَّلِيلَةَ يشرق فِي الظُّلْمَةِ نورك ويكون ظلامك الدامس مثل الظهر. ويقودك الرب على الدوام ويشبع في الجدوب نفسك وينشط عظامك فتصير كجنة رياً وكنبع مياه لا تنقطع مِيَاهُهُ» (إشعياء٥٨: ٧-١١).

الأعمال الصالحة هي بركة مضاعفة يستفيد منها المحسنُ والمُحسَنُ إليه. إنّ الشعور بعملِ ما هو صواب هو من أفضل العلاجات للأجسام والعقول المريضة. فعندما يكون

العقل حرّاً وسعيداً، عندما يحسّ الإنسان بأنّه قد قام بواجبه على أكمل وجه وعندما يكون راضياً عن إسعاد الآخرين فإنّ القوّةَ المبهجةَ الرافعةَ تضفي على كيانه كلِّه حياة جديدة.

يجب على ذي العاهة بدلاً من استدرار العطف دائماً، أن يحاول تقديمَ العطف للغير. إلقِ حمل ضعفك وحزنك وألمك على المخلّص الرحيم. افتح قلبك لمحبته واجعلها تفيض منك إلى الآخرين. اذكر أنّ لكلّ إنسان تجاربه التي يصعب احتمالها، والمغريات التي يصعب عليه مقاومتها، ومن ثمّ يمكنك أن تفعل شيئاً لتخفيف هذه الأعباء. عبّر عن شكرك على البركات التي عندك، وبرهن على تقديرك للاهتمام الذي حصلت عليه. اختزن في قلبك مواعيدَ الله الثمينةَ حتى يمكن أن تستخرجَ من هذا الكنز الكلامَ الذي هو كفيل بجلب السعادة والقوّة للآخرين. فهذا يحيطك بجوّ معيّن ورافع. ليكن هدفك أن تبارك من هم حولك، وحينئذ تجد وسائلَ يمكنك بها أن تعين أفرادَ عائلتك والآخرين.

إذا كان من يتألّمون من اعتلال صحّتهم ينسون الذات في غمرة اهتمامهم بالآخرين، وإذا كانوا يتممون أمرُ الربّ بخدمة من هم أشدّ احتياجاً منهم فسيتحققون صدقَ الوعد النبوي: «حينئذ ينفجر مثلَ الصبح نورُك وتنبت صحتك سريعاً».

٥ في أحضان الطبيعة

لقد اختار الخالق لأبوينا الأوّلين أنسبَ بيئة لصحّتهما وسعادتهما. فهو لم يضعهما في قصر ولا أحاطهما بالزينات وأسباب الرفاهية الكاذبة التي يكافح الكثيرون اليوم في سبيل حيازتها، بل جعلهما على اتصال وثيق بالطبيعة والشركة مع قديسي السماء.

وفي الجنة التي أعدّها الله موطناً لوالدينا كانت أنظارهما تقع على الشجيرات الجميلة والأزهار النضرة في كلّ اتجاه. كانت توجد أشجار من كلّ نوع، وكثير منها كانت محمّلةً بالأثمار اللذيذة العطرة، وعلى أغصانها كانت الأطيار تترنّم بأغاريد حمدها، وتحت ظلّها كانت مخلوقات الأرض تلعب وتمرح بلا خوف.

إنّ آدمَ وحواءَ وهما في حال الطهر كانا مسرورين مما كانا يريان ويسمعان في عدن. وقد عيّن لهما الله عملَهما في الجنة ليعملاها ويحفظاها (تكوين٢:١٥). وكان عملهما يكسبهما صحّة وفرحاً كلّ يوم، وكان ذانك الزوجان السعيدان يرحّبان بزيارات خالقهما لهما بفرح، إذ كان يسير ويتحدّث معهما عند هبوب ريح النهار، وكان يعلّمهما دروسه يوميّاً.

إنّ طريقة المعيشة التي عيّنها الله لأبوينا الأوّلين فيها دروس لنا. ومع أنّ الخطيّة قد ألقت ظلالها على الأرض فإنّ الله يحبّ أن يجدَ أولادُه لذّتهم وفرحهم في أعمال يديه. وكلّما اتّبعنا تدبيره لحياتنا بكلّ دقّة، عمل هو بكيفيّة مدهشة جدّاً في شفاء بني الإنسان المتألمين. إنّ المرضى بحاجة إلى الاتصال بالطبيعة اتصالاً وثيقاً، فالعيشة في الخلاء في وسط البيئة الطبيعيّة كفيلة بأن تصنع المعجزات في حياة كثيرين من المرضى العاجزين الذين يكاد لا يُرجى لهم شفاء.

إنّ الضجيج والاهتياج والتشويش الذي يُسمع في المدن والحياة المجهدة الكاذبة فيها، هي أمور متعبة ومنهكة للمرضى. والهواء المحمّل بالدخان والغبار والغازات السامّة وجراثيم المرض خطر على الحياة. والمرضى الذين يُحبَسُون معظم الوقت بين أربعة جدران يكادون يحسّون بأنّهم سجناء في غرفهم. إنّهم يطلّون على البيوت والأرض وجماهير الناس الغادين والرائحين في عجلة، وهم لا يكادون يلمحون السماء الزرقاء أو نورَ الشمس أو الأعشابَ أو الأزهارَ أو الأشجارَ. فإذ يكونون محبوسين هكذا يطلقون العنانَ للتفكير في آلامِهم وأحزانِهم فيصيرون فريسة لأفكارهم المحزنة.

أمّا بالنسبة إلى من هم ضعفاء في القوّة الأدبيّة فإنّ المدن تزخر بالمخاطر لهم. ففيها يكون المرضى الذين عليهم أن ينتصروا على نهمهم وشهواتهم غير الطبيعيّة، معرّضين للتجربة باستمرار. فهم بحاجة للتواجد في بيئات جديدة فيها يتغيّر اتجاه أفكارهم بحيث يوضعون تحت مؤثّرات تختلف عن تلك التي تحطّمت بسببها حياتهم. فليُنقلوا إلى حين من تحت تلك المؤثّرات التي تُبعد النفس عن الله إلى جوٍّ أنقى.

والمؤسّسات التي تُقام لأجل رعاية المرضى يمكن أن تكونَ أنجحَ لو أمكن إقامتُها بعيداً عن المدن. وبقدر الإمكان، يجب على كلّ من يطلبون أن تعودَ إليهم صحّتهم أن يذهبوا إلى بيئة ريفيّة حيث يمكنهم الانتفاع بالعيشة في الخلاء. إنّ الطبيعة هي طبيب الله. فالهواء النقيّ ونورُ الشمس المبهجُ والأزهارُ والأشجارُ والبساتين والكرومُ والرياضة البدنيّةُ في الخلاء في وسط هذه البيئة تمنحُ الصحّة والحياة.

وعلى الأطباء والممرضات أن يشجّعوا مرضاهم على المكوث كثيراً في الخلاء، فالحياة الخلويّة هي العلاج الوحيد الذي يحتاجه كثيرون من السقماء. إنّ لها قوّة عجيبة على شفاء الأمراض الناشئة من الاهتياجات والإفراط في التمسّك بالحياة العصريّة، الحياة التي تُضعف قوى الجسم والعقل والنفس وتدمّرها.

كم تبتهج نفوس المرضى المتعبين من العيشة في المدينة وتوهّج الأنوار الكثيرة وضجّة الشوارع – بالهدوء والحريّة في الأرياف! وبأيّ شوقٍ وشغفٍ ينصرفون إلى مشاهد الطبيعة! وكم يُسرّون عندما يجلسون في الهواء الطلق! وكم يفرحون بنور الشمس ويستنشقون عبيرَ شجرةٍ أو زهرةٍ! توجد خواصّ تمنح الحياة في بلسان شجرة الصنوبر وفي شذا الأرز والشربين، وتوجد أشجارٌ أخرى لها خاصّيات تمنح الصحّةَ وتردّها للمرضى.

أمّا من هو مريض بمرضٍ مُزمنٍ فلا شيء يؤول إلى استعادة صحّته وسعادته كالعيشة في وسط بيئة ريفيّة جذّابة. هنا يمكن لأضعف الناس أن يجلسوا أو يرقدوا تحت أشعّة الشمس أو تحت ظلال الأشجار. ما عليهم إلاّ أن يرفعوا أبصارهم ليروا فوقَهم أوراق الأشجار الجميلة. حينئذ يكتنفهم إحساسٌ بالاطمئنان والهدوء والانتعاش، عندما يستمعون لهمهمة النسيم. والأرواح الخائرة تنتعش، والقوّة المتضائلة تتجدد وبطريقة غير واعية يصير العقل هادئاً، والنبض المحموم يصير أكثرَ هدوءاً وانتظاماً. فإذ يتقوّى المرضى يتجاسرون ليخطوا بضعَ خطواتٍ ليجمعوا الأزهارَ الجميلةَ التي هي رسلُ محبّةٍ الله لأفراد أسرته المتألّمة هنا على الأرض.

ينبغي ابتكارُ خطط لإبقاء المرضى في الهواء الطلق. والقادرون على العمل فليُعطَ لهم عملٌ سهلٌ مسرّ. أروهم كم ذلك العمل في الهواء الطلق مسرّ وموافقٌ ومعينٌ لهم، وشجّعوهم على استنشاق الهواء النقي، وعلّموهم التنفّس العميق، وأنّهم وهم يتنفّسون ويتكلّمون يمرّنون عضلاتِ البطن. هذا تعليم وتدريب سيكون عظيم القيمة لهم جدّاً.

وينبغي أن تُوصف التمريناتُ الرياضيّة على أنّها ضرورة تمنح الحياة. ولأجل مثل هذا التدريب لا شيء أفضل من استنبات الأرض. ليكن للمرضى أحواض زهور ليُعنوا بها أو عملٌ يجب عملُه في البستان أو حديقةِ الخضر. فإذ يجدون من يشجعهم على ترك غرفهم

وقضاء الوقت في الخلاء لغرس الأزهار أو القيام بأيّ عمل آخر سهل ومسرّ، فإنّ انتباههم سينصرف بعيداً عن أنفسهم وآلامهم.

كلّما كثر بقاء المريض في الخلاء خفّ عبءُ الرعاية التي يحتاجها. وكلّما كانت بيئتُه مفرحةً ومبهجةً زاد أملُه. فإذ يكون محبوساً في البيت مهما يكن ذلك البيت مزّيناً ومؤثّثاً بأجمل الأثاث فسيزيد ضجرُه وتبرّمُه وحزنُه. ولكنّ ضعه في وسط الطبيعة الجميلة حيث يستطيع أن يرى الأزهارَ الناميةَ ويسمع أغاريدَ الطيور وحينئذ سينطلقُ قلبُه في الشدو والغناء المنسجم مع شدو الطيور. وهكذا يستريح جسمُه وعقلُه. والذهن يستيقظ والخيال ينتعش والعقل يكون مستعدّاً لتقدير جمال كلمة الله.

ويمكن أن يوجد في الطبيعة دائماً شيءٌ يحوّل انتباهَ المرضى بعيداً عن أنفسهم ويوجّه أفكارَهم إلى الله. فإذ يكونون محاطين بأعمالِه العجيبة تسمو عقولُهم فوق الأمور التي تُرى إلى الأمور التي لا تُرى. وجمال الطبيعة يقودهم للتفكير في الوطن السماوي حيث لن يكون ما يشوّه الجمال، ولا شيء يلوّث أو يتلف، ولا ما يسبب المرض أو الموت.

ليستنبط الأطباء والممرّضات من مناظر الطبيعة دروساً يتعلّمها المرضى عن الله. ليوجّهوا أنظارهم إلى من قد صنعت يده الأشجارَ العاليةَ والأعشابَ والأزهار. وليشجّعوهم على أن يروا في كلّ برعمةٍ وكلّ زهرةٍ تعبيراً عن محبّة الله لأولاده. فالذي يعتني بالطيور والزهور لابدّ أن يعتني بخلائقه المجبولين علي صورته.

وإذ يكون المرضى في الخلاء في وسط الخليقة التي أبدعها الله يتنسّمون الهواء المتجدد المُعطي الصحّة، يمكن إخبارُهُم عن الحياة الجديدة في المسيح. وفي الخلاء يمكن أن تُقرأ كلمة الله، ويمكن أن يضيء نور برّ المسيح في القلوب التي قد أظلمتها الخطيّة.

يجب أن يكون الرجال والنساء المحتاجون إلى شفاء الجسد والروح على اتصال بمن تستطيع أقوالُهم وأعمالُهم أن تجتذبَهم إلى المسيح. يجب أن يكونوا تحت تأثير وإشراف (يسوع) الطبيب المرسل العظيم الذي يستطيع أن يبريءَ النفسَ والجسد. ويجب أن يسمعوا قصّة محبّة المخلّص والغفران المقدّم مجّاناً لكلّ من يقبلون إليه معترفين بخطاياهم.

فتحتَ مثل هذه المؤثّرات يُرشَد كثيرون من المتألّمين إلى طريق الحياة. وملائكة السماء يتعاونون مع الكائنات البشرّية في جلب التشجيع والرجاء والفرح إلى قلوب المرضى والمتألّمين. وفي هذه الحالات يتبارك المرضى بركةً مضاعفةً، وكثيرون منهم يصحّون. فالخطوة الواهنة تعود إليها مرونتها. والعين تستعيد لمعانَها. واليائسون يعود إليهم الرجاء. والوجه الذي كان قبلاً يائساً تبدو عليه سيماء الفرح. والتشكّيات والتذمّرات التي كان ينطق بها الإنسان تُسمع بدلاً منها أنغامُ الفرحِ والرضى.

متى استردّ الرجال والنساء صحّتهم الجسديّة يصيرون أقدر على تدريب إيمانهم بالمسيح الذي يضمن سلامة النفس. وإذ يحسّ الإنسان بغفران خطاياه فسيملأه السلام والفرح والراحة التي لا يُعبّر عنها. ورجاء المسيحي الذي كان معتماً يصير مشرقاً ومنيراً. إنّ الكلام يعبر عن الاعتقاد والإيمان، «الله لنا ملجأ وقوة عوناً في الضيقات وجد شديداً» (مزمور٤٦:١). «أيضاً إذا سرت في وادي ظل الموت لا أخاف شراً لأنك أنت معي عَصَاكَ وَعُكَّازُكَ هُمَا يُعَزِّيَانِنِي» (مزمور٢٣:٤). «يُعْطِي الْمُعْيِيَ قُدْرَةً وَلِعَدِيمِ الْقُوَّةِ يُكَثِّرُ شِدَّةً » (إشعياء٤٠:٢٩).

١ مبادىء الصحة العامة

إنّ معرفة الإنسان بأنّه ينبغي أن يكون هيكلاً لله ومسكناً لإعلان مجده يجب أن تكون أسمى حافز له على رعاية قوى الجسم وتنميتها. لقد عمل الخالق بكيفيّة امتازت عجباً في الجسم البشري، وهو يأمرنا بأن نجعل هذا الجسم موضوع دراستنا وأن نتفهّم حاجاتِه ونقوم بدورنا في حفظه من الأذى والدنس.

الدورة الدمويّة

لكي تكون لنا صحّة جيّدة يجب أن يكون دمُنا صالحاً وجيّداً، لأنّ الدمَ هو مجرى الحياة. فهو يُصلح ما قد فسد ويُغذّي الجسم. ومتى توافرت له عناصر الغذاء الجيّد، ومتى تطهَّر وانتعش بالاتصال بالهواء النقي فهو يحمل الحياة والنشاط إلى كلِّ أجزاء الجهاز البدني. وكلّما كانت الدورة منتظمةً وكاملةً كلّما تمّ هذا العمل بكيفيّة أفضل.

وعند كلّ نبضة من نبضات القلب ينبغي أن يتدفّق الدمُ بسرعة وسهولة إلى كلِّ أجزاء الجسم. وينبغي ألاّ تُعاق تلك الدورة بواسطة الملابس الضيّقة أو الربط أو الأحزمة، أو بسبب عدم تغطية الأطراف بالثياب الكافية. فأيّ شيءٍ يُعطّل الدورة يجعل الدمَ يرتدّ إلى الأعضاء الحيويّة فيتسبب عن ذلك الاحتقانُ والصداعُ والسعالُ والخفقانُ في القلب أو سوءُ الهضم.

التنفّس

ولكي نحصل على دمٍ جيّد ينبغي أن نتنفّس جيّداً. فاستنشاق الهواء النقيّ استنشاقاً كاملاً وعميقاً بحيث تمتليء الرئتان بالأوكسجين ممّا ينقّي الدمَ. وهذا يُكسب الدمَ لوناً

أحمرَ قانياً جميلاً ويرسله كنهر مُحيٍ إلى كلِّ أجزاء الجسم. إنّ التنفّسَ الحسنَ يهدّيء الأعصاب، وينشّط القابليّة للطعام، ويجعل عمليّة الهضم أكثرَ انتظاماً، ويُعطي الإنسانَ نوماً هادئاً منعشاً.

ينبغي أن تُعطى للرئتين أعظمُ حريّة ممكنة. ومقدرتهما واتساعهما تتمان وتنموان بواسطة حريّة الحركة، ولكنّ هذه المقدرة تتضاءل وتنكمش عندما يقع عليهما ضغط أو شدّ. وإلى ذلك تُعزى الآثار الرديئة الوبيلة المنتشرة على نطاق واسع وعلى الخصوص بين من يتطلّب عملُهم الجلوسَ المستمرَّ حيث ينكبُّ الإنسان على عمله. ففي هذا الموقف يستحيل على المرء أن يتنفّسَ تنفّساً عميقاً. وسرعان ما يصير التنفّس السطحيُّ عادة، فتفقد الرئتان القوّة على التمدد. ومثل هذا الأثر يحدث عند الشدّ على الحقوين. فأعضاء الصدر السفلى وعضلات البطن التي قُصد منها أن تُساعد في عملية التنفّس لا يُعطى لها المجالُ الكافي، وبذلك يتقيّد عملُ الرئتين.

وهكذا لا يحصل الجسم على كميّة كافية من الأوكسجين. والدمُ يتحرّك ببطء. والمادة السامّة المتبقية التي ينبغي طرحُها بعيداً بواسطة زفير الرئتين تُستبقى، وهكذا يصير الدمُ ملوّثاً غير نقيّ. والتأثير السيئ لا يتناول الرئتين وحدهما، بل يتناول عدا ذلك المعدةَ والكبدَ والدماغَ، ويصير الجلد شاحبَ اللون، والهضم يتعطّل، والقلب يتضايق، والدماغ يصير معكّراً، والأفكار تصبح مرتبكةً ومشوّشة، والحزن والوجوم يخيّمان على الروح، والجهاز كلّه يصير خائراً ومكتئباً وكسولاً ويُمسي أكثر تعرّضاً للمرض بكيفيّة خاصّة.

الهواء النقي

إنّ الرئتين تطردان الأوساخَ باستمرار، وهما لذلك بحاجة إلى إمدادهما بالهواء النقيّ بكيفيّة مستمرّة. فالهواء الملوّث لا تتوافر فيه كميّة الأوكسجين اللازمة. والدمُ ينتقل إلى المخّ وغيره من الأعضاء بدون أن يتنقى. فمن هذا نلمس ضرورة التهوية الكاملة. إنّ السُكنى في غرفٍ ضيّقةٍ محتبسةِ الهواء حيث يكون الهواء ميّتاً وفاسداً لمّما يُضعف

الجهازَ كلَّه، ويصير سريع التعرّضِ لتأثير البرد بكيفيّة خاصّة. فأقلُّ تعرّضٍ للبرد يسبب المرض. إنّ الاحتباس في داخل الغرف الضيّقة هو الذي جعل كثيراتٍ من النساء شاحباتِ الوجوه وواهناتِ القوى. إنّهن يتنفّسن الهواء ذاتَه مراراً عديدة حتى يُمسى محمّلاً بغازاتٍ سامّة تخرج من الرئتين والمسام، وهكذا تنتقل الأوساخُ راجعةً إلى الدمِ.

التهوية ونور الشمس

عند إقامة المباني سواء أكانت لأغراضٍ عامّة أو لتكون مساكنَ، ينبغي الحرص على توفير التهوية الجيّدة والقدرِ الوافر من نور الشمس. إنّ الكنائس والمدارس كثيراً ما تُرى فيها عيوب في هذا الأمر. إنّ إهمال التهوية الكافية هو السبب في النعاس والخمول اللذين يبطلان تأثيرَ كثيرٍ من العظات ويجعلان عملَ المدرّسِ شاقّاً وعديمَ التأثير.

فبقدر الإمكان ينبغي أن تكون كلُّ المباني المعدّة لسُكنى الناس على أرض مرتفعة لا مكانُ لتجمّع المياه حولها. هذا يضمن موقعاً جافّاً ويمنع خطر المرض الناشيء من الرطوبة والعفونة. هذا الأمر كثيراً ما يُستخفّ به. فاعتلال الصحّة الطويل الأمد والأمراض الخطيرة وكثيرٌ من الميتات تنتجُ من الرطوبة والملاريا المتوطّنة في الأماكن المنخفضة والرديئة من حيث تصريف المياه.

وفي بناء البيوت، فمن الأمور الهامّة بكيفيّة خاصّة، ضمان التهوية الكافية ووجودُ قدرٍ كبير من نور الشمس. ليكن هناك تيّارٌ هوائي، وفيضٌ من النور في كلِّ غرفة في البيت. ويجب تنظيمَ غرفِ النوم بحيث ينطلق فيها تيّارٌ من الهواء ليلاً ونهاراً بكلِّ حريّة. لا توجد غرفة تصلحُ لأن تكون غرفةَ نومٍ ما لم يمكن فتحُها يوميّاً للهواء ودخول نور الشمس. وفي معظم البلدان تحتاج غرفُ النوم لمدّها بوسائل الراحة وتسخينها حتى يمكن تدفئتُها وتجفيفها جيّداً في الطقس البارد أو الرطب.

وينبغي أن تنال غرفةُ الضيوف من العناية قدرَ ما يُعطى للغرف التي تُستعمل باستمرار. فكغيرها من الغرف ينبغي أن يدخلها الهواءُ ونورُ الشمس، ويجب تزويدُها ببعض وسائل

التدفئة لأجل تجفيف الرطوبة التي تتجمّع دائما في أيّة غرفة لا تُستعمل باستمرار. فأيّ إنسانٍ ينام في غرفة محرومة من نور الشمس أو ينام في سريرٍ لم يجفف ويُهوّى جيّداً إنّما يفعل هذا مخاطراً بصحّته وحتى بحياته.

وفي البناء، كثيرون يحسبون حسابَ أغراسهم وزهورهم، ويعدّون لها العدّة. فالشرفة أو النافذة المخصصة لوضعها تكون دافئةً وتغمرها الشمس، لأنّه بدون الدفءِ والهواءِ ونورِ الشمس لن تعيش الأغراسُ ولن تزدهر. فإذا كانت هذه الشروط لازمةً لحياة النباتات فكم بالأحرى تكون لازمةً لأجل صحّتنا وصحّة عائلاتنا وضيوفنا!

إذا أردنا أن تكون بيوتُنا مواطنَ الصحّة والسعادة فيجب أن نجعلَها فوقَ مستوى عفونةِ وضبابِ الأراضي المنخفضة، ونُعطي المجالَ لدخول وسائل السماء المانحة الحياة بكلِّ حرّية. يجب أن نستغني عن الستائر الثقيلة ونفتح النوافذَ ودرفَ الشبابيك، وألاّ نسمح لأشجار الكرمة مهما تكن جميلة أن تلقي ظلّها على النوافذ، وألاّ نسمحَ للأشجار أن تنمو بجوار البيوت بحيث تحجب عنها نورَ الشمس. قد يمكن أنّ نور الشمس يجعل لون الأثاثات والأبسطة يبهت ويذهب بلون إطارات الصور، ولكنّه يجعل خدود الأطفال تتألّق بالصحّة.

إنّ من عليهم أن يعولوا الناس المتقدّمين في العمر يجب أن يذكروا أنّ هؤلاء هم في أشدّ الحاجة إلى غرفٍ دافئةٍ ومريحة. فإذ تتقدّم بهم الأيّام يقلّ نشاطهم وتقلّ حيويّتهُم لمقاومة المؤثّرات المُضعفة للصحّة، ومن هنا نشأت الحاجةُ العظمى لأن تكون للمتقدّمين في الأيّام كميّة كبيرة من نور الشمس والهواء المتجدد النقيّ.

النظافة

إنّ التدقيق في النظافة أمرٌ جوهري للصحّة الجسديّة والعقليّة كلتيهما. فالأوساخ تُطرد باستمرار من الجسم عن طريق الجلد. ومسامُ الجلد التي تُحصى بالملايين تنسدّ

سريعاً ما لم تُحفظ نظيفةً بالاستحمام مراراً كثيرة. والأوساخ التي يجب أن تخرج عن طريق الجلد تُمسى ثقلاً على الأعضاء الأخرى المفرزة.

إنّ كثيرين من الناس يستفيدون من الحمّام البارد أو الفاتر كلّ يوم صباحاً أو مساءً. فالاستحمام بكيفيّة لائقة بدلاً من كونه يزيد من إمكانية التعرّض للبرد فهو يحصّن الجسم من البرد لأنّه يحسّن حالة الدورة الدمويّة. والدمُ يؤتى به إلى السطح أو ظاهر الجلد وينتج عن ذلك أنّ الدمَ يجري بكيفيّة أسهل وأكثر انتظاماً، والعقل والجسم ينشطان كلاهما وينتعشان، والعضلات تصبح أكثرَ مرونة، والعقل يصير أكثرَ ذكاءً وفطنةً، والحمّام يهدّيء الأعصاب. كما أنّ الاستحمامَ يساعد الأمعاءَ والمعدةَ والكبَد، معطياً صحّةً وقوةً ونشاطاً لكلٍّ منها، ويحسّن حالة الهضم.

ومن المهمّ أيضاً أن تُحفظ الملابس نظيفة. فالثياب التي تُلبس تمتص الأوساخ التي تنفذ من المسام، فإن لم تُغيّر مراراً فالأوساخُ تُمتَص من جديد.

إنّ كلَّ أشكال القذارة مآلها إلى المرض. فالجراثيم التي تحمل الموت تتراكم وتكثر في الأركان المُظلمة المُهمَلة وفي الفضلات المتعفّنة وفي الرطوبة والعفونة. ينبغي ألاّ يُسمحَ ببقاء فضالات الخضر أو أكوام أوراق الأشجار الساقطة بالقرب من البيت لتفسد الهواء وتسممه. ينبغي ألاّ يُسمح ببقاء أيّ شيءٍ قذرٍ أو متعفّنٍ في داخل البيت. في المدن الصغيرة أو الكبيرة المعتبرة صحّية تماماً، كثيراً ما يتسبب وباءُ الحمّى عن المواد المتعفّنة حول مسكن ربّة بيت عديمة الاكتراث.

إنّ النظافة التامّة وقدراً كبيراً من نور الشمس والانتباهَ الحريص إلى المحافظة على الصحّة في كلّ شؤون البيت الصغيرة، هي جوهريّة للتخلّص من المرض وجلب البهجة والنشاط لسكّان البيت.

٢ قوانين الصحة بين العبرانيين

في التعليم الذي أعطاه الله للعبرانيين أُعطيَ لحفظ الصحّة ووقايتها انتباهُ حريص. فجماهير الشعب الذين كانوا قد أتوا من العبودية بالعادات غير النظيفة وغير الصحّية التي أحدثتها العبوديّة أُخضِعوا لأدقّ التدريبات في البريّة قبل الدخول إلى كنعان. فتعلّموا مبادئَ الصحّة وفُرضت عليهم قوانين صحّية.

منع المرض

لقد لوحظ التمييز بين الطاهر والنجس ليس فقط في خدمتهم الدينيّة بل في كلّ شؤون الحياة اليوميّة. فكلّ من لامسوا الأمراضَ المعديةَ أو المنجّسةَ كانوا يُعزلون خارج المحلّة، ولم يكن يُسمح لهم بالعودة إلاّ بعد أن تتطهر أجسامُهم وثيابُهم تطهيراً كاملاً ودقيقاً. وإذا وُجِدّ إنسانٌ مصاباً بمرض معدٍ كانت تُعطى هذه التعليمات:

«كلَّ فراش يضطجع عليه .. يكون نجساً وكلُّ متاع يجلس عليه يكون نجساً. ومن مسّ فراشه يغسل ثيابه ويستحمّ بماءٍ ويكون نجساً إلى المساء. ومن جلس على المتاع الذي يجلس عليه .. يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجساً إلى المساء. ومن مسّ (جسده) .. يغسل ثيابَه ويستحمّ بماء ويكون نجساً إلى المساء .. وكلُّ من مسّ كلّ ما كان تحته يكون نجساً إلى المساء ومن حَمَلهن يغسل ثيابَه ويستحمّ بماء ويكون نجساً إلى المساء. وكل من مسه (المريض) ولم يغسل يديه بماء يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجساً إلى

المساء. وإناءُ الخزف الذي يمّسه .. يكسر وكلّ إناء خشب يُغسل بماء» (لاويين١٥: ٤-١٢).

إنّ الشريعةَ الخاصّةَ بالبرص هي أيضاً مثال للدقّة التي كان يجب أن تُنفّذَ بموجبها هذه الوصايا.

«كلُّ الأيام التي تكون الضربة فيه (الأبرص) يكون نجساً. إنّه نجس. يقيم وحده. خارج المحلّة يكون مقامُه. وأمّا الثوب فإذا كان فيه ضربة برصٍ ثوبِ صوفٍ أو ثوبِ كتّانٍ، في السدى أو اللحمة من الصوف أو الكتان أو في جلد أو في كلّ مصنوع من جلد .. فيرى الكاهن الضربة .. إذا كانت الضربة قد امتدّت في الثوب في السدى أو اللحمة أو في الجلد من كلّ ما يُصنع من جلد للعمل فالضربةُ برصٌ مفسدٌ، إنّها نجسة. فيُحرق الثوب أو السدى أو اللحمة من الصوف أو الكتّان أو متاع الجلد الذي كانت فيه الضربة لأنّها برصٌ مفسد. بالنار يحرق» (لاويين ١٣: ٤٦-٥٢).

وكذلك أيضاً عندما يتبرهن من ظواهر أيّ بيت أنّه لا أمان لمن يسكنه كان يُهدم. كان على الكاهن أن «يهدم البيت حجارتَه وأخشابَه وكلّ تراب البيت ويخرجها إلى خارج المدينة إلى مكان نجس. ومن دخل إلى البيت في كلّ أيّام انغلاقه يكون نجساً إلى المساء. ومن نام في البيت يغسل ثيابَه ومن أكل في البيت يغسلُ ثيابَه» (لاويين١٤: ٤٥-٤٧).

النقاوة

وقد تعلّم الشعب ضرورةَ النظافة الشخصيّة ولزومها بكيفيّة مؤثّرة جدّاً. فقبل حشد الشعب في جبل سيناء ليستمعوا لإعلان الشريعة بصوت الله طُلب منهم أن يغتسلوا ويغسلوا ثيابهم. هذه الوصيّة فرضت عليهم على أن يُقضى بالموت على من يعصونها. ولم يكن يُسمح بأيّة نجاسة لتكون في محضر الله.

وفي أثناء التغرّب في البريّة كان العبرانيون يعيشون في الهواء الطلق أغلب الوقت، حيث كانت النجاسات أقلّ تأثيراً مما لو عاشوا في بيوت مغلقة. ولكن كان يُطلب منهم التدقيق الشديد إلى أقصى حدّ في مراعاة النقاوة في داخل خيامهم وخارجها. ولم يكن يُسمح ببقاء أقلّ الأقذار أو الفضلات في داخل المحلة أو حولها. وقد قال الرب: « لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَكَ سَائِرٌ فِي وَسَطِ مَحَلَّتِكَ لِكَيْ يُنْقِذَكَ وَيَدْفَعَ أَعْدَاءَكَ أَمَامَكَ. فَلْتَكُنْ مَحَلَّتُكَ مُقَدَّسَةً » (تثنية ٢٣ : ١٤).

الغذاء

وقد صار تمييز بين الطاهر والنجس في كلّ مواد الغذاء:

«أنا الرب إلهكم الذي ميّزكم من الشعوب. فتميّزون بين البهائم الطاهرة والنجسة وبين الطيور النجسة والطاهرة. فلا تدنّسوا نفوسكم بالبهائم والطيور ولا بكلّ ما يدبّ على الأرض مما ميّزته لكم ليكون نجساً» (لاويين٢٠: ٢٤و٢٥).

فكثير من ألوان الطعام التي كان يأكلها الوثنيّون حولهم بكلّ حريّة كانت محرّمة على العبرانيين. ولم يكن ذلك التمييز الذي وُضِعَ أمراً تعسّفياً، فالأشياء التي حُرّمت كانت ضارة. وإنّ حقيقة الحكم على تلك الأطعمة بأنّها نجسة علّمتهم أنّ استعمال المأكولات الضارّة منجّس. فكلّ ما يفسد الجسم يؤدي إلى إفساد النفس. وهذا يجعل من يتعاطاها غيرَ أهلٍ للشركة مع الله وغيرَ أهلٍ للخدمة السامية المقدّسة.

الميزات والقوانين

وفي أرض الموعد ظلّ التدريب الذي بُديء به في البريّة، معمولاً به في ظروف مواتية ومساعدة لتكوين عادات صالحة. فالناس لم يزدحموا معاً في المدن بل كانت لكلّ أسرة أرضُها الزراعيّة ضماناً لكلّ البركات المانحة الصحّة في الحياة الطبيعيّة غير المفسدة أو المنحرفة.

أمّا بالنسبة إلى ممارسات الكنعانيين القاسية الخليعة، أولئك الذين قد طردهم العبرانيون قديماً فقد قال الرب:

«ولا تسلكون في رسوم الشعوب الذين أنا طاردهم من أمامكم لأنّهم قد فعلوا كلّ هذه فكرهتهم» (لاويين٢٠: ٢٣). «ولا تُدخل رجساً إلى بيتك لئلا تكون محرّماً مثله» (تثنية ٢٦:٧).

في كلّ شؤون حياتهم اليوميّة تعلّم العبرانيون الدرس الذي قدّمه الروح.

«أَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ هَيْكَلُ اللهِ وَرُوحُ اللهِ يَسْكُنُ فِيكُمْ إِنْ كَانَ أَحَدٌ يُفْسِدُ هَيْكَلَ اللهِ فَسَيُفْسِدُهُ اللهُ لأَنَّ هَيْكَلَ اللهِ مُقَدَّسٌ الَّذِي أَنْتُمْ هُوَ» (١ كورنثوس ٣: ١٦ و١٧).

الفرح

«الْقَلْبُ الْفَرْحَانُ يُطَيِّبُ الْجِسْمَ» (أمثال ١٧: ٢٢). فالشكر والفرح وعمل الخير والثقة بمحبّة الله ورعايته – هذه هي أعظم حافظ لصحّة الإنسان. وكانت هذه الأشياء بالنسبة إلى العبرانيين نفسَ مفتاحِ الحياة.

وإذ كانوا يسافرون ثلاث مرّات في السنة لإحياء أعيادهم في أورشليم، أو يقيمون في مظالّ لمدّة أسبوع في أثناء عيد المظالّ، كانت هذه فرصاً فيها استمتعوا بالراحة والترفيه في الخلاء وبالحياة الاجتماعيّة. وكانت هذه الأعياد فرصاً سانحةً للفرح الذي زاد من حلاوته الترحيبُ الكريم بالغريب واللاوي والفقير.

«وتفرح بجميع الخير الذي أعطاه الرب إلهك لك ولبيتك أنت واللاوي والغريب الذي في وسطك» (تثنية٢٦: ١١).

وهكذا وبعد مرور سنين عديدة، عندما قُرئت الشريعة في أورشليم في مسامع المسبيين الراجعين من بابل وبكى الشعب حزناً على عصيانهم، جاءتهم هذه الرسالة الرحيمة:

« لا تنوحوا... اذهبوا كلوا السمين واشربوا الحلو وأبقوا أنصبة لمن لم يُعد له. لأنّ اليوم إنّما هو مقدس لسيدنا وَلاَ تَحْزَنُوا لأنّ فَرَحَ الرَّبِّ هُوَ قُوَّتُكُمْ » (نحميا٨: ٩و١٠).

وقد نُشر وأذيع «في كلّ مدنهم وفي أورشليم قائلين اخرجوا إلى الجبل وأتوا بأغصان زيتون وأغصان زيتون برّي وأغصان آس وأغصان نخل وأغصان أشجار غبياء لعمل مظالٍّ كما هو مكتوب. فخرج الشعب وجلبوا وعملوا لأنفسهم مظالّ كلّ واحد على سطحه وفي دورهم ودور بيت الله وفي ساحة باب الماء وفي ساحة باب أفرايم. وعمل كلّ الجماعة الراجعين من السبي مظال وسكنوا في المظالّ .. وكان فرح عظيم جداً» (نحميا٨: ١٥).

نتائج إطاعة شريعة الله

لقد أعطى الله للعبرانيين كل المباديء الجوهرّية لأجل صحّتهم البدنيّة والأدبيّة. وبالنسبة إلى هذه المباديء كما بالنسبة إلى المباديء الخاصّة بالناموس الأدبي أمرهم قائلاً:

« وَلْتَكُنْ هذِهِ الْكَلِمَاتُ الَّتِي أَنَا أُوصِيكَ بِهَا الْيَوْمَ عَلَى قَلْبِكَ وَقُصَّهَا عَلَى أَوْلاَدِكَ وَتَكَلَّمْ بِهَا حِينَ تَجْلِسُ فِي بَيْتِكَ وَحِينَ تَمْشِي فِي الطَّرِيقِ وَحِينَ تَنَامُ وَحِينَ تَقُومُ وَارْبُطْهَا عَلاَمَةً عَلَى يَدِكَ وَلْتَكُنْ عَصَائِبَ بَيْنَ عَيْنَيْكَ وَاكْتُبْهَا عَلَى قَوَائِمِ أَبْوَابِ بَيْتِكَ وَعَلَى أَبْوَابِكَ » (تثنية ٦: ٦-٩).

«إِذَا سَأَلَكَ ابْنُكَ غَداً قَائِلاً. مَا هِيَ الشَّهَادَاتُ وَالْفَرَائِضُ وَالأَحْكَامُ الَّتِي أَوْصَاكُمْ بِهَا الرَّبُّ إِلهُنَا. تقول لابنك .. فَأَمَرَنَا الرَّبُّ أَنْ نَعْمَلَ جَمِيعَ هذِهِ الْفَرَائِضَ وَنَتَّقِيَ الرَّبَّ إِلهَنَا لِيَكُونَ لَنَا خَيْرٌ كُلَّ الأَيَّامِ وَيَسْتَبْقِيَنَا كَمَا فِي هذَا الْيَوْمِ» (تثنية٦: ٢٠-٢٤).

فلو أطاع العبرانيون الوصايا المسلّمة إليهم واستفادوا من امتيازاتهم لكانوا نموذجاً للعالم في الصحّة والنجاح. ولو عاشوا طبقاً لتدبير الله كأمّة لكانوا قد حُفِظوا من الأمراض

التي أصيبت بها الأمم الأخرى. وكانوا قد حصلوا على صحّة الجسم ونشاط العقل والذكاء أكثر من أيّ شعب آخر. ولأمكنهم أن يكونوا أعظمَ وأقوى أمّةٍ على الأرض. فقد قال الله:

«مُبَارَكًا تَكُونُ فَوْقَ جَمِيعُ الشعُوب» (تثنية٧: ١٤).

«وواعدك الرب اليوم أن تكون له شعباً خاصّاً كما قال لك وتحفظ جميع وصاياه وأن يجعلك مستعلياً عَلَى جَمِيعِ الْقَبَائِلِ الَّتِي عَمِلَهَا فِي الثَّنَاءِ وَالاسْمِ وَالْبَهَاءِ وأن تكون شعباً مقدساً للرب إلهك كما قال» (تثنية٢٦: ١٨و١٩).

بركـات الله

« وَتَأْتِي عَلَيْكَ جَمِيعُ هذِهِ الْبَرَكَاتِ وَتُدْرِكُكَ إِذَا سَمِعْتَ لِصَوْتِ الرَّبِّ إِلهِكَ. مُبَارَكاً تَكُونُ فِي الْمَدِينَةِ وَمُبَارَكًا تَكُونُ فِي الْحَقْلِ وَمُبَارَكة تَكُوْنُ ثَمَرَةُ بَطْنِكَ وَثَمَرَةُ أَرْضِكَ وَثَمَرَةُ بَهَائِمِكَ نِتَاجُ بَقَرُكَ وَإِنَاثُ غَنَمُكَ. مُبَارَكَةً تَكُونُ سَلَّتُكَ وَمِعْجَنُكَ. مُبَارَكًا تَكُونُ فِي دُخُولِكَ ، وَمُبَارَكًا تَكُونُ فِي خُرُوجِكَ » (تثنية ٢٨: ٢-٦).

«يَأْمُرُ لَكَ الرَّبُّ بِالْبَرَكَةِ فِي خَزَائِنِكَ وَفِي كُلِّ مَا تَمْتَدُّ إِلَيْهِ يَدُكَ ويبارك في الأرض التي يعطيك الرب إلهك. ويقيمك الرب لنفسه شعباً مقدّساً كما حلف لك إذا حفظت وصايا الرب إلهك وسلكت في طرقه. فَيَرَى جَمِيعُ شُعُوبِ الأَرْضِ أَنَّ اسْمَ الرَّبِّ قَدْ سُمِّيَ عليك ويخافون منك. ويزيدك الرب خيراً في ثمرة بطنك وثمرة بهائمك وثمرة أرضك على الأرض التي حلف الرب لآبائك أن يعطيك. يفتح لك الربُّ كنزَه الصالح السماء ليعطي مطرَ أرضك في حينه وليبارك كلّ عمل يدك فتقرض أمما كثيرة وأنت لا تقترض. ويجعلك الرب رأساً لا ذنباً وتكون في الارتفاع فقط ولا تكون في الانحطاط إِذَا سَمِعْتَ لوصايا الرب إلهك الَّتِي أَنَا أُوصِيكَ بِهَا الْيَوْمَ لْتُحْفَظْ وَتَعْمَلُ» (تثنية٢٨: ٨-١٣).

وقد صدر الأمر إلى هارون رئيس الكهنة وبنيه يقول: «هكذا تباركون بني إسرائيل قائلين لهم يباركك الرب ويحرسك. يضيء الرب بوجهه عليك ويرحمك. يرفع الرب وجهه عليك ويمنحك سلاماً. فيجعلون اسمي على بني إسرائيل وأنا أباركهم» (عدد٦: ٢٣و٢٤-٢٧).

« كَأَيَّامِكَ رَاحَتُكَ. لَيْسَ مِثْلَ اللهِ يَا يَشُورُونُ. يَرْكَبُ السَّمَاءَ فِي مَعُونَتِكَ وَالْغَمَامَ فِي عَظَمَتِهِ. الإِلهُ الْقَدِيمُ مَلْجَأٌ وَالأَذْرُعُ الأَبَدِيَّةُ مِنْ تَحْتُ .. يَسْكُنَ إِسْرَائِيلُ آمِنًا وَحْدَهُ. تَكُونُ عَيْنُ يَعْقُوبَ إِلَى أَرْضِ حِنْطَةٍ وَخَمْرٍ وَسَمَاؤُهُ تَقْطُرُ نَدًى. طُوبَاكَ يَا إِسْرَائِيلُ. مَنْ مِثْلُكَ يَا شَعْبًا مَنْصُورًا بِالرَّبِّ تُرْسِ عَوْنِكَ وَسَيْفِ عَظَمَتِكَ» (تثنية ٣٣ : ٢٦-٢٩).

لقد قصَّر العبرانيون في إتمام قصد الله وهكذا فشلوا في الحصول على البركات التي كان يمكن أن تكون لهم. ولكن لنا في يوسف ودانيال وموسى وإليشع وغيرهم كثير، أمثلة رائعة ونبيلة للنتائج التي تعقب الخطة الأمينة للمعيشة. ونفس هذه الأمانة في أيامنا هذه ستكون لها نفس هذه النتائج. فالرسول يقول لنا:

« وَأَمَّا أَنْتُمْ فَجِنْسٌ مُخْتَارٌ وَكَهَنُوتٌ مُلُوكِيٌّ أُمَّةٌ مُقَدَّسَةٌ شَعْبُ اقْتِنَاءٍ لِكَيْ تُخْبِرُوا بِفَضَائِلِ الَّذِي دَعَاكُمْ مِنَ الظُّلْمَةِ إِلَى نُورِهِ الْعَجِيبِ » (١ بطرس ٢:٩).

«مُبَارَكٌ الرَّجُلُ الَّذِي يَتَّكِلُ عَلَى الرَّبِّ وَكَانَ الرَّبُّ مُتَّكَلَهُ». «كَالنَخلَةَ يَزهُو كَالأَرْزِ فِي لُبْنَانَ يَنْمُو » «مغروسين في بيت الرب في ديار إلهنا يزهرون. أيضاً يثمرون في الشيبة. كونوا دساماً وخضراً» (إرميا٧: ١٧؛ مزمور ٩٢:١٢-١٤).

«لِيَحْفَظْ قَلْبُكَ وَصَايَايَ . فَإِنَّهَا تَزِيدُكَ طُولَ أَيَّامٍ ، وَسِنِي حَيَاةٍ وَسَلاَمَةً .. حينئذ تسلك في طريقك آمنا ولا تعثر رجلك. إذا اضطجعت فلا تخاف بل تضطجع ويلذ نومك. لا تخش من خوف باغت ولا من خراب الأشرار إذا جاء. لأن الرب يكون معتمدك ويصون رجلك من أن تؤخذ» (أمثال ٣:١و٢و٢٣-٢٦).

٣ اللبس والصحة

إنّ الكتاب المقدس يعلّمنا أن نكون محتشمين في لبسنا «وَكَذلِكَ أَنَّ النِّسَاءَ يُزَيِّنَّ ذَوَاتِهِنَّ بِلِبَاسِ الْحِشْمَةِ» (١ تيموثاوس٢: ٩). وهو بهذا ينهى عن التظاهر والتفاخر باللبس والألوان الكثيرة الزخرفة والإسراف في التزين بما يجتذب الأنظار. فكلّ تدبير يرمي إلى هذه الغاية ويُقصد به إثارة الإعجاب فهو لا يمتّ بصلة إلى اللبس المحتشم الذي توصي به كلمة الله.

فملابسنا ينبغي ألاّ تكون باهظة التكاليف. فلا تكون بـ«ذَهَبٍ أَوْ لآلِئَ أَوْ مَلاَبِسَ كَثِيرَةِ الثَّمَنِ» (١ تيموثاوس ٢: ٩).

إنّ المال هو وديعة وضعها الله بين أيدينا. فليس لنا أن ننفقه على إرضاء كبريائنا أو طموحنا. فالمال في أيدي أولاد الله هو طعام للجياع وكساء للعراة. وهو حصن للمظلومين ووسيلة الصحّة للمرضى وسبيل الكرازة بالإنجيل للفقراء. فيمكنك أن تجلب السعادة لقلوبٍ كثيرةٍ بكونك تحسن استخدام الموارد التي تُنفق الآن في التظاهر. تأمّلوا في حياة المسيح. ادرسوا أخلاقَه وصفاتِه وشاركوه في إنكار الذات.

في العالم الذي يعترف بالمسيح يُنفَق قدر كبير من المال على الجواهر والملابس الغالية التي لا حاجة إليها، وكان هذا يكفي لإشباع كلّ الجياع وكساء كلّ العراة. فمراعاة الزيّ والتفاخر تبتلع الأموال التي كان يمكن أن تكون سبباً في تعزية الفقراء وإسعاد المتألّمين. إنّهم بهذا يسلبون العالم إنجيل محبّة المخلّص. إنّ المرسليات تضعف وتنكمش. وجماهير كثيرة من الناس يهلكون لعدم وجود التعليم المسيحي. فحول بيوتنا وفي البلدان الأجنبيّة لا يتعلّم الوثنيّون ولا يخلُصون. ففي حين قد أغدق الله على

الأرض بركاتِه وعطاياه وملأ خزائنَها بمسرّات الحياة، وفي حين أنّه قد أنعم علينا بكلّ سخاء بالمعرفة الخلاصيّة لحقّه مجّاناً، فأيّ عذر يمكننا أن نقدّمه عن تصرّفنا الذي بسببه تصعد إلى السماء صرخاتُ الأرملة واليتيم والمريض والمتألّم والجاهل وغير المخلَّص؟ وفي يوم الله عندما نقف وجهاً لوجه أمام ذاك الذي قد بذل نفسَه لأجل هؤلاء المحتاجين فأيّ عذر يمكن أن يقدّمه من ينفقون أوقاتِهم وأموالَهم على التمتّعات والملذّات التي قد حرّمها الله؟ أفلا يقول المسيح لمثل هؤلاء: «جعت فلم تطعموني. عطشت فلم تسقوني .. كنت .. عرياناً فلم تكسوني. مريضاً ومحبوساً فلم تزوروني»؟ (متى ٢٥:٤٢و٤٣).

ولكنّ ملابسنا في حين تكون محتشمةً وبسيطةً ينبغي أن تكون من الصنف الجيّد وذات ألوان مناسبة ولائقة وأن تكون مناسبة ونافعة للخدمة. ويجب أن تُختار لا للتظاهر بل لأجل متانتها. ويجب أن تكفل لنا الدفءَ والحماية اللائقة. إنّ المرأة الحكيمة الفاضلة التي ورد ذكرها في سفر الأمثال: «لا تخشى على بيتها مِنَ الثَّلْجِ لأنّ كلّ أهل بيتها لابسون حللاً» (أمثال ٣١:٢١).

وينبغي أن تكون ملابسنا نظيفة. فاتساخ الملابس يضرّ بالصحّة وهو مدنّس للجسم والنفس «أَنَّكُمْ هَيْكَلُ اللهِ .. إِنْ كَانَ أَحَدٌ يُفْسِدُ هَيْكَلَ اللهِ فَسَيُفْسِدُهُ اللهُ» (١ كورنثوس٣: ١٦و١٧).

ويجب أن تكون الملابس صحّية من كلّ الوجوه. إنّ الله يروم في كلّ شيء أن يكون كلّ واحد منا «صحيحاً» – صحيحاً جسداً ونفساً. فعلينا أن نكون عاملين معه لتحقيق صحّة النفس والبدن. فكلاهما يستفيدان وينجحان بواسطة الملابس الصحّية.

وينبغي أن تتوفّر في الملابس الكياسة والجمال واللياقة التي تتطلّبها البساطة الطبيعيّة. لقد حذّرنا المسيح من تعظّم المعيشة، ولكنّه لم يحذرنا من الكياسة والجمال الطبيعيين، وقد وجّه انتباهَنا إلى زنابق الحقل وإلى السوسنةِ المتفتّحة في نقاوتها

فقال: «إِنَّهُ وَلاَ سُلَيْمَانُ فِي كُلِّ مَجْدِهِ كَانَ يَلْبَسُ كَوَاحِدَةٍ مِنْهَا » (متى ٦:٢٩). وهكذا يمثّل المسيح الجمال الذي تقدّره السماء وتمتدحه، كالأناقة المحتشمة والبساطة والطهارة واللياقة التي تجعل ملابسَنا مرضيّة أمام الله – يُمثَّل كلّ هذا بالأشياء التي تُرى في الطبيعة.

إنّه يأمرنا أن نتسربل بأجمل الملابس لنكسو نفوسَنا. ولا توجد زينة خارجيّة تعادل في قيمتها أو جمالها «الرُّوحِ الْوَدِيعِ الْهَادِيءِ الَّذِي هُوَ قُدَّامَ اللهِ كَثِيرُ الثَّمَنِ» (١ بطرس ٣: ٤).

وما أثمن كلمات الوعد التي نطق بها لمن يجعلون مباديء المخلّص مرشداً لهم ونبراساً إذ يقول: «ولماذا تهتمّون باللباس .. فإن كان عشب الحقل الذي يوجد اليوم ويطرح غداً في التنور يلبسه الله هكذا أفليس بالحري جدّاً يلبسكم أنتم .. فلا تهتمّوا قائلين .. ماذا نلبس .. لأنّ أباكم السماوي يعلم أنّكم تحتاجون إلى هذه كلّها. لكن اطْلُبُوا أَوَّلاً مَلَكُوتَ اللهِ وَبِرَّهُ ، وَهذِهِ كُلُّهَا تُزَادُ لَكُمْ» (متى٦: ٢٨ و ٣٠-٣٣).

تحكُّم الزيّ (الموضة)

«ذُو الرَّأْيِ الْمُمَكَّنِ تَحْفَظُهُ سَالِمًا سَالِمًا لأَنَّهُ عَلَيْكَ مُتَوَكِّلٌ » (إشعياء ٢٦:٣).

ما أبعد الفرق بين هذا من جهة، والتعب وعدم الراحة والمرض والتعاسة التي تنجم عن حكم الموضة وتحكّمها من جهة أخرى. وكم هي مناقضة للمباديء المقدّمة في كلمة الله، تلك الأزياء والأنماط الكثيرة للملابس، التي تفرضها الموضة! فكّروا في الأزياء التي انتشرت مدى مئات السنين القليلة التي مضت أو حتى مدي عشرات السنين الماضية. وكم منها عندما لا تكون متمشّية مع الموضة يحكم بأنّها غير محتشمة، وكم منها يمكن أن يحكم عليها بأنّها غير لائقة لأيّة سيّدة مهذّبة محترمة تتّقي الله.

إنّ إحداث تغييرات في الملابس تمشّياً مع الموضة فقط هو أمرٌ لا تُقرّه كلمة الله، وإنّ تغيير الأزياء واقتناء الحليّ الغالية، فيه تبذيرٌ وبعثرة لوقت الأغنياء وأموالهم وإتلافٌ لقوى العقل والنفس. وهذا يفرض عبئاً ثقيلاً مُبهظاً للطبقات المتوسّطة والفقيرة. وكثيرون ممن لا يمكنهم كسب رزقهم إلاّ بشقّ النفس والذين لو اكتفوا بالأزياء البسيطة لاستطاعوا هم أن يصنعوا ملابسهم – هؤلاء يلتزمون بأن يلجأوا إلى مصممة الأزياء أو الخيّاط تمشّياً مع الموضة. وقد حدث كثيراً أنّ فتاةً فقيرةً أهملت ملابسها الداخليّة الدافئة لكي تحصل على ثوب على آخر طراز، فنالت قصاصها إذ دفعت حياتها ثمنا لذلك. كما حدث كثيراً أيضاً أنّ فتياتٍ أخرياتٍ إذ كنّ يشتهين المظاهر والأناقة التي يمتاز بها الأغنياء أُغوين على انتهاج سبيل الخيانة والعار. وكثيراً ما يُحرَم البيتُ من أسباب الراحة والتمتع، وكثيراً ما يركب إنسانٌ متنَ الشططِ فيلجأ إلى الاختلاس أو يُشهر إفلاسَه لكي يسدّد المطالب المُبهظة لزوجته أو أولاده.

وكثيراً ما يحدث أيضاً أنّ امرأةَ لاضطرارها لأن تعدّ لنفسها أو لأولادها ملابس وجيهة على آخر طراز كما تتطلّب الموضة يُحكم عليها بالشقاء الدائم. وكثيراً ما يحدث أنّ أمّاً تكد وتشتغل بأعصابها المتوتّرة وأصابعها المرتعشة شطراً طويلاً من الليل لكي تضيف إلى زخارف ثياب أولادها والتي لا تفيدهم بشيء من ناحية الصحة أو الراحة أو الجمال الحقيقي. فلأجل الموضة هي تضحّي بصحّتها وبهدوء روحها، وكلاهما لازم وجوهريّ لتقدّمَ لأولادِها إرشاداً صائباً ورشيداً. إنّ ثقافةَ العقل والقلب تُهمل. والنفس تصغر وتتضاءل.

ولا وقت لدى الأمّ لدراسة مباديء النموّ الجسماني حتى تعرف كيف ترعى صحّة أولادها. ولا وقت لديها لخدمة حاجات عقولهم أو أرواحهم، ولا وقت لديها لتعطفَ عليهم في فشلهم وتجارِبهم أو لتقاسمَهم في مصالحهم ومساعيهم.

إنّ الأولاد ما يكادون يخرجون إلى العالم حتى يتعرّضوا لتأثير الموضة وقوّتها. إنّهم يسمعون عن اللبس أكثر مما يسمعون عن مخلّصهم. ويرون أمّهاتِهم يتصفّحن نماذجَ الأزياء بأكثر غيرة واجتهاد مما يتصفّحن الكتاب المقدّس. إنّ التباهي باللبس يُعتبر أعظم في أهميّته من نموّ الخُلق. فالوالدون والأولاد يُسلب منهم أفضلُ وأحلى وأصدقُ ما في الحياة. فلأجل الموضةُ يغرّر بهم حتى لا يتأهّبوا للحياة العتيدة.

الألبسة غير الصحيـة

إنّ عدّوَ كلِّ خيرٍ هو الذي أوعز إلى الناس بابتكار الأزياء الدائمة التغيّر. وجلُّ ما يبغيه هو أن يجلبَ على الله الحزنَ والعارَ بجلب الشقاء والدمار على بني الإنسان. ومن بين الوسائل التي يستخدمها لإتمام هذه الغاية بأفعلِ كيفيّة هي حِيَل الزيّ أو الموضة المُضعفة للجسم والتي توهن العقل وتحقّر النفس.

إنّ النساء معّرضاتٌ للأمراض والعلل الخطيرة. والذي يزيد من آلامِهنّ زيادة عظيمة هو طريقتُهنّ في اللبس. فبدلاً من الإحتفاظ بصحّتهنّ لوقت الطواريء الشاقّة التي هي لا ريبَ قادمة عليهنّ فإنّهنّ بعاداتهنّ الخاطئة كثيراً ما يضحّين ليس بالصحّة وحدها بل بالحياة أيضاً. فيتركن لأولادهِنّ إرثاً من الويل والحزن في مزاجهم وبنيتهم التالفة وعاداتِهم المُفسدَةِ المعكوسة وآرائهم الكاذبة عن الحياة.

ومن بين الحِيَل المُتلفة والمُضّرة، ذيلُ الفستان الذي يكنس الأرض. فهو قذرٌ وغيرُ مريح ومتعبٌ وغيرُ صحّي. كلّ هذا وكثيرٌ غيرُه يصدق على الذيلِ المُستلقي على الأرض خلف المرأة. هذا إسراف بسبب كميّة القماش الزائدة عن اللزوم التي يقتضيها هذا الأمر وبسبب التلف الذي لا داعي له نظراً لطوله. وكلّ من رأى امرأة تجرّ أذيالها خلفها ويداها محمّلتان بالطرود وهي تحاول صعود سلّم، أو النزول إلى أسفل، أو الدخول في سيارة أجرة، أو تشقّ لنفسها طريقاً بين جمع من الناس، أو تسير تحت الأمطار أو في طريق موحل، لا حاجة به إلى برهان آخر يثبت له المضايقةَ وعدمَ الراحة.

وهناك شرّ خطير آخر وهو لبس الأذيال بحيث يجب أن يستندُ ثقلُها على الأرداف. فهذا الحمل الثقيل الذي يضغط على أعضاء الجسم الباطنيّة يسحبها إلى الأسفل ويضعف المعدة ويخلق إحساساً بالإعياء. وهذا يجعل من تلبسُه تميل للانحناء فيقع الضغط على الرئتين، الأمر الذي يزيد من صعوبة التنفّس الصحيح.

في السنوات الأخيرة نوقشت المخاطرُ الناجمةُ عن الضغط والشدّ على الخِصرِ بإفاضةٍ وإسهابٍ بحيث قلّ أن يجهلَ أحدٌ هذا الأمر، ومع ذلك فإنّ سلطانَ الموضةِ عظيمٌ ومتحكّمٌ في الناس بحيث ما يزال الشرُّ باقياً. فبهذا التصرّف توقع النساءُ والفتياتُ بأنفسِهنّ أضراراً لا تُحصى. من الأمور الجوهريّة للصحّة أن يُعطى للصدر المجالُ الكافي ليتمدد إلى أبعد حدوده حتى تتمكّن الرئتان من التنفّس بكلّ حريّة. ولكن متى وقع ضغط على الرئتين فإنّ كميّة الأكسجين التي تستوعبانها تقلّ. والدمُ لا يحصل على حيويّة كافية، والمادّةُ المتبقيّةُ السامّةُ التي ينبغي التخلّص منها بواسطة الرئتين تُستبقى. زد على ذلك فإنّ الدورة الدمويّةَ تتعطّل والأعضاء الباطنيّة يقع عليها ضغط وتتراكم على بعضها وتكون في غير وضعها بحيث لا يمكنها أن تقومَ بعملها على الوجه الصحيح.

إنّ شدَّ الحقوين بالمناطق لا يُصلحُ هيئةَ الجسم. فمن بين العناصر الرئيسيّة لجمال الجسم التناسقُ والتناسبُ المتوافقُ المنسجمُ بين الأعضاء. والنموذج الصحيح للنموّ الجسماني لا يوجد في الصورِ الحديثةِ التي يعرضها مصممو الأزياء الفرنسيون، بل في الجسمِ البشري الذي حسب نواميس الله في الطبيعة. إنّ الله هو مبدعُ كلّ جمالٍ، وبنسبة ما نتمثّلُ بمثاله ونقيس أنفسَنا على مقياسه – بنسبة ذلك نصيرُ أقربَ إلى نموذج الجمال الحقيقي.

ومن بين المساوىء الناشئة عن العرف هو التوزيع غير العادل للملابس، ففي حين أنّ بعض أجزاء الجسم لديها أكثرُ مما يلزمها فالأجزاء الأخرى لا تجدُ من الكساء ما يكفيها. فالأقدام والأطراف لكونها بعيدة عن الأعضاء الحيويّة ينبغي وقايتها خصيصاً من البرد

بالكساء الكافي. فمن المستحيل على الإنسان أن يتمتّعَ بالصحّة طالما تكون الأطراف باردةً عادةً، لأنّه إذا كان الدمُ الذي يجري فيها قليلاً جدّاً فالدمُ الذي يجري في أعضاء أخرى من الجسم يكون أكثر مما يلزم. فالصحّة الكاملة تتطلّب دورةً دمويّةً كاملةً، ولكنّ هذا لا يمكن تحقيقه في حين أنّ ثلاثة أو أربعة أضعاف الملابس تكسو الجسم حيث توجد الأعضاء الحيويّة بينما الأرجل والأطراف لا تحصل على مثل تلك العناية.

إنّ سيّداتٍ كثيراتٍ عصبيّاتٍ وتضنيهنّ الهموم لأنهنّ يحرمن أنفسهنّ من الهواء النقيّ الذي ينقّي الدم، ومن حريّة الحركة التي كان يمكن أن تجعلَ الدمَ يجري في الأوردة بكلّ حريّة مانحاً الحياة والصحّة والنشاط. وسيداتٌ كثيراتٌ صارت أمراضهنّ مزمنةً وأسقامُهنّ متوطّنةً في حين كان في مقدورهنّ أن يتمتّعن بالصحّة. وكثيراتٌ غيرهنّ متن متأثّراتٍ بمرض السل وغيره من العلل في حين كان يمكنهن أن يعشن فترةَ العمر المعطاةَ لهنّ لو اتّبعنَ في لبسهنّ مباديء الصحّةِ وقمن بتمريناتٍ رياضيّةٍ في الهواء الطلق.

ولكي يحصل الإنسانُ على أفضلِ كساء صحّي ينبغي دراسة حاجةِ كلّ جزء من أجزاء الجسم بكلّ حرص وعناية. فحالة الطقس والبيئة والحالة الصحّية والسنّ والعمل ينبغي التأمّل فيها وإعطاؤها حقّهَا من الاعتبار. وينبغي أن تكون كلُّ قطعةٍ من الملابس مناسبةً بحيث تُلبس بسهولة فلا تعيق الدورةَ الدمويّةَ أو التنفّس الحرَّ الطبيعي الكامل. وكلّ ما يُلبس يجب أن يكون فضفاضاً بحيث متى رفع الإنسان يديه فالملابس ترتفع تبعاً لذلك.

إنّ النساء العليلاتِ يمكنهنّ أن يفعلن لأنفسهنّ الشيءَ الكثيرَ باللبس المعقول والتمرينات. فعندما يلبسن الملابس المناسبة للتنزّه في الخارج فليمارسن التمريناتِ في الهواء الطلق بحرصٍ وحذَرٍ في باديء الأمر، وبعد ذلك يُكثرن من التمرين بحسب

طاقتهنّ. وكثيرات منهن إذ يفعلن هذا تعود إليهنّ الصحّة ويعشن ليأخذنَ نصيبهنّ من عمل العالم.

الاستقلال عن الموضة

على السيّداتِ أنفسهنّ، بدلاً من الكفاح لإتمام مطالب الموضة، أن تكونَ لهنّ الشجاعةُ ليلبسن لبساً صحّياً وبسيطاً. فبدلاً من أن تنحدر الزوجةُ والأمُّ بحيث تصير مجرّدَ خادمةٍ في البيت، لتُعطِ نفسَها وقتاً للقراءة فتكون واسعةَ الاطلاع، ورفيقةً ومعينةً لرجلها وعلى اتصال بعقول أولادها النامية. ولتستخدم بحكمة، الفرصَ التي بين يديها الآن لتؤثّرَ على أعزّائها الصغار للوصول إلى الحياة الأسمى. ولتقضِ وقتاً فيه تجعل المخلّص العزيز رفيقَها وصديقَها في كلّ يوم. ولتصرفَ وقتاً في درس كلمته والذهاب مع صغارها إلى الحقول حيث يتعلّمون من الله عن طريق جمال أعماله.

ولتظلّ محتفظةً بمرحها وابتهاجها. فبدلاً من أن تنفق كلَّ لحظةٍ في الحياكة التي لا تنتهي عليها أن تجعل وقتَ المساء وقتا مُسرّاً، وقتَ إيناسٍ، وقتاً فيه تتحدُ الأسرةُ من جديدٍ بعد الانتهاء من واجبات اليوم. وبهذه الكيفيّة كثيراً ما يختار الرجال صحبةَ أهل بيوتهم ويفضّلون ذلك على الذهاب إلى الأندية أو الحانات. وكثيراً ما يحفظُ الصبيةَ من الوجود في الشوارع أو البقالات. وكثيراً ما تُحفظُ الفتياتُ من العشيراتِ المضلّلاتِ المستهتراتِ الطائشاتِ. فتأثير البيت يمكن أن يكون للوالدين والأولاد ما قصد الله أن يكون، بركةً تدوم مدى الحياة.

٤ الغذاء والصحة

إنّ أجسامنا تُبنى بالطعام الذي نأكله. يوجد هدم أو انهيار دائم لأنسجة الجسم، فكلّ حركة لأيّ عضو تشمل تلفاً. وهذا التلف يعوّض عنه بالطعام. وكلّ عضو في الجسم يحتاج إلى نصيبه من التغذية. فيجب أن يزوّدَ المخُ بنصيبه، وكذلك العظام والعضلات والأعصاب. والعملية التي تحوّل الطعام إلى دمٍ عملية عجيبة، وهي تستخدم هذا الدمَ في بناء أجزاء الجسم المختلفة، ولكنّ هذه العملية مستمرّة أبداً، وهي تمدّ كلّ الأعصاب والعضلات والأنسجة بالحياة والقوّة.

انتقاء الطعام

ينبغي أن نختار الأطعمة التي تتوافر فيها العناصر اللازمة لبناء الجسم بأفضل كيفيّة. وفي هذا الاختيار ليست القابليّة مرشداً سليماً. إنّ القابليّة (المذاق) قد فسدت وانحرفت بسبب العادات المغلوطة في الأكل. وهي في الغالب تطلب الطعام الذي يضعف الصحّة ويسبب الضعف بدلاً من القوّة. ولا يمكننا أن نأمن من الاسترشاد بعادات المجتمع. فالمرض والألم المتفشّيان في كلّ مكان منشأهما، بالأكثر، الأخطاء الشائعة من جهة الغذاء.

فحتى نعرف ما هي أفضلُ الأطعمةِ علينا أن ندرس تدبير الله أصلاً لأجل غذاء الإنسان. إنّ الذي خلق الإنسان ويفهم حاجاتِه عيّن لآدم طعامَه، فلقد قال: «إِنِّي قَدْ أَعْطَيْتُكُمْ كُلَّ بَقْلٍ يُبْزِرُ بِزْرًا .. وَكُلَّ شَجَرٍ فِيهِ ثَمَرُ شَجَرٍ يُبْزِرُ بِزْرًا لَكُمْ يَكُونُ طَعَاماً» (تكوين

١: ٢٩). وعندما ترك الإنسان جنّةَ عدن ليكسب رزقه بتفليح الأرض الواقعة تحت لعنة الخطية سمح الله له أن يأكل «عُشْبَ الْحَقْلِ» (تكوين ٣: ١٨).

إنّ الحبوب والثمار والمكسّرات والخضر يتكوّن منها الغذاء الذي اختاره لنا خالقنا. فهذه الأطعمة المعدّة بأبسط طريقة طبيعية ممكنة هي أعظم الأطعمة الصحّية المغذّية. فهي تمنح القوة، قوّة الجلَدِ والاحتمال والنشاط العقلي مما لا يمكن توفّره في الطعام الأكثر تعقيداً وتنبيهاً.

ولكن ليس كلّ الأطعمة الصحّية في ذاتها توافق بقدر ذلك حاجاتنا في كلّ الظروف. فيجب أن نتّخذ جانب الحرص والحذر عند اختيار الطعام. يجب أن يكون غذاؤنا متوافقاً مع الفصل والجوّ اللذين نعيش فيهما والحرفة التي نزاولها. فبعض الأطعمة التي يوافق استعمالها في فصل من الفصول أو طقس خاص لا توافق الإنسان في فصل آخر أو طقس آخر. وكذلك توجد أطعمة مختلفة مناسبة تماماً لمن يزاولون أعمالاً مختلفة. فالطعام الذي غالباً ما يفيد من يزاولون أعمالا جسمانية شاقّة قد لا يناسب من يقومون بأعمال تتطلب الجلوس في أماكنهم أو من يتطلّب عملُهم تشغيلَ عقولهم في التفكير. لقد أعطانا الله أنواعاً كثيرة من الأطعمة الصحيّة وعلى كلّ إنسان أن يختار منها ما يبرهن الاختبار والحكم الصحيح السليم على أنّه أنسب طعام لسدّ حاجاته.

إنّ كميّات الفاكهة والمكسَّرات والبقول التي تجود بها الطبيعة كثيرة، ومن عام إلى عام تتوزّع منتجات كلّ البلدان بصورة أعمّ عن طريق وسائل النقل المتزايدة. وكان من نتائج ذلك أنّ كثيراً من الأطعمة التي كانت منذ سنين قليلة معتبرةً من أسباب الترف الباهظة الأثمان صارت الآن في متناول أيدي الجميع كأطعمة تتناول كلّ يوم. هذا يصدق بكيفيّة خاصّة على الفاكهة المجففة والمحفوظة في العلب.

وقد بدأت المكسّرات والأطعمة المستخرجة منها تحتلّ مكان أطعمة اللحوم إلى حدّ كبير. ويمكن أيضاً الجمع بين المسّكرات والبقول وبعض الجذور لتكوين الأطعمة

الصحّية والمغذّية. ومع ذلك فيجب اتخاذ جانب الحذر حتى لا يتناول الإنسان كميّة من المكسّرات أكثر مما يلزم. فالذين يتأثرون تأثراً سيئاً من تناول أطعمة المكسّرات يمكنهم أن يجدوا حلاً لمشكلتهم بالالتفات إلى هذا التحفّظ. ثمّ لنذكر أيضاً أنّ بعض أنواع المكسّرات ليست صحّية كغيرها. فاللوز يُفضّل على الفول السوداني(فستق)، ومع ذلك فالفول السوداني لو تناوله الإنسان بكميات مع البقول يكون مغذّياً وسهل الهضم.

والزيتون كالمكسّرات لو تناول الإنسان منه بعد إعداده الإعداد اللائق يمكن أن يسدّ مكان الزبد واللحوم. إنّ الزيت الموجود في الزيتون هو أفضل بكثير من السمن أو الدهن الحيواني. فهو ينفع كمسهّل أو مليّن. وسيرى المرضى بالسلّ أنّه نافع لهم بعدما يتناولون منه، كما أنّ فيه الشفاء للمعدة الملتهبة المتهيّجة.

إنّ الأشخاص الذين قد عوّدوا أنفسهم تناول الطعام الدسم المنبّه جدّاً، عندهم ذوق غير طبيعي، ولا يمكنهم أن يستسيغوا الطعام العادي البسيط بسرعة. فلابدّ من مرور وقت قبلما يصير الذوق طبيعياً وقبلما تُشفى المعدة من الضرر الذي عانت منه. ولكنّ الذين يواظبون على تناول الطعام الصحّي سيجدون بعد وقت أنّه سائغ وشهيّ. فنكهته الشهيّة اللذيذة سيقدّرها من يتناوله، وسيؤكل بلذة أعظم مما يمكن أن يحسّ بها من يتناولون من لذيذ الأطعمة غير الصحّية. والمعدة، إذ تكون في حالةٍ صحيّةٍ، لا اهتياج يقع عليها أو إرهاق يدفعها، يمكنها القيام بوظيفتها بسهولة.

التنوّع

إنّ الإنسان يحتاج لحفظ صحّته إلى كميّة كافية من الطعام الجيّد المغذّي.

إذا كنّا ندبّر أمورنا بحكمة فإنّ كلّ ما يساعد على ضمان الصحّة أكثر من غيره يمكن أن يتوفّر في كلّ قطرٍ تقريباً. فالوصفات المختلفة لإعداد الأرز والقمح والذرة والشوفان تُرسَل إلى كلّ مكان في الخارج وكذلك أيضاً الفاصوليا والحمص والعدس. فهذه مع الفواكه التي تنتجها البلاد أو المستوردة من الخارج، وأنواع الخضر المختلفة التي تنمو

في كلّ بلد، تقدّمُ فرصةً لاختيار غذاءٍ كاملٍ دون حاجة لتناول الأطعمة المكّونة من اللحم.

وفي الأماكن التي تنمو فيها الفواكه بكميّات وافرة يجب إعدادُ كميّةٍ كبيرةٍ منها للشتاء بحفظها في علب أو تجفيفها. كما أنّ الفواكه الصغيرة كالزبيب البناتي والكبوش والفراولة (فريز) والتوت الإفرنجي وثمر العلّيق، يمكنها جميعاً أن تنمو نمواً حسناً في أماكن كثيرة يقلّ استعمالها ويهمل الناس في زرعها.

ولأجل حفظ الفاكهة في العلب في البيوت يجب استعمال الأواني الزجاجية بدل علب الصفيح كلّما أمكن ذلك. وإنّه لمن ألزم الأمور أن تكون الفاكهة المعدّة للحفظ في حالة جيدة. استعملوا قليلاً من السكّر واطهوا الفاكهة الوقت الكافي فقط لحفظها. فإذ تُعدُّ هكذا تكون بديلاً ممتازاً عن الفاكهة الطازجة.

وأينما توجد الفاكهة المجففة وأمكن الحصول عليها بأسعار معتدلة كالزبيب والبرقوق والتفاح والكمثرى والدراقن (الخوخ) والمشمش، سيرى أنّه يمكن استعمالها كمواد غذائية أساسية بأكثر حرية وسخاء من المعتاد، وستكون النتائج حسنة جداً للصحّة ولتنشيط كلّ طبقات العاملين.

وينبغي ألاّ تكون هناك أصناف متعددة من الطعام في وجبة واحدة لأنّ هذا يشجّع على الإفراط في الأكل ويتسبب عنه عسر الهضم.

ويحسن ألاّ يأكل أحدُ فاكهةً وخضراً في وجبة واحدة. فإذا كان الهضم واهناً وضعيفاً فإنّ استعمال كلا هذين الصنفين يسبب ضيقاً في الغالب ويجعل الإنسان عاجزاً عن تعبئة جهوده الفكرية. ومن المستحسن تناول الفاكهة في وجبة والخضر في وجبة أخرى.

وينبغي أن تكون الوجبات منوّعة. فنفس الأطباق المعدّة بنفس الكيفية ينبغي ألاّ تظهر على المائدة وجبة بعد وجبة ويوماً بعد يوم. فعندما ينوّع الطعام تؤكل وجبات الطعام بلذّة أعظم، والجهاز تُعطى له تغذية أعظم وأفضل.

إعداد الطعام

من الخطأ أن نأكل لمجرّد إشباع الشهيّة. أمّا بالنظر إلى نوع الطعام وكيفيّة إعداده فينبغي ألاّ ينظر إلى ذلك في غير اكتراث. فإذا لم يؤكل الطعام بلذّة فالجسم لا يحصل منه على التغذية الكافية. فيجب انتقاء الطعام بكلّ حرص وإعداده بفطنة ومهارة.

إنّ استعمالَ الدقيق الأبيض الناعم جدّاً في صنع الخبز ليس هو افضل شيء. فاستعماله ليس صحّياً ولا يدلّ على الاقتصاد. إنّ الخبز المصنوع من الدقيق الناعم تنقصه العناصر الغذائية الموجودة في الخبز المصنوع من الحنطة الكاملة. وكثيراً ما يتسبب عن هذا الإمساك وغيره من الحالات غير الصحّية.

كما أنّ استعمال الصودا أو «البيكنج باودر» في الخبز مضر وغير لازم. فالصودا يتسبب عنها التهاب في المعدة، وفي أحيان كثيرة تسمم الجهاز كلّه. إنّ كثيراتٍ من ربات البيوت يتصورن أنهنّ لا يستطعن أن يصنعن خبزاً جيداً بدون استعمال الصودا، ولكن هذا خطأ. فلو اجتهدن في تعلّم وسائل أفضل فإنّ خبزهنّ يكون صحّياً أكثر ولذيذاً ومستساغاً لدى من كان ذوقهم طبيعيّاً سليماً.

وفي صنع الخبز المختمر ينبغي عدم استعمال الحليب (اللبن) بدل الماء. فاستعمال الحليب يزيد من التكاليف ويجعل نسبة العناصر الصحّية في الخبز أقلّ. فالخبز المعجون بالحليب لا يظلّ محتفظاً بحلاوته وقتاً طويلاً بعد خبزه بخلاف الخبز المعجون بالماء. كما أنه يختمر في المعدة بسرعة.

وينبغي أن يكون الخبز خفيفاً ولذيذاً، كما ينبغي ألاّ يُسمح بوجود أقلّ أثر من آثار العفونة أو الحموضة. ويجب أن تكون الأرغفة صغيرة الحجم وأن تخبز جيداً بحيث تتلاشى جراثيم الخميرة بقدر المستطاع. إنّ الخبز المختمر من أيّ نوع يكون عسر الهضم عندما يؤكل ساخناً أو طازجاً. وينبغي ألاّ يوضع على المائدة أبداً. ومع ذلك فهذه

القاعدة لا تنطبق على الخبز الفطير (غير المختمر). إنّ صفوف الأرغفة الطازجة المصنوعة من خبز القمح الذي لا خمير فيه والمخبوزة في فرن جيد الحرارة هي صحّية ولذيذة.

والحبوب المستعملة لأجل الحساء أو الثريد ينبغي طهوها مدى عدّة ساعات. ولكنّ الأطعمة الطرّية أو السائلة ليست صحّية بدرجة الأطعمة اليابسة التي تتطلّب مضغاً جيداً. إنّ الخبز المحمّص هو من أفضل الأطعمة السهلة الهضم اللذيذة الطعم. ليقطع الخبز المختمر اختماراً عادياً شرائح ويُجفف في فرن دافئ حتى تختفي منه كلّ آثار الرطوبة، ومن ثمّ ليحمّص تحميصاً خفيفاً كلّه. ويمكن حفظ هذا الخبز في مكان جاف مدة أطول من الخبز العادي. ولو أعيد تسخينه قبل الأكل منه فإنّه يكون طازجاً كما كان وهو جديد.

إنّ كمياتٍ كبيرةً جداً من السكّر تُستعمل في الطعام عادة. إنّ الكعك (كاتو) والفطائر والبقلاوة والجلاتين والمربيّات هي علّل فعّالة في عسر الهضم. وأكثر هذه المأكولات إضراراً بالصحّة الحلوى التي من أهم عناصرها الحليب (اللبن) والبيض والسكّر. فينبغي تجنّب تناول الحليب والسكّر معاً.

وإذا استعمل الحليب فينبغي تعقيمه جيداً. فإذ يُتخذ هذا الاحتياط يقلّ خطر نقل المرض باستعماله. وقطعة الزبد تكون أقل ضرراً متى أُكلت على الخبز البارد مما لو وضعت في الأطعمة المطبوخة، ولكن لا ننسَ هذه القاعدة وهي: "يُستحسن الاستغناء عن الزبد كليّة. ثم هي أيضاً غير مقبولة وغير مناسبة للطعام إطلاقا"(١)[1].

إنّ الطعام القليل المطهوّ طهواً رديئاً يفسد الدم بإضعاف الأعضاء صانعة الدم. فهو يعطّل الجهاز ويشوّشه، ويجلب المرض بما يصاحبه من الأعصاب المهتاجة المتوترة والطباع الرديئة. إنّ ضحايا الطهو الرديء يحصون بالآلاف والربوات. ويمكن أن تكتب على كثير من القبور هذه العبارة: «... مات بسبب رداءة الطهو»، أو: «مات بسبب الإضرار بمعدته».

[1] الجبنة المذكورة هنا ليست الجبنة المنزلية النظيفة التي اعتبرتها المؤلفة دائماً أنها صحّية – الناشرون.

إنّه واجب مقدّس على من يطهون الطعام أن يتعلّموا كيف يجهّزون طعاماً صحّياً. إنّ نفوساً كثيرة تهلك نتيجة سوء الطهو. وإعداد الخبز الجيّد يتطلّب تفكيراً وعناية، ولكن توجد ديانة في رغيفٍ جيّدٍ من الخبز أكثر مما يظنّ كثيرون. وقليلون هم الطهاة الماهرون حقّاً. قد تظنّ الشابات أنّ الطهو والقيام بواجباتِ المنزل الأخرى هي أعمال حقيرة، ولهذا السبب نري كثيراتٍ من الفتيات اللائي يتزوجن وتقع على عواتقهنُّ مسؤولية رعاية العائلات لا يعرفن إلاّ القليل جدّاً من الواجبات المتراكمة على الزوجة والأمّ. إنّ الطهو ليس عملاً حقيراً، بل هو من الأمور الجوهرية في الحياة العمليّة. وهو عمل ينبغي لكلّ امرأة أن تحذقه، وينبغي تدريسه بكيفيّة يكون فيها نافعاً للطبقات الفقيرة. إنّ عملية جعل الطعام جالباً للشهيّة ويكون في نفس الوقت بسيطاً ومغذّياً تحتاج إلى مهارة، ولكنّ ذلك أمر ممكن. فينبغي للطهاة أن يعرفوا كيف يعدّون الطعام البسيط بكيفيّة بسيطة وصحّية بحيث يتضح أنّه ألذّ وأضمن للصحّة لأنّه بسيط.

فكلّ امرأة ربّة عائلة ومع ذلك لا تفهم فنّ الطهو الصحّي يجب عليها أن تعقد العزم على أن تتعلّم ما هو جوهري لضمان الخير والرفاهية لبيتها. ففي كثير من الأماكن تقدّم مدارس الطهوِ الصحّي الفرصة للتعليم في هذا المجال. أمّا السيدة التي ليست لديها هذه المساعدات والمسهلات فعليها أن تتعلّم من أحد الطهاة الماهرين، وأن تثابر على جهودها لتتحسّن إلى أن تصير سيّدةً ماهرةً في فنّ الطبخ.

الانتظام في الأكل

إنّ الانتظام في الأكل له أهميّة حيويّة. فينبغي تحديد وقت لكلّ وجبة طعام. وفي هذا الوقت ليأكل كلّ واحد ما يحتاجه الجسم، ومن ثمّ لا يتناول شيئاً آخر اكثر مما أكل حتى يجيء وقت الوجبة التالية. يوجد كثيرون ممن يأكلون في الوقت الذي يكون الجسم فيه غير محتاج إلى طعام، في فترات غير منتظمة وبين الوجبات، وذلك لأنّهم مفتقرون إلى قوّة الإرادة لمقاومة ميولهم. إنّ بعض الناس وهم مسافرون لا تقع عليهم العين إلاّ وتراهم

يأكلون كلّما وصل إلى أيديهم أيّ شيء يؤكل. ولكنّ هذا ضارٌ جداً. فلو أكل المسافرون بانتظام من الطعام المغذّي لما كانوا يحسّون بتعب عظيم أو يتألّمون كثيراً من الأمراض.

وهنالك عادة وبيلة أخرى وهي الأكل قبيل النوم. ربّما تكون وجباتُ الأكلِ المنتظمةُ قد أُخذت، ولكن بسبب الإحساس بالإعياء يتناول الإنسان مزيداً من الطعام. وبسبب الإفراط يصير هذا العمل الخاطيءُ عادة، وهذه العادة تتمكّن من الإنسان بكلّ قوّة في الغالب بحيث يظنّ أنّه من المستحيل عليه أن ينام بدون طعام. وينتج عن تناول وجبات العشاء في وقت متأخر أن تستمرّ عملية الهضم مدى ساعات النوم. ولكن مع أنّ المعدة تواصل عملها باستمرار فإنّها لا تقوم بعملها جيّداً أو بطريقة مناسبة. وكثيراً ما ينزعج الإنسان وهو نائم بسبب الأحلام المزعجة، فيستيقظ في الصباح وهو غير منتعش، ولا يحسّ باللذّة وهو يتناول طعام الفطور. فعندما نضطجع لنستريحَ ينبغي أن تكون المعدة قد أنجزت كلّ عملها حتى يمكنها أن تستريح كباقي أعضاء الجسم الأخرى. وبالنسبة إلى من يزاولون أعمالاً تتطلّب الجلوس في مكان واحد وقتاً طويلاً فإنّ تناول العشاء في وقت متأخّر مضرّ بصحّتهم بكيفيّة خاصّة. والاضطراب الذي يحدث لهم يكون في الغالب بداءة مرض ينتهي بالموت.

وفي حالات كثيرة يكون الإعياء الذي يجعل الإنسان يشتهي الطعام سببه أنّ أعضاء الهضم قد أُجهدت أكثر من اللازم أثناء النهار. فبعد الانتهاء من وجبة الطعام يحتاج الجهاز الهضمي إلى الراحة. فينبغي ألاّ تقلّ الفترة بين وجبة وأخري عن خمس أو ست ساعات. ومعظم الأشخاص اللذين يجرّبون هذه الطريقة سيجدون أنّ وجبتين في اليوم خير من ثلاث وجبات.

حالات الأكل الخاطئة

ينبغي ألاّ يتناول أحد الطعام ساخناً جداً ولا بارداً جداً. فإذا كان الطعام بارداً فإنّ القوّة الحيويّة في المعدة تُحشدُ لكي تدفئَه قبل البدء في عملية الهضم. والمشروبات

المثلّجة مضرّة لنفس السبب، بينما الإكثار من تناول المشروبات الساخنة مضعف. وفي الحقيقة إنّه كلّما أكثر الإنسان من تناول السوائل عند الأكل ازدادت عنده الصعوبة في هضم الطعام، لأنّه يجب أن يُمتصّ السائل قبل البدء في الهضم. لا تأكل كثيراً من الملح. وتجنّب أكلَ المخللات والأطعمة المتبّلة. وكُل كمية كبيرة من الفاكهة فترى أنّ التهيج الذي يجعلك تكثر من الشرب عند الأكل يختفي.

وينبغي أن تتمهّل في الأكل وأن تمضغ جيداً. وهذا ضروري ولازم حتى يمكن أن يختلط اللعابُ بالطعام جيداً وحتى تستدعي السوائلَ الهاضمة للقيام بعملها.

وهنالك شر خطير آخر وهو الأكل في أوقات غير مناسبة كما بعد القيام بتمرينات رياضية عنيفة وزائدة، عندما يكون الإنسان مرهقاً أو ساخناً. فعقب الأكل حالاً يوجد تحول على قوى الأعصاب، وعندما يكون العقل والجسم مجهداً جداً حالاً قبل الأكل أو بعده يتعطل الهضم. وحين يكون الإنسان مهتاجاً أو جزعاً أو معجلاً فيحسن عدم الأكل إلى أن يجد الراحة والانفراج.

إنّ المعدة متّصلة بالمخّ اتصالاً وثيقاً، وعندما تكون المعدة مريضة فإنّ قوّة الأعصاب تُستدعَى من المخّ لمساعدة أعضاء الهضم الضعيفة. وعندما تكثر هذه المطالب أكثر من اللازم فالمخّ يصير محتقناً. وعندما يكون المخّ مُجهداً باستمرار دون أن يمارسَ صاحُبه تمريناً بدنياً فحتى الطعام البسيط يجب أن يؤكل منه كميّة قليلة جداً. فعند الأكل اطرح بعيداً عنك الهضم وكل أفكار الجزع. وينبغي ألاّ تحسّ بأنّك مُعجّل بل عليك أن تأكل بتمّهل وأنت فرِحٌ وليمتليء قلبك بالشكر لله على جميع بركاته.

الإفراط في الأكل

إنّ كثيرين ممن يرفضون أكل اللحوم وغيرها من المواد الغليظة الضارة يظنّون أنّه لكون طعامهم بسيطاً وصحّياً يمكنهم أن يفرطوا في الأكل بلا رادع فيأكلون كميّاتٍ

زائدةً، وأحياناً قد يصابون بالبطنة. ولكنّ هذا خطأ، إذ ينبغي ألاّ يثقَّل على أعضاء الهضم بكميّة أو نوع من الطعام يُرهق جهاز الجسم وهو جادّ منهمك للاستفادة منه.

لقد اصطلح الناس على أن يوضع الطعام على المائدة في أدوار. فإذ لا يعرف الإنسان ما سيجيء بعد ذلك قد يتناول كفايته من الطعام الذي قد لا يكون انسب طعام له. وعندما يُقدّم آخر صنف من الطعام فقد يجرؤ على تخطّي الحدود ويتناول من الفاكهة أو الحلوى المغرية التي ليست صالحة ولا مناسبة له. فلو أنّ كلّ الطعام المعدّ لوجبة يوضع على المائدة من البداءة فستكون للإنسان الفرصة ليحسن الاختيار.

أحياناً يحسّ الإنسان في الحال بنتيجة إفراطه في الأكل. ولكن في حالات أخرى لا يوجد إحساس بأيّ ألم، ولكنّ أعضاء الجهاز الهضمي تضيع منها القوّة الحيويّة، ويدمّر أساس القوّة البدنيّة.

إنّ الطعام الزائد عن الحاجة يثقّل الجسم وتحدث من جرّائه حالات مضطربة وبيلة. وهذا يستدعي نقل كميّة من الدم إلى المعدة أكثر مما يلزم، الأمر الذي يصيب الأعضاء والأطراف بقشعريرة سريعة. وهذا أيضاً يبهظ أعضاء الهضم، وبعدما تقوم هذه الأعضاء بعملها ينشأ شعور بالإعياء أو الضعف. وبعض من يفرطون في الأكل بكيفيّة دائمة يدّعون هذا إحساساً منصرفاً بالجوع، ولكنّ سببه الإجهاد الواقع على أعضاء الهضم. وفي بعض الأحيان يُصاب المخّ بخدر فلا يكون لدى الإنسان ميل إلى القيام بأيّ مجهود ذهني أو جسماني.

فهذه الأعراض المحزنة تحدث ويحسّ بها الإنسان لأنّ الطبيعة قامت بعملها على حساب إنفاق القوى الحيويّة الأمر الذي لم يكن له موجب أو داعٍ، وقد أجهدت تلك القوى إلى أقصى حدّ. إنّ المعدة تقول: «أرحني» ولكنّ كثيرين يفسّرون الإعياء على أنّه طلب مزيد من الطعام. وهكذا فبدلاً من إراحة المعدة يُثقّل كاهلُها بعبءٍ جديد،

وينتج عن ذلك أنّ أعضاء الهضم يصيبها الضنى وتُستهلك، في حين كان يجب أن تكون قادرةً على القيام بعملٍ جيّد نافع.

الطعام في يوم السبت

علينا ألاّ نعدّ ليوم السبت كميّةً أكبر أو منّوعة من الطعام مما في باقي الأيام. ولكن بدلاً من هذا ينبغي أن يكون الذهن رائقاً صافياً نشيطاً لإدراك الأمور الروحيّة. فالمعدة المعطّلة معناها دماغ معطّل. فيمكن أن يسمع الإنسان أثمن الأقوال ولا يقدّرها لأنّ الذهن مرتبك ومشوّش بسبب تناول الطعام غير الملائم. إنّ كثيرين من الناس إذ يفرطون في الأكل في يوم السبت يعملون أكثر مما يظنّون لجعل أنفسهم غير مؤهلين لنوال فائدة فرصه المقدّسة.

وينبغي تجنّب إعداد الطعام في يوم السبت، ولكن ليس من الضروري أن يأكل إنسان طعامه بارداً. ففي الطقس البارد ينبغي تسخين الطعام المعدّ في اليوم السابق. ولتكن وجبات الطعام شهيّة وجذّابة وإن تكن بسيطة. وخصوصاً في العائلات التي فيها أطفال يحسن إعداد شيء في يوم السبت يجعل الطعام يُعتبر وليمة، من الأشياء التي لا تحصل عليها العائلة كلّ يوم.

الإصلاح في الغذاء

حيث ينغمس أحدٌ في عاداتِ خاطئة من ناحية الغذاء ينبغي المبادرة إلى إصلاحها بدون إبطاء. فعندما يصاب إنسان بالتخمة أو عسر الهضم نتيجة لإرهاقه للمعدة فيجب بذل الجهود بكل حرص واهتمام لحفظ القوّة الباقية من الطاقة الحيويّة بالتخلّص من كلّ عبءٍ مُرهِق. وقد لا تشفى معدة تماماً مدى الحياة بعد انتهاكها مدّة طويلة، ولكن اتخاذ نهج مناسب صالح للغذاء كفيل بإنقاذ الإنسان من أيّ ضعف في المستقبل. وكثيرون سيشفون شفاء كاملا أو جزئيا. وليس من السهل وضع قوانين تناسب كلّ حالة،

ولكن بالالتفات إلى مباديء الأكل الصحيحة قد تُحدث إصلاحاتٍ عظيمة، ولن تكون للطاهي حاجة لأن يتعب باستمرار لإغراء القابليّة أو الشهيّة.

إنّ الزهد أو التعفف في أمر الغذاء يكافأ بنشاط عقلي وأدبي، وهو يساعد أيضاً في ضبط الأهواء والتحكّم فيها. إنّ الإكثار من الأكل ضارّ على الخصوص بذوي الأمزجة البليدة والكسولة، فعلى هؤلاء أن يقتصدوا في الأكل وأن يمارسوا كثيرا من التمرينات البدنيّة. يوجد رجال ونساء ذوو قدرة عظيمة سامية ولكنّهم لا يتممون نصف ما كان يمكنهم عمله لو مارسوا ضبط النفس في إنكار الشهيّة.

كثيرون من الكتّاب والخطباء يخفقون هنا. فبعدما يأكلون أكلاً كافياً بقابليّة، ينصرفون بكلّ همة إلى أعمالهم التي تتطلب الجلوس في أماكنهم، يقرأون أو يدرسون أو يكتبون، ولا يعطون أنفسهم وقتاً للتمرينات البدنيّة. وينتج من ذلك أنّ فيضان الفكر الحرّ الطليق والكلام الجميل يُصدّ ويوقف. إنّهم لا يستطيعون أن يكتبوا أو يتكلّموا بالقوّة والشدّة اللازمة للوصول إلى القلب. فجهودهم ضعيفة وعديمة الجدوى.

ينبغي لمن تقع عليهم مسؤوليات هامّة والذين، فوق الكلّ، هم حرّاس على المصالح الروحيّة، أن يكونوا رجالاً ذوي إحساس قويّ وإدراك وفهم سريع. وهم يحتاجون أكثر من غيرهم إلى الاعتدال في الأكل. فينبغي ألا يُرى على موائدهم أيّ طعام دسم مترف.

يتحتم على الرجال الذين هم في مراكز ذات مسؤولية أن يتخذوا قرارات يومية تتوقف عليها نتائج ذات أهمية عظيمة. وفي أحيان كثيرة عليهم أن يفكروا بسرعة، وهذا لا يمكن أن يفعله بنجاح إلا من يمارسون الاعتدال الدقيق. إن العقل يتقوى متى تصرف الإنسان تصرفا صائبا نحو القوى البدنية والعقلية. فإن لم يكن الإجهاد أعظم من اللازم فإن نشاطا جديدا يأتي مع بذل كل جهد. ولكن يحدث غالبا أن عمل الذين لديهم خطط هامة ليتأملوا فيها وقرارات هامة ليصدروها يتأثر تأثرا شريرا من نتائج الغذاء غير

الموافق. فالمعدة المضطربة ينشأ عنها حالة عقليّة مضطربة وغير مستقرّة. وفي غالب الأحيان ينتج عنها سرعة الانفعال والفظاظة أو الظلم. وكثيراً ما يحدث أنّ تدبيراً كان يمكن أن يصير بركة للعالم أُلقِيَ به جانباً، وكثيرٌ من الإجراءات الظالمة المتعسّفة بل القاسية نُفذت نتيجة لحالات السقم والمرض المتسَّبَة عن عادات الأكل الخاطئة.

وهنا اقتراح لكلّ من يقومون بعمل يتطلب الجلوس أو من يقومون بعمل عقلي على الأكثر، وليجرّبه الذين عندهم الشجاعة الأدبيّة الكافية وضبط النفس. فعند كلّ وجبة لا تتناول أكثر من نوعين أو ثلاثة من الطعام البسيط، ولا تأكل أكثر مما يلزم لإشباع جوعك. ومارس التمرينات الرياضية كلّ يوم، وأنظر ما إذا كنت لا تحصل على فائدة.

والرجال الأشدّاء الذين يقومون بعمل جسماني نشيط لا يضطرّون لأن يحترسوا من ناحية كميّة طعامهم أو نوعه كما يجب أن يفعل من اعتادوا الجلوس، ولكن حتى هؤلاء كان يمكنهم أن يتمتّعوا بصحّة أفضل لو تدرّبوا على ضبط النفس في الأكل والشرب.

هذا، ويتمنى البعض لو أُعطيت لهم وصفة مضبوطة لغذائهم. إنّهم يفرطون في الأكل ثم يندمون على ذلك، وهكذا يواصلون التفكير فيما يأكلون ويشربون. وهذا ما يجب ألاّ يكون. ولا يمكن لفرد أن يقدّمَ قانوناً مضبوطاً لآخر. فعلى كلّ واحد أن يُحكّم عقلَه ويتدرّب على إنكار الذات ويتصرّف بموجب المبدأ.

إنّ أجسادنا هي ملك المسيح المُقتنى، ولهذا فنحن لسنا أحرارا لأن نفعلَ بها كما نريد. فكلّ من يفهمون قوانين الصحّة ينبغي لهم أن يتأكّدوا من التزامهم بأن يطيعوا هذه القوانين التي قد وضعها الله في كيانهم. والطاعة لقوانين الصحّة ينبغي أن تكون واجباً شخصياً. فنحن بأنفسنا لابدّ من أن نقاسي نتائج تعدّي القانون. وكلّ فرد منّا لابدّ أن يُحاسبَ أمام الله على عاداته وأعماله. لذلك فالسؤال بالنسبة إلينا ليس هو «ما الذي يعمله العالم»؟ بل هو «كيف يجب عليَّ كفردٍ أن أُعامل المسكنَ الذي أعطانيه الله»؟.

٥ اللحم كطعام

إنّ الغذاء المعيّن للإنسان في البدء لم يشتمل على لحوم الحيوانات. ولم يؤذن للإنسان بأكل اللحم إلاّ بعد الطوفان عندما مُحيَ عن وجه الأرض كلُّ شيء أخضر.

وعند اختيار طعام الإنسان في عدن أبان الربّ ما هو أفضل غذاء، وفي الاختيار الذي أُجريَ لأجلِ العبرانيين علّم الرب الناس نفسَ الدرس. فقد أخرج العبرانيين من مصر وشرع في أمر تعليمهم حتى يكونوا شعبَه ومقتناه. وكان يتوق إلى أن يباركَ العالم ويعلّمه بواسطتهم. فأعدّ لهم الطعام الذي هو أفضل ما يلائم هذا الغرض، ليس اللحم بل المنّ «خبز السماء». إنّما فقط بسبب تبرّمهم وتذمّرهم وتحسّرهم على قدور اللحم في مصر سُمِحَ لهم بأكل اللحم، وهذا أيضاً لوقت قصير. وقد جلب تناول اللحم المرض والموت لآلاف الناس. ومع ذلك فإنّ التقيّد بالغذاء الخالي من اللحم لم يُقبَل قطّ بالرضى. وظلّ هذا علّة التبرم والتذمّر في العلانية أو في السرّ، ولم يصِرْ ثابتاً أو مقرّراً.

إنّ العبرانيين عندما استقرّ بهم المُقام في كنعان سُمح لهم بأكل لحوم الحيوانات، ولكن تحت قيودٍ شديدةٍ قللت من العواقب الوبيلة. فقد حُرّم عليهم أكل لحم الخنزير وغيرِه من الحيوانات والطيور والأسماك التي حُكم أنّ لحمها نجس. أمّا اللحوم التي كان مسموحاً لهم بأكلها فقد حُرّم عليهم تحريماً قاطعاً أكلُ ما فيها من الشحم والدم.

والحيوانات التي كان يؤكل لحمها لم يكن ليؤكل غيرُ لحم التي كانت منها في حالة جيّدة. ولم يكن يُسمح بأكل لحوم الفريسة أو الحيوانات التي نفقت أو التي لم يُصفَّ منها كلّ دمها بكلّ حرص.

وقد خسر العبرانيون خسارةً فادحةً إذ حادوا عن التدبير الذي قد أعدّه الله لغذائهم. لقد اشتهوا طعام اللحم، فحصدوا نتائج ذلك. إنّهم لم يبلغوا إلى مقياس الله للخلق، ولا تمّموا مقاصده. فالرب «أعطاهم سؤلهم وأرسل هزالاً في أنفسهم» (مزمور١٠٦: ١٥). كانوا يقدّرون الأرضيّات فوق الروحيّات، ولم يبلغوا إلى الرفعة أو السموّ الذي قصده الله لهم.

أسباب رفض أكل اللحم

إنّ من يأكلون اللحم إنّما يأكلون الحبوب والخضر التي سبق استعمالُها، لأنّ الحيوان يحصل من هذه الأشياء على الغذاء الذي يجعله يكبر. فالحياة التي كانت في الحبوب والخضر تنتقل إلى آكلها. ونحن نحصل عليها بأكل لحم الحيوان. فكم يكون أفضل لو حصلنا عليها مباشرةً بأكل الطعام الذي قد أعدّه الله لنا لنتناوله!

واللحم لم يكن أفضلَ طعام قطّ، ولكنّ تناوله غير مقبول بل مكروه الآن بنسبة ضعفين، حيث أنّ الأمراض تتفشّى في الحيوانات الآن بسرعة. والذين يأكلون اللحوم قلّما يعرفون ما يأكلون. ففي أحيان كثيرة لو أمكنهم أن يروا الحيوانات وهي بعد حيّة وعرفوا صفة اللحم الذي يأكلونه لكانوا يتركونه في اشمئزاز غير آسفين. إنّ الناس يأكلون باستمرار اللحم المملوء بالدرن وجراثيم السرطان. فالتدرّن والسرطان وغير ذلك من الأمراض المميتة تنتقل بهذه الكيفيّة من الحيوان إلى الإنسان.

ثمّ إنّ أنسجةَ الخنازير مملوءة بالطفيليّات. وقد قال الله عن الخنزير: «هو نجس لكم. فمن لحمها لا تأكلوا وجثثها لا تلمسوا» (تثنية١٤: ٨). وقد صدر هذا الأمر لأنّ لحم الخنزير لا يصلح كطعام. إنّ الخنازير هي بمثابة الزبّالين، وهذا هو الاستعمال الوحيد الذي قُصِد لها أن تخدم به. ولم يُسمح قطّ، تحت أيّ ظرفٍ من الظروف، بأن يأكل الناس من لحمها. ومن المستحيل أن يكون لحمُ أيّ كائن حيّ صحّياً في حين أن الأقذار موجودة في عناصره الطبيعية وهو يقتات بكلّ ما هو كريه.

وفي غالب الأحيان تؤخذ الحيوانات إلى السوق وتباع لتُذبح وتؤكل عندما تكون مريضةً جدّاً بحيث يخشى أصحابُها من إبقائِها عندهم وقتاً أطول. وكثيراً ما تكون بعض عمليّات تسمينها لتباع في السوق جالبةً للأمراض. فهي تُحبس بعيداً عن النور والهواء النقي وتستنشق من هواء الحظائر القذرة. وربما تجيء سمنتها من أكل الطعام الفاسد، فالجسم كلّه يصير ملوثاً بالمادّة القذرة الفاسدة.

وكثيراً ما تُشحن الحيوانات لتسافر مسافاتٍ طويلةً وتتعرّض لآلام عظيمة للوصول إلى أحد الأسواق. فإذ تؤخذ من المراعي الخضراء وتسافر أميالاً مضنية في الطرقات الحارّة المتربة أو تحشر في عربات قذرة وهي مضطربة وخائرة، وغالباً ما تُحرم من الطعام والماء ساعات طويلة – تُساق هذه الخلائق التعسة إلى الذبح ليولمَ الناس الولائمَ على لحومها.

وفي أماكن كثيرة تصير الأسماك ملوّثةً بالأقذار التي تأكل منها بحيث تتسبب عن ذلك الأمراض. ويكون هذا هو الواقع خصوصاً في الأماكن التي تكون الأسماك فيها على اتصال بمجاري المدن الكبيرة. والأسماك التي تقتات بما تحتويه المصارف قد تنتقل إلى البحار البعيدة وتصاد في المياه الصافية النقيّة، وهكذا حينما تُستخدم هذه الأسماك كطعام يُؤكل فهي تجلب معها المرض والموت لمن لا يشتبهون في وجود خطر.

وقد لا تتحقق نتائجُ أكلِ اللحم في الحال، ولكنّ هذا ليس برهاناً على أنّها غير مضرّة. فقليلون هم الذين يمكن إقناعهم بأنّ اللحم الذي أكلوا منه هو الذي سمّم دمَهم وجلب عليهم الألم. وكثيرون يموتون من أمراض تُعزى كلّها إلى أكل اللحم في حين أنّه لا هم ولا غيرُهم اشتبهوا في السبب الحقيقي.

والمساويءُ الأدبية التي تُلاحَظ في اتّخاذ اللحم كطعام ليست أقلّ من الأضرار الجسمانية. فاللحم مضرّ بالصحّة، وكلّ ما يؤثّر في الجسد له تأثير مماثل في العقل والنفس. فكّر في القسوة على الحيوانات التي يشتمل عليها أكل اللحم وآثارِها على من يذبحونها ومن يشاهدونها. وكم تُدمَّر الرقّة التي يجب أن نعتبر بها خلائق الله هذه!

إنّ الذكاء الذي تُبديه كثير من الحيوانات البكم يكاد يضارع ذكاء الناس حتى ليعتبرَ سراً. فالحيوانات ترى وتسمع وتحبّ وتخاف وتتألّم. وهي تستخدم أعضاءها بأمانة أكثر بكثير مما يستخدم بنو الإنسان أعضاءهم. وهي تُبدي العطفَ والرقّةَ نحو شركائها في الآلام. وأنّ كثيراً من الحيوانات تُبدي حبّها لمن يحرسونها وهو حبّ أسمى بكثير من الحبّ الذي يظهره لها بعض بني الإنسان. وهي تكوّن صلاتٍ بالإنسان لا تُفصم ما لم يلحقها ألمٌ عظيم.

أيّ إنسان له قلب بشر يرعى هذه الحيوانات الأليفة أمكنه أن يتطلّع في عيونها الملأى بالثقة والحبّ ويرضى بتسليمها إلى سكّين الجزار؟ وكيف يمكنه أن يزدرد لحمها كلقمة سائغة ولذيذة؟

تغيير الغذاء

من الخطأ أن نظنّ أنّ قوّة العضلات تتوقّف على أكلِ اللحم. إنّ حاجاتِ الجسد يمكن سدّها بكيفيّة أفضل، ويمكن أن يتمتّع الإنسان بمزيد من الصحّة والنشاط بدون تناول اللحم. فالحبوب مع الفواكه والمكسّرات والخضر تحتوي على كلّ الخواص الغذائية اللازمة لإصلاح الدم، فهذه العناصر لا يمكن توفّرها بصورة جيّدة وبكيفيّة كاملة بأكل اللحوم. فلو كان أكل اللحم جوهرياً للصحّة والقوّة لكان اللحم قد ذُكر عند ذكر الغذاء المعيّن للإنسان في البدء.

وعندما يبطل استعمال اللحم كطعام كثيراً ما يكون هنالك إحساسٌ بالضعف وعدم النشاط وانعدام القوّة. وكثيرون يتقدّمون بهذا كبرهان على أنّ أكل اللحم أمر جوهري، ولكن لكون الأطعمة التي من هذا النوع منبّهة ولأنّها تهيّج الدم وتثير الأعصاب فهي تفتقد هكذا. والبعض يجدون أنّه من الصعب ترك أكل اللحم بقدر ما يصعب على السكّير أن يترك كأس الخمر. ولكنّ التغيير يجعلهم في حالة أفضل.

وعندما يُستبعد اللحم فينبغي الاستعاضة عنه بتشكيلة من الحبوب والمكسّرات والخضر والفواكه التي هي مغذّية ومنشّطة للشهيّة. وهذا لازم بكيفيّة خاصّة بالنسبة لحالة من هم ضعفاء أو مجهدون من الكدّ المتواصل. في بعض البلدان حيث يتفشّى الفقر يكون اللحم أرخص الأطعمة. ففي هذه الظروف يحدث التغيير بصعوبة أعظم ولكن من الممكن إتمامه. وعلينا مع ذلك أن نفكّر في موقف الناس وقوّة العادة التي لازمتهم مدى الحياة ولنحترس من أن نشدّد في فرض الآراء الصائبة بكيفيّة غير لائقة. وينبغي ألاّ نُرغم أحداً على إحداث هذا التغيير فجأة. فيجب الاستعاضة عن اللحم بأطعمة صحّية رخيصة. وفي هذا الأمر يتوقّف الشيء الكثير على الطاهي. فيمكن إعداد الأطباق المغذّية والجالبة للشهيّة بعناية ومهارة ويمكن أنّها تأخذ مكان اللحم إلى حدّ كبير.

وفي كلّ الحالات درِّب الضمير، وجنّد الإرادة، وقدّم طعاماً جيداً وصحّياً، فيتمّ التغيير بسرعة، وهكذا ينصرف الناسُ عن طلب اللحم.

أليس هذا هو الوقت الملائم الذي فيه يجب أن يهدف الناس إلى الاستغناء عن أكل اللحم؟ وكيف يمكن لمن يرغبون في أن يكونوا أطهاراً ومهذّبين وقدّيسين، ليكون عشراؤهم ملائكة السماء – كيف يمكنهم الاستمرار في تناول طعام يوقع مثل هذا الضرر على النفس والجسم؟ وكيف يقضون على حياة خليقة الله ليلتهموا لحومها كلون من ألوان الترف؟ عليهم بالأحرى أن يعودوا إلى الطعام الصحّي اللذيذ الذي أُعطيَ للإنسان في البدء، وأن يمارسوا الرحمة نحو الخلائق البكماء التي قد خلقها الله وأخضعها لسلطاننا، وأن يعلّموا أولادهم أن يمارسوا ذلك أيضاً.

٦ التطرف في الطعام

ليس كلّ من يؤمنون بالإصلاح في الغذاء هم مصلحون في الحقيقة. إنّ الإصلاح، بالنسبة إلى أشخاص كثيرين، ينحصر فقط في استبعاد بعض الأطعمة الضارّة. فهم لا يفهمون مباديء الصحة فهماً واضحاً، وموائدهم التي ما تزال محمّلة باللذائذ الضارّة هي أبعد ما تكون عن نموذج التعفّف والاعتدال المسيحيين.

وهنالك طبقة أخرى الذين إذ يرغبون في إقامةِ مثالٍ صالحٍ يتطرّفون إلى الناحية العكسية. إنّ البعض عاجزون عن الحصول على الأطعمة المطلوبة، وبدلاً من استعمال الأشياء التي هي أفضل ما يسدّ النقص يستعملون طعاماً فقيراً. وطعامهم لا يقدّم لهم العناصر اللازمة للحصول على دم صالح. فتتأثر صحّتهم تأثراً سيئاً، ويتلف نفعهم، ويكون مثالهم دعاية سيّئة ضد الإصلاح في الطعام بدلاً من أن يكون دعايةً طيّبةً له.

وآخرون يظنّون أنّه ما دامت الصحّة تتطلّب طعاماً بسيطاً فلا حاجة إلاّ إلى قليل من العناية في انتقاء الطعام أو إعداده. والبعض يقيّدون أنفسهم بطعام قليل جدّاً وتافه للغاية فلا يحصلون على تشكيلة كافية لسدّ حاجات الجسد، فيتألّمون من جرّاء ذلك.

والذين لا يفهمون مباديء الإصلاح إلاّ فهماً جزئيّاً هم في الغالب أشدّ الناس صرامة ليس في تنفيذ آرائهم لأنفسهم فحسب ولكنّهم يشددون في تنفيذها في عائلاتهم وبين جيرانهم. وإنّ أثر إصلاحاتهم المخطئة كما يُرى في صحّتهم العليلة ومحاولاتهم في فرض آرائهم على غيرهم تقدّم لكثيرين فكرةً كاذبةً عن الإصلاح الغذائي وتجعل كثيرين ينبذونه تماماً.

أمّا من يفهمون قوانين الصحّة ويسيرون بموجب المبدأ فيرفضون التطرّف في كلا الانغماس الزائد، والتقييد أو المنع. فهم يختارون طعامهم ليس لمجرّد إشباع الشهيّة بل لأجل إسناد الجسم وتقويته. فهم يحاولون حفظ كلّ قواهم في أفضل حالاتها لأجل الخدمة السامية لله وللإنسان. فالقابليّة للطعام تكون تحت سيادة العقل والضمير وهم يُكافَأون على ذلك بصحّة الجسم والعقل. ففي حين أنّهم لا يلحّون بأفكارهم على الآخرين بكيفيّة مزعجة، فإنّ مثالهم هو شهادة في صالح المباديء السليمة. هؤلاء الأشخاص لهم تأثيرٌ للخير بعيدُ المدى.

يوجد إدراك حقيقي للإصلاح الغذائي. ولكن يجب أن يُدرَسَ هذا الموضوع بتوسّع وعمق، وينبغي ألاّ ينتقد أحد غيرَه من الناس لأنّ عملهم ليس متوافقاً مع عمله في كلّ شيء. فمن المستحيل سنّ قانون لا يتغيّر ولا يختلف لتنظيم عاداتِ كلّ واحد. وينبغي ألاّ يظنّ أحد نفسه مقياساً أو نموذجاً للكلّ. فلا يمكن للجميع أن يأكلوا نفس الأصناف. فالأطعمة التي هي لذيذة وصحيّة لفرد قد تكون بلا طعم بل وضارّة لآخر. بعض الناس لا يمكنهم تعاطي الحليب (اللبن) بينما آخرون ينمون ويتقوّون به. بعض الأشخاص لا يستطيعون أن يهضموا البازلاء والفاصوليا، بينما آخرون يجدونها صحيّة. فبالنسبة للبعض يعتبر إعداد الحبوب بكيفية خشنة طعاماً جيداً بينما آخرون لا يمكنهم تعاطيها.

والذين يعيشون في بلدان جديدة أو في أقاليم جدباء حيث يندر وجودُ الفواكه والمكسرات ينبغي ألاّ يستبعدوا الحليب والبيض من غذائهم. لا جدال في أنّ الأشخاص الممتلئين صحّة والذين الشهوات الحيوانية فيهم قويّة يحتاجون إلى تجنّب تناول الأطعمة المنبّهة. وعلى الخصوص في العائلات التي فيها أولاد يستسلمون لعاداتٍ شهوانيّةٍ ينبغي عدم استعمال البيض. ولكن في حالة الأشخاص الذين أعضاؤهم المنتجة للدم ضعيفة، وعلى الخصوص في حالة عدم تيسّر أطعمة أخرى لإمداد الجسم بالعناصر المطلوبة – فالحليب والبيض ينبغي عدم استبعادهما كلّية. فينبغي اتّخاذ الحرص الشديد للحصول على الحليب من أبقار صحيحة الجسم، والبيض كذلك من دجاج صحيح

الجسم متمتّع بكفايته من الطعام وحاصل على رعاية كافية. والبيض يجب أن يُعدّ بحيث يكون هضمه سهلاً.

ينبغي أن يكون الإصلاح في الطعام تدريجياً. فإذ تكثر أمراض الحيوانات يتزايد الخطر من تعاطي الحليب والبيض، فيجب بذل مجهود للاستعاضة عن هذين الصنفين بأشياء أخرى صحّية ورخيصة. يجب على الناس في كلّ مكان أن يتعلّموا كيف يطهون بدون حليبٍ أو بيضٍ على قدر الإمكان، ومع ذلك يكون طعامهم صحّياً وشهيّاً.

هذا، وإن التدرّب على تناول وجبتين فقط في اليوم وُجِدَ، عادة، أنّه مفيدٌ للصحّة، ومع ذلك ففي بعض الظروف قد يحتاج الناس إلى وجبة ثالثة. ولكن هذه الوجبة لو أخذت إطلاقاً ينبغي أن تكون خفيفة جداً ومن طعام يسهل هضمه. إنّ "الفشار" – البسكويت الإنجليزي – أو الخبز المحمص والفاكهة أو المشروبات المصنوعة من مسحوق الحبوب هي أفضل الأطعمة لأجل وجبة العشاء.

إنّ البعض هم أبداً جزعون لئلا يضرّهم طعامهم مع كونه بسيطاً وصحياً. فلهؤلاء أقول: لا تظنّوا أنّ طعامكم سيضرّكم، لا تفكّروا في ذلك مطلقاً. وكلوا بحسب أفضل حكمكم، وبعدما تسألون الربّ أن يبارك الطعامَ لتقوية أجسامِكم ثقوا أنّه يسمع صلاتِكم وكونوا مطمئنين.

ولكون المبدأ يتطلّب منّا أن نستبعدَ بعيداً عنا الأشياء التي تهيّج المعدةَ وتتلف الصحّة فيجب أن نذكر أنّ الطعام التافه الفقير يتسبب عنه فقرُ الدم. إنّ حالات المرض التي يصعب جداً شفاؤها تنجم عن هذه العلّة. فالجسم لا يحصل على كفايته من التغذية فينتج عن ذلك سوء الهضم والضعف العام. والذين يتناولون مثل هذا الطعام لا ترغمهم الفاقة دائماً على أن يفعلوا ذلك، ولكنّهم يتناولون منه بسبب الجهل أو الإهمال، أو لكي ينفّذوا آراءهم الخاطئة عن الإصلاح.

إنّ الله لا يتمجّد عندما يُهمَل الجسمُ أو يُنتهَك وهكذا يكون غير أهلٍ لخدمته. أمّا رعاية الجسم بكوننا نوفّر له الطعام اللذيذ والمقوّي فهذا في مقدّمة واجبات ربّ البيت. إنّه أفضل لنا جدّاً أن نلبسَ ملابسَ رخيصةً وأن تكون في بيوتنا أثاثاتٌ رخيصة من أن نحدد كميّة الطعام.

إنّ بعض أرباب البيوت يقتّرون على مائدة العائلة لكي يعدّوا ولائم مكلّفة لضيوفهم. ولكنّ هذا تصرّف غير حكيم. ففي الوليمة المعدّة للضيوف ينبغي أن تتوفّر بساطة عظيمة. إنّ حاجاتِ العائلة يجب أن تنال أوّل وأعظم اهتمام.

إنّ الاقتصاد غير الحكيم والعاداتِ المصطنعة كثيراً ما تحول بين الناس وبين إظهار كرم الضيافة حيث يُحتاج إليه ويمكن أن يكون بركة. إن مؤونة الطعام المنتظمة لأجل موائدنا ينبغي أن تكون كافية بحيث أن أي ضيف يأتينا على غير انتظار يمكننا أن نرحب به بدون أن نرهق ربة البيت لإعداد طعام زائد.

وعلى الجميع أن يتعلّموا ماذا يأكلون وكيف يُطهى طعامهم. فالرجال كالنساء سواء بسواء يجب عليهم أن يفهموا كيفية إعداد الطعام بطريقة بسيطة وصحّية. إنّ عملهم يدعوهم في كثير من الأحيان للذهاب إلى أماكن لا يوجد فيها طعام صحّي، وحينئذ فمتى كانت عندهم خبرة بفنّ الطهو يمكنهم استخدامها لأغراض صالحة.

عليك أن تتأمّل في طعامك باهتمام. ادرس من السبب إلى النتيجة واغرس في نفسك فضيلةَ ضبط النفس. اجعل قابليّتك للطعام تحت سلطان عقلك. ولا ترهق المعدة أبداً بالإفراط في الأكل، ولكن لا تحرم نفسك من الطعام الصحّي اللذيذ الذي تتطلّبه صحّتك.

إنّ الآراء الضيّقة المتزمّتة لبعض مُصلحي الصحّة المزعومين كانت ضرراً بليغاً لقضية الصحّة. فعلى أساتذة الصحّة أن يذكروا أنّ إصلاح الطعام سيُحكم بشأنه إلى حدٍّ كبير بواسطة المؤونة التي يعدّونها لموائدهم، وبدلاً من اتخاذ نهج يجلب عليه العار، عليهم

أن يمثلوا مبادئه بحيث يقدمونها مثالاً للعقول المخلصة. ويوجد فريق كبير سيقاومون أيّة حركة للإصلاح مهما تكن معقولة إذا كانت تنطوي على تقييد للنهم. إنّهم يستشيرون ذوقهم بدلاً من استشارة عقولهم أو قوانين الصحّة. هذا الفريق يحسب كلّ من يحيدون عن طريق العُرف المطروق ويناصرون الإصلاح قوماً متطرّفين مهما يكن مسلكهم مناسباً أو لائقاً. وحتى لا يكون لهؤلاء الناس أساسٌ للانتقاد، فعلى رجال الصحّة ألاّ يحاولوا رؤية مقدار اختلافهم عن غيرهم بل عليهم أن يحاولوا التقرّب منهم بقدر الإمكان دون ما تضحية بالمبدأ.

وعندما يجنح من يناصرون الإصلاح الصحّي إلى حدّ التطرّف، فلا غرابة إذا كان كثيرون ممن يعتبرون هؤلاء الأشخاص ممثلين لمباديء الصحّة يرفضون الإصلاح كليّةً. فهذا التطرّف كثيراً ما يُحدث ضرراً في وقت قصير أكثر مما يمكن أن يصلحه الإنسان الذي يعيش ثابتاً مدى حياته.

إنّ الإصلاح الصحّي أساسه المباديء الواسعة والبعيدة المدى، وعلينا ألاّ نحقّر من شأنه بآرائنا وأعمالنا الضيّقة المتزمّتة. ولكن ينبغي ألاّ يسمحَ أحدٌ للمقاومة أو السخرية أو الرغبة في إرضاء الآخرين أو التأثير عليهم أن تحوّله عن المباديء الحقيقية أو تجعله ينظر إليها باستخفاف. إنّ من يخضعون لحكم المبدأ سيكونون ثابتين مستقرّي الرأي في الوقوف إلى جانب الحقّ، ومع هذا ففي كلّ معاشراتهم سيظهرون روحاً كريمة مسيحيّة واعتدالاً حقيقياً.

٧ المنبّهات والمخدّرات

تحت عنوان المنبّهات والمخدّرات توجد قائمة بتشكيلة عظيمة من المواد التي إذ تُستعمل جميعها كطعام أو شراب تهيّج المعدة وتسمّم الدمَ وتهيّج الأعصاب، فتعاطيها شرّ أكيد. إنّ الناس يطلبون الإثارةَ الناتجةَ عن المنبّهات لأنّ نتائجها مقبولة إلى حين. ولكن يوجد دائماً ردّ فعل. إنّ استعمال المنبّهاتِ غيرِ الطبيعيةِ يؤدّي دائماً إلى الإفراط، وهو عامل قوي في إثارة الانحطاط والانحلال الجسدي.

التوابل

في عصر السرعة هذا كلّما كان الطعام أقلّ إثارةً كان ذلك أفضل. التوابل ضارّة في طبيعتها، فالخردل والفلفل والبهارات والمخللات وغيرها مما يشبهّها تهيّج المعدة وتجعل الدمَ مضطّرباً محموماً وغيرَ نقي. فحالة الالتهاب التي تكون عليها معدة السكّير كثيراً ما تصوّر على أنّها تمثّل أثر المشروباتِ الكحوليّة. ومثل حالة الالتهاب هذه تحدث عندما يتعاطى الإنسان التوابل المهيّجة. وسرعان ما لا تقنع الشهيّة ولا تكتفي بالطعام العادي. والجسم يحسّ بحاجة وباشتهاء شيء اكثر إثارةً.

الشاي والقهوة

إنّ الشاي يعمل كمنبّه، وهو يُحدث السُكْرَ إلى حدّ ما. وعملَ القهوةِ وكثير من المشروبات المألوفة شبيه بذلك. وأوّل تأثير يحسّ به المتعاطي يكون مُبهجاً. وأعصاب المعدة تتنبّه وتنقل الاهتياج إلى المخّ وهذا بدوره يتنبّه ليوزع النشاط المتزايد إلى

القلب وينقل النشاط القصير الأمد إلى الجسم كلّه. فالتعب يُنسى ويبدو أنّ القوّة تزيد. والعقل يتنبه والتصوّر يصير أكثر وضوحاً وصفاءً ونشاطاً.

فبسبب هذه النتائج يظنّ كثيرون أنّ الشاي أو القهوة يحدثان خيراً عظيماً. ولكن هذا خطأ. فالشاي والقهوة لا يغذّيان الجسم، فتأثيرهما يحدث قبلما يكون هناك وقت للهضم وتحوّل الطعام إلى سائل، وما يبدو أنّه قوّة إنّما هو فقط اهتياج عصبي. فبعدما يزول تأثير المنبّه تضعف القوة غير الطبيعية والنتيجة هي درجة مطابقة من الخمول والضعف.

إنّ استعمال منبّهات الأعصاب هذه باستمرار يعقبه صداعٌ وأرقٌ وخفقانٌ في القلبِ وعسرَ هضمٍ ورعشة وشرورٌ كثيرة، لأنّها تنهك قوى الحياة. إنّ الأعصاب المجهدة تحتاج إلى الراحة والهدوء بدل التنبيه والإجهاد في العمل، والطبيعة تحتاج إلى وقت لاسترداد قواها المنهوكة. فحين تُثار قواها وتتنبّه باستعمال المنبّهات فإنّ عملاً أكثر يتمّ إلى حين، ولكن إذ يضعف الجسم من كثرة الاستعمال فبالتدريج يصير تنبيهُ القوى وإثارتُها إلى الدرجة المطلوبة أشدّ صعوبةً. وطلب المنبهات يصعب التحكّم فيه حتى تنهزمَ الإرادة ويبدو أنّه لا قوّة لها على إنكار الاشتهاء غير الطبيعي. ويكثر الطلب والإلحاح ويقوى للحصول على المنبّهات بحيث لا تعود الطبيعة المجهدة قادرة على الاستجابة.

عادة التدخين

التبغ سمّ بطيء مخاتل، ولكنّه عظيم الضرر جدّاً. وأيّاً يكن الشكل الذي به يتعاطاه الإنسان فهو يؤثر في البنية، وهو أكثر ضرراً لأن آثاره بطيئة، وفي الأوّل لا يكاد المدخن يحسّ بها. إنّه يثيرُ الأعصابَ ثم يصيبها بالشلل. وهو يضعف المخّ ويظلمه. وفي غالب الأحيان يؤثّر في الأعصاب بكيفيّة أقوى ممّا تفعل المشروبات الروحيّة. وهو أكثر مكراً ودهاءً، ومن الصعب محو آثارِه من الجسم. وتعاطيه يثير في النفس تعطشاً لتعاطي المسكر، وفي حالات كثيرة يضع الأساس لعادة إدمان الخمر.

إنّ التدخين متعبٌ ومكلّف وقذرٌ ومنجّسٌ لمن يستعمله وكريهٌ للآخرين. وإنّ من يتعاطونه يوجدون في كل مكان. فيندر أن تمرّ بين جمع من الناس إلاّ وترى مدخّناً ينفث نفَسَه المُسمّم في وجهك. إنّه أمرٌ مقبض وضارٌ بالصحّة أن يظلّ الإنسان في عربة سكّة حديد، أو غرفة هواؤها محمّل بأبخرة الخمر أو التبغ. ومع أنّ الناس يصرّون على تعاطي هذه السموم بأنفسهم فأيّ حقّ لهم في تلويث الهواء الذي يجب أن يتنفّسه الآخرون؟

إنّ استعمال التبغ بين الأولاد والشباب يحدث أضراراً بالغة في خطورتها. ولابدّ أنّ تلك العادات الضارّة بالصحّة التي كانت متفشّية في الأجيال الماضية تؤثّر في صبية وشباب اليوم. كما أنّ العجز العقلي والضعف الجسماني واضطراب الأعصاب والاشتهاء أو التحرّق غير الطبيعي، كلّ هذا يتوارثه الأبناء عن آبائهم. ونفس تلك الأعمال والعادات التي يعملها الأولاد بعد آبائهم تجعل النتائج الوبيلة تتكاثر وتزداد رسوخاً. ولهذه العلّة يُعزى بدرجة ليست بقليلة الفساد الجسماني والعقلي والأدبي الذي بدأ يصير مبعث خوف عظيم وفزع شديد.

إنّ الصبيان يبدأون في التدخين في سنّ مبكرة جداً. والعادة التي تتكوّن هكذا عندما تكون لدي الجسم والعقل قابليّة لتأثيراتها تقوّض قوى الجسم وتبلّد العقل وتفسد الأخلاق.

ولكن ما الذي يمكن عمله لنعلّم الصبيان والشباب ونبصّرهم بشرور تلك العادة التي فيها يتمثّلون بالآباء والمعلّمين وخدّام الدين؟ إنّ الأولاد الصغار الذين لم يخرجوا من دور الطفولة إلاّ منذ عهد قريب يمكن رؤيتهم وهم يدخّنون سجائرهم. وإذا تكلّم معهم أحد في هذا الشأن يقولون: «إنّ أبي يستعمل التبغ ويدخّنه». وهم يشيرون إلى خادم الدين أو مدير مدرسة الأحد ويقولون: «إنّ هذا الرجل يدخّن فأي ضرر يلحقني لو تشبّهت به؟» وكثيرون من العاملين في جمعيات الاعتدال يدمنون التدخين. فأيّة قوّة لدى مثل هؤلاء الناس لوقف تقدّم إدمان هذه الأشياء.

إنّي أوجه كلامي إلى من يعترفون بأنّهم يؤمنون بكلمة الله ويطيعونها. هل يمكنكم كمسيحيين مدمنين عادة تشلّ عقولكم وتسلبكم قوّتكم أن تقدّروا الحقائق الأبديّة تقديراً صائباً؟ وهل يمكنكم أن ترضوا عن سلبكم لله كلّ يوم الخدمة التي هي من حقّه وسلب بني جنسكم الخدمة التي يمكنكم تقديمها لهم وقوّة القدوة الحسنة؟

وهل فكّرتم في مسؤوليتكم كوكلاء لله على الأموال التي بين أيديكم؟ كم تنفقون على التبغ من مال الرب؟ احسب مقدار ما صرفته على التبغ مدى حياتك. وما النسبة بين ما تنفقه على هذه الشهوة المدنّسة وبين ما تقدّمه لإسعاف المساكين ونشر الإنجيل؟

لا يوجد إنسان بحاجة إلى التبغ، ولكن جموعاً غفيرة من الناس يهلكون لحاجتهم إلى المال الذي يعتبر إنفاقه على التبغ أشرّ مما لو فقد. ألم تسيء استعمال مال الرب؟ ألست مذنباً بسلب الله وبني جنسك؟ ألاّ تعلمون أنّكم لستم لأنفسكم. «لأَنَّكُمْ قَدِ اشْتُرِيتُمْ بِثَمَنٍ. فَمَجِّدُوا اللهَ فِي أَجْسَادِكُمْ وَفِي أَرْوَاحِكُمُ الَّتِي هِيَ لِلهِ» (١كورنثوس ٦: ١٩و٢٠).

المشروبات المُسكرة

«الخمر مستهزئة. المسكر عجاج ومن يترنّح بهما فليس بحكيم. لمن الويل لمن الشقاوة لمن المخاصمات لمن الكرب لمن الجروح بلا سبب لمن ازمهرار العينين. للذين يدمنون الخمر الذين يدخلون في طلب الشراب الممزوج. لا تنظر إلى الخمر إذا احمرت حين تظهر حبابها في الكأس وساغت مرقرقة. في الآخر تلسع كالحيّة وتلدغ كالأفعوان» (أمثال ٢٠: ١؛٢٩: ٣٢).

إنّه لم يسبق ليد بشرية أن رسمت صورة أوضح من هذه عن الانحطاط والعبودية اللذين يعانيهما الإنسان الذي أوقع نفسه فريسة للمُسكر. فإذ يكون مُستعبداً ومنحطّاً فحتى عندما يستيقظ للإحساس بشقائه لا تكون عنده القوّة التي تساعده على التخلّص من الشَرَك. إنّه يعود يطلبها بعد (أمثال٢٣: ٣٥).

ولا حاجة بنا إلى إيراد الحجّة لنبرهن على شرّ آثار المُسكرات في السكّير. إنّ البشرية المُصابة بالعمى والتي سُلبت عقولُها فصارت حطاماً – النفوس التي قد مات المسيح لأجلها والتي يبكي الملائكة على شقائها – موجودة في كلّ مكان. إنّهم لطخة في جبين مدنيّتنا التي نفتخر ونعتزّ بها. هم عار ولعنة وخطر على كلّ بلد أو قطر يوجدون فيه.

ومن ذا الذي يستطيع أن يصوّر التعاسة والحزن واليأس المحتجبة في بيت السكير؟ فكّروا في الزوجة التي غالباً ما تكون متربّية تربية رقيقة، وذات إحساس رقيق ومتعلّمة ومثقّفة وقد ارتبطت برجل أحالته الخمر إلى إنسان سكّير أو شيطان. ثم فكّروا في الأولاد وقد حرموا من تمتّعات البيت ومن التعليم والتربية، ويعيشون في رعب دائم من ذاك الذي يجب أن يكون لهم فخراً وحصناً وهم يُحشَرون في العالم مجللين بالعار، وفي غالب الأحيان يرثون التحرّق والتعطّش إلى الخمر الذي يحسّ به والدهم السكير.

ثم فكّروا أيضاً في الكوارث المخيفة التي تقع كلّ يوم بسبب تأثير الخمر. ها هو سائق قطار سكة حديد يهمل الالتفات إلى الإشارة التي أمامه، أو يُحرّف أمراً صادراً إليه. فإذ يسير القطار وهو ينهب الأرض متقدّماً في طريقه يحدث تصادم وتهلك أرواح كثيرة. أو قد تصطدم إحدى البواخر بصخرة فيدفن البحارة والركاب في أعماق اليمّ. وعندما يجري تحقيق في ذلك الحادث يُكتشف أنّ واحداً ممن يشغلون مركزاً هاماً كان واقعاً تحت تأثير المُسكر. إلى أيّ مدى يمكن أن يدمن إنسانٌ شرب الخمر ولا يكون هنالك خطر من أن يُستأمن على أرواح الناس؟ إنّه لا يمكن أن يؤتمن إلاّ إذا أقلع عن تعاطي الخمر نهائياً.

شاربو الخمر باعتدال

يجب على من قد ورثوا الشهوة غير الطبيعية للمنبّهات ألاّ تقع أنظارهم على الخمر أو البيرة أو خمر التفّاح وألاّ تكون في متناول أيديهم، لأنّ هذا يعرّضهم للتجربة باستمرار. إنّ كثيرين إذ يعتبرون أنّ خمر التفّاح الحلو عديم الضرر، لا ينتابهم أيّ شكّ أو وسواس وهم يبتاعونه بحرّية. ولكنّه يبقى حلوا إلى حين وحينئذ يبدأ التخمّر. وإنّ الطعم الحادّ

الذي يحدثه حينئذ يجعل كثيرين يُقبلون على شربه بشغف، ولا يريد من يتعاطاه أن يعترف بأنّه قد صار ثقيلاً أو مختمراً.

ويوجد خطر على الصحّة حتى من تعاطي خمر عصير التفاح المُحلّى كما اعتادوا أن ينتجوه. فلو أمكن للناس أن يروا ما يكشف عنه المجهر بخصوص خمر التفاح التي يقبلون على شرائِها لما أقبل على شربها غيرُ نفرٍ قليل. وفي غالب الأحيان يحدث أنّ من يصنعون الخمر من التفّاح للسوق لا يهتّمون كثيراً بالحالة التي تكون عليها تلك الثمار المستخرج منها الخمر، وهكذا تُصنع الخمر من عصير التفّاح الذي أفسده الدود. والذين لا يفكّرون في الأكل من التفّاح السام الذي أتلفه الدود فصار معطوباً، أو الانتفاع به من أيّ وجه، يشربون الخمر المصنوعة منه ويعتبرونها لوناً من ألوان الترف، ولكنّ المجهر يبرهن على أنّ هذا المشروب المُسرُّ لا يصلح للشرب إطلاقاً حتى لو كان آتياً من المعصرة لتوّه.

إنّ الإنسان يسكر بكلّ يقين من الخمر والبيرة وخمر التفّاح كما يسكر من المشروبات الأقوى. وتعاطي هذه المشروبات يشحذ القابليّة لتعاطي المشروبات الأقوى وهكذا ترسخ عادة شرب الخمر في الإنسان. وشرب الخمر باعتدال هو المدرسة التي يتعلّم الناس فيها ليكونوا سكّيرين. ولكنّ عمل هذه المنبّهات الخفيفةُ مُخاتلٌ جدّاً بحيث يبدأ الإنسان السيرَ في الطريق المؤدّي إلى السكر قبلما تتنبّه الضحّية إلى خطره.

إنّ بعض من لا يُعتبرون سكّيرين حقيقة هم دائماً تحت تأثير المنبّهات الخفيفة. إنّهم مضطربون وغير راسخي العقول وغير متّزنين. وإذ يتصوّرون أنّهم في أمان فهم يتقدّمون أكثر فأكثر حتى ينقض كل سياج وينهدم، ويضحّوا بكلّ مبدأ. وأقوى العزائم تنهار، وأسمى الاعتبارات لا تكون كافية لإبقاء الشهوة المنحطّة تحت سيطرة العقل.

إنّ الكتاب لا يُبيح تعاطي الخمر المسكرة في أيّ جزء منه. والخمر التي صنعها المسيح من الماء في وليمة العرس في قانا الجليل كانت هي عصير العنب النقيّ. هذا

هو «السلاف (الذي) يوجد فِي الْعُنْقُودِ» الذي يقول الكتاب عنه: «لاَ تُهْلِكْهُ لأَنَّ فِيهِ بَرَكَةً» (إشعياء ٦٥:٨).

إنّ المسيح هو الذي قدّم للعبرانيين قديماً الإنذار القائل: «اَلْخَمْرُ مُسْتَهْزِئَةٌ الْمُسْكِرُ عَجَّاجٌ وَمَنْ يَتَرَنَّحُ بِهِمَا فَلَيْسَ بِحَكِيمٍ» (أمثال ٢٠: ١). وهو نفسه لم يقدّم مثل هذا المشروب. والشيطان يجرب الناس للانغماس في تعاطي الخمر الأمر الذي يظلم العقل ويخدّر المشاعر الروحيّة، ولكنّ المسيح يعلّمنا أن نخضع الطبيعة الدنيا. إنّه لا يمكن أن يقدّم للناس ما يمكن أن يكون تجربة لهم. لقد كانت حياته كلّها نموذجاً لإنكار الذات. ولكي يحطّم قوّة الشهوة احتمل لأجلنا أقسى امتحان أمكن للإنسانية أن تجوز فيه عندما صام أربعين يوماً في البرية. إنّ المسيح هو الذي أمر بألاّ يشرب يوحنا المعمدان خمراً ولا مسكراً. وهو فرض على امرأة منوح أن تمتنع عن كلّ هذه المشروبات. والمسيح لم يناقض تعاليمه. والخمر غير المختمرة التي قدّمها لضيوف العرس كانت شراباً صحّياً ومنعشاً. وهي نفس الخمر التي شرب منها المخلّص وتلاميذه لما مارسوا فريضة العشاء الرباني لاوّل مرة. وهي الخمر التي يجب أن تقدّم دائماً على مائدة العشاء الرباني كرمز لدم المخلّص. والمقصود بخدمة العشاء الرباني إنعاش النفوس وإحياؤها. وينبغي ألاّ يرتبط بها أيّ شيء يمكن أن يخدم الشرّ.

وفي نور ما تعلّم به الكتب المقدسة والطبيعة والعقل عن استخدام المسكرات أو تعاطيها كيف يمكن للمسيحيين أن يشتركوا في إقامة معامل لصنع البيرة أو صنع الخمر أو خمر التفّاح لتباع في السوق؟ فإذا كانوا يحبّون القريب كالنفس فكيف يساعدون على أن يضعوا في طريقه ما سيكون له شركاً؟

مسؤولية الوالديــن

إنّ عدم الاعتدال كثيراً ما يبدأ في البيت. فبسبب تناول الأطعمة الدسمة غير الصحّية تضعف أعضاء الهضم وينشأ في الإنسان شوق للحصول على طعام يكون أكثر تنبيهاً.

وهكذا تتدرّب القابليّة على أن تشتهي باستمرار شيئاً اقوى. وطلب المنبّهات يتزايد وتُمسي مقاومته أمراً أشدّ صعوبة. ويمتليء الجسم بالسمّ إنّ قليلاً أو كثيراً، وإذ يزيد ضعفاً يزيد شوقه إلى هذه الأشياء. إنّ خطوة واحدة في طريق الخطأ تُعدّ الطريق لخطوة أخرى. إنّ كثيرين ممن لا يريدون أن يكونوا آثمين في وضع الخمر أو أي مشروب مسكر من أيّ نوع على مائدتهم يثقّلون المائدة بطعام يخلق في نفوسهم شوقاً وتحرّقاً إلى المشروبات الروحيّة بحيث تبدو مقاومة تلك التجربة مستحيلة. فالعادات الخاطئة في الأكل والشرب تهدم الصحّة وتمهّد الطريق للسكر.

كان يمكن بعد قليل ألاّ تكون هنالك حاجة إلى حملات لأجل الاعتدال لو أمكن أن تغرس في نفوس الشباب، الذين يكّونون المجتمع ويشكّلونه، مباديء الاعتدال الصحيحة. ليبدأ الآباء حملة ضد الإدمان حول مواقدهم في المباديء التي يعلّمونها لأولادهم ليتبعوها منذ الطفولة ويمكنهم أن يؤملوا في النجاح.

ويوجد عمل للأمهات في مساعدتهنّ لأولادهنّ في تكوين عادات صائبة وأذواق نقيّة. درّبوا الشهيّة، وعلّموا أولادكم كراهة المنبّهات. ونشئّوا أولادكم على أن تكون لهم قوة أدبيّة لمقاومة الشرّ المحيط بهم. وعلّموهم ألاّ يكونوا تحت سيادة آخرين وأنّ عليهم ألاّ يستسلموا للمؤثرات القوية بل أن يؤثّروا على الآخرين للخير.

مسؤولية الفرد

توجد جهود عظيمة تُبذل للقضاء على عدم الاعتدال، ولكن يوجد جهد كثير لا يُوجّه الوجهة الصحيحة. فعلى دعاة الإصلاح والاعتدال والمدافعين عنه أن ينتبهوا إلى الشرور الناجمة عن الأكل من الطعام غير الصحّي والتوابل وشرب الشاي والقهوة. إنّنا ندعو بالتوفيق لجميع من يعملون لأجل الاعتدال، ولكنّنا ندعوهم لينظروا نظرةً أعمق إلى علّة الشرّ الذي يحاربونه وليتأكدوا من أنّهم مثابرون على الإصلاح وماضون فيه.

وينبغي ألاّ يغيب عن بال الناس أنّ الميزان الصحيح للقوى العقليّة والأدبيّة يتوقّف، بدرجة كبيرة، على الحالة الصحيحة لأجهزة الجسم. فكلّ المخدرات والمنبّهات غير الطبيعية التي تضعف الطبيعة الجسدية وتحقّرها تؤول إلى التقليل من حدّة الذكاء وجمال الخلق. إنّ عدم الاعتدال هو أساس الانحطاط الأخلاقي في العالم. وبسبب الانغماس في إشباع الشهيّة الفاسدة يخسر الإنسان القوّة على مقاومة التجربة.

إنّ المصلحين في حقل الاعتدال لديهم عمل يعملونه في تعليم الشعب في هذا المجال. علّموهم أنّ الصحة والأخلاق وحتى الحياة نفسها مستهدفة للخطر بسبب تعاطي المنبّهات التي تثير القوي المجهدة للقيام بنشاط غير طبيعي وتشنّجي.

وبالنسبة إلى الشاي والقهوة والتبغ والمشروبات الكحوليّة نقول إنّ المسلك الوحيد الآمن لكلّ إنسان هو ألاّ يمس أو يذوق أو يستخدم هذه الأشياء. إنّ الشايَ والقهوةَ والمشروباتِ تنعطف في نفس الاتجاه الذي تسير فيه المشروبات الكحوليّة والتبغ. وفي بعض الحالات يصعب التحرر من العادة بقدر ما يصعب على السكّير أن يتخلّص من المسكرات. والذين يحاولون التخلّص من هذه المنبّهات سيحسّون لبعض الوقت بخسارة ويتألّمون بسبب حرمانهم منها. ولكن بفضل التصميم وثبات العزم سينتصرون على ذلك الاشتهاء ولن يشعروا بالاحتياج إليها. يمكن للطبيعة أن تحتاج إلى وقت قصير لتستفيق من الإنهاك الذي وقع عليها، ولكن أعطوها فرصة فتستردّ قواها من جديد وتقوم بعملها بأحسن وأنبل كيفيّة.

٨ المتاجرة بالخمور وتحريمها

«ويل لمن يبني بيته بغير عدل وعلاليه بغير حقّ .. القائل أبني لنفسي بيتاً وسيعاً وعلالي فسيحة ويشقّ لنفسه كوى ويسقف بأرز ويدهن بمغرة. هل تملك لأنّك أنت تحاذي الأرز .. لأن عينيك وقلبك ليست إلاّ على خطفك وعلى الدم الزكي لتسفكه وعلى الاغتصاب والظلم لتعملهما» (رميا٢٢: ١٣-١٧).

عمل بائع الخمور

هذا الفصل الكتابي يصوّر لنا من يصنعون الخمر ويبيعون المسكر. إنّ عملهم معناه السلب. لأنّ المال الذي يأخذونه لا يعطون شيئاً في مقابله. وكلّ ريال يضيفونه إلى مكاسبهم قد جلب اللعنة على من قد أنفقه.

لقد منح الله هباتِه لبني الإنسان بيد سخيّة. فلو أُنفقت هباتُه بحكمة فما كان أقلّ ما يعرفه العالم من الفاقة أو الضيق! إنّ شرّ الناس هو الذي يحوّل بركاتِه تعالى إلى لعنة. وبسبب الطمع في الربح القبيح وشهوة الأكل والشرب تتحوّل الحبوب والثمار المعطاة لنا لإعالة أجسامنا إلى سموم تجلب الشقاء والدمار.

ففي كلّ عام تُستنفَد ملايين من جالونات المشروبات المُسكرة. وملايين فوق ملايين من الدنانير تُنفق في شراء الشقاء والفقر والمرض والانحطاط والشهوات والجرائم

والموت. ففي سبيل الربح يُقدّم بائع الخمور لضحاياه ما هو كفيل بإفساد العقل والجسم وإهلاكهما. وهو يجرّ على عائلة السكّير الفقر والشقاء والتعاسة.

وعندما تموت ضحيّته لا يكفّ بائع الروم عن الاغتصاب فهو يسلب الأرملة ويلجيء الأولاد إلى الاستجداء. وهو لا يتردد في أن يسلب العائلة المنكوبة ضروريات الحياة إيفاء للديون المسجلة على الزوج والأب. وصرخات الأولاد المتألّمين ودموع الأمّ الحزينة تسخطه عليهم فقط. وماذا يهمّه هو إذا كان هؤلاء المتألّمون يموتون جوعاً؟ وماذا يهمّه إذا كانوا ينساقون هم أيضاً إلى الانحطاط والهلاك؟ إنّه يغتني مما يأخذه من القليل الذي يملكه الذين يقودهم إلى الهلاك.

إنّ بيوت الدعارة ومغاور الرذيلة ومحاكم الجنايات والسجون وبيوت الإحسان ومصحّات مرضى العقول، والمستشفيات ملأى، إلى حدّ كبير نتيجة لعمل بائع الخمور. فكبابل الروحيّة الرمزية هو يبيع «أجساد ونفوس الناس». وخلف بائع الخمر يقف مهلكُ النفوس العظيم. وكلّ حيلة يمكن للأرض أو الجحيم أن تبتكرها تُستخدَم لاجتذاب نفوس الناس تحت سلطانه. إنّ أشراك الشيطان تُنصب في المدينة، وفي الأرياف، وفي قاطرات سكة الحديد، وفي البواخر العظيمة، وفي أماكن العمل، وفي دور الملاهي، وفي المستوصفات، وحتى في الكنيسة وعلى مائدة العشاء المقدّسة. ولم يُترك شيءٌ إلاّ استُخدِم لخلق شهوة المُسكرات في النفوس وتشجيعها. ففي كلّ ركن تقريباً توجد الحانةُ بأنوارها المتلألئة وترحيبها وبشاشتها تدعو العمال والأثرياء العاطلين والشباب غير المتشككين.

وفي غرف الطعام الخاصة والأماكن الفخمة الأنيقة تُقدّم للسيدات مشروبات مألوفة بأسماء مُسرّة جذّابة وهي في حقيقتها مُسكرات. وتُقدّم للمرضى والمنهوكين المشروبات المعلن عنها في كلّ مكان أنّها مشروبات مسرّة وهي تتركّب على الأكثر من الكحول.

وحتى تُخلق القابليّة لشرب الخمر في نفوس الأطفال يُقدَم الكحول في الحلوى. ومثل هذه الحلوى تباع في الحوانيت. وإذ يقدم بائع الخمور هذه الحلوى إلى الأولاد يغويهم على الدخول إلى الحانات وشرب الخمر.

ويوماً فيوماً وشهراً فشهراً وسنة فسنة يسير العمل. والآباءُ والأزواجُ والأخوةُ الذين هم دعامة الأمة ورجاؤها يدخلون بمواظبة إلى حوانيت باعة المسكرات ليعودوا محطّمين ومفلسين.

ثمّ إنّ هذه اللعنة تُوجّه أرهبَ ضرباتِها إلى قلب البيت. إنّ نساءً كثيراتٍ يتعوّدنَ الآن شرب الخمر. وفي كثير من البيوت يتعرّض الأولاد الصغار وحتى الرضّع في براءتهم وعجزهم – يتعرّضون للخطر كلّ يوم عن طريق إهمال الأمهات السكّيرات وشتائمهنّ وقسوتهنّ. فالأبناء والبنات يشبّون تحت ظلّ هذا الشرّ الرهيب. فأيّ أمل يُرجى لهم في مستقبلهم إلاّ أن ينحدروا في السُكر إلى أبعد مما وصل إليه آباؤهم؟

ومن البلدان المدعوّة مسيحيّة تُحمل اللعنة إلى البلاد الوثنيّة. فالهمجيّون الجهلة المساكين يتعلّمون تعاطي الخمر. وحتى بين الوثنيين يعترف الناس الأذكياء ويحتجّون ضدّها على أنّها سمّ قتّال، ولكنّهم عبثاً حاولوا حماية بلادهم من تخريباتِها. فالشعوب المتمدّنة تُدخل التبغ والخمور والأفيون عنوةً إلى الشعوب والأمم الوثنيّة. إنّ شهوات المتوحّش الجامحة إذ تثيرها الخمر تجره إلى هاوية الانحطاط التي لم يسبق له أن عرفها، ويكاد إرسال مرسلين إلى تلك الدول يكون أمراً ميئوساً منه.

إنّ الوثنيين عن طريق معاشرتهم للشعوب الذين كان يجب أن يقدّموا لهم معرفة الله يُقادون إلى الرذائل التي تبرهن على أنّها مهلكة لقبائلَ وأجناسٍ بأكملها. وفي الأماكن المظلمة في الأرض نجد أنّ أهل الأمم المتمدنة مكروهون وممقوتون بسبب هذا.

مسؤولية الكنيسة

إنّ مصلحة الخمر هي قوّة في العالم. وتنحاز إليها قوّة متضافرة من المال والعادة والاشتهاء. والإنسان يحسّ بقوّتها حتى في الكنيسة. فالناس الذين كوّنوا ثرواتِهم بطريق مباشر أو غير مباشر من المتاجرة في الخمور هم أعضاء في الكنائس، وهم «في مركز حسن مرموق». وكثيرون منهم يقدّمون من أموالهم بسخاء لأعمال الخير العامة. وعطاياهم السخيّة وتبرعاتهم تساعد في إتمام مشاريع الكنيسة وإعالة خدّامها. وهم يتزعّمون الاعتبار الذي يُعطى لقوّة المال. والكنائس التي تقبل مثل هؤلاء الأعضاء هي في الواقع تساند تجارة الخمر. وفي أحيان كثيرة جداً لا تكون لدى الخادم الشجاعة التي بها يقف إلى جانب الحقّ. وهو لا يعلن لشعبه ما قاله الله عن عمل بائع الخمر. فلو تكلّم بصراحة فلابدّ أن يُغضب أعضاء كنيسته، ويُضحّي بشهرته وسمعته ويخسر مرتَّبه.

ولكن فوق محكمة الكنيسة توجد محكمة الله. فذاك الذي قد أعلن للقاتل الأول قائلا: «صَوْتُ دَمِ أَخِيكَ صَارِخٌ إِلَيَّ مِنَ الأَرْضِ» (تكوين٤: ١٠) لن يقبل تقدمات بائع المُسكر لتوضع على مذبحه. إنّ غضبَه يشتعل ضدّ من يحاولون أن يستروا جريمتهم برداء السخاء الريائي. إنّ أموالهم ملوّثة بالدم. واللعنة عليها.

«لِمَاذَا لِي كَثْرَةُ ذَبَائِحِكُمْ يَقُولُ الرَّبُّ .. حِينَمَا تَأْتُونَ لِتَظْهَرُوا أَمَامِي مَنْ طَلَبَ هذَا مِنْ أَيْدِيكُمْ أَنْ تَدُوسُوا دُورِي. بِتَقْدِمَةٌ باطلة... فحين تبسطون أيديكم أستر عيني عنكم وإن كثّرتم الصلاة لا أسمع. أيديكم ملآنة دما» (إشعياء ١:١١-١٥).

في مقدور السكّير أن يفعل شيئاً افضل. لقد أودعت بين يديه ودائعُ ووزناتٌ ليكرم بها الله ويبارك العالم، ولكنّ بني جنسه وضعوا شركاً لنفسه ووطّدوا أنفسهَم على انحطاطه. لقد عاشوا حياة التنعّم والرفاهية بينما ضحاياهم التعساء الذين قد سلبوهم يحتضنهم الفقرُ والشقاءُ. ولكنّ الله لابدّ أن يطالب بهذا، يطالب من قد أعان على الإسراع في جلب الشقاء على السكّير. فذاك الذي يملك في السموات لم يغب عن نظره العلّةُ الأولى أو

الأثرُ الأخيرُ للسكر. إنّ من يهتمّ بالطير ويكسو عشب الحقل لن يتغافل عن أولئك الذين خُلقوا على صورته واُشتروا بدمه بحيث لا يلتفت إلى صراخهم. فالله يلاحظ ويراقب كلّ هذا الشرّ الذي يؤيّد الجريمة وينشر الشقاء.

يمكن أنّ العالم والكنيسة يُبديان الاستحسان نحو الإنسان الذي قد جمع ثروته بتحقير النفس البشريّة. ويمكن أن يبتسموا لمن قد جرّ الناس خطوةً بعد خطوة في طريق العار والانحطاط. ولكنّ الله يلاحظ هذا كلّه ويقضي قضاءً عادلاً. قد يُعتبر بائع الخمور تاجراً ناجحاً في نظر العالم. أمّا الربّ فيقول: «ويل له». وستُسند إليه تهمةُ كونه علّة اليأس والشقاء والألم الذي حلّ بالعالم نتيجة المتاجرة في الخمور. ولن يستطيعَ الإجابة عن فاقة وشقاء الأمّهات والأطفال الذين قاسوا الأهوال إذ افتقروا إلى الطعام والكساء والمأوى ودفنوا كلّ رجاء فرح. لن يستطيع الإجابة عن النفوس التي قد أُلقي بها إلى الأبديّة على غير استعداد من جانبها. والذين يؤيدون بائع الخمر ويساندونه في عمله هم شركاؤه في الجُرم. وسيقول لهم الله: «أيديكم ملآنة دماً».

قوانين للترخيص بالخمر

إنّ كثيرين يدافعون عن الترخيص بالمتاجرة في الخمور بقولهم إنّ هذا يحدّ من شرّ الخمر. ولكنّ الترخيص بالمتاجرة فيها يضعها تحت حماية القانون. فالحكومة تصادق على بقاء الخمور، وهكذا تشجّع الشرّ الذي هي مدعوّة لتقييده. وتحت حماية قوانين الترخيص تقام مصانع البيرة ومعامل تقطير المُسكرات ومصانع الخمور في كلّ البلاد، ويثابر بائع الخمور على عمله تحت سمعنا وبصرنا وأمام بيوتنا.

وكثيراً ما يُنهَى عن بيع المُسكرات لمن هو سكران أو لمن يُعرف عنه أنّه سكّير مدمن. ولكنّ عملية جعل الشباب سكّيرين تسير متقدمةً إلى الأمام باطّراد. إنّ نفسَ حياةِ تجارةِ الخمور وبقاءها يتوقفان على خلق الشهوة لشرب الخمر في نفوس الشباب. فالشباب يُقادون خطوة فخطوة حتى ترسخ في نفوسهم عادة السكر ويحسّ الشاب بتعطّشٍ لشرب

الخمر ويحاول أن يـروي تعطّشهَ هـذا بأيّ ثمـن. إنّ إعطاء الخمـر للمدمـن يبـدو أخـفّ ضرراً، إذ أنّ إفلاسه وهلاكه يكون قد سبق فتقرر، ذلك أخفّ ضـرراً مـن أن نسـمح لزهـرة شبابنا أن ينغووا للهلاك عن طريق هذه العادة المخيفة.

إنّ في إباحة المتاجرة بالخمور تظلّ التجربة أبداً ماثلة أمـام مـن يحـاولون الإصلاح. لقد أُقيمت مؤسسـات فيها يمكـن مساعدة ضحايا الإدمـان حتـى ينتصروا علـى شهواتهم وحبّهم للخمر. وهذا عمل نبيل. ولكن طالما كان القانون يصادق علـى بيع الخمـور فإنّ المدمنين لا يحصلون فائدة كبيرة من ملاجيء السكّيرين هذه. وهم لا يستطيعون البقاء فيها دائماً. وعليهم أن يعودوا لأخذِ مكانـهم في المجتمـع. واشـتهاء المُسـكرات وإن يكـن قد أُخضع إلاّ أنّه لم يُستأصل تماماً.

إنّ الإنسان الـذي عنـده وحـش شرّير شـديد الأذى ومـع علمـه بطبيعتـه وميلـه يعطيـه الحرّيـة، هـو مسـؤول أمـام قـانون البـلاد عـن الشرّ الـذي يمكـن أن يحدثـه. في الشـرائع المُعطاة لإسرائيل أمر الربّ أنّه عندما تكون هناك بهيمة عُرف عنها أنّها مؤذية قد تسببت في موت إنسـان فلابدّ أنّ صاحبها يدفـع حياتَـه ثمناً لإهمالـه أو خُبثه. وعلـى نفس هـذا المبدأ فالحكومـة التـي تُعطـي رخصـةً لبـائع الخمـور يجـب أن تُعتبرُ مسـؤولةً عـن نتـائج استمرار تلك التجارة. وإذا كان إعطاء الحرّية لبهيمة مؤذية جريمـة تستحقّ المـوت فكـم تكون جريمة إباحة عمل بائع الخمور أعظمَ بما لا يقاس!

والتراخيص تُعطى بحجّة كونها تأتي بمـورد ثروة كبيرة إلى خزانـة الدولـة. ولكـن مـا قيمة هذا الدخل لو قورن بالكلفـة العظيمـة التـي تتكبّدها الدولـة في معالجـة المجرمين والمعتوهين والمتسوّلين الذين هم ثمرة المتاجرة بالخمور! ها إنسان واقع تحـت تأثير الخمر يرتكب جرماً. ويُؤتى به أمام منصّة القضاء ليُحاكم، وأولئك الذيـن رخّصـوا بتجـارة الخمور يضطرّون لمعالجة نتائج عملهم. لقد رخّصوا ببيع المشروبات التي تصيب الإنسـان

العاقل بالجنون. والآن يلزمهم أن يرسلوا الرجل إلى السجن أو إلى المشنقة، بينما تُترك زوجته وأولاده معدمين في الغالب ليكونوا عبئاً على المجتمع الذي يعيشون فيه.

فلدى التأمّل في الناحية الماليّة من المشكلة، أيّ جنون هو أن نبيح مثل هذه التجارة! ولكنّ أيّ مورد أو أيّ مال يمكن أن يعوّض عن ضياع عقل الإنسان، ومحو صورة الله في الإنسان وتشويهها، وفقر الأولاد الذين تصل بهم الحال إلى التسوّل والانحطاط، وترسخ في الميول الشريرة التي كانت في نفوس آبائهم السكّيرين؟

تحريم الخمر

إنّ الإنسان الذي تكونت في نفسه عادة تعاطي المسكرات هو في حالة ميئوس منها. فعقله أو دماغه مريض، وقوّة إرادته ضعيفة. ومن جهة أيّة قوّة في نفسه فإنّ شهوة الخمر فيه لا يمكن ضبطها أو التحكّم فيها. ولا يمكن محاجّته أو التفاهم معه أو إقناعه بأن ينكر نفسه. إنّ من قد عزم على الإقلاع عن السُكر، متى اُجتذب إلى مغاور الرذيلة، فهو يُقاد لأن يمسك بالكأس مرّة أخرى وإذ يذوق المُسكر فإنّ عزمه الصادق ينهزم لدي أوّل رشفة منه، وكلّ ما تبقّي فيه من قوّةِ إرادةٍ يتلاشى. فعند أوّل رشفةٍ من المشروب الذي يصيب متعاطيه بالجنون يتلاشى من نفسه كلُّ فكرٍ عن العواقب ويختفي. فالزوجة المنسحقة القلب تُنسى. وذلك الأب الفاجر لا يعود يكترث لأولاده إذا كانوا جياعاً أو عراة. فبواسطة الترخيص بالمتاجرة في الخمور يصادق القانون ويبيح هذا الانحدار النفسي ويرفض تعطيل هذه التجارة التي تملأ العالم بالشرّ.

وهل ينبغي أن يستمر الحال على هذا المنوال دائماً؟ وهل ستظلّ النفوس تكافح في سبيل النصرة، وباب التجربة مفتوح على مصراعيه أمامها أبداً؟ وهل لابدّ أن تجثم لعنة الادمان إلى الأبد كآفةٍ في العالم المتمدين؟ وهل لابدّ أن تظلّ تكتسح أمامها كلّ عام آلافاً من البيوت السعيدة كنار آكلة؟ عندما تتحطّم سفينة على مرأى من الشاطيء فالناس لا ينظرون إليها في بلادة أو جمود. ولكنّهم يخاطرون بأرواحهم في محاولتهم

إنقاذ الرجال والنساء الذين فيها حتى لا يبتلعهم اليمّ. فكم بالأحرى يجب أن يُبذل مجهودٌ لإنقاذهم من مصير السكّير!

ولكنّ الأمر لا يقتصر على السكّير وعائلته فقط الذين هم معرّضون للخطر بسبب عمل بائع الخمور، ولا عبء الضرائب هو الشرّ الوحيد الذي تجلبه تجارته على المجتمع. إنّنا جميعاً مرتبطون معاً في نسيج الإنسانية. فالشرّ الذي يحيق بأي جزء من الأخوَّة البشريّة العظيمة يجلب الخطر على الجميع.

كثيراً ما يحدث إنّ إنساناً بسبب ولعه بالمكاسب أو الراحة لا يريد أن يتدخّل للحدّ من تجارة الخمور، ولكنّه وجد بعد فوات الأوان أنّ هذه التجارة لها دخلٌ به. فلقد رأى أولاده وقد صاروا في ذهول وخراب. فالعصيان يتحوّل إلى عربدة. والممتلكات تتعرّض للخطر. والحياة لا تكون في أمان. والكوارث والفواجع التي تقع في البحر وعلى اليابسة تتكاثر. والأمراض تنتشر حيث توجد الأقذار. والتعاسة تشقّ لنفسها طريقاً إلى بيوت الأشراف المُترَفين. والرذائل التي يحتضنها أبناء الدعارة والفجور والجريمة تصيب بعدواها أبناء وبنات العائلات المهذّبة والمثقّفة.

لا يوجد إنسان إلاّ وتتعرّض مصالحُه للخطر بسبب تجارة الخمور. ولا يوجد إنسان إلاّ وينبغي له أن يعمل على القضاء على هذه التجارة حرصا على سلامته.

وأكثر من كلّ الأماكن الأخرى التي لها دخل بالمصالح الزمنيّة وحدها، يجب على دور التشريع ومحاكم العدل أن يتحرر رجالُها من لعنة الإدمان. فالحكّام وأعضاء مجالس الشيوخ والنواب والقضاة، الرجال الذين يسنّون شرائع الأمّة ويشرفون على إدارتها والذين بين أيديهم بنو جنسهم وسمعتهم الطيّبة وأموالهم ينبغي لهم أن يمتنعوا عن تعاطي الخمور امتناعاً باتاً. فبهذه الوسيلة وحدها يمكن أن تظلّ عقولهم صافيةً للتمييز بين الصواب والخطأ. وبهذه الوسيلة وحدها يمكن أن يكون عندهم ثبات على المبدأ وحكمة لإجراء العدل وإظهار الرحمة. ما الذي يثبته التقرير؟ وكم من هؤلاء الرجال

أظلمت عقولهم، وتشوّش إحساسهم بالصواب والخطأ فلم يميّزوا بينهما بسبب المُسكرات؟ وكم من مرة فُرضت القوانين الظالمة! وكم مرّة حُكم بالموت على الأبرياء بسبب الظلم الذي يرتكبه واضعو القوانين السكّيرون، والشهود والمحلّفون والمحامون وحتى القضاة! يوجد كثيرون هم «أبطال في شرب الخمر» وذوو «القدرة على مزج المسكر» ويقولون «للشرّ خيراً وللخير شرّاً»، الذين «يبررون الشرّير من أجل الرشوة وأمّا حقّ الصديقين فينزعونه منهم». يقول الله عن مثل هؤلاء: «ويل ..» لهم. «كما يأكل لهيب النار القشّ ويهبط الحشيش الملتهب يكون أصلهم كالعفونة ويصعد زهرهم كالغبار لأنّهم رذلوا شريعة ربّ الجنود واستهانوا بكلام قدوس إسرائيل» (إشعياء٥: ٢٢-٢٤).

إنّ كرامةَ الله واستقرارَ الأمّة وخيرَ المجتمع وخيرَ البيت وخيرَ الفرد تستدعي بذل كلِّ جهد ممكن في إيقاظ الناس لرؤية شرّ الإدمان. إنّنا سرعان ما نرى عاقبة هذا الشرّ الرهيب كما لا نراه الآن. من ذا الذي يبذل جهداً صادقاً ثابتاً لوقف عمل الهلاك؟ إنّ الصراع لم يبدأ فليُعبّأ جيش لوقف بيع المُسكرات التي توقع الناس في الجنون، وليوضّح للناس ضررُ المتاجرة بالخمور، وليُخلق شعورٌ بطلب تحريمها، وليُعطَ للناس الذين أفقدتهم الخمرُ عقولَهم فرصة للهروب من عبوديتهم، وليرفع أبناءُ الأمّةِ أصواتَهم طالبين من واضعي قوانينهم أن يوقفوا التجارة الشائنة.

« أَنْقِذِ الْمُنْقَادِينَ إِلَى الْمَوْتِ وَالْمَمْدُودِينَ لِلْقَتْلِ. لاَ تَمْنَعُ. إِنْ قُلْتَ هُوَذَا لَمْ نَعْرِفْ هذَا أَفَلاَ يَفْهَمُ وَازِنُ الْقُلُوبِ وَحَافِظُ نَفْسِكَ أَلاَ يَعْلَمُ. فَيَرُدُّ عَلَى الإِنْسَانِ مِثْلَ عَمَلِهِ » (أمثال ٢٤: ١١ و١٢)، و«مَاذَا تَقُولِينَ حِينَ يُعَاقِبُكِ » (إرميا ١٣: ٢١).

١ خدمة البيت

إنّ ردّ الإنسانية ورفعَها يبدأ من البيت. وعمل الوالدين هو أساس كلّ عمل آخر. فالمجتمع مكوّن من الأسر وهو يكون كما يصنعه رؤوس العائلات. إنّ من القلب «مَخَارِجَ الْحَيَاةِ» (أمثال٤: ٢٣). وقلب المجتمع والكنيسة والأمّة هو البيت. وخير المجتمع ونجاح الكنيسة وازدهار الأمّة ونجاحها، كلّ ذلك يتوقّف على مؤثّرات البيت.

إنّ فرص الحياة البيتيّة وأهميّتها ممثّلة في حياة يسوع. فذاك الذي أتى من السماء ليكون لنا مثالاً ومعلماً قضى ثلاثين سنةً كأحد أفراد البيت في الناصرة. والكتاب لا يُخبرنا بشيء عن هذه السنين إلاّ كلاماً موجزاً جدّاً. فلم تسترعِ انتباهَ الشعب معجزاتٌ عظيمة. ولم تتأثّر خطواتِه جموعٌ مشتاقة، ولاَ أصغت إلى أقواله. ومع ذلك فمدى هذه السنين كلّها كان يتمّم رسالته الإلهيّة. لقد عاش كواحد منّا مقاسماً الآخرين في الحياة البيتيّة، خاضعاً لنظامها، ومتمّماً واجباتِها، وحاملاً أثقالها. وفي الرعاية الواقية لبيت وضيع، وهو يُقاسمنا اختباراتِ حياتنا العاديّة، «كَانَ يَتَقَدَّمُ فِي الْحِكْمَةِ وَالْقَامَةِ وَالنِّعْمَةِ عِنْدَ اللهِ وَالنَّاسِ» (لوقا ٢: ٥٢).

ومدى سنيّ العزلة هذه كانت تفيض من حياته أنهارٌ من العطف والعون. إنّ إيثارَه وصبرَه واحتمالَه وشجاعتَه وأمانتَه ومقاومتَه للتجربة وسلامَه وفرحَه الهادىء كانت إلهاماً دائماً. لقد أدخل إلى البيت جوّاً نقيّاً وعذباً. وحياتُه كانت تشبه خميرة تعمل عملها في وسط عناصر المجتمع. لم يقل أحدٌ إنّه أجرى معجزة، ومع ذلك فإنّ القوّة – قوّة المحبّة المانحة الشفاء – كانت تخرج منه إلى المجرّبين والمرضى والخائري العزم. وبدون أن يبدو فضوليّاً خدم الآخرين منذ حداثتِه. وبسبب هذا فعندما بدأ خدمته العلنية كان الجمع الكثير يسمعه بسرور.

إنّ سنيّ المخلّص الباكرة هي أكثر من أن تكون مثالاً للشباب. فهي درس وينبغي أن تكون تشجيعاً لكلّ والد أو والدة. إنّ دائرة واجبات العائلة والبيئة هي أوّل حقل للخدمة لمن يرغبون في العمل لرفع شأن بني جنسهم. ولا يوجد حقل للعمل أهمّ من ذلك المُسلّم لمُؤسّسي البيت . لا يوجد عمل مُسّلم لخلائق بشريّة يتضمّن نتائج أعظمَ أو أبعد مدى من عمل الآباء والأمّهات.

إنّ الذين يقررون مستقبل المجتمع هم شباب اليوم وأولادُه. وإنّ ما سيصير إليه هؤلاء الشباب والأولاد يتوقّف على البيت. وإنّ الجزء الأكبرَ والأوفرَ من المرض والشقاء والجرائم التي هي لعنة على الإنسانيّة مرجعُه إلى نقص التربية البيتيّة. فلو كانت الحياة البيتيّة صادقة وكان الأولاد الخارجون من كنف البيت مؤهّلين لمواجهة تبعات الحياة ومخاطرها لكان التبدّل الذي يحدث ويُرى في العالم يبدو عظيماً!

إنّ جهوداً عظيمة تُبذل، فالوقت والمال والعمل تُنفق بدون حدود في مشاريع ومؤسسات لأجل إصلاح حال ضحايا العادات الشرّيرة. وحتى هذه الجهود لا تكفي لمواجهة الحاجة العظمى. ومع ذلك فما أتفَه النتيجة! وما أقلَّ من يُنقذَون نهائيّاً.

إنّ جماهيرَ كثيرةً من الناس يتوقون إلى حياة أفضل، إلاّ أنّه تعوزهم الشجاعة وقوّة العزيمة التي بها يتخلّصون من سلطان العادة. إنّهم يتراجعون فلا يبذلون مجهوداً ولا يكافحون ولا يُقدّمون على التضحية المطلوبة فتتحطّم حياتهم وتَهلك. وهكذا فحتى الناس ذوو العقول الذكيّة الممتازة والمطامح العالية والقوى النبيلة الذين، لولا موقفهم هذا لكانوا بالطبيعة والتهذيب مؤهّلين لأن يملأوا وظائف ذات ثقة ومسؤولية، ينحطّون ويهلكون في هذه الحياة والحياة الآتية.

ما أمرَّ الصراع الذي يشتبك فيه أولئك الذين يحاولون استرداد رجولتَهم! إنّ كثيرين من الناس في بنيتهم المحطمة طيلة حياتهم وإرادتهم المترنّحة وعقولهم الضعيفة وقوى

نفوسهم الواهنة يحصدون ثمار الشرّ الذي قد زرعوه. فما أكثر ما كان يمكن عمله لو عُولج الشرّ في باديء الأمر!

إنّ المسؤولين عن هذا العمل إلى حدّ كبير هم الآباء. ففي المحاولات التي تُبذل لوقف استشراء الإدمان وغيره من الشرور التي تنهش أحشاء المجتمع كالسرطان، لو وُجّه انتباهُ أعظم لتعليم الآباء كيف يصوغون عاداتِ أولادهم وأخلاقَهم لكانت النتيجة الصالحة لذلك تصل إلى مئة ضعف. فالعادة التي هي قوّة هائلة تناصر الشرّ، في مقدورهم أن يصيّروها قوّة للخير. فعليهم أن يعالجوا النهر من منبعه وواجبهم أن يوجّهوه الوجهة الصحيحة.

ويمكن للآباء أن يضعوا لأولادهم أساسَ حياة صحيّة سعيدة. فيمكنهم أن يرسلوهم إلى خارج بيوتهم مزوّدين بقوّة أدبيّة لمقاومة التجربة، وبشجاعة وقوّة لمصارعة مشاكل الحياة بنجاح كبير. وفي إمكانهم أن يلهموهم بالعزم وينمّوا في نفوسهم القوّة على جعل حياتهم سبباً في تمجيد الله وجلب البركة إلى العالم. وفي قدرتهم أن يصنعوا لأرجلهم مسالك مستقيمةً في نور النهار وفي ظلام الليل فيرتفعون إلى أعالي السماء المجيدة.

إنّ رسالةَ البيت تمتدّ إلى أبعد من أفراد العائلة. فيجب أن يكون البيت المسيحيّ مثالاً يمثّل ويصوّر سمّو المباديء الحقيقية للحياة. وهذه الصورة تصبح قوّة للخير في العالم. إنّ ما للبيت الأمين من تأثير في قلوب الناس وحياتهم هو أقوى من كلّ العظات التي تُلقى من على المنابر. فإذ يخرج الشباب من مثل هذا البيت فإنّهم يذيعون الدروس التي قد تعلّموها. وهكذا تدخل إلى البيوت الأخرى مباديء للحياة أسمى وأشرف، مما يؤول إلى بنيان المجتمع ورفع شأنه.

الكرم

ويوجد آخرون كثيرون يمكننا أن نجعل بيوتنا بركة لهم. إنّ ولائم السمرِ التي نقيمها ينبغي ألاّ تُأتمر بأوامر العرف العالمي، بل بأوامر المسيح وروحه وتعاليم كلمته. كان

الإسرائيليون في كلّ أفراحهم وأعيادهم يشملون بعطفهم وكرمهم الفقير والغريب واللاوي الذي كان مساعداً للكاهن في القدس كما كان معلّماً دينيّاً وكارزاً. كان هؤلاء يُعتبرون ضيوفاً على الشعب ليقاسموهم كرم ضيافتهم في مناسبات الأفراح الاجتماعية والدينية ولتُقدم لهم أرقّ رعاية في المرض أو الفقر. وعلينا نحن أن نرحّب بأمثال هؤلاء في بيوتنا. وما أعظم ما يمكن أن يُسرّ مثل هذا الترحيب ويشجع الممرضة المرسلة أو المعلّم أو الأمّ التي أضنت قلبها الهموم والتي تكدّ جاهدة في عملها، أو الضعفاء والعجزة الذين في الغالب ما يكونون مشردين بلا مأوى وهم يكافحون مع الفقر وكثير من المفشّلات.

ولقد قال المسيح: «إذا صنعت غداء أو عشاء فلا تدع أصدقاءك ولا إخوتك ولا أقرباءك ولا الجيران الأغنياء لئلا يدعوك هم أيضاً، فتكون لك مكافأة. بل إذا صنعت ضيافة فادعُ المساكين الجدع العرج العمي. فيكون لك الطوبى إذ ليس لهم حتى يكافوك لأنك تكافى في قيامة الأبرار» (لوقا١٤: ١٢-١٤).

هؤلاء هم الضيوف الذين لا تكلّفك استضافتهم كلفة عظيمة. فلن تكون بك حاجة أن تُعد لهم وليمة فاخرة أو مُكلفة، ولن تحتاج إلى عمل شيء للتفاخر. إنّ حرارة الترحيب السارّ، وإفساح مكان لضيف ليجلس أمام مدفأتك، أو للجلوس إلى مائدتك، أو امتياز اشتراكه معك في بركة ساعة الصلاة، ستبدو في نظر كثيرين من أمثال هؤلاء وكأنّها لمحة من سعادة السماء.

يجب أن تنبض عواطفُنا فتتعدّى حدود الذات ونطاق الدائرة العائليّة. توجد فرص ثمينة لمن يريدون أن يجعلوا بيوتهم بركة للغير. إنّ التأثير الاجتماعي قوّة مدهشة. وإذا أردنا يمكننا استخدامها كوسيلة لمساعدة من حولنا.

ينبغي أن تكون بيوتنا ملاذاً للشباب المُجرّبين. يوجد كثيرون ممن يقفون في مفترق الطرق. فكلّ تأثير وكلّ انطباع إنّما يقرّر الاختيار الذي يُشكّل مصيرهم هنا وفي الأبدية.

إنّ الشرّ يستهويهم. ومواطنَه لامعة ومنيرة وجذابة. وهي ترحّب بكلّ قادم إليها. ويوجد حولنا من كلّ جانب شباب لا مأوى لهم. وكثيرون لا يوجد في بيوتهم قوّة مساعدة تسمو بالنفس، لذلك ينساق الشباب إلى الشرّ. وهم ينحدرون إلى الهلاك ضمن ظلال أبواب بيوتنا.

هؤلاء الشباب هم بحاجة إلى يد عطوف تمتدّ إليهم. فكلمات الرقّة التي تقال ببساطة مع قليل من الاهتمام الذي يقدّم ببساطة كفيلة بأن تكتسح سحب التجارب التي تتجمّع في سماء النفس. إنّ التعبير الصادق للعطف الذي هو وليد السماء لديه القوّة على فتح القلوب التي هي بحاجة إلى عبير الكلام المسيحي واللمسة البسيطة الرقيقة، لمسة روح محبّة المسيح. فإذا أظهرنا الاهتمام بالشباب ودعوناهم إلى بيوتنا وأحطناهم بالمؤثرات المبهجة المُعيّنة فإنّ كثيرين منهم سيغيرون خطّ سيرهم، وبكلّ سرور يسيرون صعداً في طريق التقدّم.

فرص الحياة

إنّ مدّة وجودنا في هذا العالم قصيرة. ولا نجتاز في هذا الطريق غير مرّة واحدة. ففيما نحن سائرون لنستخدمَ الحياةَ أفضلَ استخدامٍ. والعمل الذي نحن مدعوون للقيام به لا يتطلّب مالاً أو مركزاً اجتماعياً أو مقدرة عظيمة. إنّما هو يتطلّب روحاً مشفقة منكرة لذاتها وعزماً وطيداً. إنّ المصباح مهما يكن صغيراً فلو حُفظ منيراً قد يكون واسطة في إنارة مصابيح أخرى كثيرة. قد يبدو محيط تأثيرنا ضيّقاً وقد تبدو مقدراتنا ضئيلة والفرص التي لدينا قليلة وعلومنا محدودة، ومع ذلك فإنّ لنا إمكانيات مدهشة عن طريق استخدامنا للفرص التي تتيحها بيوتنا بكلّ أمانة. فإذا فتحنا قلوبنا وبيوتنا للمباديء الإلهيّة للحياة فسنصير قنوات تجري فيها أنهار القوّة المُحيية. وستجري من بيوتنا ينابيع الشفاء مانحة الحياة والجمال والخصب حيث يوجد الآن الجدب والقحط.

٢ بناة البيت

إنّ ذاك الذي قد أعطى حواء لآدم لتكون له زوجةً ومعينةً أجرى أولى معجزاتِه في وليمة العرس. ففي بيت الوليمة حيث كان الأصدقاء والأقرباء يفرحون معاً بدأ المسيح خدمتَه الجهاريّة. وهكذا قدّس الزواج معترفاً بأنّه المؤسسة التي سنّها بنفسه. وهو الذي رسم أن يرتبط الرجال بالنساء بالزواج المقدّس ليكوّنوا عائلات، وإذ يتوّج أفرادُها بالكرامة يُعترف بهم كأعضاء في الأسرة السماويّة.

لقد أكرم المسيح صلة الزواج بجعله رمزاً للاتحاد بينه وبين مفديّيه. فهو نفسُه العريس، والعروس هي الكنيسة، وهي المختارة منه التي قال عنها: «كلك جميل يا حبيبتي ليس فيك عيبة» (نشيد الأنشاد ٤:٧).

«أَحَبَّ الْمَسِيحُ أَيْضًا الْكَنِيسَةَ وَأَسْلَمَ نَفْسَهُ لأَجْلِهَا، لِكَيْ يُقَدِّسَهَا، مُطَهِّرًا إِيَّاهَا .. لتكون مُقَدَّسَةً وَبِلاَ عَيْبٍ، كذلك يجب على الرجال أن يحبوا نساءهم» (أفسس٥: ٢٥-٢٨).

إنّ الرباط العائلي هو أوثق وأرقّ وأقدس كلّ الربط التي على الأرض. وكان القصد منه أن يكون بركة لبني الإنسان. وهو فعلاً بركة أينما يدخل الناس في عهد الزواج بفطنة في خوف الله وبالتقدير اللائق لتبعاته.

فعلى من يفكّرون في الزواج أن يتأمّلوا في ماذا ستكون صفة البيت الذي سيبنونه وتأثيره. وعندما يصيرون والدين تُسلَّم إليهم عهدة مقدّسة. فعليهم، إلى حدّ كبير، يتوقّف نجاح وسعادة أولادهم في هذا العالم وسعادتهم في العالم الآتي. وهم، إلى حدّ كبير،

يقررون الطابع الجسماني والأدبي الذي سيطبعون به أولادهم. وعلى صفة البيت تتوقّف حالة المجتمع، وسيقرّر ثقل تأثير كلّ عائلة ما إذا كانت كفّة الميزان ستهبط أو سترتفع.

إنّ اختيار شريك الحياة يجب أن يكون بحيث يكفل الخير الجسماني والعقلي والروحي للوالدين ولأولادهم، ويجعل الوالدين والأولاد يصيرون بركة لبني جنسهم ويكرمون خالقهم.

على الشبّان والشابّات، قبلما يأخذون على عاتقهم التبعات التي يقتضيها الزواج، أن يكون عندهم اختبارٌ في الحياة العمليّة يعدّهم لواجباته وأعبائه. وينبغي عدم تشجيع الشباب على الزواج المبكّر. فهذا الارتباط الهامّ جدّاً كالزواج والبعيد المدى في نتائجه ينبغي عدم اقتحامه بتسرّع بدون استعداد كافٍ وقبلما تنمو القوى العقلية والجسمانية النمو المطلوب.

قد لا يملك الطرفان ثروة عالميّة، ولكن ينبغي أن تكون لديهما البركةُ الأعظم وهي بركة الصحّة. وفي معظم الحالات ينبغي ألاّ يكون هنالك تفاوت كبير في السنّ. وقد ينتج عن إهمال هذا القانون نتائج خطيرة إذ تتلف صحّة أصغرهما سناً. وغالباً ما يُحرم الأولاد من القوّة الجسمانيّة والعقليّة. فهم لا يمكنهم أن يظفروا من الأمّ أو الأب المتقدّم في العمر بالرعاية والزمالة التي تتطلّبها أيّام حداثتهم، وقد يُثكلون بموت أبيهم أو أمّهم في نفس الوقت الذي يكونون فيه في أشدّ الحاجة إلى الحبّ والإرشاد.

ولاّ يمكن عقد رباط الزواج بأمان إلاّ في المسيح. فالمحبّة البشريّة ينبغي أن تستمدّ أقوى ارتباطاتها من محبّة الله. إنّما حيث يملك المسيح فقط توجد المحبّة العميقة التي لا تطلب ما لنفسها.

الحبّ هبة ثمينة ننالها من يسوع. فالحبّ الطاهر المقدّس ليس إحساساً ولكنّه مبدأ. والذين يحرّكهم الحبّ الصادق لا يمكن أن يكونوا غير معقولين أو عمياناً. فحيث أنّهم متعلّمون من الروح القدس فإنّهم يحبّون الله أسمى محبّة ويحبّون القريب كالنفس.

فعلى من يفكّرون في الزواج أن يتفهّموا مليّاً كلّ مبدأ ويراقبوا كلّ تطوّر في خُلق الشخص الذي يفكرون في ربط مصيرهم بمصيره مدى الحياة. يجب أن تتّسم كلّ خطوة يخطونها نحو الزواج بالوداعة والحشمة والبساطة والعزم الصادق الجادّ لإرضاء الله وإكرامه. إنّ الزواج يؤثّر في الحياة المستقبلة في هذا العالم والعالم الآتي. والمسيحي المخلص لا يرسم خطّة لا يقرّها الله.

وإذا كنت قد بوركت بوالدين يخافان الله فاستشِرْهما. واكشف لهما عن آمالك وخططك، وتعلّم منهما الدروس التي قد تعلّماها من اختبارهما مدى الحياة فتُخلّص نفسك من أحزان كثيرة. وفوق الكلّ اجعل المسيح ناصحاً لك ومشيراً. وادرس كلمته في روح الصلاة.

وتحت هذا الإرشاد لتقبل الشابّة شريكاً لحياتها الشابَّ الذي يزدان بصفات الرجولة والطهارة، الشاب المجدّ الطموح الأمين والذي يحبّ الله ويتّقيه. ليطلب الشابّ شابّة تقف إلى جانبه تكون مؤهّلة لمقاسمته أعباء الحياة، والتي يرفع تأثيرَها من قدره ويهذّبه والتي تجعله يسعدُ بحبّها له.

«أمّا الزوجة المتعقلة فمن عند الرب» (أمثال١٩: ١٤)، «بها يثق قلب زوجها .. تصنع له خيراً لا شراً كل أيام حياتها» «تفتح فمها بالحكمة وفي لسانها سنة المعروف. تراقب طرق أهل بيتها ولا تأكل خبز الكسل. يقوم أولادها ويطوبونها. زوجها أيضاً فيمدحها قائلاً: «بنات كثيرات عملن فضلاً أما أنت ففقت عليهنّ جميعاً» (أمثال٣١: ١١ و١٢ و٢٦-٢٩). إن من يظفر بمثل هذه الزوجة «يجد خيراً وينال رضى من الرب» (أمثال ١٨:٢٢).

الاختبار التالي

ومع أنّ الأزواج يُقدمون على الزواج بكلّ حرص وحكمة فإنّ أزواجاً قليلين يكون ارتباطهم كاملاً عند انتهاء حفل الزفاف. فإنّ الاتّحاد والارتباط الحقيقي للزوجين في القران يتمّ في السنوات التالية.

وإذ يواجه الزوجان الحديثا العهد بالزواج حملَ الارتباك والهمّ في حياتهما فإنّ الصورة الخياليّة الجميلة التي كانا يضفيانها على الزواج تختفي. وكلّ من الزوج والزوجة يفهم أخلاق الآخر، الأمر الذي كان يستحيل عليهما معرفته عند معاشرتهما السابقة. وهذه هي أحرج فترة في اختبارهما. وإنّ السعادة والنفع اللذين سيلازمان حياتهما المستقبلة يتوقّفان على انتهاجهما الطريق الصائب الآن. وفي الغالب ما يلاحظُ كلٌّ منهما في الآخر ضعفاتٍ ونقائصَ لم يكنُ يشتبه فيها، ولكنّ القلبين اللذين وحّدت بينهما المحبّة سيكتشفان تفوّقاً وجمالاً لم يسبق لهما أن عرفاه. فليجتهد الجميع في اكتشاف الكمالات والفضائل لا النقائص. وكثيراً ما يكون موقفنا أي الجو المحيط بنفوسنا هو الذي يقرّر ما سينكشف لنا في حياة الشخص الآخر. يوجد كثيرون ممن يعتبرون الإفصاح عن المحبّة ضعفاً، وهكذا يعتصمون بالتحفّظ الذي ينفّر الآخرين. هذه الروح تصدّ اندفاق تيّار العطف. فإذ تُكبت النوازع الاجتماعيّة الكريمة فهي تذوى وتذبل فيصير القلب مستوحشاً وبارداً. فيجب أن نتحفّظ ونحترس من هذه الغلطة. إنّ المحبّة لا تدوم طويلاً إذا لم يُعبّر الإنسان عنها. فلا تجعل قلب الشخص المرتبط بك يتضوّر جوعاً لعدم وجود حنان أو عطف في قلبك.

المحبّة تنتصر

ومع أنّ الصعوباتِ والارتباكاتِ والمشكّلاتِ تعترض طريق الزوجين فينبغي ألاّ يظنّ الزوج أو الزوجة أنّ ارتباطهما كان غلطة أو فشلاً، ولا يخطرنّ ذلك على بال أحدهما. إعزما أن يبذل كلّ واحد منكما قُصارى جهدِه لأجل الآخر بل عليكما بالاستمرار في اهتمامكما وتقديركما السابقين. وبكلّ وسيلة ليُشجّع كلّ منكما الآخر على خوض معارك الحياة. وليجتهد كلّ منكما في زيادة إسعاد الآخر، وليكن بينكما حبّ وصبر واحتمال متبادل. وحينئذ فبدلاً من أن يكون الزواج هو انتهاء الحبّ سيكون هو بدء الحبّ كما هو الواقع. إنّ حرارة الصداقة الأمينة والمحبّة التي تربط قلبا بقلب هما عربون محبّة السماء.

توجد حول كلّ عائلة دائرة مقدّسة، وينبغي أن تظلّ سليمة غير منفصمة. ولا حقّ لأيّ إنسان آخر أن يقتحم تلك الدائرة. وينبغي ألاّ يسمحَ الزوج أو الزوجة لأيّ شخص غريب أن يشاركهما في الاطلاع على أسرارهما الخاصّة بهما وحدهما.

وعلى كلّ من الزوجين أن يقدّم الحبّ للآخر لا أن يفرضه عليه، وعليكما أن تغرسا في أنفسكما أنبل الفضائل وأكرمها وأن يسرع كلّ منكما في الاعتراف بالصفات الحميدة التي في قرينه. إنّ إحساس الإنسان بأنّ الآخر يقدّره هو منبّه قويّ وأمر مشبع للنفس يشيع فيها الرضى. والعطف والاحترام يشجعان على الاجتهاد في بلوغ الكمال والسموّ، والمحبّة نفسها تزداد عندما تنشّط الإنسان على الوصول إلى أهداف أنبل.

وينبغي ألاّ يدمجَ أحد الزوجين شخصيّته في شخصيّة الآخر. فلكلّ منهما علاقة شخصية بالله. وعلى كلّ منهما أن يسأل الله قائلا: «ما هو الصواب، وما هو الخطأ؟» «وكيف يمكنني تحقيق هذا الغرض بأفضل كيفيّة؟» اجعل غنى محبّتك تفيض نحو من بذل نفسه لأجلك. اجعل المسيح الأوّل والآخر والأفضل في كلّ شيء. وإذ تصير محبّتك له أعمق وأقوى فإنّ محبّة كلّ منكما للآخر تصير أنقى وأشدّ.

إنّ الروحَ التي يُظهرها المسيح نحونا هي الروح التي ينبغي لكلّ من الزوج والزوجة أن يُظهرها للآخر، «كَمَا أَحَبَّنَا الْمَسِيحُ أَيْضاً» «اسْلُكُوا فِي الْمَحَبَّةِ». «كَمَا تَخْضَعُ الْكَنِيسَةُ لِلْمَسِيحِ، كَذلِكَ النِّسَاءُ لِرِجَالِهِنَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ. أَيُّهَا الرِّجَالُ، أَحِبُّوا نِسَاءَكُمْ كَمَا أَحَبَّ الْمَسِيحُ أَيْضًا الْكَنِيسَةَ وَأَسْلَمَ نَفْسَهُ لأَجْلِهَا » (افسس٥: ٢ و٢٤و٢٥).

وينبغي ألاّ يحاول أيّ من الزوجين أن يفرضَ على الآخر سلطةً تعسّفية. ويجب ألاّ يحاول أيّ منكما إرغام الآخر على الخضوع لرغباته. لا يمكنكما عمل هذا وفي نفس الوقت يحتفظ كلّ منكما بمحبّة الآخر. كونا مشفقين صبورين ومحتملين ومنصفين ولطيفين. وبنعمة الله يمكن لكلّ منكما أن يفلحَ في إسعاد الآخر كما قد تعهّدتما عند زواجكما.

السعادة في الخدمة

ولكن اذكروا أنّ السعادة لا توجد في انطوائكم على أنفسكم، قانعين بأن يسكب كلّ منكم محبّتَه على الآخر، بل عليكم بانتهاز كلّ فرصة في العمل على إسعاد من حولكم. ثم اذكروا أنّ الفرحَ الحقيقيَّ يوجد فقط حيث الخدمة في غير أثَرَة.

إنّ الاحتمالَ والإيثارَ هما الطابع الذي تتميّز به أقوال وأعمال كلّ من يعيشون الحياةَ الجديدةَ في المسيح. وإذ تجتهدون في أن تعيشوا كما قد عاش، محاولين قهر الذات والأثْرة، وأن تخدموا حاجات الآخرين، فستحرزون نصرةً في إثْرِ نصرة. وهكذا تباركون العالمَ بتأثيركم.

ويمكن للرجال والنساء أن يصلوا إلى المثل الأعلى الذي وضعه الله لهم لو استعانوا بقوّة المسيح. فما لا تستطيع الحكمة البشريّة أن تحققه يمكن لنعمته أن تتمّمه لمن يسلّمون ذواتِهم له في ثقة ومحبّة. وتستطيع عنايتُه أن تربط القلوب بربُط سماويّة. والمحبّة لا تكون مجرّد تبادل بعض الكلمات الناعمة والتملّقات. إنّ منسج السماء ينسج بالسدى (السداة) واللحمةَ نسيجا أرفع، وفي نفس الوقت أمتن، من أيّ نسيج تنسجه الأرض. والنتيجة ليست هي صناعة نسيج من القماش بل صوغَ صفاتٍ مميّزة تحتمل الامتحان والتجربة. فالقلب يرتبط بالقلب بربط المحبّة الذهبيّة الدائمة.

«إنّ البيت الهادىء أغلى وأفضل من الذهب حيث تتجمّع كل عواطف المحبّة أمام المدفأة. إنّ مقدس المحبّة وسماء الحياة إذ تقدّسهما الأمّ أو الأخت أو الزوجة، فمهما يكن البيت وضيعاً أو مجرّباً بأحزان سمحت بها السماء، فالبركات التي لم تُشتَر قطّ ولم تُبع قطّ، وتتركّز هناك، هي أفضل من الذهب».

٣ اختيار البيت وإعداده

إنّ الإنجيل هو مُبَسِّط مُدهش لمشاكل الحياة. فلو أطعنا تعاليمه لوجدنا حلاً لكثير من الأمور المُربكة ولأُنقذنا من أخطاء كثيرة. فهو يُعلّمنا أن نقدّر الأشياء بقيمتها الحقيقيّة ونبذل أقصى جهودنا في الأشياء التي لها أعظم قيمة – الأشياء الباقية. هذا الدرس يحتاج إلى تعلّمه أولئك الذين تقع على عواتقهم مسؤوليّة اختيار البيت. فيجب ألاّ يسمحوا لأنفسهم بالانحراف عن الغرض الأسمى. وليذكروا أنّ البيتَ الأرضي يجب أن يكون رمزاً وإعداداً للبيت الذي في السماء. فالحياة مدرسة للتدريب والتعليم يتخرّج فيها الآباء والأولاد ليدخلوا المدرسةَ العاليةَ في مساكن الله. وعند البحث عن موقعٍ مناسبٍ لبيت فليوجّه هذا الغرض اختيارَ الإنسان. لا تسمح لشهوة الغنى بأن تتحكّم فيك ولا كذلك مطالب الموضة أو عادات المجتمع. بل فكّر فيما من شأنه أن ينتهي بك بالأكثر إلي البساطة والطهارة والصحّة والقيمة الحقيقيّة.

في كلّ أرجاء العالم صارت المدن مرتعاً للرذيلة. وفي كلّ مكان توجد مناظر الشرِّ وضوضاؤه. وفي كلّ مكان توجد المغريات الشهوانيّة والخلاعة. إنّ تيار الفساد والجريمة يعجّ ويطمو بلا انقطاع. وكلّ يوم يحمل إلينا أنباء الاغتصاب والظلم – من سرقات إلي جرائم القتل إلى حوادث الانتحار وغيرها من الجرائم التي لا حصر لها.

إنّ الحياةَ في المدن كاذبة ومصطنعة. فالشهوة الطاغية في سبيل اقتناء الثروة، ودوّامة الإثارة، والاهتياج وطلبُ المسرّاتِ والتعطّش إلي التفاخر والمباهاة والترف والإسراف، كلّ هذه قوات تعمل على تحويل عقول جموعٍ غفيرةٍ من بني الإنسان عن

الغرض الحقيقي للحياة. وهي تفتح الطريق أمام شرورٍ لا حصر لها. وأنّ لها على الشباب قوّةً لا يكادون يقوون على مقاومتها.

ومن بين أخبث التجارب وأخطرها التي تهاجم الأولاد والشباب محبّة الملذّات. فأيّام العطلة كثيرة والألعاب وسباق الخيل تجتذب الآلاف، ودوّامة الاهتياج والسرور تجتذبهم بعيداً عن واجبات الحياة الرشيدة. والمال الذي كان يجب أن يُدّخر لصرفه في أشياء أفضل يُبذر على التسليات.

وعن طريق عمل شركات الاحتكار ونتائج نقابات العمال والإضرابات تبدو الحياة في المدينة أشقّ مما كانت باستمرار ويوماً بعد يوم. إنّ أمامَنا اضطراباتٌ خطيرة، والنزوح عن المدينة سيصبح أمراً لا مندوحة عنه لكثير من العائلات.

والبيئةُ الطبيعيةَ في المدن غالباً ما تكون خطراً على الصحّة. فالتعرّض المستمرّ للإصابة بعدوى المرض، وانتشار الهواء الفاسد والماء الملوث والطعام القذر، والمساكن المزدحمة بالسكان والمظلمة وغير الصحيّة، هي قليل من كثير من الشرور التي يلاقيها الناس.

لم يكن قصد الله أن يُحشر الناسَ في المدن في الشرفات والمساكن. ففي بدء الخليقة وُضِع أبوانا في وسط المناظر الجميلة والأصوات التي يرغب في أن نفرح بها في هذه الأيّام. فكلّما زدنا قرباً من الانسجام مع تدبير الله الأصلي كان موقفُنا أكثرَ توافقاً للحصول على صحّة البدن والعقل والنفس.

إنّ الحصول على مسكنٍ غالي التكاليف والأثاثاتِ المتقنةِ الصنع والتفاخر والترف والراحة لا تكفل الشروطَ الجوهريّة لضمان حياة سعيدة نافعة. لقد أتى يسوع إلي هذه الأرض ليتمّم أعظمَ عمل يمكن إتمامه بين الناس. لقد جاء كسفير الله ليعلّمنا كيف نعيش بحيث نحصل على أفضل نتائج الحياة. فماذا كانت الظروف التي قد اختارها الآب السرمديّ لابنه؟ بيتٌ يقع بين تلال الجليل وعائلةً تُعال بالعمل الأمين الشريف، وحياة

البساطة، والصراعُ مع الصعوبات والمشقّات كل يوم، وإنكارُ الذات والاقتصاد والخدمةُ الصابرة المُبهجة، وساعةُ للدرس إلى جوار أمّه مع السفر المقدّس المفتوح، وسكونُ الفجر ونورُ الغسق في الوادي اليانع، وخدماتُ الطبيعة المقدّسة، ودراسةُ أعمال الخلق والعناية الإلهيّة، وشركةُ النفس مع الله – كانت هذه هي الحالات والفرص في حياة يسوع الباكرة.

وقد كانت هذه الحال مع الغالبية العظمى من أفضل الناس وأشرفهم في كلّ العصور. اقرأ تاريخ إبراهيم ويعقوب ويوسف وموسى وداود وأليشع. ثم ادرس حياة رجال العصور المتأخّرة الذين بكلّ جدارة ملأوا مراكزهم ذات الثقة والمسؤولية، الرجال الذين كان لهم تأثير عظيم في رفع شأن العالم.

كم من هؤلاء تربّوا في بيوت ريفيّة. إنّهم لم يعرفوا من الترف إلاّ النزر اليسير. فلم ينفقوا شبابهم في التسليات. إنّ كثيرين منهم كانوا مُجبرين على مكافحة المشقّات والفقر. ومنذ صباهم تعلّموا أن يشتغلوا، وقد منحتهم حياتهم النشيطة في الهواء الطلق نشاطاً ومرونة لكلّ قواهم. فإذ كانوا مضطرّين للاعتماد على مواردهم تعلّموا أن يصارعوا الصعوبات وينازلوها ويتخطوا العقبات، فاكتسبوا شجاعة ومثابرة. وقد تعلّموا أيضاً درس الاعتماد على الذات وضبط النفس. فإذ كانوا إلى حدّ كبير مصونين من المعاشرات الرديئة قنعوا بالمسرّات الطبيعيّة والمعاشراتِ السليمة. كانوا بسطاء في أذواقهم ومعتدلين في عاداتهم. كانوا يخضعون للمبدأ فشبّوا أطهاراً وأقوياء وأمناء. وعندما دُعوا لعمل حياتهم أتوا إليه بالقوّة البدنيّة والعقليّة وخفّة الروح والقدرة على رسم الخطط وتنفيذها والثبات في مقاومة الشرّ مما جعلهم قوّة إيجابية أكيدة للخير في العالم.

إنّ سلامةَ البدنِ وسلامةَ العقلِ ونبلَ الأخلاقِ هي ميراث لأولادك يمكنك أن تورّثهم إيّاه أفضلَ بكثير من ميراثِ الثروة والمال الوفير. إنّ من يدركون ما يكون نجاح الحياة

الحقيقي سيكونون حكماء في الوقت المناسب. وهم يجعلون نصبَ عيونهم أبداً أفضلَ ما في الحياة عندما يختارون بيتاً.

فبدلاً من أن تسكن حيث لا يمكنك أن ترى شيئاً آخر غير مصنوعات الناس، حيث توحي المناظر والأصوات بالأفكار الشرّيرة مراراً عديدة، وحيث يجلب الاضطراب والارتباك والتشويش، الضجر والجزع، بدلاً من كلّ ذلك انطلق إلى حيث يمكنك أن ترى أعمال الله. أطلب الراحةَ لروحك في جمال الطبيعة وسكونها وهدوئها. متّع نظرَك بالحقول اليانعة والغابات والتلال. ثمّ انظر إلى القبّة الزرقاء التي لا يعكّرها تراب المدينة أو دخانها واستنشق هواء السماء المنعش. انطلق إلي حيث تكون بعيداً عن ملاهي حياة المدن وتسلياتها وإسرافها، ويمكنك أن تكون في صحبة أولادك وتستطيع أن ترشدهم إلى أن يتعلموا عن الله من أعماله، وتدربهم على حياة الاستقامة والنفع.

البساطة في التأثيث

إنّ عاداتِنا المصطنعةَ الكاذبةَ تحرمنا من كثير من البركات وكثير من التمتّع، وتجعلنا غيرَ أهلٍ لأن نحيا الحياةَ الأكثرَ نفعاً. فالأثاثات المتقنة والغالية الثمن هي مضيعة ليس للمال وحده بل لما هو أثمن من ذلك ألف ضعف. فهي تُدخل إلي البيت عبئاً ثقيلاً من الهمّ والتعب والارتباك.

ما هي الحالات التي توجد في كثير من البيوت حتى ما كان منها محدود الدخل والموارد، وعمل البيت معظمه يكون منصباً على الأمّ؟ إنّ أفضل الغرف تكون مؤثثة على طراز أغلى بكثير مما تحتمله ماليّة الساكنين فيها، وهي لا تناسب راحتَهم أو تمتّعَهم. وهناك الأبسطةُ الغاليةُ والأثاثُ المنقوش بكلّ إتقان وأناقة والمُنجّد أجملَ تنجيد بأغلى المنسوجات. والمناضد ورفوف المدفأة وكلّ فراغ يمكن الحصول عليه تتراكم فيه الزينات والزخارف. والجدران تُغطّى بالصور حتى يصير المنظر مُتعباً ومملاً. وما أكثر كميّة

العمل المطلوبة لحفظ كلّ هذه الأشياء منسّقة ونظيفة من الأتربة! هـذا العمـل والعـادات الأخرى المصطنعة في العائلة تمشّياً مع الموضة، تتطلّب من ربّة البيت كدَحاً لا ينتهي.

وفي كثير من البيوت لا يكون لدى الزوجة والأمّ وقت للقراءة لتكون جيّدة الإطّـلاع، ولا وقت لديها لتكون رفيقـة لرجلها، ولا وقـت لديـها لتكـون علـى اتصال بعقـول أولادها النامية المتطـوّرة. ولا وقـت لديـها، ولا مكـان فيـه تجعـل المخلّص العزيـز رفيقَها وأنيسَـها القريـبَ. وشيئاً فشيئاً تنحـدر حتـى تُمسـى مجـرّدَ خادمـةٍ للعائلـة إذ تُبتلـع قوّتـها ووقتـها واهتمامها في الأشياء التي مآلها إلي الفناء بالاستعمال. وبعد فـوات الأوان تستيقظُ لتجـدَ نفسهَا غريبة في بيتها. فالفرص الثمينة التي كانت لديها لتؤثّر في صغارها الأعزّاء للوصـول إلي حياة أسمى ذهبت إلى غير رجعة لأنّها لم تحسن استخدامها.

فلتعزم ربّاتُ البيوت علـى أن يعشـن عيشـة أحكـم مـن هـذه. ليكـن هدفكـنّ الأوّل أن تجعلن البيت مُسرّاً. واحرصن على توفير الأمور المساعدة التي تخفف وطأة العمـل وتوفّر الصحّة والراحة. واعملن على دعوة الضيوف الذين قد أمرنا المسيح بالترحيب بهم علـى موائدنا والذيـن يقـول عنهم: « بِمَا أَنَّكُمْ فَعَلْتُمُوهُ بِأَحَدِ إِخْوَتِي هؤُلاَءِ الأَصَـاغِرِ ، فَبِـي فَعَلْتُمْ » (متى ٢٥: ٤٠).

أثّثوا بيوتكم بأشياء بسيطة خالية من الأناقـة، أشياء تحتمـل الاسـتعمال والـتي يمكـن حفظها نظيفة بسهولة ويمكن استبدالها بغير كلفة كبيرة. فبتدريب ذوقك يمكنك جعل بيتك البسيط جدّاً جذّاباً ومغرياً إذا وُجدت فيه المحبّة والقناعة.

البيئـة الجميلـة

إنّ الله يحبّ ما هو جميل. ولقد كسا الأرض والسموات بالجمال. وبقلب الآب الفرح يلاحظ ابتهاجَ أولاده بالأشياء التي قد خلقها. وهو يريدنا أن نحيطَ بيوتَنا بجمال الأشياء الطبيعية.

يمكن لجميع ساكني الأرياف تقريباً أن يجعلوا حول بيوتهم مرجاً صغيراً مكسوّاً بالأعشاب وقليلاً من الأشجار الوارفة الظلال والشجيرات التي تحمل أزهاراً أو النباتات ذات الأزهار العبقة. وهذه ستعمل على إسعاد أهل البيت أكثر من أيّة زينة صناعيّة. وهي ستُدّخل إلي الحياة البيتيّة تأثيراً ملطّفاً ومهذّباً فتقوّي في السكان محبّةَ الطبيعةِ وتقرّب أفرادَ العائلة من بعضهم البعض ومن الله.

٤ الأمّ

إنّ الأولاد يكونون كوالديهم إلى حدّ كبير. فحالات الوالدين الجسمانية وأمزجتهم وقابلياتهم وميولهم العقلية والأخلاقيّة تُرى مُكررة ومنسوخة في أولادهم، إنْ قليلاً أو كثيراً.

فكلّما كانت الأهداف نبيلة وكلّما كانت الهبات العقليّة والروحيّة سامية، وكلّما حسُنت قوى الوالدين الجسمانية في نموّها حسُنت المؤهلات والتجهيزات الحياتيّة التي يوّرثونها لأولادهم. فإذ يغرس الوالدون في نفوسهم أنبل الأشياء وأفضلها فإنّهم يبذلون جهداً في صوغ المجتمع ورفع شأن الأجيال القادمة.

فعلى الآباء والأمهات أن يفهموا مسؤوليتهم. إنّ العالم مملوء بالأشراك لاصطياد الشباب. وكثيرون تستهويهم حياة المسرّات الشهوانيّة النفسانيّة وهم لا يستطيعون اكتشاف المخاطر الخفيّة أو النهاية المخيفة التي ينتهي إليها الطريق الذي يتراءى لهم أنّه طريق السعادة. وعن طريق الانغماس في النهم والشهوات تتلف قواهم، ويصيب الدمار والهلاك ملايين الناس في هذا العالم والعالم الآتي. فعلى الوالدين أن يذكروا أنّ أولادهم لابدّ لهم من أن يواجهوا هذه التجارب. فحتى قبل ولادة الطفل ينبغي أن يبدأ الاستعداد الذي يقدّره على أن ينجح ويفوز في حربه ضدّ الشرّ.

والمسؤولية تقع على الأمّ بكيفيّة خاصّة. فتلك التي يتغذّى الطفل بدم حياتها، ويُبنى جسمُه ويكبر، تهبه أيضاً القوى العقليّة والروحيّة التي تشكّل عقله وخُلُقَه. إنّ "يوكابد" الأمّ العبرانيّة هي التي نظراً لقوّة إيمانها لم تخش«أَمْرَ الْمَلِكِ» (عبرانيين١١: ٢٣)، وقد وُلد منها موسى محرّر العبرانيين. و "حنَّة" الموصوفة بأنها امرأة الصلاة والتضحية والإلهام

السماوي، هي التي ولدت صموئيل، الصبي الذي تلقّى تعليمه من السماء، والقاضي النزيه ومؤسّس مدارس الأنبياء المقدّسة. و "اليصابات" نسيبة مريم التي من الناصرة وقريبتها التي تشبهها في روحها هي التي ولدت رائد المخلّص وسابقه.

الاعتدال وضبط النفس

إنّ الحر ص الذي يجب على الأمّ أن تجعله حارساً على عادات حياتها هو ما يُعلّم به الكتاب. فعندما أراد الربّ أن يقيم شمشون مخلّصاً للعبرانيين ظهر«ملاك الرب» لأمّه وقدّم لها تعليماتٍ خاصةً عن عاداتها وأيضاً عن كيفيّة معاملتها لابنها قائلاً لها:«والآن فلا تشربي خمراً ولا مسكراً ولا تأكلي شيئاً نجساً» (قضاة ١٣:١٣و٧).

إنّ كثيرين من الوالدين ينظرون إلى أثر المؤثّرات قبل الولادة على أنّها أمر قليل الأهمّية. ولكن السماء لا تنظر إليها هذه النظرة. فالرسالة المرسلة على فم ملاك الله والتي قُدّمت مرّتين بأقدس كيفيّة وبكلّ وقار تدلّ على أنّها تستحقّ منّا أعظم تقدير وأعمق تفكير.

إنّ نفس هذه الكلمات الموجّهة إلى تلك الأمّ العبرانية هي ما يخاطب به الله كلّ الأمهات في كلّ عصر. فقد قال الملاك:«من كلّ ما قلت للمرأة فلتحفظ». إنّ خير الطفل وسلامته سيتأثّران بعادات الأمّ، فيجب أن تضبط ميولَها وشهواتِها بالمبدأ. فيوجد شيءٌ عليها أن تنبذَه وشيءٌ عليها أن تحاربه إذا كان لها أن تتمّم قصد الله لأجلها في إعطائِها طفلاً. فإذا كانت ولادة طفلها منغمسة في عادة، أو كانت أنانيّة أو ضجرة أو عنيفة، فهذه الصفات ستنطبع على نفس وليدها. وهكذا ورث كثيرون من الأطفال ميولاً لعمل الشرّ يكاد يكون قهرها أو التغلّب عليها مستحيلاً.

أمّا إذا كانت الأمّ تثبتُ على المباديء الصالحة، وكانت معتدلة ومنكرة لذاتها، وكانت مشفقة ورقيقة وغير محبّة لنفسها فقد تعطي لابنها هذه الصفات الثمينة. إنّ الأمر المقدّم لنهي الأمّ عن تعاطي الخمر كان نهياً قاطعاً وصريحاً. فكلّ نقطة من الخمر تتناولها

لإشباع اشتهائها تعرّض الصحّة البدنيّة والعقليّة والأدبيّة لوليدها للخطر، وهي خطيّة مباشرة صريحة ضدّ خالقها.

كثيرون من الناصحين يشددون على وجوب إجابة الأمّ إلى كلّ رغباتها، وأنّها إذا اشتهت أيّ صنف من أصناف الطعام مهما يكن ضاراً بها فينبغي إشباع كلّ رغائبها. مثل هذه النصيحة كاذبة وخبيثة. إنّ حاجات الأمّ الجسديّة ينبغي عدم إهمالها في أيّة حالة. إنّ نفسين تعتمدان عليها فينبغي وضع رغائبها موضع الاعتبار بكلّ لطف ورقّة، ويجب أن تُسد حاجاتها بكلّ سخاء. ولكن في هذا الوقت عليها أكثر من أيّ وقت آخر أن تتجنّب، في الغذاء وفي غيره من الأشياء، كلّ ما يضعف قوّتها الجسميّة أو العقليّة. إنّها بموجب أمر الله نفسه موضوعة تحت أقدس التزام بممارسة ضبط النفس.

الإفراط في العمل

ينبغي المحافظة على قوّة الأمّ بكلّ رقّة. فبدلاً من إنهاك قوّتها الثمينة في عملٍ مُضنٍ، ينبغي أن تُخفّف همومها وأحمالها. في كثير من الأحيان لا يكون الزوج والأب ملمّاً بالقوانين الصحّية التي تتطلب منه سلامة العائلة أن يفهمها. فإذ يكون مشغولاً في الكفاح لسدّ مطالب المعيشة، أو منصرفاً إلى جمع المال، ومثقّلاً بالهموم والارتباكات، فهو يلقي على كاهل الزوجة والأمّ الأعباء المرهقة لقوّتها في أحرج ظرف، فيتسبب عن ذلك الوهن والمرض.

كثيراً ما يمكن للزوج والأب أن يتعلّم درساً من حرص الراعي الأمين ورعايته. إنّ يعقوب عندما طُلِب منه القيام برحلة سريعة وشاقّة أجاب قائلاً:

«الأَوْلاَدَ رَخْصَةٌ وَالْغَنَمَ وَالْبَقَرَ الَّتِي عِنْدِي مُرْضِعَةٌ. فَإِنِ اسْتَكَدُّوهَا يَوْمًا وَاحِدًا مَاتَتْ كُلُّ الْغَنَمِ .. أَنَا أَسْتَاقُ عَلَى مَهَلِي فِي إِثْرِ الأَمْلاَكِ الَّتِي قُدَّامِي وَفِي إِثْرِ الأَوْلاَدِ» (تكوين ٣٣: ١٣و١٤).

ففي طريق الحياة الشاقّ على الزوج والأب أن«يستاق» على مهله، على قدر ما يحتمل رفيقه في السفر. وفي وسط اندفاع العالم الجنوني في طلب الثروة والقوّة ليتعلّم هو التمهّل في سيره ليعزّي ويسند تلك المدعوّة لتسير إلى جانبه.

الابتهاج

يجب على الأمّ أن تربّي في نفسها مزاج البهجة والقناعة والسعادة. وكلّ مجهود تبذله في هذه الناحية ستُجزى عنه خيَر الجزاء وأوفَره في كلا الصحّة الجسديّة والأخلاق الأدبيّة لأولادها. إنّ الروح الفرحة تزيد من سعادة عائلتها وتحسِّن صحّتها هي إلى حدّ كبير.

ليساعد الرجل زوجته بعطفه وحبّه الذي لا ينضب. فإذا أراد أن يحفظها غضّة وفرحة بحيث تكون كإشراقة نور في البيت فليساعدها على حمل أعبائها. إنّ حنانه ولطفه وحبّه ستكون مشجّعاً ثميناً لها. والسعادة التي يغدقها عليها ستملأ قلبّه فرحاً وسلاماً.

أمّا الزوج الشكِس الأنانّي المعتّز فلا يكون هو وحده تعيساً بل يُلقي ظلاً ثقيلاً من الكآبة على كلّ سكان البيت. وسيحصد النتيجةَ حين يرى امرأتَه مكتئبةً وسقيمةً وأولادَه وقد أفسدهم طبعُه الكريه.

وإذا حُرمت الأمّ من الرعاية التي يجب أن تتوفّر لها، وإذا تُركت لتُنهك قواها بسبب الإجهاد في العمل أو بسبب القلق والحزن فأولادها سيُحرمون من القوّة الحيويّة والمرونة العقليّة والنشاط المرح الذي ينبغي أن يرثوه عنها. ولكن أفضل من هذا بكثير كونّنا نجعل حياة الأمّ فرحةً ولامعةً ومبتهجة، ونقيها من العوز والعمل المنهك والهموم الضاغطة، فنجعل الأولاد يرثون بنية سليمة بحيث يمكنهم أن يشقّوا لأنفسهم الطريق في الحياة بقوّتهم النشيطة.

وما أعظم الكرامة والمسؤولية الموضوعة على كواهل الآباء والأمّهات في كونهم ينوبون عن الله أمام أولادهم. فأخلاقهم وحياتهم اليوميّة وطرق تهذيبهم تفسّر كلام الله لأولادهم. وتأثيرهم إمّا أن يكسبَ أو يبعد وينفّر ثقةَ أولادهم بأقوال الله الصادقة.

امتياز الآباء

سعداء هم الوالدون الذين حياتهم هي انعكاس حقيقي لما هو إلهيّ بحيث أنّ مواعيد الله وأوامره توقظُ في نفس الطفل روحَ الشكرِ والوقارِ، الوالدون الذين تفسّر رقتُهم وعدالتُهم وطولُ أناتِهم للطفل محبّةَ الله وعدالتَه وطولَ أناته، والذين إذ يعلّمون الطفل أن يحبّهم ويثقَ بهم ويطيعهم إنّما يعلّمونه أن يحبّ أباه السماوي ويثق به ويطيعه. فالوالدون الذين يزوّدون الطفل بمثل هذه العطيّة إنّما يمنحونه كنزاً أثمن من كلّ ثرواتِ الدهور – كنزاً باقياً بقاء الأبد.

إنّ الأطفال المُسلَّمين لرعاية أمهاتهم هم ودائع مقدّسة مُسلّمة إلى كلّ أمّ من الله. فهو يقول:«خذي هذا الابن أو هذه الابنة وربّيه لأجلي، وقدّمي له الخُلُق المهذّب على مثال هيكل لكي يضيء خُلُقه في مساكن الربّ إلى الأبد».

كثيراً ما يبدو عملُ الأمّ وكأنّه خدمة عديمة الأهميّة. فهو عمل ينـدر أن يَلقَى تقديراً. فالآخرون لا يعرفون إلاّ القليل عن همومها وأعبائها الكثيرة. إنّ أيّامها تُنفق في حلقة من الواجبات الصغيرة، وكلّ منها يتطلّب جهدها الصبور وضبط النفس واللباقةَ والحكمةَ والمحبّةَ المضحّية، ومع ذلك فهي لا تستطيع أن تفتخر بما قد عملت كأنّه عمل عظيم. إنّما هي فقط حفظت الأشياء في البيت سائرة في هدوء، وفي كثير من الأحيان وهي متعبة ومرتبكة حاولت أن تكلّم أطفالها بكلّ رقّة ولطف، ولتجعلهم مشغولين في عمل وسعداء، وحاولت أن ترشدَ أقدامّهم الصغيرة في طريق الصواب. وهي تحسّ وكأنّها لم تفعل شيئا. ولكنّ الأمر ليس كذلك. إنّ ملائكة السماء يراقبون الأمّ التي أنهكتها الهموم،

ويلاحظون الأحمال التي تحملها يوماً فيوماً. قد لا يسمع أحدٌ باسمها في العالم ولكنّه مكتوب في سفر حياة الخروف.

فرصة الأمّ

يوجد إلهٌ في السماء، والنورُ والمجدُ المنبثقان من عرشه يستقرّان على الأمّ الأمينة وهي تحاول أن تربّي أولادها على مقاومة تأثير الشرّ. لا يوجد عمل آخر يضارع عملها في أهميته. فليس عليها أن ترسمَ صورةً جميلةً على القماش كما يفعل الفنّان، ولا أن تنقشها من الرخام كما يفعل النحّات. وليس عليها أن تجسّم فكرة نبيلة في كلماتٍ قوّية كالكاتب أو الأديب، وليس عليها أن تّتشبّه بالموسيقار في التعبير عن لحن عذب. ولكن عليها بمعونة الله أن تخلقَ في نفسٍ بشريّةٍ الصورةَ الإلهيّة.

والأمّ التي تقدّر هذا ستعتبر فرصها ثمينةً ونادرةً. وهي ستحاول بكلّ اجتهاد وغيرة، في خلقها وبطرق تربيتها، أن تقدّم لأولادها المثل الأعلى. وهي بكلّ جدّ وصبر وشجاعة، ستحاول أن تحسن استخدامَ مواهِبَها حتى يمكنها أن تستخدم أسمى قوى العقل استخداماً صائباً في تربية أولادها. وبكلّ اهتمام وغيرة تسأل عند كلّ خطوة قائلة:«ماذا قال الله؟» وبكلّ اجتهاد ستدرس كلمتّه وستثّبت نظرها في المسيح حتى يمكن أنّ اختبارَها اليومي وهي تقوم كلّ يوم بواجبها يجعل حياتَها انعكاساً حقيقيّا للحياة الوحيدة الأمينة.

٥ الطفل

لم تكن عادات الأمّ فقط هي المتضمّنة في تعليمات الملاك لذينك الوالدين، بل أيضاً تربية الصبي. فلم يكن يكفي أنّ شمشون، الصبي المزمع أن يُخلص العبرانيين، يرث ميراثاً صالحاً عند ولادته، بل كان يجب أن يتبع هذا التربيةَ الحريصةَ. فكان يجب تربيته منذ الطفولة على عادات الاعتدال وضبط النفس بكلّ حرص ودقّة.

وقد أُعطيت تعليمات شبيهة بهذه بالنسبة إلى يوحنا المعمدان. فقبل ولادة الصبيّ جاءت رسالة من السماء إلى أبيه تقول:

«وَيَكُونُ لَكَ فَرَحٌ وَابْتِهَاجٌ وَكَثِيرُونَ سَيَفْرَحُونَ بِوِلاَدَتِهِ لأَنَّهُ يَكُونُ عَظِيمًا أَمَامَ الرَّبِّ وَخَمْرًا وَمُسْكِرًا لاَ يَشْرَبُ وَمِنْ بَطْنِ أُمِّهِ يَمْتَلِيءُ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ» (لوقا ١:١٤و١٥).

وفي سفر السماء المكتوب فيه أسماء الناس الشرفاء أعلن المخلّص أنّه لم يقم بين المولودين من النساء من هو أعظم من يوحنا المعمدان. والعمل المُسند إليه لم يكن فقط عملاً يتطلّب قوّةً بدنيّةً وجلَداً، بل أسمى صفات العقل والنفس. وقد كانت التربيةُ البدنيّةُ الصحيحةُ كإعدادٍ لهذا العمل هامّة جدّاً بحيث أنّ أعظم ملائكة السماء أُرسل برسالة إرشاد لوالدي الصبي.

إنّ التعليماتِ المقدّمة عن الأولاد العبرانيين تعلّمنا أنّه ينبغي ألاّ يُهمل أيّ شيءٍ من شأنه أن يؤثّر في صحّةِ الولد البدنيّة. فلا يوجد شيءٌ عديم الأهميّة، بل كلّ ما يؤثر في صحّةِ الطفلِ له تأثيرُه في العقل والخُلُق.

ولا يمكن المبالغة في تقدير أهميّة التربية الباكرة للأطفال. فالدروس التي يتعلّمونها، والعادات التي يكوّنونها في أثناء سنيّ الطفولة والصبا، لها أكبرُ دخلٍ في تكوين الخُلُق واتّجاه الحياة أكثر مما لكلّ التعليم والتربية التي يتلقّونها في سنّ متأخرة.

فعلى الآباء أن يلاحظوا هذا. وعليهم فهمُ المباديء التي هي أساس رعاية الأطفال وتربيتهم. وعليهم أن يكونوا قادرين على تربيتهم التربية البدنيّة والعقليّة والأخلاقيّة. فعلى الآباء أن يدرسوا نواميس الطبيعة. وعليهم أن يكونوا على دراية وأن يتعلّموا ما يختصّ بجهاز الجسم البشري. وهم بحاجة لفهم وظائف الأعضاء المختلفة وعلاقتها ببعضها واعتماد أحدها على الآخر. وعليهم أيضاً أن يدرسوا العلاقةَ الكائنةَ بين القوى العقليّة والجسمانيّة والشروط المطلوبة لقيام كلّ منها بعمله بكيفيّة سليمة. وكون الإنسان يتّخذ على نفسه مسؤوليّة الأبوّة بدون هذا الإعداد والتأهّب خطيّة.

إنّنا لا نفكّر إلا تفكيرا قليلا جدّاً في الأسباب الكامنة وراء الموت والمرض والانحطاط الكائن اليوم حتى في أكثر البلدان مدنيّةً وموافقةً للصحّة. إنّ أكثر من ثلث الناس يموتون في دور الطفولة، والذين يبلغون طور الرجولة والأنوثة فأكثرهم يقاسون من الأمراض في شكلٍ ما من أشكالها، وقليلون هم الذين يصلون إلى حدّ الحياة البشريّة.

إنّ معظم الشرور التي تجلب التعاسةَ والدمارَ على جنسنا كان يُمكن تلافيها، والقوّة على معالجتها هي بين أيدي الوالدين إلى حدّ كبير. إنّ الذي يسبّب موتَ الأطفال الصغار ليس "عناية غامضة" كما يقولون. فالله لا يريد لهم الموت. إنّه يهبهم للوالدين ليربّوهم حتى يكونوا نافعين هنا في هذا العالم وفي السماء بعد ذلك. فلو أنّ الآباء والأمهّات بذلوا ما في طوقهم ليقدّموا لأولادهم ميراثاً صالحاً، وبواسطة التدبير السليم حاولوا بعد ذلك معالجة أية ظروف خاطئة مصاحبة لولادتهم، فما أعظم التغيير الحسن الذي يمكن أن يشهده العالم.

رعاية الأطفال

كلّما كانت حياة الطفل هادئةً وبسيطةً كانت موافقةً لنموّ جسمه وعقله. فعلى الأمّ أن تجتهدَ في كلّ الظروف في أن تكون ساكنةً وهادئةً ورابطةَ الجأش. إنّ كثيرين من الأطفال يكونون مُعرّضين للاهتياج العصبي بدرجة كبيرة، ولكنّ طريقة الأمّ اللطيفة المتأنيّة يكون لها تأثير مُلطّف نافع للطفل أعظم نفع.

إنّ الأطفال هم بحاجة إلى الدفء، ولكن في أحيان كثيرة تُرتكب غلطة خطيرة إذ يُحفظون في غرف درجة حرارتها مرتفعة ومحرومة من الهواء النقي إلى حدّ كبير. ثمّ إنّ عادة تغطية وجه الطفل أثناء نومه هي عادة ضارّة، إذ أنّها تعيق حريّة التنفس.

ثمّ يجب تجنيب الرضيع كلّ تأثير من شأنه أن يضعف جسمه أو يسمّمه – فيجب اتخاذ أدقّ حذر وعناية في جعل كلّ ما حوله جميلاً ونظيفاً. ففي حين يجب حماية الصغار من تغيير درجة الحرارة المفاجيء أو الكبير، فيجب الاهتمام بجعلهم يستنشقون الهواء النقيَّ المنعشَ في أثناء النوم أو اليقظة ليلاً أو نهاراً.

ملابس الطفل

عند إعداد صوان (خزانة) ملابس الطفل ينبغي مراعاة الموافقة والراحة والصحّة أكثر من الموضة أو الرغبة في إثارة الإعجاب. وينبغي ألاّ تُنفق الأمّ وقتَها في التطريز والزخرفة لكي تجعل ملابس طفلها جميلة وهكذا تُرهق نفسها في عمل لا لزوم له على حساب صحّتها وصحّة وليدها. وينبغي ألاّ تنكبّ على الخياطة المرهقة لعينيها وأعصابها أشدّ إرهاق في وقت هي فيه بحاجة إلى الكثير من الراحة والتمرينات الرياضيّة المسرّة. وعليها أن تتحقق من أنّها ملتزمة بأن تنمّي قوّتها وتزيدها حتى تستطيع مواجهة الالتزامات التي ستوضع عليها.

فإذا توفّر في ملابس الطفل الدفءُ والوقاية والراحة فإنّ سبباً من أهم أسباب الاهتياج والقلق سيزول. فصحّة الطفل تتحسّن ولن تحسّ الأمّ في رعايته إرهاقاً عظيماً لقوّتها أو ضياعاً لوقتها.

إنّ شدّ الأقمطة أو الأحقاء يعيق عمل القلب والرئتين وينبغي تجنّبهُ. فينبغي ألاّ يكون أيّ جزء من أعضاء الجسم غير مستريح في أيّ وقت بقطعة من الملابس تضغط أيّ عضو أو تعيق حريّة حركته. ينبغي أن تكون ملابس كلّ الأطفال واسعةً بحيث تسمح بالحرية التامّة في التنفس، وأن تكون موضوعة على الطفل بحيث تسند الكتفان ثقلَها.

في بعض البلدان ما تزال سائدةً عادةُ ترك أكتاف الأطفال وأطرافهم عارية. هذه العادة مذمومة إلى أقصى حدّ، فهذه الأطراف لكونها بعيدة عن مركز الدورة الدموية تحتاج إلى وقاية أعظم من باقي أعضاء الجسم. إنّ الشرايين التي تنقل الدمَ إلى الأطراف كبيرة بحيث تتسع لنقل كميّة من الدم كافيةً لتزويدها بالحرارة والغذاء. ولكن حين تُترك الأطراف بلا وقاية أو ملابس كافية فإنّ الشرايين والأوردة تنقبض وأعضاء الجسم الحسّاسة تُصاب بقشعريرة وتتعطّل الدورة الدمويّة.

بالنسبة للأطفال النامين، تحتاج كلّ قوى الطبيعة إلى كلّ ميزة لإكمال بناء أجسامهم. فمتى كانت الملابس غيرَ كافيةٍ للوقاية فالأطفال، وخاصّة البنات، لا يمكنهم الخروج حتى يعتدل الطقس. وهكذا يبقون في داخل البيت خوفاً من البرد. أمّا إذا كان الأولاد لابسين ثياباً كافيةً فمّما يفيدهم كونهم يمارسون التمرينات البدنيّة في الهواء الطلق بكلّ حرية صيفاً أو شتاءً.

على الأمهّات اللائي يرغبن في أن يتمتّع أولادهنّ وبناتهنّ بقوّة الصحّة ونشاطها أن يلبسنهم الملابس الكافيةَ واللازمة، وأن يشجعنهم كلّما كان الطقس معتدلاً ومعقولاً على التواجد في الهواء الطلق. وقد يحتاج الأمر إلى جهدٍ كبيرٍ حتى يتخلّص الناس من قيود

العرف والعادة ويُلبسوا أولادهم ويعلّموهم ما تقتضيه مستلزمات الصحّة. ولكنّ النتيجة ستكون تعويضاً سخيّاً عن كلّ مجهود.

غذاء الطفل

إنّ أفضل غذاء للطفل هو ما تقدّمه الطبيعة. فينبغي عدم حرمانه من هذا الغذاء من غير داعٍ. إنّها تكون قسوة عظيمة من الأمّ لو أنّها تحاول التحرّر من إرضاع طفلها متذرّعة بحبّ الراحة أو مراعاة اللياقة أو سعياً وراء التمتّعات.

والأمّ التي تسمح بأن يغتذي طفلُها بلبن امرأة أخرى عليها أن تفكّر جيّداً في نتائج ذلك. إنّ المرضعة تُعطي للطفل الرضيع من طبعها ومزاجها.

إنّ أهميةَ تربية الأولاد على عاداتٍ غذائيّةٍ حسنة هي عظيمة جدّاً، ومهما بالغنا في ذلك فلا نُغالي في تقديرها. فالصغار يحتاجون إلى أن يتعلّموا حقيقة كونهم يأكلون ليعيشوا، ولا يعيشون ليأكلوا. والتربية تبدأ بالرضيع وهو على ذراعي أمّه. ويجب تقديم الطعام للطفل في وجبات منتظمة فقط، وكلما كبر الطفل قلّت تلك الوجبات. وينبغي ألاّ نُعطي له الحلوى أو طعامُ البالغين الذي لا يستطيع أن يهضمه.إنّ العناية والنظام في تغذية الأطفال فضلاً عن كونهما يحسّنان صحّتهم وهكذا يجعلانهم هادئين وذوي طباع جميلة فإنّهما يضعان أساس العادات التي ستكون بركةً لهم في مقتبل العمر.

وإذ يخرج الأولاد من مرحلة الطفولة فيجب بذل عناية عظيمة في تهذيب أذواقهم وقابلياتهم. كثيراً ما يُسمح لهم بأكل ما يختارون وفي أيّ وقت يشاءون دون التفات إلى صحّتهم. إنّ الجهود والأموال التي تُنفق في غالب الأحيان على الأطعمة اللذيذة غير الصحّية تقود الصغار إلى الاعتقاد بأنّ أسمى مطلب في الحياة والذي يمنح الإنسان أعظم قدر من السعادة هو أن يُطلق العنان للنهم. وإن نتيجة هذه التربية ستكون البطنة ثم يأتي في إثرها المرض الذي يعقبه عادة تجريع المريض العقاقير السامّة.

على الوالدين أن يدرّبوا قابليّة أولادهم الغذائية، وينبغي ألاّ يسمحوا لهم بتناول الأطعمة الضارّة بصحّتهم. ولكن ونحن بصدد محاولة تنظيم الغذاء يجب أن نحترس من أن نُخطيء في محاولة إرغام الأولاد على تناول طعام يعافونه، أو أن نجعلهم يأكلون أكثر مما يلزم. فللأولاد حقوق، وعندهم أشياء مفضّلة على غيرها، وعندما تكون هذه الأشياء المفضّلة معقولة فينبغي احترام رغباتهم.

وينبغي مراعاة الانتظام في الأكل بكلّ حرص. فينبغي ألاّ يُؤكل شيء بين الوجبات، لا حلوى ولا مكسّرات ولا أيّ طعام من أي نوع. فعدم الانتظام في الأكل يدمّر انتظام عمل أجهزة الهضم، الأمر الذي يضرّ بالصحّة ويفسد انشراح النفس. وعندما يأتي الأولاد إلى المائدة فإنّهم لا يستسيغون الطعام الصحّي، لأنّ قابليتهم تشتاق إلى ما يضرّهم.

إنّ الأمهات اللائي يُجبن الأولاد إلى كلّ رغباتهم على حساب الصحّة والمزاج المرح السعيد إنّما يبذرن بذار الشرّ الذي سينمو ويؤتي ثمارَه. إنّ الانغماسَ أو الإفراطَ ينمو ويكبر مع الصغار إذ يكبرون فيضحّون بقوّتهم ونشاطهم العقلي والجسمي. والأمّهات اللائي يعملن هذا العمل يحصدن ما قد زرعن بنفوس مرّة. فهنّ يرين أولادهنّ يكبرون غير مؤهلين فكراً وخلقاً للقيام بدور نبيل نافع في المجتمع أو في البيت. فالقوى الروحيّة والعقليّة والبدنيّة تتألّم بسبب الطعام غير الصحّي. والضمير يفقد الوعي. وقابليّة التأثر بالمؤثرات الصالحة تضعف.

وفي حين يجب تعليم الأولاد أن يتحكّموا في شهوتهم للطعام ويأكلوا ما يوافق صحّتهم فيجب أن نوضّح لهم أنّهم بذلك يحرمون أنفسهم مما هو ضار بهم فقط. إنّهم يُقلعون عن الأشياء الضارّة في طلب ما هو أفضل. ثم ينبغي الحرص على جعل المائدة مغريةً وجذّابةً وحافلةً بالأطعمة التي أغدقها الله عليهم بكلّ سخاء. ليكن وقت تناول الطعام وقتاً فرحاً وسعيداً. فإذ نستمتع بهبات الله لنقدّم الحمد والشكران للمعطي.

الطفل المريـض

في حالات كثيرة نجد أنّ مرضَ الأطفال مردُّه إلى أخطاء في التدبير. فعدم الانتظـام في الأكـل والملابـس غـير الكافيـة في وقـت المسـاء القـارس الـبرد، وعـدم الاهتمـام بالتمرينات البدنيّة النشطة لحفظ الدم في دورته الصحيّة، أو عـدم وجـود الهـواء الكـافي لتطهيره وتنقيته يمكـن أن يكـون سبب التعب أو الألم. ليفحـص الأبـوان الأمـرَ لعلّـهما يكتشفان سبب المرض، ومن ثمّ يعالجان حالات الخطأ بأسرع ما يمكن.

كلّ الآباء في مقدورهم أن يعرفوا الشيء الكثير عـن الاهتمام بالمرض ومنعه وحتـى معالجته. وعلى الخصوص ينبغي أن تعرف الأمّ ماذا تفعل في حـالات المرض العاديّة في العائلة. وعليها أن تعرف كيف تخدم طفلها المريض. فينبغـي أن تؤهّلها محّبتها وبصيرتها للقيام بخدمات يمكن أن تسندها إلى يد إنسان غريب.

دراسـة الفسـيولوجيا

يجب أن يُبكّر الوالدون في محاولة إثارة اهتمام أولادهم لدرس الفسيولوجيا وفي تعليمهم مبادئَها البسيطة. علموّهم أفضل طريقة لحفظ القـوى البدنيّة والعقليّة والروحيّة، وكيف يستخدمون هباتِهم بحيث تجلب حياتُهم البركةَ لبعضهم البعض والكرامة لله. هـذه المعرفة لا تُقدّر بثمن للشباب. إنّ التهذيب في الأشياء الخاصّة بالحيـاة والصحّة هـو أهـمّ بالنسبة إليهم من معرفة كثير من العلوم التي تُدرّس في المدارس.

ينبغي للوالديـن أن ينفقـوا وقتاً وجـهداً لأجـل أولادهـم أكـثر مما للمجتمع. ادرسـوا موضوعـات الصحّة واستخدموا معرفتكم استخداماً عمليّاً. وعلّمـوا أولادكـم أن يفكّـروا ويتحاجّوا من السبب إلى النتيجة. علّموهم أنّهم إذا كـانوا يرغبـون في الصحّة والسعادة فعليهم بإطاعة نواميس الطبيعة. ومع أنكّم قد لا ترون تحسّناً سريعاً كما تريدون فـلا تفشلوا بل استمرّوا في عملكم بأناة ومواظبة.

علّموا أولادكم، حتى من المهدِ، ممارسةَ إنكار الذات وضبطَ النفس. وعلّموهم أن يتمتّعوا بما في الطبيعة من ألوان الجمال، وأن يستخدموا كلّ قوى عقولهم وأجسادهم في أعمال نافعة بانتظام. ربّوهم بحيث تكون لهم بنية سليمة وأخلاق فاضلة، وأن تكون لهم ميولٌ مشرقة وطباعٌ جميلة. اطبعوا على عقولهم الغضّة حقيقة كون الله لا يقصد أنّنا نعيش لمجرّد إمتاع أنفسِنا بالمسّرات الحاضرة، بل لنتمتّع بالخير الأبدي. علّموهم أنّ الاستسلام للتجربة يدلّ على الضعف والشرّ، وأنّ مقاومتَها كرامة ورجولة. هذه التعاليم ستكون بمثابة زرعٍ يزرع في أرض جيدة، وهو سيثمرُ ثمراً يفرح قلوبكم.

وفوق كلّ شيء آخر على الوالدين أن يحيطوا أولادَهم بجوّ من البهجة واللطف والحبّ. فالبيت الذي تسكنه المحّبة والذي فيه تتمثّل المحّبة في النظرات والكلام والعمل هو مكان يُسرّ الملائكة بأن يظهروا أنفسهَم لساكنيه.

أيّها الوالدون اسمحوا لأشعة شمس المحّبة والبهجةِ والقناعةِ السعيدة أن تدخل قلوبكم وتشمل بتأثيرها العذب المبهج بيتكم. أظهروا الروحَ المشفقةَ الصبور، وشجّعوا أولادَكم على التمثّل بكم، غارسين كلّ الفضائل التي تنير وتبهج الحياة البيتيّة. والجوّ الذي يُخلق بهذه الكيفيّة سيكون بالنسبة إلى الأولاد كالهواء والشمس بالنسبة إلى دنيا النبات إذ يبعث الصحّة والنشاط في العقل والجسد.

٦ تأثيرات البيت

ينبغي أن يكون البيت أعظم الأماكن جاذبيّة للأطفال في العالم، وينبغي أن يكون حضور الأمّ اعظم الأشياء جاذبيّة في البيت. للأطفال طبائع حسّاسة ومحبّة. ومن السهل أن نُفرحهم، ومن السهل أيضاً أن نُحزنهم. ويمكن للأمّهات بالتدريب اللطيف وبالأقوال والأعمال الصادرة عن محبّة أن يربطن أولادهنّ إلى قلوبهنّ.

إنّ الأولاد الصغار يحبّون المعاشرة ويندر أن يمتّعوا أنفسهم بشيء وهم وحدهم. إنّهم يحنّون إلى العطف والرقّة، ويظنّون أنّ ما يتمتّعون به يسرّ أمّهم أيضاً، وهو أمر طبيعي بالنسبة لهم أن يذهبوا إليها بأفراحهم الصغيرة وأحزانهم الطفيفة. فينبغي ألاّ تجرح أمّهم قلوبَهم بكونها تعامل، بعدم مبالاة، المسائل التي وإن تكن تافهةً بالنسبة إليها، لها أهميّة عظيمة في نظرهم. إنّ عطفها واستحسانها لهما قيمة عظيمة في نظرهم. فإنّ نظرة استحسان أو كلمة تشجيع أو مديح تكون كإشراقة الشمس في قلوبهم. وفي كثير من الأحيان تجعل يومهم سعيداً كلّه.

وبدلاً من أن تُبعد الأمّ أولادها عنها حتى لا يضايقوها بضوضائهم أو يضجروها بطلباتِهم الصغيرة فلتدبّر لهم بعض التسليات أو عملاً خفيفاً لتشغل فيه أيديهم وعقولهم النشيطة.

إنّ الأمّ إذ تتغلغل في مشاعر أولادها وتوجههم في تسلياتهم وأعمالهم فهي تظفر بثقتهم. ويمكنها أن تصلحَ عاداتِهم الخاطئة بكيفيّة أفعل، أو توقف مظاهر الأنانيّة أو الغضب عند حدّها. إنّ كلمةَ تحذير أو توبيخ تقال في الوقت المناسب تكون لها قيمتها

العظيمة. فبمحبّتها الصابرة الساهرة يمكنها أن توّجه أفكارَ أولادها في الاتجاه الصحيح منمّية فيهم صفاتٍ جميلةً وجذّابة.

ولتُحذَّر الأمّهات من تربية أولادهنّ على أن يكونوا اتكاليين أو منطوين على أنفسهم. لا تعوّديهم أيّتها الأمّ الظنّ بأنّهم هم محور الاهتمام وأنّ كلّ شيء ينبغي أن يدور حولهم. بعض الوالدين ينفقون وقتاً واهتماماً عظيمين في تسلية أولادهم، ولكن على الأولاد أن يتربّوا على تسلية أنفسهم وعلى تدريب براعتهم ومهارتهم. وهكذا يتعلّمون أن يكونوا قانعين بالمسرّات القليلة والبسيطة جداً. وعليهم أن يتعلّموا أن يتحمّلوا فشلهم التافه وتجاربهم البسيطة بشجاعة. وبدلاً من توجيه انتباههم إلى أقلّ ألم أو إصابة تافهة حوّلوا عقولَهم عن ذلك وعلّموهم ألاّ يهتمّوا كثيراً بالمضايقاتِ والمتاعب الطفيفة. واجتهدوا في ابتكارِ وسائلَ بها يتعلّم الأولاد أن يفكّروا بالآخرين.

ولكن يجب ألاّ يُهمل الأولاد. إنّ الأمهاتِ إذ يكنّ أحياناً مثقّلاتٍ بهمومٍ كثيرةٍ يشعرن أنّهن لا يستطعن قضاء بعض الوقت في تعليم أولادهنّ بصبرٍ وفي تقديم الحبّ والعطف لهم. فلتذكر الأمّهات أنّه إذا لم يجد أولادهنّ في والديهم وفي بيتهم ما يشبعُ شوقهم إلى العطف والعشرة فسيبحثون عن مصادر أخري قد تتعرّض فيها عقولهم وأخلاقهم للخطر.

إنّ كثيراتٍ من الأمّهاتِ، لعدم وجود وقت ولعدم التفكير، يحرمن أولادهنّ بعض المسرّات البريئة، بينما هنّ يشغلن أيديهنّ ويتعبن أعينهنّ في الاشتغال بكلّ اجتهاد في عمل مخصّص لأجل الزينة فقط، وهو في أفضل حالاتِه لا يعمل إلاّ على تشجيع الغرور والإسراف في عقول الصغار، وإذ يقترب الأولاد من مرحلة الرجولة والأنوثة تُؤتي هذه الدروس ثمارَها في الكبرياء والتفاهة الأخلاقيّة، فتحزنُ الأمّ على أخطاء أولادها، ولكنّها لا تتحقق من أنّ الحصاد الذي تحصده إن هو إلاّ نتيجة ما قد غرسته بنفسها.

وبعض الأمّهات غير منتظماتٍ في معاملة أولادهنّ. فأحياناً يتساهلن معهم إلى حدّ أنهم يضرون بأنفسهم. وأحيانا أخرى يرفضن إشباع إحدى رغباتهم البريئة التي كان

يمكن أن تسعد قلوبهم الصغيرة. ولكنهنّ لا يتمثلن بالمسيح في هذا، فلقد فهمَ مشاعرَهم وأبدى عطفَه عليهم في مسرّاتِهم وتجاربهم.

مسـؤولية الأب

إنّ الزوج والأب هو رأس العائلة. والزوجة تتوقّع منه الحبّ والعطف والتعاون معها في تربية الأولاد، وهذا هو الصواب. فالأولاد أولاده كما أنّهم أولادها، وهو مهتمّ مثلها بصالحهم وخيرهم. والأولاد ينظرون إلى أبيهم في طلب العون والإرشاد، وينبغي أن يكون عنده إدراك صحيحٌ للحياة وللمؤثرات والمعاشرات التي يجب أن تحيط بأسرته. وعليه فوق الكلّ أن يكون تحت سيطرة محبّة الله ومخافته وتعاليم كلمته حتى يستطيع أن يرشدَ أقدام أولاده في طريق الحقّ.

والأب هو صانعُ شريعةِ العائلة، وعليه أن يجعل شريعة الله قانوناً لبيته كما فعل إبراهيم. فلقد قال الله عن إبراهيم: «لأَنِّي عَرَفْتُهُ لِكَيْ يُوصِيَ بَنِيهِ وَبَيْتَهُ» (تكوين١٨: ١٩). لن يكون هنالك إهمال آثم لردع الشرّ، ولا إغراق في المحاباة الضعيفة غير الحكيمة، ولا تسليم في اقتناعه بالواجب إذعاناً لمطالب المحبّة الخاطئة. فلم يكن لإبراهيم أن يقدّم تعليماتٍ صحيحةً وحسب، بل كان عليه أيضاً أن يحتفظ بسلطة الشرائع العادلة البارّة. لقد قدّم الله قوانين لإرشادنا. وينبغي ألا يُترك الأولاد ليتوهوا بعيداً عن الطريق الأمين المرسوم في كلمة الله، في مجاهلَ تُفضي إلى طرق الخطر المتشعّبة في كلّ اتجاه. فينبغي ردع رغائبهم الخاطئة وإنكار ميولهم برفق ومثابرة في الجهد المصحوب بالصلاة.

وعلى الأب أن يفرض في أسرته الفضائل الصارمة – كالاجتهاد والاستقامة والأمانة والصبر والشجاعة والنفع العملي. وينبغي له أن يمارس بنفسه ما يطلبه من أولاده. ممثلاً هذه الفضائل في مظهر رجولته.

ولكن لا تثبّطوا عزائم أولادِكم أيّها الآباء، بل امزجوا السلطة بالمحبّة، والرفق والعطفَ بالردعِ الثابت. وكرّسوا بعض أوقاتِ فراغكم لأولادكم. وتعرّفوا بهم واصحبوهم في عملهم ولهوهم واكسبوا ثقتَهم. وكوّنوا أواصر صداقة معهم وعلى الخصوص مع البنين. فبهذه الكيفيّة تكونون عاملاً قويّاً للخير.

وعلى الأب أن يقوم بدوره في جعل البيت سعيداً. فمهما تكن همومه وارتباكات العمل ينبغي ألاّ تعكّر صفو العائلة. عليه أن يدخل إلى بيته وعلى فمه ابتسامة وكلمات مسرّة.

إنّ الأب هو كاهن العائلة بمعنى من المعاني، إذ عليه أن يضع على المذبح العائلي محرقاتِ الصباح والمساء. ولكن على الأمّ والأولاد أيضاً أن يشتركوا في الصلاة وفي تسابيح الحمد. فعلى الأب، قبل مغادرة البيت لمزاولة عمله اليومي، أن يجمع أولاده حوله، وإذ يجثوا أمام الله يستودعهم لرعاية الآب السماوي. وبعد انتهاء أعمال اليوم وهمومه لتتّحد العائلة في تقديم صلاة شكر وتسابيح الحمد اعترافاً منهم برعاية الله لهم في أثناء النهار.

أيّها الآباء والأمّهات، مهما يكن ضغط العمل الشديد عليكم، لا تهملوا في جمع أولادكم حول مذبح الله. اسألوا الرب أن يحرس بيتكم بملائكته القديسين. واذكروا أنّ أولادكم معّرضون للتجارب. فالمضايقات تكتنف طريق الصغار والكبار كلّ يوم. والذين يريدون أن يحيوا حياة الصبر والحبّ والفرح عليهم بالصلاة. إنّه فقط بالحصول على العون الدائم من الله يمكننا الانتصار على الذات.

وينبغي أن يكون البيت موطناً للفرح واللطف والحبّ، فحيث توجد هذه الفضائل توجد أيضاً السعادة والسلام. قد تهاجم المتاعبُ الناس، ولكن هذه الاضطرابات هي نصيب بني الإنسان. إنّ الصبر والشكر والمحبّة ينبغي أن تُبقي الشمس مشرقة في القلب، مع أنّ اليوم قد يكون مكتنفاً بالغيوم. إنّ ملائكة الله يسكنون في مثل هذه البيوت.

ليهتمّ الزوج والزوجة كلّ منهما بمعرفة ما فيه سعادة الآخر، ولا يهمل أحدهما في المجاملات الصغيرة وأعمال الشفقة اليسيرة التي تُفرح الحياة وتجعلها مشرقة ولامعة. وينبغي أن تتوافر الثقةُ الكاملةُ بين الزوج وزوجته. وعليهما أن يفكرا معا في تبعاتهما. وعليهما أن يشتركا معاً في العمل على ما فيه أعظم السعادة والخير لأولادهما. وينبغي ألاّ ينتقد أحدهما الآخر أو يشكّ في سداد رأيه أمام الأولاد أبداً. لتحترس الزوجة من أن تزيد من صعوبة عمل رجلها لأجل الأولاد. وليسند الزوج يدي امرأته، مقدّماً لها المشورة الحكيمة والتشجيع الحبّي.

وينبغي ألاّ يقوم حاجز من الفتور والتحفّظ بين الوالدين والأولاد. وليتعرّف الوالدون على أولادهم، محاولين أن يفهموا أذواقهم وميولهم وأن يتغلغلوا إلى مشاعرهم ليستكشفوا ما في قلوبهم.

أيّها الوالدون، ليرَ أولادكم أنكّم تحبّونهم وأنكّم ستبذلون قصاراكم في سبيل إسعادهم. فلئن فعلتم ذلك فإنّ تقييداتِكم ونواهيكم ستكون أعظم وزناً في أذهانهم الغضّة. احكموا أولادكم بالرقّة والشفقة متذكّرين أن «مَلاَئِكَتَهُمْ فِي السَّمَاوَاتِ كُلَّ حِينٍ يَنْظُرُونَ وَجْهَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ» (متى ١٨: ١٠). فإذا رغبتم في أن يعمل الملائكة لأولادكم العمل المعطى لهم من الله تعاونوا معهم بقيامكم بواجبكم.

إنّ الأولاد إذ يكبرون تحت الإرشاد الحكيم المحبّ في البيت الأمين فلن يكون عندهم ميل لأن يضلّوا بعيداً طلباً للملذّات والمعاشرات. فلن يستهويهم الشرّ. فالروح السائدة في البيت ستصوغ أخلاقهم، وستتربى فيهم عادات، وتتكوّن لديهم مباديء تكون حصناً منيعاً يصدّ عنهم التجارب عندما يتركون البيت الذي كان ملاذهم، ويحتلّون مكانهم في العالم.

وعلى الأولاد كما على الوالدين واجبات هامة في البيت. فيجب أن يتعلّموا انّهم جزء من شركة البيت، أنّهم يتناولون طعامهم ويكتسون ويتمتّعون بالمحبّة والرعاية،

ويجب عليهم أن يستجيبوا لكلّ هذه المراحم بالاضطلاع بنصيبهم من أعباء البيت وجلب كلّ سعادة ممكنة للعائلة التي هم أعضاء فيها.

أحياناً يجرّب الأولاد لأن يهتاجوا تحت الردع والنهي ولكن في مقتبل العمر سيباركون آباءَهم على رعايتهم الأمينة وسهرهم الدقيق مّما حرسهم وأرشدهم في سنيّهم التي كانوا فيها طائشين عديمي الاختبار.

٧ التربية الحقة

إنّ التهذيب الحقيقي هو تدريب مرسلي. وكلّ ابن وابنة من أولاد الله مدعوون ليكونوا كارزين. فنحن مدعوون لخدمة الله وبني جنسنا. وغاية تهذيبنا هي تأهيلنا للخدمة.

وينبغي لكلّ الوالدين والمعلّمين المسيحيين أن يجعلوا هذا الغرض ماثلاً في الأذهان وأمام العيون دائماً. إنّنا لا نعلم نوع العمل الذي يمكن أن يقوم به أولادُنا ويخدموا فيه، فقد يقضون حياتَهم ضمن نطاق البيت، وقد يشتغلون في حرَفِ الحياة العاديّة، أو قد يذهبون ليعلّموا الإنجيل في البلدان الوثنيّة، ولكنّ الجميع على السواء مدعوّون لأن يكونوا مرسلين لأجل الله ورسلَ رحمة للعالم.

إنّ الأولاد والشباب بمواهبهم الغضّة ونشاطهم وشجاعتهم وحساسيّتهم السريعة هم محبوبون من الله، وهو يريدهم أن يكونوا في حالة وفاق مع القوّات الإلهيّة. وعليهم أن يتلقّوا تهذيباً يساعدهم على الوقوف إلى جانب المسيح في خدمةٍ مُنكرةٍ لنفسها.

لقد قال المسيح عن كلّ أولاده، ليس فقط التلاميذ الأوّلين بل أيضاً كلّ تلاميذه إلى انقضاء الدهر: «كما أرسلتني إلى العالم أرسلتهم أنا إلى العالم» (يوحنا١٧: ١٨) ليكونوا ممثلين لله وليعلنوا روحه ويظهروا صفاتِه ويقوموا بعمله.

إنّ أولادنا يقفون كأنّما عند مفترق الطرق. ومن كلّ جانب تحاول إغراءات العالم لطلب ما للّذات والانغماس أن تبعدهم عن الطريق المرسوم لمفديّي الربّ. وسواء كانت حياتهم مزمعة أن تكون بركة أو لعنة فذلك يتوقّف على اختيارهم. وحيث أنّهم ممتلئون

قوّة ونشاطاً ويتوقون لاختيار إمكانياتِهم التي لم يختبروها فيجب أن يجدوا مخرجاً ومتنّفساً لحيويتِهم الفائضة. وهم سيكونون نشيطين إن للخير أو للشرّ.

إنّ كلمة الله لا تكبتُ النشاط، ولكنّها توجّهه توجيهاً صحيحاً. والله لا ينهى الشباب عن الطموح. إنّ عناصر الخلق التي تجعل الإنسان ناجحاً ومكرماً من الناس بالحقّ – الرغبة التي لا تُكبح في طلب خيرٍ أعظم، والإرادةَ التي لا تُقهر والتطبيق النشيط والمثابرة التي لا تكّل – ينبغي عدم تثبيطها، بل يجب توجيهها بنعمة الله لبلوغ الأغراض التي هي أسمى من مجرّد مصالح أنانيّة عالميّة بقدر ما تسمو السموات فوق الأرض.

إنّ علينا كوالدين وكمسيحيين أن نقدّم لأولادنا توجيهاً صحيحاً. فينبغي لنا أن نرشدهم في طرق الخدمة التي على غرار خدمة المسيح بحذر وحكمة ورقّة. إنّنا مرتبطون مع الله بعهد مقدس أن نُربي أولادنا لخدمته. وأوّل واجب علينا هو أن نحيطهم بمؤثّرات تكون كفيلة بإرشادهم لاختيار حياة الخدمة وتُقدّم لهم التدريب اللازم.

« هكَذَا أَحَبَّ .. حَتَّى بَذَلَ» «بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ» لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ (يوحنا٣: ١٦). «أَحَبَّنَا الْمَسِيحُ وَأَسْلَمَ نَفْسَهُ لأَجْلِنَا» (افسس٥: ٢). فإذا كنّا نحب فنحن سنبذل. والدرس العظيم الذي علينا أن نتعلّمه ونعلّمه للآخرين هو هذا: «لاَ لُنخدَم بل لِنَخدِم» (متى ٢٠: ٢٨).

ينبغي أن تُطبعَ على عقول الشباب فكرةُ كونهم ليسوا لأنفسهم. فهم خاصّة المسيح. إنّهم مقتنى دمه ومطلب محبّته. فهم يعيشون لكونه يحفظهم بقدرته. إنّ أوقاتِهم وقوّتهم وإمكانياتِهم هي له لكي تُنمَّى وتدّرب لتستخدم له.

إنّ الأسرةَ البشرّية تجيء في المرتبة الثانية بعد الملائكة. وحيث قد تصّوروا على صورة الله فهم أنبل وأكرم خلائقه. والله يريدهم أن يصيروا إلى المستوى الذي جُعل

في مقدورهم الوصول إليه، وأن يفعلوا أفضل ما يستطيعون بالقوى والمواهب التي منحهم إيّاها.

إنّ الحياة غامضة ومقدّسة. وهي مظهر الله نفسه – نبع كلّ حياة. إنّ فرصها ثمينة جدّاً، ولذلك ينبغي لنا أن نحسنَ استخدامَها بكلّ غيرة. فإن هي ضاعت فقد ضاعت إلى الأبد.

والله يضع الأبديّة أمامَنا بحقائقها الخطيرة، وهو يعطينا إدراكاً لفهم المواضيع الأبديّة التي لا تفنى، ويقدّم الحقّ الثمين المشرّف حتى يمكننا التقدّم في طريق آمن أكيد سعياً وراء غرض يستحقّ أن نشغل فيه كلّ إمكانياتنا.

إنّ الله ينظر إلى البذرة الصغيرة التي قد كوّنها بنفسه ويرى مخبوءا فيها الزهرة الجميلة والشجيرة أو الشجرة العالية الممتدّة الأغصان، وكذلك هو يرى كلّ الإمكانيات في كلّ كائن بشري. إنّنا هنا لأجل غرض. والله قد أعطانا تدبيرَه لأجل حياتِنا، ويريدنا أن نصلَ إلى أسمى مقياس للنموّ.

وهو يريدنا أن ننمو في القداسة والسعادة والنفع نموّاً مطّرداً. والجميع لهم الإمكانيات التي ينبغي اعتبارها هبات مقدّسة، وعليهم أن يقدّروها كهبات الربّ، وأن يستخدموها استخداماً صائباً. وهو يريد أن يربّي الشباب كلّ قوى كيانِهم ويدرّبوا كلّ قوّة تدريباً نشيطاً. وهو يريدهم أن يتمتّعوا بكلّ ما هو نافع وثمين في هذه الحياة وأن يكونوا صالحين ويصنعوا صلاحاً، ويكنزوا كنزاً سماوياً للحياة العتيدة.

ينبغي أن يتّجه طموحُهم إلى التفّوق في كلّ ما هو ليس أنانيّاً وما هو سامٍ ونبيل. وعليهم أن ينظروا إلى المسيح كالنموذج الذي يجب أن يُصاغوا على مثاله. وعليهم أن يربّوا في أنفسهم الطموح المقدّس الذي قد أظهره في حياته – الطموحَ لجعل العالم أفضل لكونهم قد عاشوا فيه. هذا هو العمل الذي قد دُعوا إليه.

أساس واسع

إن أسمى علمٍ هو علمُ تخليص النفوس. وأعظمَ عملٍ يمكن أن يصبو إليه بنو الإنسان هو عملُ ربحِ الناس من الخطيّة إلى القدّاسة. فلأجل إتمام هذا العمل يجب وضعُ أساسٍ واسعٍ. فهنالك حاجة إلى تهذيب شامل – تهذيب يتطلّب من الوالدين والمعلّمين تفكيراً وجهداً لا يتطلّبهما مجرّد تعلّم العلوم. فالأمر يتطلّب شيئاً أكثر من تثقيف العقل. فلن يكون التهذيب كاملاً ما لم يتهذّب الجسم والعقل والقلب تهذيباً متساوياً. ويجب أن يتلقّى الخُلُق تدريباً لائقاً ومناسباً حتى يصل إلى أكمل وأسمى نموّ. كلّ قوى الجسم والعقل يجب أن تنمو وتتحسّن وتتدرّب تدريباً صحيحاً. فواجبنا هو أن نثقّف وندرّب كلّ قوّة يمكن أن تجعلنا خدّاماً أوفر كفاءة في عمل الله.

إنّ التهذيب الحقيقيّ يشمل الكيانَ كلَّه. فهو يُعلّم الإنسان كيف يستخدم نفسَه استخداماً صائباً. وهو يقدّرنا على استخدام العقل والعظام والعضلات والجسم والقلب أفضل استخدام. يجب أن تحكُمَ قوى العقل على مملكة الجسم على اعتبار أنّها القوى الأسمى. وينبغي أن تُخضع الميول والأهواء الطبيعيّة للضمير والعواطف الروحيّة. إنّ المسيح يقف رأساً للإنسانيّة، وهو يقصد أن يقودنا في خدمته في المسالك السامية المقدسة للطهارة. فبعمل نعمته العجيب يمكننا أن نتكمّل فيه.

لقد تلقى يسوع تهذيبَه في البيت. فقد كانت أمّه أوّل مُعلّم بشري له. فمن شفتيها ومن أسفار الأنبياء تعلّم عن الأمور السماويّة. لقد عاش في بيت قرويّ، وبكلّ أمانةِ وفرح قام بنصيبه في حمل أعباء البيت. فذاك الذي كان قائد السماءَ كان خادماً راضياً وابناً مطيعاً. لقد تعلّم حرفة، وكان يشتغل بيديه في حانوت النجارة مع يوسف. ففي ثوب عامل عاديّ بسيط كان يسير في شوارع البلدة الصغيرة ذهاباً إلى عمله المتواضع وإياباً منه.

إنّ قيمة الأشياء في نظر الناس في ذاك العصر كانت تُقدّر بالمظهر الخارجي. وإذ انحطّت قوّة الديانة وضعفت زادت في مظهرها وأبّهتها. وقد حاول معلّمو تلك الأيّام أن يُلزموا الناس باحترامهم عن طريق التظاهر والمباهاة. ولكنّ حياة يسوع كانت على نقيض هذا كلّه. فقد أظهرت حياتُه تفاهةَ تلك الأمور التي كان الناس يعتبرونها من ألزم الأشياء الجوهريّة في الحياة. فهو لم يذهب إلى المدارس التي كانت في أيـّامه، إذ كانت تعظّم من شأن الأمور الصغيرة وتحقّر من شأن الأمور العظيمة. لقد تلقّى تعليمه من مصادر عيّنتها السماء، ومن العمل النافع، ومن درس الكتب المقدسة، ومن الطبيعة، ومن اختبارات الحياة – وهي كتب تعليم الله الملأى بالتعاليم لكلّ من يقدّمون لها اليد المستعدّة والعين المبصرة والقلب الواعي الفاهم.

« وَكَانَ الصَّبِيُّ يَنْمُو وَيَتَقَوَّى بِالرُّوحِ مُمْتَلِئًا حِكْمَةً وَكَانَتْ نِعْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ » (لوقا ٢:٨).

فإذ أُعدّ هكذا خرج إلى خدمته، وفي كلّ لحظة من لحظات اتّصاله بالناس كان يبذل معهم تأثيراً ليباركهم، ويستخدم قوّة لتغييرهم، الأمر الذي لم يشهده العالم من قبل.

البيت مدرسة

البيت هو أوّل مدرسةٍ للطفل، وفيه يجب وضعُ الأساس لحياة الخدمة المستقبلة. وينبغي ألاّ تُعلّم مبادئها تعليماً نظرياً وحسب بل ينبغي أن تُشكّل وتصوغ تدريب الحياة بجملتها.

يجب تعليمُ الطفل درس المعونة منذ صباه. فحالما تنمو قوى جسمه وعقله يجب أن تُعطى له واجبات ليقوم بها في البيت، وينبغي تشجيعُه على إنكار نفسه وضبطها والتحكّم فيها، وعلى تفضيل سعادة الآخرين وراحتهم على سعادته وراحته، وعلى تحيُّن الفرص لإسعاد إخوته وأخواته وزملائه ومساعدتهم، وعلى إظهار الشفقة نحو الطاعنين في السنّ والمرضى والمنكوبين، وكلّما شملت روح الخدمة الحقيقيّة البيت ازدادت نموّاً في

نفوس الأولاد. فهم سيتعلمون أن يجدوا لذةً وفرحاً في الخدمة والتضحية لأجل خير الآخرين.

عمل المدرسة الرسميّة

إنّ عمل المدرسة ينبغي أن يكون مكمّلاً للتربية البيتيّة. ونموّ الإنسان كلّه – جسماً وعقلاً وروحاً، وتعليم الخدمة والتضحية ينبغي أن تظلّ ماثلةً أمامَ الأنظار.

وفوق كلّ عامل آخر فإنّ الخدمة لأجل المسيح في الأمور الصغيرة لاختبار كلّ يوم لها قوّة على تشكيل الخُلُق وتوجيه الحياة في طرق الخدمة غير المغرضة وغير الأنانيّة. إنّ عمل الوالدين والمعلّم هو إيقاظ هذه الروح وتشجيعها وتوجيهها في الاتّجاه الصائب. وهذا هو أهمُّ عمل يُسند إليهم. إنّ روح الخدمة هو روح السماء، والملائكة يتعاونون مع كلّ جهد يُبذل لإنمائِه وتشجيعه.

وينبغي أن يُبنى مثل هذا التهذيب على كلمة الله. ففيها فقط تُقدّم مبادئُه في ملئها وكمالها. فيجب أن يكون الكتابُ المقدّس أساسَ الدرسِ والتعليم. فالمعرفة الجوهريّة هي معرفة الله ومعرفة ذاك الذي قد أرسله.

وكلّ صبيّ وكلّ شاب ملتزم بأن يعرفَ نفسَه. وعليه أن يفهمُ المسكنّ الجسديَّ الذي قد أعطاه الله إيّاه والقوانين التي بموجبها يُحفظ صحيحاً. فكلّ واحد يجب أن يُؤسّس جيداً في فروع التهذيب المشتركة. كما يجب أن يتلقّوا تعليماً صناعيّاً يجعل منهم رجالاً ونساءٍ ذوي مقدرة عمليّة مؤهّلين لواجبات الحياة اليوميّة. ويجب أن يضاف إلى هذا، التدريب والاختبار العملي في فروع العمل المرسلي المختلفة.

عَلِّم تتعلّم

وعلى الشباب أن يتقدّموا بسرعة وعلى أوسع مدى يستطيعونه في إحراز المعرفة. وليكن ميدانُ دراستِهم واسعاً بقدر ما تتّسع له قواهم. وإذ يتعلّمون عليهم أن ينشروا ما

يتعلّمونه. فبهذه الكيفيّة تكتسب عقولهم التدريب والقـوّة. واستعمالُهم للمعرفةِ وانتفاعُهم بها هو الذي يقرّر قيمة تهذيبهم. إنّ قضاء وقت طويل في الـدرس بـدون محاولـة نقل ما قد اكتُسب للغير كثيراً ما يُبرهن على أنّه مُعطّل للنمـوّ الحقيقي لا علـى أنّه مساعد عليه. وفي كلا البيت والمدرسة ينبغي أن يسعى التلميذُ إلى تعلّم الكيفيّة التي بـها يـدرسُ ويذيع المعرفةَ التي قد كسبها. وأياً تكن حرفتُه عليه أن يكون متعلّماً ومعلّماً مدى حياته. وهكذا يمكنه أن يتقدّم تقدّما مطّرداً جاعلاً الله متّكلَه، متعلّقاً بذاك الـذي لا حـدّ لحكمته والذي يستطيع أن يكشف عن الأسرار المخبوءة مدى أجيال وأن يحلّ أعقد المشاكل للعقول التي تؤمن به.

تأثير العشـرة

إنّ كلمة الله تشدّد تشديداً قويّاً على مـا للعشرة من تأثير حتى في الرجال والنساء. فكم بالأحرى يكون تأثيرها عظيماً في عقول الأولاد والشباب وأخلاقهم الناشئة. فالعشـراء الذين يعاشرونهم والمباديء التي يعتنقونها والعادات التي يكوّنونـها لا بـدّ أن تقرّر مسألة نفعهم في هذا العالم وصالحهم الأبدي المستقبل.

إنّها حقيقة رهيبة، حقيقة يجب أن ترتجف لها قلوب الآباء وهي أنّ في كثير مـن المدارس والكلّيات التي يُرسل إليها الشباب لتحصيل الثقافة والتدريب العقلي تسود بعض المؤثّرات التي تشوّه الأخلاق وتبعد الأذهان والعقول عن أهداف الحياة الحقيقيّة وتحطّ الأخلاق. وعن طريق معاشـرة غير المتديّنين ومحبّي الملذّات والفاسدين يخسر كثيرون جدّاً من الشباب البساطة والطهارَة والإيمانَ بالله وروح التضحية التي عززها الآباء والأمهات المسيحيون وحرصوا عليها وصانوها بالتعليم الحريص والصلاة الحارّة.

إنّ كثيرين ممن يدخلون المدرسة ليـهّيئوا أنفسَهم لخدمـة مـا غـير أنانيّـة تراهـم منصرفين إلى دروس عالميّـة. لقد أُثير فيهم حُبُ التفوّق في المدرسة والحصـول على المقام والكرامة في العالم. والهدف الذي من أجله قد دخلوا المدرسة قد فقدوا أهميتـه،

فكرّسوا حياتَهم للأمور الأنانيّة والعالميّة. وكثيراً ما يكتسبون عاداتٍ تكون سبب تدمير لحياتهم في العالم وخسران العالم الآتي.

ومن القواعد المُسلّم بها أنّ الرجال والنساء المتّسعي الأفكار ذوي الأغراض التي لا تشوبها أثرة وذوي المطامح النبيلة هم الذين نمت فيهم هذه الخصائص وترعرعت عن طريق معاشرتهم الناس في شبابهم. إنّ الله في كلّ معاملاته مع العبرانيين شدّد على أهميّة مراقبة معاشرات أولادهم. وكلّ التنظيمات المدنيّة والدينيّة والاجتماعيّة التي شُكلت، كان الهدف منها صيانة الأولاد من المعاشرات الضارّة وجعلهم منذ صباهم على علم ودراية بوصايا ومباديء شريعة الله. إن الدرس العمليّ الذي أُعطي عند ميلاد الأمّة كان بطبيعته ليؤثّر تأثيراً عميقاً في كلّ القلوب. فقبل وقوع الضربة الأخيرة المخيفة على المصريين، أيّ موت الأبكار، أمر الله شعبه بأن يجمعوا أولادهم داخل بيوتهم. وقد رُشّت العتبة العليا في كلّ بيت بالدم. وكان يجب أن يبقى الجميع في داخل الحماية التي ضمّنها هذا الرمز. وهكذا اليوم فكلّ الوالدين الذين يحبّون الله ويتّقونه عليهم أن يحفظوا أولادهم ضمن رباط العهد – في حماية تلك المؤثّرات المقدّسة التي صارت ميسورة بواسطة دمِ المسيح الفادي.

لقد قال المسيح عن تلاميذه: أعطيتهم كلامك... لأنهم لَيْسُوا مِنَ الْعَالَمِ كَمَا أَنِّي أنا لست مِنَ الْعَالَمِ» (يوحنا ١٤:١٧).

إنّ الله يأمرنا قائلاً: «لاَ تُشَاكِلُوا هذا الدهر بل تغيّروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم» (رومية ٢:١٢).

« لاَ تَكُونُوا تَحْتَ نِيرٍ مَعَ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ لأنه أية خلطة للبر والإثم وأية شركة للنور مع الظلمة .. وأية موافقة لهيكل الله مع الأوثان. فَإِنَّكُمْ أَنْتُمْ هَيْكَلُ اللهِ الْحَيِّ ، كَمَا قَالَ اللهُ إِنِّي سَأَسْكُنُ فِيهِمْ وَأَسِيرُ بَيْنَهُمْ ، وَأَكُونُ لَهُمْ إِلهًا ، وَهُمْ يَكُونُونَ لِي شَعْبًا . لِذلِكَ " اخْرُجُوا

مِنْ وَسْطِهِمْ وَاعْتَزِلُوا .. وَلاَ تَمَسُّوا نَجِسًا فَأَقْبَلَكُمْ وَأَكُونَ لَكُمْ أَبًا وَأَنْتُمْ تَكُونُونَ لِي بَنِينَ وَبَنَاتٍ يَقُولُ الرَّبُّ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ "» (٢كورنثوس ٦:١٦-١٨) .

وعود البركة

«اجمعوا الأطفال» (يوئيل٢: ١٦). « أُعَرِّفُهُمْ فَرَائِضَ اللهِ وَشَرَائِعَهُ» (خروج ١٨: ١٦).

«يجعلون اسمي على بني إسرائيل وأنا اباركهم» (عدد٢٧:٦).

« فَيَرَى جَمِيعُ شُعُوبِ الأَرْضِ أَنَّ اسْمَ الرَّبِّ قَدْ سُمِّيَ عَلَيكَ» (تثنية ٢٨: ١٠).

« وَتَكُونُ بَقِيَّةُ يَعْقُوبَ فِي وَسَطِ شُعُوبٍ كَثِيرِينَ كَالنَّدَى مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ ، كَالْوَابِلِ عَلَى الْعُشْبِ الَّذِي لاَ يَنْتَظِرُ إِنْسَانًا وَلاَ يَصْبِرُ لِبَنِي الْبَشَرِ » (ميخا ٥: ٧).

ونحن معدودون مع العبرانيين. فكلّ الوصايا المعطاة للعبرانيين قديماً الخاصّة بتهذيب أولادهم وتربيتهم وكلّ مواعيد البركة التي تأتي عن طريق الطاعة هي لنا وكلمة الله الموجّهة إلينا هي هذه: «أُبَارِكَكَ .. وَتَكُونَ بَرَكَةً» (تكوين ١٢: ٢).

وقد قال المسيح عن التلاميذ الأوّلين وعن كلّ من يؤمنون به بكلامهم: «أنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني لِيَكُونُوا وَاحِداً كَمَا أَنَّنا نَحْنُ وَاحِدٍ. أَنَا فِيهِمْ وَأَنْتَ فِيَّ لِيَكُونُوا مُكَمَّلِينَ إِلَى وَاحِدٍ وَلِيَعْلَمَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي وَأَحْبَبْتَهُمْ كَمَا أَحْبَبْتَنِي» (يوحنا١٧: ٢٢و٢٣).

يا لها من أقوال عجيبة ومدهشة لا يكاد الإيمان يُدرك معناها! فخالق كلّ العوالم يحبّ من يسلّمون ذواتِهم لخدمته كما يحبّ ابنه. حتى ونحن في هذا العالم الآن هو يمنحنا رضا رحمته إلى هذا الحدّ المدهش. لقد أعطانا نور وجلال السماء (المسيح)، ووهبنا معه كلّ كنز السماء. ومع كثرة ما وعدنا به للحياة العتيدة فهو يهبنا هبات ملكية في هذه الحياة. وكرعايا نعمته هو يريدنا أن نتمتّع بكلّ ما يُشرّف خُلُقنا ويسمو به ويوسّعه.

إنّه ينتظر ليُلهم الشباب بقوّة من الأعالي لينضمّوا تحت الراية المغموسة في دم المسيح وليعمل كما قد عمل في النفوس في طرق أمينة ليُثبت أقدام كثيرين على صخر الدهور.

كلّ من يجتهدون في عمل ما يتّفق مع تدبير الله في التهذيب سيظفرون بمعاضدة نعمته وحضوره الدائم وقوّته الحافظة. وهو يقول لكلّ واحدٍ:

«تَشَدَّدْ وَتَشَجَّعْ. لاَ تَرْهَبْ ولا ترتعب لأن الرَّبَّ إِلهَكَ مَعَكَ لاَ أُهْمِلُكَ وَلاَ أَتْرُكُكَ» (يشوع١: ٩و٥).

لأنّه كما ينزل المطر والثلج من السماء ولا يرجعان إلى هناك بل يرويان الأرض ويجعلانها تلد وتنبت وتُعطي زرعاً للزارع وخبزاً للآكل. هكذا تكون كلمتي التي تخرج من فمي. لا ترجع إليَّ فارغة بل تعمل ما سررت به وتنجح في ما أرسلتها له. لأنّكم بفرحٍ تخرجون وبسلام تحضرون. الجبال والآكام تُشيّد أمامكم ترنماً وكلّ شجر الحقل تصفّق بالأيادي. عِوَضًا عَنِ الشَّوْكِ يَنْبُتُ سَرْوٌ وَعِوَضًا عَنِ الْقَرِيسِ يَطْلَعُ آسٌ. ويكون للرب اسماً علامةً أبديّةً لا تنقطع (إشعياء ٥٥:١٠-١٣).

في كلّ العالم نرى أنّ المجتمع في حالة تشويش وفوضى. وهنالك حاجة مُلحّة إلى تغيير كامل. فالتهذيب الذي يُقدّم للشباب هو الذي سيصوغ النظام الاجتماعي كلّه.

«ويبنون الْخِرَبُ الْقَدِيمَةُ، يقيمون الموحشات الأول ويجددون المدن الخربة موحشات دورٍ فدورٍ» يسميهم الناس «خُدَام إلهنا .. بهجة أبدية تكون لهم. لأني أنا الرب محب العدل» (إشعياء ٦١:٤ و٦-٨).

«وأجعل أجرتهم أمينة وَأَقْطَعُ لَهُمْ عَهْداً أَبَدِيّاً» (إشعياء٦١: ٨).

«ويُعرف بين الأمم نسلُهم وذرّيّتُهم في وسط الشعوب. كلّ الذين يرونهم يعرفونهم أنهم نسل باركه الرب .. لأَنَّهُ كَمَا أَنَّ الأَرْضَ تُخْرِجُ نَبَاتَهَا وَكَمَا أَنَّ الْجَنَّةَ تُنْبِتُ مَزْرُوعَاتِهَا هكَذَا السَّيِّدُ الرَّبُّ يُنْبِتُ بِرًّا وَتَسْبِيحًا أَمَامَ كُلِّ الأُمَمِ» (إشعياء ٦١ :٩و ١١).

١ المعرفة الحقيقية للّه

إنّنا في هذا العالم لنقدّم خدمةً لله مثلما فعل مخلّصنا. فنحن هنا لنصيرَ على شبه الله في الصفات، ولنعلنه للعالم بحياة الخدمة. ولكي نكون عاملين مع الله، ولكي نصير مثله، ولكي نعلنَ صفاتِه، علينا أن نعرفَه معرفة صحيحة، وعلينا أن نعرفه كما يعلن ذاته.

ومعرفة الله هي أساس كلّ تهذيب حقيقي وكلّ خدمة حقيقيّة أمينة. وهي الواقي الحقيقي الوحيد من التجربة. وهذا وحده الذي يستطيع أن يجعلنا مشابهين لله في الصفات.

هذه هي المعرفة التي يحتاجها كلّ من يخدمون لأجل رفع شأن بني جنسهم.إنّ تغيير الأخلاق وطهارة الحياة والكفاءة في الخدمة والثبات على المباديء الصحيحة، كلّ هذا يتوقّف على معرفتنا لله المعرفة الصائبة. هذه المعرفة هي الإعدادُ الجوهريُّ لأجل هذه الحياة والحياة العتيدة.

«معرفة القدوس فهم» (أمثال٩: ١٠)

وبواسطة معرفته يُعطي لَنَا «كُلَّ مَا هُوَ لِلْحَيَاةِ وَالتَّقْوَى» (٢ بطرس١:٣).

وقد قال يسوع: « وَهذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الإِلهَ الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ » (يوحنا ١٧: ٣).

هكذا قال الرب. « لاَ يَفْتَخِرَنَّ الْحَكِيمُ بِحِكْمَتِهِ وَلاَ يَفْتَخِرِ الْجَبَّارُ بِجَبَرُوتِهِ وَلاَ يَفْتَخِرِ الْغَنِيُّ بِغِنَاهُ. بَلْ بِهذَا لِيَفْتَخِرَنَّ الْمُفْتَخِرُ بِأَنَّهُ يَفْهَمُ وَيَعْرِفُنِي أَنِّي أَنَا الرَّبُّ الصَّانِعُ رَحْمَةً وَقَضَاءً وَعَدْلاً فِي الأَرْضِ لأَنِّي بِهذِهِ أُسَرُّ يَقُولُ الرَّبُّ» (إرميا ٩: ٢٣،٢٤).

إنّنا بحاجة لمعرفة إعلانات الله عن نفسه التي قد أعطاها لنا.

«تعرف به واسلم. بذلك يـأتيك خير. اقبل الشريعة من فيه وضع كلامه في قلبك .. يكون القدير تبرك .. لأنك حينئذ تتلذذ بالقدير وترفع إلى الله وجهك. تصلي له فيستمع لك ونذورك توفيها. وتجزم أمراً فيثّبت لك وعلى طرقك يُضيء نور. إذا وضعوا تقول رفع. ويخلص المنخفض العينين» (أيوب٢٢: ٢١ و٢٢ و٢٥-٢٩).

الطبيعة تعلن عن الله

« لأَنّ أُمُورَهُ غَيْرَ الْمَنْظُورَةِ تُرىَ مُنْذُ خَلْقِ الْعَالَمِ مُدْرَكَةً بِالْمَصْنُوعَاتِ قُدْرَتَهُ السَّرْمَدِيَّةَ وَلاَهُوتَهُ» (رومية ١: ٢٠).

إنّ أمور الطبيعة التي نراها الآن تعطينا لمحة باهتة عن مجد جنّة عدن. لقد شوّهت الخطيّة ما في الأرض من جمال. ففي كلّ الأشياء تُرى آثار عمل الشرّ. ومع ذلك يبقى الكثير مما هو جميل. فالطبيعة تشهد بأنّ كائناً غير محدود في قدرته وعظيماً في صلاحه ورحمته ومحبّته قد خلق الأرض وملأها حياة وفرحاً. إنّ كلّ الأشياء حتى بعدما ضُربت باللعنة تعلن عن صنعة يد الفنان الأعظم. فأينما نتّجه يمكنّنا أن نسمع صوت الله ونرى أدّلة صلاحه.

فمن صوت الرعد العميق وهدير مياه الأوقيانوس التي لا تعرف الاستقرار إلى أغاني الفرح التي يتردد صدى موسيقاها في الغابات فإنّ ربواتِ أصواتِ الطبيعة تردّد حمدك. ففي اليابسة والبحر والهواء – في هذه كلّها، بجمال ألوانها البديعة في تباين واختلاف بديع أو منسجمة في توافق مدهش، نرى مجده. إنّ الآكامَ الدهرية تحدّثنا عن قدرته. والأشجارَ التي تتمايل أغصانَها الخضراء كالأعلام في نور الشمس، والأزهارَ في جمالها البديع تُرشدنا إلى خالقها. والخضرةُ اليانعةُ التي تمتدّ كبساط بديع على الأرض الجرداء تحدّث عن رعاية الله لأكثر خلائقه تواضعاً. وكهوفُ البحر وأعماقُ الأرض تعلن عن كنوزه الغنيّة. فذاك الذي قد وضع اللآليء في الأوقيانوس والجمشت والياقوت الأصفر بين

الصخور يحبّ كلّ ما هو جميل. والشمس المشرقة في السماء تمثّل ذاك الذي هو الحياة والنور لكلّ خلائقه. فكلّ النور والجمال اللذين تزدان بهما الأرض وينيران السماء يتحدثان عن الله.

«جلاله غطى السموات» (حبقوق٣:٣). «ملآنة الأرض من غناك» (مزمور ١٠٤:٢٤).

«يَوْمٌ إِلَى يَوْمٍ يُذِيعُ كَلاَماً وَلَيْلٌ إِلَى لَيْل يُبْدِي عِلْمًا. لاَ قَوْلَ وَلاَ كَلاَمَ. لاَ يُسْمَعُ صَوْتُهُمْ في كلّ الأرض خرج منطقهم وإلى أقصى المسكونة كلماتهم» (مزمور ١٩: ٢-٤).

الله قائم بذاته

فكلّ الأشياء تحدّثنا عن رعايته الأبويّة الرقيقة وشوقه إلى إسعاد أولاده.

فالقوة الجبّارة التي تعمل في الطبيعة كلّها والتي تسند كلّ الأشياء ليست مجرّد مبدأ شامل أو قوّة دافعة كما يصوّرها بعض العلماء. الله روح، ومع ذلك فهو كائن قائم بذاته. فهكذا أعلن عن نفسه.

« أَمَّا الرَّبُّ الإِلهُ فَحَقٌّ. هُوَ إِلهٌ حَيٌّ وَمَلِكٌ أَبَدِيٌّ .. الآلِهَةُ الَّتِي لَمْ تَصْنَعِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ تَبِيدُ مِنَ الأَرْضِ وَمِنْ تَحْتِ هذِهِ السَّمَاوَاتِ». «لَيْسَ كَهذِهِ نَصِيبُ يَعْقُوبَ ، لأَنَّهُ مُصَوِّرُ الْجَمِيعِ» «صانع الأرض بقوته مؤسس المسكونة بحكمته وبفهمه بسط السموات(إرميا١٠:١٠و١١و١٦و١٢).

ولكنّ الطبيعة ليست هي الله

إنّ عمل يدي الله في الطبيعة ليس هو الله في الطبيعة. ولكنّ الأشياء التي في الطبيعة إن هي إلاّ التعبير عن صفات الله وقدرته. ولكن ليس لنا أن نعتبر الطبيعة كالله. إنّ مهارة الناس الفنيّة تنتج صنعةً جميلةً جداً، أشياء تسرّ النظر، وهذه الأشياء تكشف لنا شيئاً عن فكر من رسم الخطّة ونفذّها. ولكنّ الشيء المصنوع ليس هو الصانع. إنّ الذي

يُعتبرُ أهلاً للمجد والكرامة ليس هو العمل بل العامل أو الصانع. وهكذا ففي حين أنّ الطبيعة هي التعبير عن فكر الله فالذي يستحقّ التمجيد ليس هو الطبيعة، بل إله الطبيعة.

«هلّم نسجد ونركع ونجثو أمام الرب خالقنا الذي بيده مقاصير الأرض وخزائن الجبال له الَّذِي لَهُ الْبَحْرُ وَهُوَ صَنَعَهُ ويداه سبكتا اليابسة» (مزمور٩٥: ٦ و٤و٥).

«الذي صنع الثريا والجبار ويحول ظل الموت صبحاً ويُظلم النهار كالليل» (عاموس٥: ٨).

«الذي بنى في السماء علاليه وأسس على الأرض قبته الذي يدعو مياه البحر ويصبها على وجه الأرض. يهوه اسمه» (عاموس ٦:٩).

خلق الأرض

إنّ عمل الخلق لا يمكن إيضاحه بالعلم. فأيّ علم يمكنه أن يوضّح سرّ الحياة؟ «بالإيمان نفهم أن العالمين أتقنت بكلمة الله حتى لم يتكون ما يرى مما هو ظاهر» (عبرانيين ١١:٣).

«مصور النور وخالق الظلمة .. أنا الرب صانع كلّ هذه .. أنا صنعت الأرض وخلقت الإنسان عليها. يداي أنا نشرتا السموات، وكلّ جندها أنا أمرت» (إشعياء٤٥: ٧-١٢). «أنا أدعوهن فيقفن معا» (إشعياء ١٣:٤٨).

عند خلق الأرض لم يكن الله مديناً لمادّة موجودة من قبل. : « لأَنَّهُ قَالَ فَكَانَ . هُوَ أَمَرَ فَصَارَ» (مزمور ٩:٣٣). فكلّ الأشياء المادية أو الروحيّة وقفت أمام السيد الربّ عند سماع صوته وخُلقت لأجل غرضه. فالسموات وكلّ جندها والأرض وكلّ ما فيها ظهرت في الوجود بنسمة فيه.

خلق الإنسان

وفي خلق الإنسان ظهر عملُ إلهٍ ذاتي. وعندما جبل الله الإنسانَ على صورته كان جسمُ الإنسان مكتملاً في كلّ ترتيباته ولكنّه كان بلا حياة. حينئذ فإنّ الله القائم بذاته

نفخ في جسم الإنسان نسمة الحياة فصار الإنسان كائناً حيّاً عاقلاً. وقد بدأت كلّ أجزاء جهاز الجسم تقوم بعملها. فالقلب والشرايين والأوردة واللسان واليدان والقدمان والحواس وقوى العقل بدأت كلُّها تقوم بعملها، ووُضعت كلُّها تحت القانون. فصار الإنسان نفساً حيّةً. فبواسطة المسيح الكلمة خلق الله بنفسه الإنسانَ ومنحه الذكاء والقوّة.

إنّ جبلتنا لم تكن مخفيّة عنه عندما صُنعنا في الخفاء، فقد رأت عيناه جبلتنا، رغم أنّها لم تكن تامّة بعد، وفي سِفره كُتبت كلُّ أعضائنا إذ لم يكن واحد منها.

لقد قصد الله أن الإنسان الذي هو تاج خليقته يُعبّرُ عن فكره تعالى، ويعلنُ مجدَه أكثر من كلّ أنظمة الوجود الدُنيا. ولكن يجب ألاّ يرفع الإنسانُ نفسَه فوق الله.

« اهْتِفِي لِلرَّبُّ اعْبُدُوا الرَّبَّ بِفَرَحٍ. ادْخُلُوا إِلَى حَضْرَتِهِ بِتَرَنُّمٍ. اعْلَمُوا أَنَّ الرَّبَّ هُوَ اللهُ. هُوَ صَنَعَنَا وَلَهُ نَحْنُ شَعْبُهُ وَغَنَمُ مَرْعَاهُ. ادْخُلُوا أَبْوَابَهُ بِحَمْدٍ دِيَارَهُ بِالتَّسْبِيحِ. احْمَدُوهُ بَارِكُوا اسْمَهُ » (مزمور ١٠٠: ٢-٤).

«علوا الرب الهنا واسجدوا في جبل قدسه لأن الرب إلهنا قدوس» (مزمور٩٩: ٩).

الله يستخدم الطبيعة

إنّ الله يدّأب دائماً في دعم واستخدام الأشياء التي قد صنعها كخدّام له. فهو يعمل بواسطة نواميس الطبيعة مستخدماً إياها كوسائله. ولكنّها لا تستطيع أن تعمل بنفسها. فالطبيعة في عملها تشهد للحضور الحكيم والقدرة للكائن الذي يُجري كلّ شيء حسب إرادته.

« إِلَى الأَبَدِ يَا رَبُّ كَلِمَتُكَ مُثَبَّتَةٌ فِي السَّمَاوَاتِ. إِلَى دَوْرٍ فَدَوْرٍ أمانتك. أسست الأرض فثبتت. على أحكامك ثبتت اليوم لأن الكلّ عبيدك» (مزمور ١١٩:٨٩-٩١).

«كلّ ما شاء الرب صنع في السموات وفي الأرض، في البحار وفي كلّ اللجج» (مزمور١٣٥:٦).

«أمر فخلقت. وثبتها إلى الدهر والأبد. وضع لها حداً فلن تتعداه» (مزمور١٤٨:٥و٦).

إنّ الأرض تنتج خيراتِها عاماً بعد عام وتظلّ دائرةً حول الشمس ليس بقوّة فطريّة فيها. ولكنّ يد الخالق السرمدي تعمل بلا انقطاع في إرشاد كوكبنا هذا. فقوّة الله العاملة على الدوام هي التي تحفظ الأرض في مركز دورانها في فلكها. والله هو الذي يجعل الشمس تشرق في السموات. وهو الذي يفتح كوى السماء وينزل المطر.

« الَّذِي يُعطِي الثَّلْجَ كَالصُّوفِ وَيُذَرِّي الصَّقِيعَ كَالرَّمَادِ» (مزمور ١٤٧: ١٦).

« إِذَا أَعْطَى قَوْلاً تَكُونُ كَثْرَةُ مِيَاهٍ فِي السَّمَاوَاتِ ، وَيُصْعِدُ السَّحَابَ مِنْ أَقَاصِي الأَرْضِ . صَنَعَ بُرُوقًا لِلْمَطَرِ ، وَأَخْرَجَ الرِّيحَ مِنْ خَزَائِنِهِ» (إرميا ١٠: ١٣) .

فبقدرة الله تنمو النباتات وتزدهر وتكتسي الأشجار بالأوراق، وتتفتح كلّ الأزهار وتنمو وتكبر كلّ الأثمار.

ولا يمكن فهم تركيب الجسم البشري فهماً كاملاً. فهو يعرض أسراراً تُحيّر أذكى الناس عقولاً. فالقلب ينبض والأنفاس تتردد ليس نتيجة تركيب يبدأ في تحريكه فيستمر قائماً بعمله. ولكنّنا بالله نحيّا ونتحرك ونوجد. فالقلب النابض والنبضة الخافقة وكلّ عصب وعضلة في الجهاز الحيّ تظل في نظامها ونشاطها بقوّة الله الدائم الوجود.

رعاية الله وعنايته

إنّ الكتاب المقدس يريّنا الله في مكان سكناه المرتفع المقدّس لا في حالة الجمود أو السكون أو الوحدة بل نراه محاطاً بربوات ربوات وألوف ألوف من الخلائق المقدّسة. والجميع رهن إرادته. وبواسطة هؤلاء الرسل هو على اتصال دائم بكلّ جزء من أجزاء ملكوته. وهو حاضر في كلّ مكان بروحه. فبواسطة روحه القدّوس وملائكته هو يخدم بني الإنسان.

إنّه يجلس على عرشه فوق اضطـراب الأرض وصخبها. وكـلُّ شيء عريـانٌ ومكشـوفٌ أمام عيني الله، ومن سرمديته العظيمة يأمر بما تراه عنايته أنّه الأفضل.

«ليس للإنسان طريقه ليس لإنسان يمشي أن يهدي خطواته» (ارميا١٠: ٢٣).

«توكل على الربّ بكلّ قلبك وعلى فهمك لا تعتمد. في كلّ طرقك اعرفه وهـو يقـوم سبلك» (أمثال٣: ٥و٦).

«هوذا عين الربّ على خائفيه الراجين رحمته لينجّي من الموت أنفسَهم وليستحييهم في الجوع» (مزمور٣٣: ١٨و١٩).

«ما أكرم رحمتك يا الله. فبنو البشر في ظل جناحيك يحتمون» (مزمور٣٦:٧).

«طوبى لمن إله يعقوب معينُه ورجاؤه على الربّ إلهه» (مزمور١٤٦: ٥).

«رحمتك يا رب قد ملأت الأرض» (مزمور١١٩: ٦٤).

أنت تحبّ «البر والعدل» (مزمور٣٣: ٥).

أنت «مُتَّكَـلَ جَمِيعِ أَقَاصِي الأَرضِ وَالْبَحْرِ الْبَعِيدَةِ. الْمُثْبِتُ الْجِبَالَ بِقُوَّتِهِ الْمُتَنَطّقُ بِالْقُدْرَةِ. الْمُهْدِئُ عَجِيجَ الْبِحَارِ عَجِيجَ أَمْوَاجِهَا وَضَجِيجَ الأُمَمِ» (مزمور٦٥: ٥-٧).

«تجعل مطالع الصباح والمساء تبتهج». «كلّلت السنة بجـودك وأثارك تقطر دسمـاً» (مزمور٦٥: ٨و١١).

«الربّ عـاضد كلّ الساقطين ومقوّم كلّ المنحنين. أعين الكلّ إياك تـترجى وأنـت تعطيهم طعامهم في حينه تفتح يدك فتشبع كلّ حي رضىً» (مزمور١٤٥: ١٤-١٦).

ذاتيـة الله معلنــة في المسـيح

إنّ الله ككائن قائم بذاته قد أعلـن نفسه في ابنه. إنّ يسـوع بهاء مجـد الآب « وَرَسْمُ جَوْهَرِهِ» (عبرانيين١: ٣). أتـى إلى العالم كمخلّص ذاتـي. وكمخلّص ذاتـي صعـد إلى

العلاء، وكمخلّص ذاتي يجري عمل الشفاعة في المواطن السماوية. فأمام عرش الله ولأجلنا يخدم «شِبْهُ ابْنِ إِنْسَانٍ» (رؤيا ١:١٣).

فالمسيح نور العالم حجب بهاء نور ألوهيته وأتى ليعيش كإنسان بين الناس حتى يمكنهم أن يتعرّفوا بخالقهم بدون أن يموتوا احتراقاً. فمنذ فصلت الخطية بين الإنسان وجابله لم يرَ أحدّ الله في أيّ وقت إلاّ كما هو معلن في المسيح.

لقد أعلن المسيح قائلاً: « أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ» (يوحنا١٠: ٣٠). «لَيْسَ أَحَدٌ يَعْرِفُ الابْنَ إِلاَّ الآبُ وَلاَ أَحَدٌ يَعرِفُ الآبُ إِلاَّ الابْنُ وَمَنْ أَرَادَ الابْنُ أَنْ يُعْلِنَ لَهُ» (متى ١١:٢٧).

لقد أتى المسيح ليعلّم بني الإنسان ما يريدهم الله أن يعرفوه. ففي السموات من فوق وفي الأرض وفي مياه المحيط المترامي الأطراف نرى عمل الله. إنّ كلّ الخلائق تشهد لقدرته وحكمته ومحبّته، ومع ذلك فنحن لا نتعلّم عن ذاتية الله من النجوم أو الأوقيانوسات أو الشلالات مثلما نتعلّم عنها كما هي معلنة في المسيح.

فلقد رأى الله أنّ هنالك حاجةً إلى إعلان أوضح مما في الطبيعة لتصوير ذاتيّته وصفاته، فأرسل ابنه إلى العالم ليعلن طبيعةَ وصفاتِ الإله غير المنظور على قدر ما يحتمله بصرُ الناس.

إعلانه للتلاميذ

لندرس الأقوال التي فاه بها المسيح في العلّية في الليلة السابقة لصلبه. كان يقترب من ساعة المحاكمة فحاول أن يعزّي تلاميذه الذين كانوا مزمعين أن يُجرّبوا ويُمتحنوا امتحاناً قاسياً جدّاً.

فقال لهم: « لاَ تَضْطَرِبْ قُلُوبُكُمْ . أَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ فَآمِنُوا بِي . فِي بَيْتِ أَبِي مَنَازِلُ كَثِيرَةٌ ، وَإِلاَّ فَإِنِّي كُنْتُ قَدْ قُلْتُ لَكُمْ . أَنَا أَمْضِي لأُعِدَّ لَكُمْ مَكَانًا ..

«قال له توما يَا سَيِّدُ، لَسْنَا نَعْلَمُ أَيْنَ تَذْهَبُ، فَكَيْفَ نَقْدِرُ أَنْ نَعْرِفَ الطَّرِيقَ. قال له يسوع أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الآبِ إِلاَّ بِي. لَوْ كُنْتُمْ قَدْ عَرَفْتُمُونِي لَعَرَفْتُمْ أَبِي أَيْضاً. وَمِنَ الآن تَعْرِفُونَهُ وَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ ..

قال له فيلبس يَا سَيِّدُ أَرِنَا الآبَ وَكَفَانَا. قال له يسوع أَنَا مَعَكُمْ زَمَاناً هذه مدته وَلَمْ تُعَرِّفْنِي يا فيلبس. الذي رآني فقد رأي الآب فكيف تقول أنت أَرِنَا الآبَ. ألست تؤمن أنيّ أنا في الآب والآب فيّ. الْكَلاَمُ الَّذِي أُكَلِّمُكُمْ بِهِ لَسْتُ أَتَكَلَّمُ بِهِ مِنْ نَفْسِي لكِنَّ الآبَ الْحَالَّ فِيَّ هُوَ يَعْمَلُ الأَعْمَالَ» (يوحنا ١٤: ١-١٠).

ولم يكن التلاميذ بعد يفهمون كلام المسيح عن علاقته بالله. فكثير من تعليمه كان ما يزالُ غامضاً عليهم. فقد أراد المسيح أن تكون عندهم معرفة أكثر وضوحاً وجلاءٍ عن الله.

قال لهم: «قَدْ كَلَّمْتُكُمْ بِهذَا بأمثال ولكن تأتي ساعة حين لا أكلمكم أيضاً بأمثال بل أخبركم عن الآب علانية» (يوحنا ١٦:٢٥).

وعندما انسكب الروح القدس على التلاميذ في يوم الخمسين فهموا الحقائق التي كلّمهم بها بأمثال فهماً كاملاً. وكثيرٌ من التعاليم التي كانت سرّاً مستغلقاً عليهم وضحت أمامهم. بل حتى إلى ذلك الحين لم يحصل التلاميذ على إتمام وعد المسيح كاملاً. لقد حصلوا على كلّ ما يستطيعون احتماله من معرفة الله، ولكنّ الإتمام الكامل لوعد المسيح بأنّه سيخبرهم عن الآب علانية لم يكن وقتُه قد حان بعد. وكذلك الحال اليوم. فمعرفتنا عن الله جزئيّة وناقصة. وعندما ينتهي النضال ويعترف الإنسان يسوع المسيح أمام الآب بخدّامه الأمناء الذين قد شهدوا شهادة أمينة له في عالم الخطيّة فسيفهمون حينئذ بكلّ وضوح ما يبدو الآن في نظرهم سرّاً غامضاً.

لقد أخذ المسيح معه إلى المواطن السماوية بشريّته المّمجدة. وكلّ الذين يقبلونه يعطيهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله، حتى في النهاية يقبلهم الله خاصة له ليعيشوا معه مدى أجيال الأبد. فإذا كانوا في هذه الحياة يُخلصون الولاء لله فإنّهم في النهاية «سَيَنْظُرُونَ وَجْهَهُ وَاسْمُهُ عَلَى جِبَاهِهِمْ» (رؤيا٢٢: ٤). وما هي سعادة السماء إلاّ أن يرى

الإنسان الله؟ وأيّ فرحٍ يمكن أن يتمتّع به الخاطيء المُخلَّص بنعمة المسيح أعظم من أن ينظر إلى وجه الله ويعرفه كآب؟

شهادة الكتاب

إنّ الكتب المقدّسة تشير بكلّ وضوح إلى العلاقة الكائنة بين الله والمسيح، وهي ترينا بكلّ جلاء ذاتيّة كلّ منهما.

«الله بَعْدَ مَا كَلَّمَ الآبَاءَ بِالأَنْبِيَاءِ قَدِيماً بأَنْوَاعٍ وَطُرُقٍ كَثِيرَةٍ كلّمنا في هذِهِ الأَيَّامِ الأَخِيرَةِ في ابنِهِ .. الذي وَهو بَهَاءُ مَجْدِهِ وَرَسْمُ جَوْهَرِهِ وَحَامِلٌ كُلَّ الأَشْيَاءِ بِكَلِمَةِ قُدْرَتِهِ بعدما صنع بنفسه تطهيراً لخطايانا جلس فِي يَمِينِ الْعَظَمَةِ فِي الأَعَالِي. صَائِراً أعظم من الملائكة بمقدار ما ورث اسماً افضل منهم. لأنه لمن من الملائكة قال قط أَنْتَ ابْنِي أَنَا الْيَوْمَ وَلَدْتُكَ. وأيضاً أَنَا أَكُونَ له أباً وَهُوَ يَكُونَ ليَ ابناً» (عبرانيين ١:١-٥).

إنّ ذاتيّة الآب والابن وكذلك الوحدة الكائنة بينهما موضّحة في الاصحاح السابع عشر من إنجيل يوحنا في صلاة المسيح لأجل تلاميذه إذ يقول:

« وَلَسْتُ أَسْأَلُ مِنْ أَجْلِ هؤُلاَءِ فَقَطْ ، بَلْ أَيْضًا مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِي بِكَلاَمِهِمْ. لِيَكُونَ الْجَمِيعُ وَاحِداً. كَمَا أَنَّكَ أَنْتَ أَيُّهَا الآبُ فِيَّ وَأَنَا فِيكَ لِيَكُونُوا هُمْ أَيْضًا وَاحِدًا فِينَا لِيُؤْمِنَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي» (يوحنا١٧: ٢٠و٢١).

إنّ الوحدة الكائنة بين المسيح وتلاميذه لا تمحو ذاتيّة كلّ منهم. فهم واحد في القصد والفكر والرأي والخُلُق ولكن ليس في الذاتية. وبهذه الكيفيّة نفهم أنّ الله والمسيح واحد.

صفات الله معلنة في المسيح

إنّ المسيح إذ اتّخذ طبيعة البشر صار واحداً مع بني الإنسان، وفي نفس الوقت أعلن أبانا السماوي لبني الإنسان الخطاة. فذاك الذي كان في حضرة الآب من البدء والذي

كان صورة الله غير المنظور كان وحده قادرا على أن يعلن صفات الألوهيّة لبني الإنسان. لقد شابه إخوته في كلّ شيء، وصار جسداً مثلنا، فجاع وعطش وتعب. وكان يتغذّى بالطعام وينتعش بالنوم. وقد قاسم الإنسانَ نصيبَه، ومع ذلك فقد كان هو ابن الله الذي بلا لوم. كان غريباً ونزيلاً على الأرض. كان في العالم ولكنّه لم يكن من العالم. لقد جُرّب وامتُحن كما يُجرّب الرجال والنساء في هذه الأيّام ويمتحنون، ومع ذلك فقد عاش مُنزَّهاً عن الخطيّة. فإذ كان رقيق الجانب ورحيماً وعطوفاً ومنصفاً للآخرين فقد مثّل لنا صفاتَ الله. وكان أبداً مشغولاً في خدمة الله والناس.

«لأَنَّ الرَّبَّ مَسَحَنِي لأُبَشِّرَ الْمَسَاكِينَ أَرْسَلَنِي لأَعْصِبَ مُنْكَسِرِي الْقَلْبِ لأُنَادِيَ لِلْمَسْبِيِّينَ بِالْعِتْقِ وَلِلْمَأْسُورِينَ بِالإِطْلاَقِ» «وَلِلْعُمْيِ بِالْبَصَرِ» «لأُنَادِيَ بِسَنَةٍ مَقْبُولَةٍ لِلرَّبِّ وَبِيَوْمِ انْتِقَامٍ لإِلَهِنَا . لأُعَزِّيَ كُلَّ النَّائِحِينَ» (إشعياء٦١: ١؛ لوقا٤: ١٨؛ إشعياء ٦١:٢).

وهو يأمرنا قائلا: «وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ. أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ، وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ، لِكَيْ تَكُونُوا أَبْنَاءَ أَبِيكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ» (متى ٥: ٤٤ و٤٥)، «فإنّه مُنْعِمٌ عَلَى غَيْرِ الشَّاكِرِينَ وَالأَشْرَارِ» (لوقا ٦: ٣٥) « يُشْرِقُ شَمْسَهُ عَلَى الأَشْرَارِ وَالصَّالِحِينَ ، وَيُمْطِرُ عَلَى الأَبْرَارِ وَالظَّالِمِينَ» (متى ٥: ٤٥). فَكُونُوا رحماء كما أن أَبَاكُمْ أيضاً رحيم» (لوقا ٦:٣٦).

«بِأَحْشَاءِ رَحْمَةِ إِلهِنَا .. الْمُشْرَقُ مِنَ الْعَلاَءِ. لِيُضِيءَ عَلَى الْجَالِسِينَ فِي الظُّلْمَةِ وَظِلاَلِ الْمَوْتِ لِكَيْ يَهْدِيَ أَقْدَامَنَا فِي طَرِيقِ السَّلاَمِ» (لوقا ١:٧٨و٧٩).

مجد الصليب

إنّ إعلان محبّة الله للإنسان يتركّز في الصليب. ولا يمكن لأيّ لسان مهما أوتيَ من بلاغة أن يُعبرّ عن معناه، ولا يمكن للقلم أن يصوّر جماله وجلاله، ولا يمكن لعقل أن يدركه. فإذ ننظر إلى صليب جلجثة يمكننا فقط أن نقول: «هكَذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَالَمَ حَتَّى

بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ» (يوحنا ٣: ١٦).

فالمسيح المصلوب لأجل خطايانا، والمسيح المقام من الأموات، والمسيح الصاعد إلى الأعالي هو علمُ الخلاصِ الذي علينا أن نتعلّمه ونُعلّمه للآخرين.

لقد كان هو المسيح

« الَّذِي إِذْ كَانَ فِي صُورَةِ اللهِ لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلاً ِللهِ. لكِنَّهُ أَخْلَى نَفْسَهُ ، آخِذًا صُورَةَ عَبْدٍ صَائِرًا فِي شِبْهِ النَّاسِ. وَإِذْ وُجِدَ فِي الْهَيْئَةِ كَإِنْسَانٍ وَضَعَ نَفْسَهُ وَأَطَاعَ حَتَّى الْمَوْتَ مَوْتَ الصَّلِيبِ» (فيلبي ٢:٦-٨).

«اَلْمَسِيحُ هُوَ الَّذِي مَاتَ بَلْ بِالْحَرِيِّ قَامَ أَيْضاً الَّذِي هُوَ أَيْضًا عَنْ يَمِينِ اللهِ الَّذِي أَيْضًا يَشْفَعُ فِينَا» (رومية ٨: ٣٤).

« فَمِنْ ثَمَّ يَقْدِرُ أَنْ يُخَلِّصَ أَيْضًا إِلَى التَّمَامِ الَّذِينَ يَتَقَدَّمُونَ بِهِ إِلَى اللهِ إِذْ هُوَ حَيٌّ فِي كُلِّ حِينٍ لِيَشْفَعَ فِيهِمْ» (عبرانيين ٧:٢٥).

«لأَنْ لَيْسَ لَنَا رَئِيسُ كَهَنَةٍ غَيْرُ قَادِرٍ أَنْ يَرْثِيَ لِضَعَفَاتِنَا بَلْ مُجَرَّبٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِثْلُنَا بِلاَ خَطِيَّةٍ» ((عبرانيين٤: ١٥).

العطية التي لا يُعبّر عنها

إنّنا عن طريق عطيّة المسيح نّنال كلّ بركة. فعن طريق تلك العطيّة يأتينا، يوماً فيوماً، فيضُ جودِ الربّ الذي لا ينضب. فكلّ زهرة بألوانها الجميلة وعبير رائحتها معطاة لنا لنتمتّع بها عن طريق تلك العطيّة الواحدة. فهو خالق الشمس والقمر. ولا يوجد كوكب يزيّن جلد السماء إلاّ وهو خالقه. وكلّ قطرة من قطرات المطر الهاطلة، وكلّ شعاعة من أشعة النور تُشرق على عالمنا غير الشاكر، تشهد لمحبة الله في المسيح. وكلّ شيء يُعطى

لنا عن طريق العطيّة الواحدة التي لا يُعبّر عنها، ابنُ الله الوحيد. لقد سُمّر بالصليب كي تفيض كلّ هذه الهبات الخليقة الله.

« اُنْظُرُوا أَيَّةَ مَحَبَّةٍ أَعْطَانَا الآبُ حَتَّى نُدْعَى أَوْلاَدَ اللهِ» (١يوحنا ٣: ١).

((لَمْ يَسْمَعُوا وَلَمْ يَصْغُوا. لَمْ تَرَ عين إلها غيرك يصنع لمن ينتظره» (إشعياء ٦٤:٤).

المعرفة التي تُحدث التغيير

إنّ معرفة الله كما هي معلنة في المسيح هي المعرفة التي ينبغي أن يحصل عليها كلّ المُخلّصين. وهي المعرفة التي تحدث تغييراً في الخلق. فإذ تُقبلُ هذه المعرفةُ فهي تخلقُ النفسَ خليقةً جديدةً على صورة الله. وهي تمنح الإنسانَ كلَّه قوّةً روحيّةً إلهيةً.

« وَنَحْنُ نَاظِرِينَ مَجْدَ الرَّبِّ بِوَجْهٍ مَكْشُوفٍ كَمَا في مِرْآةٍ نَتَغَيَّرُ إِلَى تِلْكَ الصُّورَةِ عَيْنِهَا مِنْ مَجْدٍ إِلَى مَجْدٍ كَمَا مِنَ الرَّبِّ الرُّوحِ » (٢كورنثوس ٣:١٨).

لقد قال المُخلّص عن نفسه: «حَفِظْتُ وَصَايَا أَبِي» (يوحنا ١٥: ١٠). «لَمْ يَتْرُكْنِي الآبُ وَحْدِي لأَنِّي فِي كُلِّ حِينٍ أَفْعَلُ مَا يُرْضِيهِ » (يوحنا ٨: ٢٩) وكما كان يسوع في طبيعة بشريّة كذلك الله يقصد أن يكون تابعوه. فعلينا أن نحيا بقوّته حياةُ الطهارة والشرف التي عاشها المُخلّص.

قال الرسول بولس: «بسبب هذا أحني ركبتي لدى أبي ربنا يسوع المسيح الذي منه تُسمى كلّ عشيرة في السموات وعلى الأرض. لكي يعطيكم بِحَسَبِ غِنَى مَجْدِهِ أن تتأيدوا بالقوة بروحه في الإِنْسَانِ الْبَاطِنِ ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم. وانتم متأصلون ومتأسسون في المحبة حتى تستطيعوا أَنْ تُدْرِكُوا مَعَ جَمِيعِ الْقِدِّيسِينَ ، مَا هُوَ الْعَرْضُ وَالطُّولُ وَالْعُمْقُ وَالْعُلُوُ ، وَتَعْرِفُوا مَحَبَّةَ الْمَسِيحِ الْفَائِقَةَ الْمَعْرِفَةِ لِكَي تَمْتَلِئُوا كُلِّ مِلْءِ اللهِ» (افسس٣: ١٤-١٩).

«لم نزل مصلين وطالبين لأجلكم أن تمتلئوا من معرفة مشيئته في كل حكمة وفهم روحي لتسلكوا كما يحق للرب في كل رضى مثمرين في كل عمل صالح ونامين في معرفة الله متقوين بكل قوة بحسب قدرة مجده لكل صبر وطول أناة بفرح» (كولوسى ١: ٩ – ١١).

هذه هي المعرفة التي يدعونا الله لقبولها، والتي كل ما عداها باطل وعدم.

٢ خطر المعرفة النظرية

من أعظم المساوىء التي تلازم طلب المعرفة والبحوث العلمية، الميّل إلى تمجيد التفكير البشري فوق قيمته الحقيقيّة ومحيطه اللائق. وكثيرون يحاولون أن يحكموا على الخالق وأعماله بمعرفتهم الناقصة للعلم. ويحاولون أن يحكموا ويقرروا طبيعة الله وصفاته وحقوقه الخاصة ويمعنون في المباديء النظريّة عن الإله غير المحدود. والذين ينكبّون على هذا الفرع من الدراسة إنّما يدوسون على أرضٍ حرام. إنّ بحثهم لن يسفر عن نتائج ذات قيمة ولا يمكن المضيّ فيه بغير خطر على النفس.

إنّ أبوينا الأوّلين اقتيدا إلى الخطيّة عن طريق الرغبة في المعرفة التي قد حجبها الله عنهما. وفي محاولتهما اقتناء هذه المعرفة أضاعا كلّ ما كان يُستحق أن يُمتلك. فلو لم يلمس آدم وحواء الشجرة المَنهيّ عنها لكان الله قد منحهما المعرفة التي لم تقع عليها لعنة الخطيّة – المعرفة التي كان يمكن أن تأتيهما بالفرح الأبدي. وكلّ ما قد كسباه من الإصغاء إلى المجرّب كان هو التعرّف على الخطيّة ونتائجها. فبعصيانهما ابتعدت البشريّة عن الله وانفصلت الأرض عن السماء.

والدرس موّجه إلينا. والميدان الذي قاد الشيطان أبوينا الأولين إليه هو نفس الميدان الذي يُغري الناس على دخوله اليوم. إنّه يُغرق العالم بالخرافات الجذّابة. فبكلّ حيلة في يده يُجرّب الناس أن ينصرفوا إلى التخيّل والتخمين عن الله وهكذا هو يحاول أن يحول بينهم وبين الحصول على تلك المعرفة عن الله التي هي الخلاص.

نظريـة ألوهيّـة الكـــون

واليوم تجتاح معاهدَ العلم والكنائسَ في كلّ مكـان التعاليمُ الخاصّةُ بمناجـاة الأرواح التي تقوّض وتدّمر الإيمان بالله وبكلمته. إنّ المبدأ القائل بأنّ الله هو جوهر يتخلّل كـلّ الطبيعة هو مبدأ يقبله كثيرون ممن يعترفون بإيمانهم بالكتاب المقدّس، ولكن مـهما يكـن جمال القناع الذي تختفي تحته هذه النظريّة فإنّها أخطر خدعة. فـهي تصـوّر الله تصويراً سيّئاً، وهي إهانة لعظمته وجلاله. ولابدّ أنّ القصد منها ليس فقـط تضليـلُ النـاس بـل أيضاً إفسادَهم. فالظلمةُ عنصرُها. والشـهوانيّةُ محيطُها. ونتيجـة قبولها هـي الانفصالُ عـن الله. وهذا يعني الدمار للطبيعة الإنسانيّة الساقطة.

لقد أثرّت الخطيّة على حالتنا فجعلتها غير طبيعيّة، فالقوّة الـتي تُرجعنـا وتجدّدنـا يجـب أن تكون فوق الطبيعة، وإلاّ فلا قيمة لها. ولا توجد غير قوّة واحدة تستطيع أن تحطّم قـوّة الشرّ وتسلّطه على قلـوب النـاس وتلـك هـي قـوّة الله في يسـوع المسـيح. فبواسـطة دمِ المصلوبِ وحده يوجد تطهير من الخطيّة. ونعمته وحدها هـي الـتي تقدّرنـا علـى مقاومـة ميـول طبيعتنـا السـاقطة وقـهرها. أمّـا النظريـات الأرواحيّـة عـن الله فتجعـل نعمتَـه عديمـةَ التأثير. فإذا كان الله جوهراً يتغلغل في كلّ الطبيعة فهو إذاً يسكن في كلّ النـاس، ولكـي يحصل الإنسان على القداسة فما عليه إلاّ أن يُنمّي القوّة التي في داخله.

هذه النظريّات لو تّتبعناها إلى نهايتها المنطقيّة فهي تكتسح النظام المسيحي بجملتـه. إنّها تستبعد ضرورة الكفّارة ولزومها وتجعل الإنسان مُخلّص نفسه. وهذه النظريّات عـن الله تجعل كلمته بلاّ تأثير، والذيـن يقبلونـها هم في خطر عظيم مـن أن يغرّر بـهم أخـيراً لأن يعتبروا الكتاب المقدّس كلّه قصّة خياليّة. قد يعتبرون العفّـة والطهارة أفضـل مـن الرذيلـة، ولكن بعدما يبعدون الله عـن مركـز سلطته القـانوني فـهم يجعلـون اعتمـادهم علـى القـوّة البشريّة التي هي، بدون الله، تافهة ولا قيمة لها. والإرادة البشريّة بدون معونتـه لـن تكـون عندها قوّة حقيقيّة على مقاومة الشرّ والانتصار عليـه. وحصـون النفس ومعاقلها تنهزم. ولا

يوجد سياجٌ يحول بين الإنسان وبين الخطيّة. وحالما يرفض الإنسان روادع كلّمة الله وروحه فنحن لا يمكنّنا أن نعرف إلى أيّ الأعماق سينحدر ذلك الإنسان.

«كلّ كلمة من الله نقية. ترس هي للمحتمين به. لا تزد على كلماته لئلا يوبخك فتكذب» (أمثال ٣٠:٥و٦).

«الشرير تأخذه آثامه وبحبال خطيته يمسك» (أمثال٥: ٢٢).

التغلغل في أسرار الله

« السَّرَائِرُ لِلرَّبِّ إِلهِنَا وَالْمُعْلَنَاتُ لَنَا وَلِبَنِينَا إِلَى الأَبَدِ » (تثنية ٢٩: ٢٩). فإعلان الله عن ذاته الذي قد أعطانا إيّاه في كلمته هو لأجل درسنا. وهذا ما يمكننا أن نحاول فهمه. ولكن لا حقّ لنا في أن نتغلغل إلى ما هو أبعد من ذلك. يمكن لأسمى العقول أن يجهد نفسه في التخمينات عن طبيعة الله حتى يكلّ ولكنّه جهد ضائع. هذه المشكلة لم يُعط لنا أن نحلّها. إذ لا يمكن لعقل بشري أن يدرك الله. وليس لأحد أن يفكّر ويخمّن عن طبيعته. هنا يُحسب الصمت أبلغ من الكلام. فالإله العليم بكلّ شيء هو فوق كلّ بحث أو جدال.

بل حتى الملائكة لم يُسمح لهم بالاطلاع على المشورات التي دارت بين ا لآب والابن عند وضع تدبير الخلاص. إذاً فليس لبني الإنسان أن يتطفّلوا على أسرار العليّ. إنّنا نجهل الله كالأطفال تماماً، ولكن علينا أن نحبّه ونطيعه كالأطفال. وبدلاً من التخمين بخصوص طبيعة الله وامتيازاته لنلتفت إلى الكلام الذي نطق به:

« أَإِلَى عُمْقِ اللهِ تَتَّصِلُ. أَمْ إِلَى نِهَايَةِ الْقَدِيرِ تَنْتَهِي. هُوَ أَعْلَى مِنَ السَّمَاوَاتِ فَمَاذَا عَسَاكَ أَنْ تَفْعَلَ. أَعْمَقُ مِنَ الْهَاوِيَةِ فَمَاذَا تَدْرِي. أَطْوَلُ مِنَ الأَرْضِ طُولُهُ ، وَأَعْرَضُ مِنَ الْبَحْرِ » (أيوب ١١: ٧-٩).

«أما الحكمة فمن أين توجد. وأين هو مكان الفهم. لا يعرف الإنسان قيمتها ولا توجد في أرض الأحياء. الغمر يقول ليست هي فيَّ والبحر يقول ليست هي عندي. لا يُعطى ذهب خالص بدلها ولا توزن فضة ثمناً لها. لا توزن بذهب أوفير أو بالجزع الكريم أو الياقوت الأزرق. لا يعادلها الذهب ولا الزجاج ولا تبدل بإناء ذهب إبريز. لا يُذكر المرجان أو البلّور وتحصيل الحكمة خير من اللآلىء. لا يعادلها ياقوت كوش الأصفر ولا توزن بالذهب الخالص. فمن أين تأتي الحكمة. وأين هو مكان الفهم .. الهلاك والموت يقولان بآذاننا قد سمعنا خبرها. الله يفهم طريقها وهو عالم بمكانها.

«لأنه هو ينظر إلى أقاصي الأرض. تحت كلّ السموات يرى .. لمّا جعل للمطرِ فريضةً ومذهباً للصواعق. حينئذ رآها وأخبر بها. هيّأها وأيضاً بحث عنها. وقال للإنسان هوذا مخافة الرب هي الحكمة والحيدان عن الشر هو الفهم» (أيوب ٢٨:١٢-٢٨).

إنّ الحكمة لا توجد بواسطة التفتيش والبحث في مخابيء الأرض ولا بالمحاولات الفاشلة للتغلغل في أسرار الله. ولكنّها توجد بالأحرى في كوننا بكلّ تواضع نقبل الإعلان الذي سُرّ الله بأن يعطيه لنا وفي جعل حياتنا متوافقة مع إرادته.

أسرار الطبيعة

إنّ الرجال ذوي العقول الجبّارة لا يستطيعون أن يدركوا أسرار الربّ المعلنة في الطبيعة. والوحي الإلهيّ يسأل عدّة أسئلة لا يمكن لأعظم عالم أن يجيب عنها. هذه الأسئلة لم تُقدّم لنا لكي نجيب عنها، بل لأجل توجيه انتباهنا إلى أسرار الله العميقة ولكي تعلّمنا أنّ حكمتنا محدودة، وأنّ في البيئة المحيطة بنا في حياتنا اليوميّة أشياء كثيرة فوق إدراك العقول البشريّة المحدودة.

إنّ الملحدين يرفضون الإيمان بالله لأنّهم لا يستطيعون إدراك القوّة غير المحدودة التي بها يُعلن الله نفسه. ولكن يجب الاعتراف به مما لا يعلنه عن نفسه كما مما هو مكشوف لأفهامنا المحدودة. ففي الإعلان الإلهيّ كما في الطبيعة أعطى الله أسراراً

لنؤمن بها. وهذا ما يجب أن يكون. يمكنّنا أن نبحث دائماً، ونسأل دائماً، ونتعلّم دائماً، ومع ذلك تبقى أمورٌ غير محدودة وغير متناهية.

«من كال بكفه المياه وقاس السموات بالشبر وكال بالكيل تراب الأرض ووزن الجبال بالقبان والآكام بالميزان. من قاس روح الرب ومن مشيره يعلمه .. هوذا الأمم كنقطة من دلو وكغبار الميزان تُحسب. هوذا الجزائر يرفعها كدقة ولبنان ليس كافياً للإيقاد وحيوانه ليس كافياً لمحرقة. كلّ الأمم كلا شيء قدامه. من العدم والباطل تحسب عنده.

« فَبِمَنْ تُشَبِّهُونَ اللهَ وَأَيَّ شَبَهٍ تُعَادِلُونَ بِهِ .. أَلاَ تَعْلَمُونَ. أَلاَ تَسْمَعُونَ. أَلَمْ تُخْبَرُوا مِنَ الْبَدَاءَةِ. أَلَمْ تَفْهَمُوا مِنْ أَسَاسَاتِ الأَرْضِ. الْجَالِسُ عَلَى كُرَةِ الأَرْضِ وَسُكَّانُهَا كَالْجُنْدُبِ. الَّذِي يَنْشُرُ السَّمَاوَاتِ كَسَرَادِقَ وَيَبْسُطُهَا كَخَيْمَةٍ لِلسَّكَنِ .. فَبِمَنْ تُشَبِّهُونَنِي فَأُسَاوِيهِ .. يَقُولُ الْقُدُّوسُ. ارْفَعُوا إِلَى الْعَلاَءِ عُيُونَكُمْ وَانْظُرُوا مَنْ خَلَقَ هذِهِ. مَنِ الَّذِي يُخْرِجُ بِعَدَدٍ جُنْدَهَا يَدْعُو كُلَّهَا بِأَسْمَاءٍ لِكَثْرَةِ الْقُوَّةِ وَكَوْنِهِ شَدِيدَ الْقُدْرَةِ لاَ يُفْقَدُ أَحَدٌ.

لِمَاذَا تَقُولُ يَا يَعْقُوبُ وَتَتَكَلَّمُ يَا إِسْرَائِيلُ قَدِ اخْتَفَتْ طَرِيقِي عَنِ الرَّبِّ وَفَاتَ حَقِّي إِلهِي. أَمَا عَرَفْتَ أَمْ لَمْ تَسْمَعْ. إِلهُ الدَّهْرِ الرَّبُّ خَالِقُ أَطْرَافِ الأَرْضِ لاَ يَكِلُّ وَلاَ يَعْيَا. ليس عن فهمه فحص» (إشعياء ٤٠:١٢-٢٨).

عظمة الله

لنتعلّم من التمثيلات المعطاة للأنبياء بالروح القدس عظمة إلهنا. وقد كتب إشعياء النبي يقول:

في سنة وفاة عزّيا الملك رأيت السيد جالسا على كرسيّ عال ومرتفع وأذياله تملأ الهيكل. السرافيم واقفون فوقه لكلّ واحد ستة أجنحة باثنين يغطي وجهه وباثنين يغطي رجليه وباثنين يطير. وهذا نادى ذاك وقال قدوس قدوس قدوس ربّ الجنود مجده ملء كلّ الأرض. فاهتزت أساسات العتب من صوت الصارخ وامتلأ البيت دخاناً.

« وَيْلٌ لِي! إِنِّي هَلَكْتُ ، لأَنِّي إِنْسَانٌ نَجِسُ الشَّفَتَيْنِ ، وَأَنَا سَاكِنٌ بَيْنَ شَعْبٍ نَجِسِ الشَّفَتَيْنِ ، لأَنَّ عَيْنَيَّ قَدْ رَأَتَا الْمَلِكَ رَبَّ الْجُنُودِ ».

«فطار إليَّ واحد من السرافيم وبيده جمرة قد أخذها بملقط من على المذبح ومس بها فمي وقال إِنَّ هذِهِ قَدْ مَسَّتْ شَفَتَيْكَ ، فَانْتُزِعَ إِثْمُكَ ، وَكُفِّرَ عَنْ خَطِيَّتِكَ » (إشعياء٦: ١-٧).

«لا مثل لك يا رب عظيم أنت وعظيم اسمك في الجبروت. من لا يخافك يا ملك الشعوب» (إرميا١٠: ٦و٧).

«يا رب قد اختبرتني وعرفتني. أنت عرفت جلوسي وقيامي. فهمت فكري من بعيد مسلكي ومربضي ذريت وكلّ طرقي عرفت. لأنه ليس كلمة في لساني إلاّ وأنت يا رب عرفتها كلّها. من خلف ومن قدام حاصرتني وجعلت عليَّ يدك. عجيبة هذه المعرفة. فوقي ارتفعت لا أستطيعها» (مزمور ١٣٩:١-٦).

«عظيم هو ربنا وعظيم القوة. لفهمه لا إحصاء» (مزمور ١٤٧:٥).

«طرق الإنسان أمام عيني الرب وهو يزن كلّ سبله» (أمثال٥: ٢١).

«هو يكشف العمائق والأسرار. يعلم ما هو في الظلمة وعنده يسكن النور» (دانيال٢:٢٢).

«معلومة عِنْدَ الرَّبِّ مُنْذُ الأَزَلِ جميع أَعْمَالَهُ» (أعمال١٥: ١٨). «لأَنْ مَنْ عَرَفَ فِكْرَ الرَّبِّ. أَوْ مَنْ صَارَ لَهُ مُشِيراً. أَوْ مَنْ سَبَقَ فَأَعْطَاهُ فَيُكَافَأَ. لأَنَّ مِنْهُ وَبِهِ وَلَهُ كُلَّ الأَشْيَاءِ. لَهُ الْمَجْدُ إِلَى الأَبَدِ. آمِينَ » (رومية ١١: ٣٤- ٣٦).

«ملك الدهور الذي لا يفنى ولا يرى» (١ تيموثاوس١: ١٧). ((الَّذِي وَحْدَهُ لَهُ عَدَمُ الْمَوْتِ، سَاكِنًا فِي نُورٍ لاَ يُدْنَى مِنْهُ الذي لم يره أحد من الناس ولا يقدر أن يراه. الذي له الكرامة والقدرة الأبدية» (١ تيموثاوس ٦:١٦).

«هلا يرهبكم جلاله ويسقط عليكم رعبه» ؟ (أيوب١٣: ١١).

«هوذا الله في علو السموات وانظر رأس الكواكب ما أعلاه» (أيوب٢٢: ١).

«هل من عدد لجنوده. وعلى من يشرق نوره» (أيوب ٢٥:٣).

«يصنع عظائم لا ندركها لأنه يقول للثلج اسقط على الأرض. كذا لوابل المطر وابل أمطار عزّه يختم على يد كلّ إنسان ليعلم كلّ الناس خالقهم .. يبدد سحابَ نوره. فهي مدوّرة متقلّبة بإدارته لتفعل كلّ ما يأمر به على وجه الأرض المسكونة سواء كان للتأديب أو لأرضه أو للرحمة يرسلها.

«أنصت إلى هذا .. وقف وتأمّل بعجائب الله. أتدرك انتباه الله إليها أو إضاءة نور سحابه. أتدرك موازنة السحاب معجزات الكامل المعارف .. هل صفّحت معه الجلد الممكَّن كالمرآة المسبوكة. علّمنا ما نقول له. إنّنا لا نحسن الكلام بسبب الظلمة .. و الآن لا يرى الباهر الذي هو في الجلد ثم تعبر الريح فتنقّيه. من الشمال يأتي ذهَبٌ[كلمة "ذهب" هي الترجمة الأصلية حسب اللغة العبرية. وقد وردت في ترجمات أخرى "طقس ساطع" – قلم التحرير]. عند الله جلال مرهب. القدير لا نُدركه. عظيم القوّة والحقّ وكثير البرّ .. لذلك فلتخفه الناس» (أيوب٣٧: ٥-٢٤).

«من مثل الرب إلهنا الساكن في الأعالي الناظر الأسافل في السموات وفي الأرض» (مزمور١١٣: ٥و٦).

« الرَّبُّ فِي الزَّوْبَعَةِ وَفِي الْعَاصِفِ طَرِيقُهُ وَالسَّحَابُ غُبَارُ رِجْلَيْهِ » (ناحوم ١:٣).

«عظيم هو الرب وحميد جدّاً وليس لعظمته استقصاء. دور إلى دور يسبح أعمالك وبجبروتك يخبرون. بجلال مجد حمدك وأمور عجائبك ألهج. بقوة مخاوفك ينطقون وبعظمتك أحدث. ذكر كثرة صلاحك يبدون وبعدلك يرنمون ..

يحمدك يا ربّ كلُّ أعمالك ويباركك أتقياؤك. بمجد ملكك ينطقون وبجبروتك يتكلمون. ليعرِّفوا بَنِي آدَمَ قدرتك ومجد جلال ملكك. ملكك ملك كلّ الدهور وسلطانك في كلّ دور فدور .. بتسبيح الرب ينطق فمي وليبارك كلُّ بشرٍ اسمه القدوس إلى الدهر والأبد» (مزمور ١٤٥:٣-٢١).

إنذارات ضدّ الغطرسة

كلّما تعلّمنا أكثر وأكثر عن الله وماذا نحن في نظره فسنخاف ونرتعد أمامه. فليتّخذ الناس في هذه الأيّام العبرة مما حدث لمن قد تجرأوا في العصور القديمة على التصرّف حسب هواهم فيما أعلن الله أنّه مقدّس. فعندما تجرأ بنو إسرائيل على فتح التابوت عندما أُعيد من بلاد الفلسطينيين فإنّ جرأتهم الوقحة نالت عقاباً صارماً.

ثمّ لنتأمل أيضاً فيما قد حلّ بعُزّة من دينونة صارمة. فبينما كان تابوت العهد يُنقل إلى أورشليم في عهد الملك داود مدّ عُزّة يده لكي يسنده. فإذ تجرّأ على لمس رمز حضور الله ضُرب ومات فوراً.

قدسية حضور الله

عند العليقة المشتعلة بالنار عندما مال موسى لينظر المنظر العجيب وهو لم يلاحظ حضور الله، جاءه أمرُ الله يقول:

« لا تقترب إلى ههنا. اخْلَعْ حِذَاءَكَ مِنْ رِجْلَيْكَ ، لأَنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي أَنْتَ وَاقِفٌ عَلَيْهِ أَرْضٌ مُقَدَّسَةٌ .. فَغَطَّى مُوسَى وَجْهَهُ لأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى اللهِ » (خروج ٣:٥و٦).

«فخرج يعقوب من بئر سبع وذهب نحو حاران. وصادف مكاناً وبات هناك لأن الشمس كانت قد غابت وأخذ من حجارة المكان ووضعه تحت رأسه فاضطجع في ذلك المكان».

«ورأى حلماً وإذا سلم منصوبة على الأرض ورأسها يمسّ السماء وهوذا ملائكة الله صاعدون ونازلون عليها وهوذا الربّ واقف عليها فقال:

« أَنَا الرَّبُّ إِلهُ إِبْرَاهِيمَ أَبِيكَ وَإِلهُ إِسْحَاقَ. الأرض التي أنت مضطجع عليها أعطيها لَكَ وَلِنَسْلِكَ .. وَهَا أَنَا مَعَكَ ، وَأَحْفَظُكَ حَيْثُمَا تَذْهَبُ ، وَأَرُدُّكَ إِلَى هذِهِ الأَرْضِ ، لأَنِّي لاَ أَتْرُكُكَ حَتَّى أَفْعَلَ مَا كَلَّمْتُكَ بِهِ ».

«فاستيقظ يعقوب من نومه وَقَالَ حَقًّا إِنَّ الرَّبَّ فِي هذَا الْمَكَانِ وَأَنَا لَمْ أَعْلَمْ. وَخَافَ وَقَالَ مَا أَرْهَبَ هذَا الْمَكَانَ! مَا هذَا إِلاَّ بَيْتُ اللهِ وَهذَا بَابُ السَّمَاءِ » (تكوين٢٨: ١٠-١٧).

وفي المقدس الذي كان في الخيمة في البرّية، والهيكل اللذين كانا رمزين لمسكن الله، أُفرزت حجرة وقُدّست لحضوره. والحجاب المنقوش عليه الكروبيم في مدخلها لم يكن يسمح بأن يُرفع بأي يدٍ غيرِ يد شخص واحد. فكون أيّ إنسان يرفع ذلك الحجاب ويتطفّل بدون دعوة للدخول إلى قدس الأقداس كان معناه الموت. لأنّ فوق الغطاء، غطاء التابوت (كرسي الرحمة) كان يوجد مجد الإله القدوس – المجدُ الذي لم يكن ينظر إليه أيّ إنسان ويعيش. وفي اليوم الوحيد من السنة، المعّين للخدمة في قدس الأقداس كان رئيسُ الكهنة يدخل ليمثل في حضرة الله وهو مرتعد في حين حجبت سحب البخور المجدَ عن نظره. وفي كلّ أروقة الهيكل سكنت كلّ الأصوات، ولم يكن أحدُ من الكهنة يخدم أمام المذبحين. وكان جمهور العابدين يسجدون في رهبة وسكون مقدّمين طلباتهم استدراراً لرحمة الله.

«فَهذِهِ الأُمُورُ جَمِيعُهَا أَصَابَتْهُمْ مِثَالاً وَكُتِبَتْ لإِنْذَارِنَا نَحْنُ الَّذِينَ انْتَهَتْ إِلَيْنَا أَوَاخِرُ الدُّهُورِ» (١كورنثوس ١٠: ١١).

«أما الرب ففي هيكل قدسه فاسكتي قدامه يا كلّ الأرض» (حبقوق٢: ٢٠).

«الرب قد ملك. ترتعد الشعوب. هو جالس على الكروبيم. تتزلزل الأرض. الرب عظيم في صهيون وعال هو على كلّ الشعوب. يحمدون اسمك العظيم والمهوب. قدوس هو» (مزمور ٩٩:١-٣).

«الرب في السماء كرسيه. عيناه تنظران. إجفانه تمتحن بني آدم» (مزمور ١٠٢:١٩).

«لأنه أشرف من علّو قدسه، إلى الأرض نظر» (مزمور١٠٢:١٩).

«مِنْ مَكَانِ سُكْنَاهُ تَطَلَّعَ إِلَى جَمِيعِ سُكَّانِ الأَرْضِ. المصور قلوبهم جميعاً المنتبه إلى كلّ أعمالهم» (مزمور٣٣: ١٤و١٥).

لتخش الرب كلّ الأرض ومنه ليخف كلّ سُكَّانُ الْمَسْكُونَةِ» (مزمور٣٣: ٨).

إنّ الإنسان لا يمكنه أن يجد الله بالبحث. فلا يحاولنّ أحدٌ بيدٍ متغطرسة أن يرفع الحجابَ الذي يخفي مجده. «مَا أَبْعَدَ أَحْكَامَهُ عَنِ الْفَحْصِ وَطُرُقَهُ عَنِ الاسْتِقْصَاءِ » (رومية١١: ٣٣). ومن براهين رحمته أنّه يوجد استتار لقدرته لأنّ رفع الحجاب الذي يخفي محضر الله هو الموت. لا يمكن لإنسان أن يخترق نطاق السرّية التي فيها يسكن الله القدير ويعمل. ولا يمكنّنا أن ندرك عنه إلاّ ما يرى من اللائق أن يعلنه. فيجب أن يعترف العقل بسلطة أسمى منه. وينبغي للقلب والعقل أن ينحنيا خشوعاً أمام الله العظيم.

٣ الثقافة الحقّة والثقافة الزائفة

إنّ العقل الجبّار في حلف الشرّ يحاول على الدوام أن يُبعدَ كلمةَ الله عن أنظار الناس وإبدالها بآراء الناس. فهو يقصد أن يحرمنا سماع صوت الله القائل لنا: «هذه هي الطريق اسلكوا فيها» (إشعياء٣٠: ٢١). فبواسطة عمليّات تربويّة فاسدة يبذل قصاراه ليحجبَ نورَ السماء.

إنّ التفكير الفلسفيّ والبحثَ العلمي اللذين لا يُعترف فيهما بالله يصيّران آلافاً من الناس مُلحدين. ففي مدارس اليوم نجد أنّ الاستنتاجات التي قد وصل إليها العلماء نتيجةً لبحوثهم العلميّة تُعلّم بحرص واهتمام وتُوّضح أكمل إيضاحٍ، في حين يُقدّم انطباعٌ واضحٌ بأنّه إذا كان هؤلاء العلماء على حقّ فالكتاب المقدّس لابدّ وأن يكون خطأً. إنّ الإلحاد جذّاب لعقول الناس. والشباب يجدون فيه استقلالاً يستأسر المخيلة فينخدعون. والشيطان ينتصر. وهو يغذّي كلّ بذرة من بذور الشكّ التي تُغرس في قلوب الشباب ويجعلها تكبر وتؤتي ثمرَها، وسرعان ما يحصدُ حصاداً وفيراً من الإلحاد.

فلكون القلب البشري ميّالاً إلى الشرّ فمن الخطر على الشباب زرع بذور الإلحاد والشك في أذهانهم. فكلّ ما يُضعف الإيمان بالله يسلب النفسَ القوّةَ على مقاومة التجربة. فهو يزيل الحارسَ والواقيَ الوحيد الحقيقيَّ من الخطيّة. إنّنا بحاجة إلى مدارس فيها يتعلّم الشباب أنّ العظمة تنحصر في إكرام الله بواسطة إعلان صفاتِه في

الحياة اليوميّة. إنّنا نحتاج إلى أن نتعلّم عن الله عن طريق كلمته وأعماله حتى يمكن أنّ حياتَنا تتمّم غرضه.

المؤلّفـون الملحـدون

كثيرون يظنّون أنّهم لكي يحصلوا على الثقافة والتهذيب من اللازم لهم أن يدرسوا كتب المؤلفين الملحدين لأنّ هذه المؤلفات تحتوي على درّر من الأفكار الثمينة والآراء القيّمة. ولكن من هو مُبدع هذه الدرّر من الآراء العظيمة؟ إنّه الله والله وحده. فهو نبع كلّ نور. إذاً فلماذا نخوض في أوحال الضلال التي تشتمل عليها كتب المُلحدين في سبيل الحصول على قليل من الحقائق الثقافية في حين أنّ كلّ الحقّ هو في متناول أيدينا؟

وكيف حدث أنّ الناس الذين يتحدّون حكم الله يستحوذون على الحكمة التي يظهرونها أحياناً؟ لقد تعلّم الشيطان نفسه في المواطن السماويّة وعنده معرفة الخير والشرّ. وهو يُمزج الثمين بالفاسد وهذا هو ما يعطيه القوّة على الخداع. ولكن هل لأنّ الشيطان قد تسربل بثيابِ مجدٍ سماوي نقبله على أنّه ملاك نور؟ إنّ للمجرّب أعوانه الذين قد تثقّفوا بحسب طرقه ووسائله وقد استقوا من روحه وهم مؤهّلون لعمله. فهل نتعاون معهم؟ وهل نقبل أعمال أعوانه على أنّها جوهريّة ولازمة لأجل إحراز العلم والتهذيب؟

لو أنّ الوقت والجهد اللذين يُبذلان في فهم آراء الملحدين النيّرة أُنفقا في درس حقائق كلمة الله الثمينة لكان آلاف مّمن يجلسون الآن في الظلمة ووادي ظلال الموت يفرحون بمجد نور الحياة.

العلـوم التاريخيــة واللاهوتيــة

كثيرون يظنّون أنّهم لأجل الاستعداد للخدمة المسيحيّة من اللازم لهم أن يحصلوا على معرفة واسعة بالمؤلّفات التاريخيّة واللاهوتيّة. وهم يظنّون أنّ هذه المعرفة ستعينهم

في تعليم الإنجيل. ولكنّ دراستهم الشاقّة لآراء الناس تؤول إلى إضعاف خدمتهم بدلاً من تقوّيتها. إنّي إذ أرى المكتبات ملأى بالمجلّدات الضخمة التي تتناول العلوم التاريخيّة واللاهوتيّة يحضرني هذا الفكر: لماذا تزِنون فضّةً لغير خبز؟ إنّ ما ورد في الإصحاح السادس من إنجيل يوحنا يغنينا عن كثير ممّا يوجد في تلك الكتب. لقد قال المسيح: «أَنَا هُوَ خُبْزُ الْحَيَاةِ مَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ فَلاَ يَجُوعُ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِي فَلاَ يَعْطَشُ أَبَداً» (يوحنا ٦: ٣٥). «أَنَا هُوَ الْخُبْزُ الْحَيُّ الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ. إِنْ أَكَلَ أَحَدٌ مِنْ هذَا الْخُبْزِ يَحْيَا إِلَى الأَبَدِ» (يوحنا ٦: ٥١). «مَنْ يُؤْمِنُ بِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ» (يوحنا٦: ٤٧). «اَلْكَلاَمُ الَّذِي أُكَلِّمُكُمْ بِهِ هُوَ رُوحٌ وَحَيَاةٌ» (يوحنا ٦: ٦٣).

توجد دراسة للتاريخ يجب عدم إدانتها. فلقد كان التاريخ المقدّس أحد الدراسات في مدارس الأنبياء. وفي تاريخ معاملات الربّ للأمم أمكن تتبّع آثار خطواته. وكذلك الآن علينا أن نتأمّل في معاملات الله لأمم الأرض وأن نرى في التاريخ إتمامَ النبوّة، وأن ندرس أعمال العناية في حركات الإصلاح العظيمة وندرك تتابع الأحداث في تنظيم الأمّم وتعبئتها لخوض الحرب الأخيرة في الصراع الهائل.

مثل هذه الدراسة تُعطينا لمحاتٍ متّسعةً وشاملةً للحياة. وهي تعيننا على فهم شيء من العلاقات والارتباطات، وكيف أنّنا مرتبطون معاً بكيفيّة مدهشة في الأخوّة العظيمة، أخوّة المجتمع والأمم، وإلى أي حدّ بعيد يعتبر الظلم والانحطاط اللذان يصيبان عضواً واحداً خسارةً للمجموع.

ولكنّ التاريخ كمّا يُدرس بشكلّ عام يُعنى بأعمال الإنسان العظيمة وانتصاراته في الحروب ونجاحه في إحراز القوّة والعظمة. إنّ يد الله في شؤون الناس تغيب عن الأنظار. وقليلون هم الذين يدرسون تفسيرَ قصده الإلهي من قيام الأمم وسقوطها.

وعلوم اللاهوت إذ تُدرّس وتُعلّم هي إلى حدّ كبير تاريخُ آراء الناس. وعملها هو: «أن يُظلم القضاء بكلام بلا معرفة». وفي أغلب الأحيان يكون الباعث على تكديس هذه

الكتب الكثيرة ليس هو بالأكثر الحصول على غذاء للعقل والنفس، بل هو الطموح للتعرّف على الفلاسفة ورجال اللاهوت، والرغبة في تقديم المسيحيّة إلى الشعب في تعبيرات وآراء علميّة.

ولكن ليس كلّ الكتب المكتوبة تستطيع أن تخدم غرض الحياة المقدّسة. لقد قال المعلم العظيم: «تَعَلَّمُوا مِنِّي» «اِحْمِلُوا نِيرِي عَلَيْكُمْ». تعلموا وداعتي واتضاعي. إنّ كبرياءكم العقلية لن تعينكم في الاتصال بالنفوس التي تهلك جوعاً لحاجتها إلى خبز الحياة. وفي دراستكم لهذه الكتب أنتم تعطونها المجال لتحلّ مكان الدروس العمليّة التي كان ينبغي لكم أن تتعلّموها من المسيح. ومع نتائج هذه الدراسة فالناس لا يجدون قوتاً. وقليل جداً من هذا البحث الذي هو مُنهك للعقل يمكن أن يقدّم عوناً للإنسان ليكون عاملاً ناجحاً في ربح النفوس.

لقد جاء المخلّص لكي يبشّر «المساكين» (لوقا٤: ١٨). وفي تبشيره نطق بأبسط العبارات وأوضح الأمثال. وقد قال الكتاب عنه: «وكان الجمع الكثير يسمعه بسرور» (مرقس١٢: ٣٧). فالذين يحاولون أن يقوموا بعمله في العصر الحاضر يحتاجون إلى تفهّم أعمق للتعاليم التي قدّمها.

إنّ كلام الله الحيّ هو أسمى تهذيب. والذين يخدمون الشعب يحتاجون إلى الأكلِ من خبز الحياة. وهذا يمنحهم قوّة روحيّة، وحينئذ يكونون مستعدّين لخدمة كلّ طبقات الشعب.

العلوم

في الكليّات والجامعات يُكرّس ألوفُ من الشباب جانباً كبيراً من أفضل سنيّ حياتهم لدراسة اللغتين اليونانيّة واللاتينيّة. وإذ يكونون مشغولين في هذه الدراسات تتشكّل عقولهم وأخلاقهم بحسب الآراء الشرّيرة المتضمّنة في تلك الآداب الوثنيّة، التي تُعتبر قراءتها عموماً جزءاً جوهريّاً من دراسة هاتين اللغتين.

إنّ المطّلعين على العلوم الكلاسيكيّة يعلنون أنّ الروايات الإغريقيّة المحزنة (تراجيديا) مشحونة بالفسق والقتل وتقديم الذبائح البشريّة للآلهة الشهوانيّة المنتقمة. وكان خيراً للعالم بكثير لو أمكنه الاستغناء عن التهذيب الذي يأتي من مثل تلك المصادر. «أو يمشي إنسانٍ على الجمر ولا تكتوي رجلاه؟» (أمثال٦: ٢٨). « مَنْ يُخْرِجُ الطَّاهِرَ مِنَ النَّجِسِ. لاَ أَحَدٌ » (أيوب ١٤:٤). فهل يمكنّنا حينئذ أن ننتظر من الشباب أن ينشأوا على الخلق المسيحي في حين أنّ تهذيبهم يتشّكل بتعاليم الذين يتحدّون مباديء شريعة الله.

وإذ يطرح الطلبة عنهم كلّ الروادع ويغوصون في أعماق التسليات الطائشة والإسراف والرذيلة فإنّهم إنّما يُقلّدون ما يرونه ماثلاً أمام أذهانهم بهذه الدراسات. توجد حرف وأعمال تحتاج إلى الإلمام باللغتين اليونانيّة واللاتينيّة. والبعض مُلتزمون بأن يدرسوا هاتين اللغتين. ولكن الإلمام بهما اللازم للمّمارسة العمليّة يمكن الحصول عليه من غير دراسة الأدب الذي هو فاسد ومفسد.

إنّ كثيرين في غير حاجة لتعلّم اليونانيّة واللاتينيّة. فدراسة اللغات الميّتة المنقرضة ينبغي أن تكون أمراً ثانويّاً في دراسة المواضيع التي تُعلّم الإنسان الاستخدام الصائب لكلّ قوى الجسم والعقل. إنّه من الغباء للطلبة أن يُكرّسوا وقتهم لتعلّم لغة ميّتة أو كتاب علمي في أي فرع ويهملوا التدرّب على واجبات الحياة العمليّة.

وما الذي يحمله الطلبة معهم وهم يغادرون المدرسة؟ وإلى أين هم ذاهبون؟ وما الذي يفعلونه؟ وهل أحرزوا المعرفة التي تُعينهم على تعليم الآخرين؟ وهل تعلّموا أن يكونوا آباءَ وأمّهاتٍ أمناء؟ وهل يستطيعون أن يكونوا أرباب عائلات كمُعلّمين حكماء؟ إنّ التهذيب الوحيد الجدير بهذا الإسم هو ذاك الذي يقود الشبان والشابات للتمثّل بالمسيح، الأمر الذي يؤهّلهم للاضطلاع بتبعات الحياة، ويؤهّلهم لأن يقفوا كرؤساء لعائلاتهم. مثل هذا التهذيب لا يمكن الحصول عليه بدراسة العلوم الوثنيّة.

المطبوعـات المثـيرة

كثير من المنشورات الدارجة في هذه الأيّام مشحوّنة بالقصّص الشهوانيّة التي تُعلّم الشباب الشرّ وتقودهم في طريـق الهلاك. والصبيـة الصغار متبحّرون وناضجون في معرفة الجريمـة. فالقصّص التي يقرأونها تحرّضهم على الشرّ. وفي تصوّراتهم يمثّلون الأعمال التي صوّرت أمامهم حتى يثور طموحهم لأن يروا ما يستطيعون عمله في ارتكاب الجريمة والتملّص من القصاص.

إنّ المشاهد التي تُصوّر في إعلانات خياليّة للمستقبل هي حقائق أمام عقول الصبيان والشباب النشيطة. وإذ يتمّ التكهّن بالثورات وتوصف كلّ طرق الإجراءات التي تهدم كلّ سياجات القانون وروادع النفس فكثيرون يلـهبون بروح هذه التمثيلات. وهذا يقودهم لارتكاب جرائم أفظع ممّا يصوره هؤلاء الكتاب الحماسيّون، لو أمكن ذلك. وعن طريق هذه المؤثّرات وأمثالها تُفسد أخلاق المجتمع. وتُزرع بذور التمرّد والعصيان على مدى واسع. ولا غرابة إذا كان الحصاد هو ارتكاب الجرائم.

إنّ الكتب الخياليّة التي تُكتب فيها قصّص طائشة مُثيرة هي لعنة على كلّ قاريء لا تقلّ عن سابقتها. قد يدّعي الكاتب أنّه إنّما يُعلّم القرّاء درساً أخلاقيّاً، وفي ثنايّا كتابه قد يحبِكُ مباديءَ دينيّةً ولكن هذه في الغالب تكون ستاراً يخفي تحته الكثير من الغباء والتفاهة.

إنّ العالم مشحون بالكتب الحافلة بالضلالات الخادعة. وما يفضحه الكتاب المقدس على أنّه كذب، يقبله الشباب على أنّه حقّ، وهم يحبّون ويتعلّقون بالخداع الذي يعني هلاك النفس.

توجد كتب خياليّة كُتبت لغرض تعليم الحقّ أو فضح شرّ عظيم. فبعض هذه الكتب كان لها تأثيرٌ صالحٌ. ومع ذلك فقد أحدثت ضرراً لا يمكن التعبير عنه. فهي تحتوي على بيانات وقصص سطرّها القلم بصورة رائعة، ولكنّها تُثير الخيال وتوقظ سلسلة من الأفكار الخطرة ولا سيما على الشباب، والمشاهد الموصوفة تحيا في أفكارهم مراراً كثيرة. مثل

هذه الكتب لا تؤهّل الفردَ للنفع، بل تجعله غير صالح للحياة الروحيّة. وهي تقوّض اهتمام الإنسان بالكتاب المقدس. والأمور الروحيّة قلّما تجد مجالاً في الأفكار. وإذ يتأمّل العقل في مشاهد النجاسة كما هي مصورة تثور الشهوة وتُرتكب الخطيّة.

وحتى القصّص الخياليّة التي لا تحتوي على اقتراحات للنجاسة والتي قد يكون القصد منها تعليم مباديء فاضلة، هي ضارّة. فهي تُشجُع الإنسان على عادة القراءة السريعة السطحيّة لمجرّد الاطلاع على القصّة. وهكذا تُدمّر القوّة على التفكير المتّصل النشيط، وتجعل النفس غير مؤهّلة للتفكير في المشاكلّ العظيمة، مشاكلّ الواجب والمصير.

إنّ قراءة القصص الخياليّة إذ تخلق في النفس محبّة التسليات التافهة فهي تخلق فيها نفوراً وكراهيةً لواجبات الحياة العمليّة. وبواسطة قوّتها المثيرة المُسكرة كثيراً ما تكون سبّباً في الأمراض العقليّة والجسديّة. فكثيراً ما حدث أنّ بيتاً تعساً ومهملاً، أو إنساناً مصاباً بمرض لازمه طول الحياة أو إنساناً نزيلاً في مستشفى الأمراض العقليّة صار إلى هذا المصير بسبب عادة قراءة الروايات.كثيراً ما شدّد البعض قائلين إنّه لكي نربح الشباب حتى يقلعوا عن قراءة الكتب المثيرة أو التافهة ينبغي لنا أن نزوّدهم بنوع من الخيال أفضل مّما عندهم. هذا يشبه محاولة شفاء السكّير بأن نقدّم له المسكرات الأخفّ وطأة من الويسكي أو البراندي، فنقدّم له مثلاً الخمر أو البيرة أو خمر التفاح. فإنّ تعاطي هذه قد يثير فيه تعطّشاً دائماً للمُسكّرات الأشدّ وطأة. إنّ السلامة الوحيدة للسكّير، والواقي الوحيد للرجل المعتدل هو الامتناع التامّ. وهذا يصدق أيضاً على مُحبّ الروايات الخياليّة. فسلامته هي في الامتناع التامّ.

الأساطير والقصص الخرافية

في تعليم الأولاد والشباب قد أُعطي للقصّص الخرافيّة والأساطير والقصص الخياليّة أكبرُ مجالٍ في هذه الأيّام. مثل هذه الكتب تُستعمل في المدارس وقد وجدت لها

طريقاً إلى كثير من البيوت. ولكن كيف يسمح الآباء المسيحيّون لأولادهم بقراءة هذه الكتب المشحونة بالأكاذيب؟ وعندما يُسأل الأولاد عن معنى القصص المناقضة لتعاليم آبائهم فالجواب هو أنّها قصص غير حقيقيّة، ولكن هذا لا يلاشي الأثر الوبيل لاستعمالها. فالآراء الواردة في هذه الكتب تُضلّل الأولاد. وهي تقدّم آراءَ كاذبةً عن الحياة وتخلق وتربّي في النفس رغبة في طلب ما ليس حقيقيّاً.

إنّ انتشار مثل هذه الكتب على مدى واسع في هذا العصر هو إحدى مكايد الشيطان الماكرة. فهو يحاول تحويل أفكار الكبار والصغار عن العمل العظيم عمل بناء الخُلُق. وهو يقصد أن ينساق أولادنا وشبابُنا بعيداً بالمخادعات المهلكة للنفوس التي ينشرها في كلّ أرجاء العالم. لهذا يسعى أن يحوّل عقولهم بعيداً عن كلمة الله، وبذلك يحرمهم من الحصول على معرفة تلك الحقائق التي كان يمكن أن تكون واقيّاً لهم وحارساً.

ينبغي ألاّ توضع في أيدي الصبية أو الشباب الكتب التي تحتوي على أمور فيها تحريف للحقّ. ويجب ألاّ نسمح لأولادنا وهم بصدد تحصيل العلم والتهذيب بأن يقبلوا الآراء التي يتبرهن أنّ فيها جرثومة الخطيّة. إذا لم يكن لذوي العقول الناضجة دخل في مثل تلك الكتب فإنّهم يكونون أكثر بعداً عن الخطر، ويمكن أنّ مِثالَهم وتأثيرَهم في جانب الحقّ والصواب يُسهّل أمر حفظ الشباب من التجربة.

إنّ عندنا الشيء الوفير مّما هو حقيقي وإلهي. فالظامئون إلى المعرفة لا حاجة بهم للذهاب إلى الينابيع الملوّثة. فالربّ يقول: «أمل أذنك واسمع كلام الحكماء ووجّه قلبك إلى معرفتي .. ليكون إتكالك على الربّ عرَّفتك أنت اليوم» (أمثال ٢٢:١٧-١٩).

«ألم أكتب لك أموراً شريفةً من جهة مؤمراة ومعرفة. لأعلّمك قسط كلام الحقّ لتردّ جوابَ الحقّ للذين أرسلوك؟» (أمثال٢٢: ٢٠و٢١).

« أَقَامَ شَهَادَةً فِي يَعْقُوبَ، وَوَضَعَ شَرِيعَةً فِي إِسْرَائِيلَ، الَّتِي أَوْصَى آبَاءَنَا أَنْ يُعَرِّفُوا بِهَا أَبْنَاءَهُمْ» (مزمور ٧٨: ٥).

«لا نخفي عن بنيهم إلى الجيل الآخر مخبرين بتسابيح الرب وقوّته وعجائبه التي صنع» (مزمور ٧٨: ٤).

لِكَيْ يَعْلَمَ الْجِيلُ الآخِرُ. بَنُونَ يُولَدُونَ فَيَقُومُونَ وَيُخْبِرُونَ أَبْنَاءَهُمْ، فَيَجْعَلُونَ عَلَى اللهِ اعْتِمَادَهُمْ» (مزمور ٧٨: ٦و٧).

«بركة الربّ هي تغني ولا يزيد معها تعباً» (أمثال١٠: ٢٢).

تعليم المسيح

وكذلك المسيح قدّم مباديء الحقّ في الإنجيل. ففي تعليمه يمكنّنا أن نشرب من الأنهار النقية التي تخرج من عرش الله. كان يُمكن للمسيح أن يقدّم للناس المعرفة التي تفوق كلّ ما سبق فاكتُشِف، ويضع في المؤخرة كلّ اكتشافٍ آخر. وكان في مقدوره أن يكشف عن سرّ بعد سرّ، وكان يستطيع أن يركّز، حول هذه الإعلانات العجيبة، الفكر النشيط الغيّور للأجيال المتعاقبة إلى انقضاء الدهر. ولكنّه لم يستثنِ لحظةً واحدةً في تعليم علمِ الخلاص. فوقته وقواه وحياته قُدّرت واُستُخدمت فقط كوسائلَ لإتمام خلاص نفوس الناس. لقد جاء لكي يطلب ويخلّص، ولم يُرد أن يتحوّل عن غرضه، ولم يسمح لشيء أن يحوّله عن ذلك.

ولم يقدّم المسيح غير المعرفة التي كان يمكن استثمارها. فتعليمه للشعب كان قاصراً على حاجات حالتهم في الحياة العمليّة. وحبّ الاستطلاع الذي جعلهم يأتون إليه بأسئلة للتجسّس لم يشبعه. فأمثال كلّ تلك الاستفسارات جعلها فرصة لتقديم دعوات خطيرة وغيّورة وحيويّة. والذين كانوا يتوّقون للأكلّ من شجرة المعرفة قدّم لهم من ثمار شجرة

الحياة. وقد وجدوا كلّ طريق مسدوداً إلاّ الطريق الذي يقود إلى الله. وقد خُتمَ كلّ ينبوع إلاّ ينبوعُ الحياة الأبديّة.

إنّ مخلّصنا لم يشجّع أحدّاً على الذهاب إلى مدارس المعلّمين الذين عاشوا في أيّامه حتى لا تفسد عقولهم بالأقوال التي كانوا يكررونها على الدوام قائلين: «يقولون» أو «قيّل». إذاً فلماذا نقبل أقوال الناس غير الثابتة على أنّها أعظم حكمة، في حين أنّ حكمةَ أعظمَ وثابتةً وأكيدةً هي تحت أمرنا؟

إنّ ما قد رأيته من الأمور الأبديّة، وما قد رأيته من ضعف البشريّة أثّر في عقلي تأثيراً عميقاً وأثّر في عمل حياتي. أنا لا أرى شيئاً لأجله يستحقّ الإنسان المدح أو التمجيد. ولست أرى سبباً لأجله يجب أن يثق المرُء بأقوال حكماء هذا العالم ويمجّدها ومن يقال لهم عظماء. إذ كيف يُمكن للناس الخالين من الاستنارة الإلهيّة أن تكون لهم آراء صائبة عن تدبيرات الله وطرقه؟ فهم إمّا ينكرونه تماماً ويتجاهلون وجوده أو يحدّون من قوّته وسلطانه بتصوّراتهم المحدودة.

لنختر أن نتعلّم من ذاك الذي خلق السموات والأرض والذي وضع الكواكب في منازلها في جلد السماء وعيّن للشمس والقمر عملهما.

معرفة عمليـة

يليق بالشباب أن يحسّوا بأنّه يجب عليهم أن يصلوا إلى أسمى نموّ في قواهم العقليّة. ينبغي لنا ألاّ نحدّ من التعليم الذي لم يجعل له الله حدوداً. ولكنّ علومَنا لا جدوى منها ما لم نستخدمها لمجد الله وخير الإنسانية.

ولا يحسن بنا أن نزحم العقل بدراساتٍ تحتاج إلى تطبيق شدّيد، ولكنّها لا تُستخدم في الحياة العمليّة. مثل هذا التهذيب خسارة على الطالب. لأنّ هذه الدراسات تقلّل من رغبته وميله إلى الدّراسات التي توافقه للنفع وتقدّره على القيام بالتزاماته. إنّ التدريب

العملي يساوي أكثر بكثير من أيّة كميّة من النظريّات المجرّدة. ولا يكفي أن يكون عندنا علم. فيجب أن تكون عندنا مقدرة لاستخدام علمنا استخداماً صائباً.

إنّ الوقت والوسائل والدراسة التي ينفقها كثيرون على التهذيب العقيم نسبيّاً ينبغي تكريسها للحصول على تهذيب يجعلهم رجالاً ونساءً عمليين مؤهلين لحمل تبعات الحياة. مثل هذا التهذيب تكون له أسمى قيمة.

تهذيب القلب

إنّ ما نحتاجه هو المعرفة التي تقوّي العقل والنفس وتجعلنا رجالاً ونساءً أفضل. إنّ تهذيّب القلب هو أهمّ بكثير من مجرّد التعلّم من الكتب. نعم إنّه أمر حسن وجوهري أن نحصل على معرفة هذا العالم الذي نحن عائشون فيه، ولكن إذا أسقطنا الأبديّة من حسابنا فإنّنا نُصاب بفشلٍ ماحقٍ لا يمكنّنا الشفاء منه أبداً.

يُمكن لأي تلميذ أن يكرّس كلّ قوّاه لتحصيل العلم، ولكن ما لم تكن عنده معرفة الله وما لم يطع القوانين التي تحكم كيانه فسيهلك نفسه. فبعاداته الخاطئة يضيّع سلطانه وقوّته على تقدير نفسه ويخسر ضبط النفس. وهو لا يستطيع أن يُدرك، إدراكاً صحيحاً، الشؤون التي تهمّه جدّاً. فهو طائش وغير عاقل في معاملته لعقله وجسده. وبسبب إهماله في غرس المباديء الصالحة في نفسه يهلك في هذا العالم ويخسر العالم الآتي.

لو أدرك الشباب ضعفهم لكانوا يجدون قوّتهم في الله. ولو طلبوا أن يتعلّموا منه فسيصيرون حكماء بحكمته، وحياتهم تثمر بركاتٍ للعالم. أمّا إذا أسلموا عقولهم لمجرّد الدّراسة العالميّة النظريّة، وهكذا انفصلوا عن الله، فسيخسرون كلّ ما يغني الحياة ويسعدها.

٤ أهميّة طلب المعرفة الحقّة

إنّنا بحاجة إلى أن نفهم، بأكثرَ جلاءً مّما نفعل الآن، المواضيعَ أو الأمورَ المُعرّضة للخطر في النضال العظيم الذي نحن مشتبكون فيه. إنّنا نحتاج إلى أن نُدركَ بأكمل وضوحٍ قيمةَ حقائق كلمةِ الله وخطر السماح لعقولنا بالخضوع للمُخادع العظيم في الانحراف عنها.

إنّ القيمةَ غير المحدودة للذبيحة المطلوبة لأجل فدائنا تكشف عن حقيقةِ كون الخطيّة شرّاً هائلاً. فبسبب الخطيّة ارتبك الجهاز البشري كلّه، فانحرف العقل وفسد الفكر. وقد حطّت الخطيّة قوى النفس. والتجارب من الخارج تجدُ استجابةً من القلب، وبدون شعور تتّجه القدمان في طريق الشرّ.

وكمّا أنّ الذبيحة المُقدّمةَ لأجلنا كانت كاملةً كذلك يجب أن يكون تطهيرُنا من نجاسة الخطيّة كاملاً. إنّ شريعة الله لا تّتسامح مع أيّ عملٍ من أعمال الشرّ، ولا يفلت إثمٌ من دينونتها. إنّ آداب الإنجيل لا تعترف بأي مقياس غير مقياس كمال الصفاتِ الإلهيّة. وقد كانت حياة المسيح إتماماً كاملاً لكلّ وصيّة من وصايا الشريعة. فلقد قال: «حَفِظْتُ وَصَايَا أَبِي» (يوحنا ١٥: ١٠). وحياته هي مثالّنا في الطاعة والخدمة. إنّ الله وحدّه هو الذي يستطيع أن يجدّد القلب.«اللهَ هُوَ الْعَامِلُ فِيكُمْ أَنْ تُرِيدُوا وَأَنْ تَعْمَلُوا مِنْ أَجْلِ الْمَسَرَّةِ » (فيلبي ٢: ١٢،١٣).

عمل الحياة

إنّ الأخطاء لا يُمكن إصلاحُها كما لا يمكن القيام بإصلاحات في التصرّف بواسطة قليل من الجهود الضعيفة المتقطّعة. إنّ بناء الخلُق ليس عمل يوم أو سنة، ولكنّه عمل الحياة بجملتها. وإنّ الكفاحَ في سبيل قهر الذاتِ والقداسة والسماء هو كفاح يدوم مدى الحياة. وما لم يواصل الإنسان جهوده ويداوم على نشاطه فلا يمكن أن يتقدّم في الحياة الروحيّة ولن يحصل على إكليل الانتصار.

إنّ أقوى برهانٍ على سقوط الإنسان من حالته السامية هو حقيقة الكلفة العظيمة للرجوع. وطريق الرجوع يمكن بلوغه فقط بالحرب الشديّدة بوصةً فبوصةً وساعةً فساعةً. ففي لحظةٍ نتسرّع في القيام بعمل ونحن غافلون فنُلقي بأنفسنا تحت سلطان الشرّ، أمّا تحطيم الأغلال وبلوغ حياة القداسة فهذا يتطلّب وقتاً وجهداً. قد نكّون في أذهاننا قصداً ونبدأ في العمل لتحقيقه، ولكنّ إتمامه يتطلّب تعباً ووقتاً ومثابرة وصبراً وتضحية.

ونحن لا نستطيعُ السماحَ لأنفسنا بالعمل بدافع ميولنا. ولا نستطيع أن نغفلَ عن السهر لحظةً واحدةً. فحيث أنّنا مكتنفون بتجارب لا حصر لها فعلينا أن نقاوم بكلّ ثبات وإلاّ فسنُنهزم. ولو أنّنا أتينا إلى نهاية حياتنا دون أن يكملَ عملُنا فهذا معناه خسارة أبديّة.

لقد كانت حياة بولس الرسول حياة كفاح مستمرّ مع الذات. فلقد قال:«أموت كلّ يوم» (١ كورنثوس١٥: ٣١). لقد كانت إرادتُه ورغائبُه تتعارض مع الواجب وإرادة الله كلّ يوم. ولكن بدلاً من أن يتبع ميولَه ورغائبَه، عمل إرادة الله، مع أنّ ذلك كان بمثابة صَلبٍ لطبيعته.

وفي ختام حياته، حياة الجهاد، إذ نظر إلى الخلف إلى محارباتهِ وانتصاراتهِ أمكنه أن يقول:«قَدْ جَاهَدْتُ الْجِهَادَ الْحَسَنَ أَكْمَلْتُ السَّعْيَ حَفِظْتُ الإِيمَانَ وَأَخِيرًا قَدْ وُضِعَ لِي إِكْلِيلُ الْبِرِّ الَّذِي يَهَبُهُ لِي فِي ذلِكَ الْيَوْمِ الرَّبُّ الدَّيَّانُ الْعَادِلُ » (٢ تيموثاوس ٤: ٦٧-٨).

إنّ الحياة المسيحيّة هي حربٌ وتقدّم إلى الأمام. ولا تخلية في هذه الحرب. فينبغي أن يكون مجهودُنا متواصلاً ومثابراً. فبالسعي المتواصل نحرز النصرةَ على تجارب الشيطان. ويجب أن نطلبَ الاستقامةَ المسيحيّة بنشاط لا يُقاوم وأن نحصل عليها بالثبات على العزم الذي لا يني ولا يهدأ.

ولا يمكن أنّ أحداً يُحمل إلى السماء ما لم يواظب على بذلِ جهدٍ عنيف لأجل نفسه. وعلى الجميع أن يشتركوا في هذه الحرب لأجلِ أنفسهم، فلا يمكن لأحدٍ آخر أن يحاربَ حروبَنا. فكلّ واحد منّا بمفرده مسؤول عن نتيجة الحرب، فلو أنّ نوحا ودانيال وأيّوب كانوا في الأرض لما أمكنهم أن يخلّصوا ابنا أو ابنة ببرهم.

المسيحية علم

إنّ في المسيحيّة علماً يجب على كلّ مؤمن أن يبرعَ فيه – وهو علم أعمق وأوسع وأسمى من أيّ علم بشريّ كما علت السموات فوق الأرض. ينبغي أن يتدرّب العقل ويتهذّب ويتربّى لأنّ علينا أن نُقدّم خدمةً لله لا تتوافق مع ميولنا الفطريّة. فينبغي قهرُ الميول الموروثة والمُكتسبة لعمل الشرّ. وفي غالب الأحيان يجب نبذ التهذيب والتربية اللذين تناولا حياةً برمّتها حتى يمكن أن يكون الإنسان متعلّماً في مدرسة المسيح. ويجب تدريب قلوبنا لتصير ثابتةً في الله. علينا أن نكوّن عادات التفكير التي تمكّننا من مقاومة التجربة. وعلينا أن نتعلّم النظر إلى فوق، وأن نفهم مباديء كلمة الله – المباديء التي هي عالية بقدر علوّ السماء والتي تّتسع بحيث تشمل الأبديّة. علينا أن نفهمها في ارتباطها بحياتنا اليوميّة. فكلّ عمل وكلمة وفكر يجب أن يكون متوافقاً مع قوّة المباديء. يجب أن نجعل كلّ شيء متوافقاً مع المسيح وخاضعاً له.

إنّ فضائلَ الروح القدس الثمينة لا تنمو ولا تكتمل في لحظة. فالشجاعةُ والجلَدُ والوداعة والإيمان والثقة التي لا تتزعزع في قدرة الله على أن يخلّص يمكن بلوغها باختبار سنين. فبحياة السعي المقدّس والثبات الوطيد في الحقّ يجب على أولاد الله أن يختموا شهادتِهم.

المحافظة على الوقــت

ليس لدينا وقت نضيّعه. ونحن لا نعلم متي تنتهي مدّة اختبارنا. وعلى أكثر تقدير فإنّ حياتنا هنا قصيرة. ولسنا نعلم في أيّ وقت تُصيب سهامُ الموت قلوبنا، ولا نعلم متى نُدعى لنخلي أيدينا من العالم وكلّ مصالحه. فالأبديّة تمتدّ أمامنا. والستار مزمع أن يُرفع. فإن هي إلاّ سنين قليلة حتى يصدر الأمرُ لكلّ من يُحسب الآن من الأحياء قائلاً:« مَنْ يَظْلِمْ فَلْيَظْلِمْ بَعْدُ .. وَمَنْ هُوَ بَارٌّ فَلْيَتَبَرَّرْ بَعْدُ .. وَمَنْ هُوَ مُقَدَّسٌ فَلْيَتَقَدَّسْ بَعْدُ » (رؤيا ٢٢: ١١).

فهل نحن مستعدّون؟ وهل تعرَّفنا بالله، ملك السماء والمشترع؟ وهل تعرَّفنا بيسوع المسيح الذي قد أرسله إلى العالم نائباً عنه؟ وعندما ينتهي عملُ حياتِنا هل سنكون قادرين على أن نقول كما قال المسيح مثالنا:

« أنا مجدتك على الأرض. الْعَمَلَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي لأَعْمَلَ قَدْ أَكْمَلْتُهُ .. أَنَا أَظْهَرْتُ اسْمَكَ» (يوحنا ١٧: ٤-٦).

إنّ ملائكة الله يحاولون اجتذابنا بعيداً عن نطاق ذواتنا والأشياء الأرضيّة. إذاً فلا نجعلهم يتعبون عبثاً.

فالعقول التي انشغلت بالأفكار الخليعة تحتاج إلى تغيّير،«مَنْطِقُوا أَحْقَاءَ ذِهْنِكُمْ صَاحِينَ فَأَلْقُوا رَجَاءَكُمْ بِالتَّمَامِ عَلَى النِّعْمَةِ الَّتِي يُؤْتَى بِهَا إِلَيْكُمْ عِنْدَ اسْتِعْلاَنِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ كَأَوْلاَد الْطَاعَة لاَ تُشَاكِلُوا شَهَوَاتِكُمُ السَّابِقَةَ فِي جَهَالَتِكُمْ بَلْ نَظِيرَ الْقُدُّوسِ الَّذِي دَعَاكُمْ كُونُوا أَنْتُمْ أَيْضًا قِدِّيسِينَ فِي كُلِّ سِيرَةٍ. لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ كُونُوا قِدِّيسِينَ لأَنِّي أَنَا قُدُّوسٌ » (١ بطرس ١٣- ١٦).

ينبغي لنا أن نُركّز أفكارَنا في الله، وعلينا أن نبذل جهداً صادقاً لننتصرَ على ميول قلبنا الطبيعي الشرّيرة. وجهودنا وإنكارنا لذواتنا ومثابرتنا ينبغي أن تكون متناسبةً مع القيمة

غير المحدودة للجعالة التي نحن جادّون في إثرها. إنّما فقط بانتصارنا كما قد انتصر المسيح يمكنّنا أن نّنال إكليلَ الحياة.

نكران الذات

إنّ الخطر العظيم الذي يتعرّض له الإنسان هو انخداعُه بذاته وإغراقُه في الاكتفاء بنفسه، وبهذا ينفصل عن الله نبع قوّته. إنّ ميولنا الطبيعية إن لم يقوّمها روحُ الله القدّوس فأنّ فيها بذور الموت الأدبي. وما لم نرتبط بالله ارتباطاً حيويّاً فلن يمكنّنا مقاومة الآثار النجسة للانغماس وحبّ الذات والتجربة لنخطيء.

فلكي نحصل على العون من المسيح علينا أن نتحقّق من حاجتنا. فعلينا أن نعرف ذواتنا معرفة حقيقية. إنّ الذي يعرف أنّه خاطيء هو وحده الذي يستطيع المسيح أن يخلّصه. وعلى قدر ما نرى عجزنا التام وننبذ كلّ ثقة بالذات يمكننا، على قدر ذلك فقط، أن نمسكَ بقدرة الله.

وليس يكفي أن ننبذّ الذات عند بدء حياتِنا المسيحيّة فقط. بل لابدّ من تجديد ذلك عند كلّ خطوة نخطوها في طريقنا إلى السماء. إنّ كلّ أعمالِنا الصالحة تستند على قوّة خارجة عن أنفسنا، لذلك فنحن في حاجة دائمة إلى أن تشتاق قلوبنا إلى الله، وإلى أن نعترف بخطايانا اعترافاً دائماً وجادّاً وإلى أن تّتضع نفوسُنا أمامَه. إنّ المخاطرَ مُحدقة بنا، وسلامتنا تنحصر فقط في إحساسنا بضعفنا وتعلّقنا بيد الإيمان، بمنقذنا العظيم.

يسوع نبع المعرفة

علينا أن نتحوّل بعيداً عن آلاف المواضيع التي تجتذب انتباهّنا. توجد شؤون تلتهم الوقتَ وتثير التساؤلَ ولكنّها تنتهي إلى لا شيء. إنّ أسمى المصالح تتطلّب الانتباهَ والنشاط العظيمين اللذين ينصرفان، إلى حدّ كبير، إلى أشياء قليلة الأهميّة نسبياً.

إنّ قبولَ النظريات الحديثة لا يستطيع من ذاته أن يُدخل حياةً جديدةً إلى النفس. وحتى التعرّف على الحقائق والنظريّات الهامّة في ذاتها هو قليل القيمة ما لم يُستخدم بكيفيّة عمليّة. ونحن بحاجة للإحساس بأنّنا مسؤولون أن نقدّم لأنفسنا الزاد الذي يُغذي الحياة الروحية وينعشها.

« تُمِيلَ أُذنك إلى الحكمة وتعَطِّف قلبك إلى الفهم .. إن طلبتها كالفضة وبحثت عنها كالكنوز. فحينئذ تفهم مَخَافَةِ الرَّبِّ وتجد معرفة الله .. حينئذ تفهم العدل والحقّ والاستقامة. كلّ سبيل صالح. إذا دخلت الحكمةُ قلبك ولذّت المعرفة لنفسك فالعقل يحفظك والفهم ينصرك» (أمثال ٢:٢-١١). الحكمة«شجرة حياة لممسكيها والمتمسك بها مغبوط» (أمثال ٣:١٨).

والمسألة التي علينا أن ندرسَها ونتأمّلَ فيها هي هذه:«ما هو الحقّ - الحقّ الذي علينا أن نعتزّ به ونحبّه ونكرمه ونطيعه؟ إنّ المتحمسين للعلم قد انهزموا وثبطت همّتهم في محاولتهم العثور على الله. والذي يحتاجون للسؤال عنه في هذا الوقت هو هذا:«ما هو الحقّ الذي يقدّرنا على الظفَر بخلاص نفوسنا؟».

« ماذا تظنون في المسيح؟» – هذا أهم سؤال. فهل تقبلونه كمُخلّصكم الشخصي؟ كلّ الذين يقبلونه يعطيهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله.

قد أعلن المسيح الله لتلاميذه بكيفيّة عملت في قلوبهم عملاً خاصاً كالعمل الذي يرغب في أن يحدثه في قلوبنا. كثيرون هم الذين إذ يتأمّلون طويلاً في النظريّات تغيب عن أنظارهم القوّة الحيّة لمثال المخلّص. يغيب المخلّص عن أنظارهم كالخادم المتواضع المُنكرُ لذاتِه. وما يحتاجونه هو رؤية يسوع. ففي كلّ يوم نحن بحاجة إلى إعلان حضوره من جديد. نحن بحاجة إلى اتّباع مثاله عن أقرب قرب، مثال نبذ الذات والتضحية بذاته.

إنّنا بحاجة إلى الاختبار الذي جاز فيه بولس حين كتب يقول:« مَعَ الْمَسِيحِ صُلِبْتُ فَأَحْيَا لاَ أَنَا بَلِ الْمَسِيحُ يَحْيَا فِيَّ. فَمَا أَحْيَاهُ الآنَ فِي الْجَسَدِ فَإِنَّمَا أَحْيَاهُ فِي الإِيمَانِ إِيمَانِ ابْنِ اللهِ ، الَّذِي أَحَبَّنِي وَأَسْلَمَ نَفْسَهُ لأَجْلِي» (غلاطية ٢:٢٠).

إنّ معرفة الله ويسوع المسيح، معبّراً عنها في الخُلُق والصفات، هي تمجيدُ يفوق كلّ ما يُقدّر على الأرض أو في السماء. وهي أسمى تهذيب، بل هي المفتاح الذي يفتح أبواب المدينة السماوية. هذه هي المعرفة التي يريد الله أنّ كلّ من يلبسون المسيح يمتلكونها.

٥ المعرفة المستقاة من كلمة اللَّه

إنّ الكتاب المقدس كلّه هو إعلان لمجد الله في المسيح. فإذا قبلناه وصدقناه وأطعناه فهو يكون الواسطة العظيمة في تغيير أخلاقنا. وهو القوّة المنشّطة والمحفّزة التي تحيي وتحرّك القوى البدنيّة والعقليّة والروحيّة، وتوجّه الحياة في الاتّجاه الصحيح.

إنّ السبب الذي لأجله ينساق كثيرون من الشباب وحتى المتقدمون الناضجون، بسهولة في طريق التجربة والخطيّة هو كونهم لا يدرسون كلمة الله ولا يلهجون بها كما ينبغي. إنّ الافتقار إلى قوّة الإرادة الثابتة الحازمة كما هو ظاهر في الحياة وفي الخلق ناتج عن إهمال تعليم كلمة الله المقدّسة. وهم لا يبذلون جهداً صادقاً لتوجيه العقل إلى ما يمكن أن يلهمه الأفكار المقدّسة الطاهرة ويحوّله عن كلّ ما هو نجس وكاذب. قليلون هم الذين يختارون النصيب الصالح، الذين، كمريم، يجلسون عند قدمي يسوع ليتعلّموا من المعلّم الإلهي. وقليلون هم الذين يختزنون كلامه في قلوبهم ويمارسونه في حياتهم.

وإذ نقبل حقائق الكتاب فهي تسمو بعقولنا ونفوسنا. فلو أعطى الناس لكلمةِ الله قيمتَها وقدّروها كما ينبغي لكان الشباب والكبار على السواء يمتلكون استقامةً في القلب وقوّةً في الخلق تقدّرهم على مقاومة التجربة.

ليعلم الناس حقائق الكتاب الثمينة وليكتبوها. ليُكرّس الفكر والاستعداد والميول والتدريب النشيط القويّ لقوى العقل، لدرس الأفكار الخاصّة بالله. لا تدرسوا الفلسفة

التي هي مجموعة من آراء الإنسان وتخميناته، بل ادرسوا فلسفة ذاك الذي هو الحقّ. لا يوجد نوع آخر من الأدب يضارع هذا في قيمته.

إنّ العقل الأرضي لا يجد سروراً أو لذةً في التأمّل في كلمة الله، أمّا بالنسبة إلى العقل المتجدد بالروح القدس فإنّ جمالاً إلهيّاً ونوراً سماويّاً يشعّان من الكلمة المقدّسة. فما كان يبدو للعقل البشري بريّةً قفراء يصير في نظر العقل الروحي أرض ينابيع ماء حيّ.

إنّ معرفة الله كما هي معلنة في كلمته هي المعرفة التي يجب أن نقدّمها لأولادنا. فمنذ بدء ظهور الوعي والعقل والتمييز عندهم يجب أن نعرّفهم باسم يسوع وحياته. وأوّل درس يجب أن يتعلّموه هو أنّ الله أبوهم. وأوّل ما يتلقونه من دروس التربية هو درس الطاعة التي تدفع إليها المحبّة. فبكلّ وقار ورقّة لتُقرأ كلمة الله أمامهم مراراً وتكراراً وأن تكون الفصول الكتابيّة على قدر أفهامهم ومناسبةً لإيقاظ اهتمامهم. وفوق الكلّ عليهم أن يتعلّموا عن محبّته المعلنة في المسيح، والدرس العظيم المستفاد منها.

«إِنْ كَانَ اللهُ قَدْ أَحَبَّنَا هكَذَا يَنْبَغِي لَنَا أَيْضًا أَنْ يُحِبَّ بَعْضُنَا بَعْضاً» (١يوحنا ٤: ٧ – ١١).

ليتّخذ الشباب من كلمة الله غذاءً لعقولهم وأرواحهم. وليصِرّ صليبُ المسيح العلمَ الرئيسي في كلّ تهذيب ومركز كلّ تعليم ودراسة، وليوضع في الاختبار اليومي في الحياة العمليّة، وبهذا يصير المخلّص هو الرفيق والصديق اليومي للشباب. وحينئذ يستأسر كلّ فكر لطاعة المسيح، فيستطيعون القول مع الرسول بولس:

فَحَاشَا لِي أَنْ أَفْتَخِرَ إِلاَّ بِصَلِيبِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ الَّذِي بِهِ قَدْ صُلِبَ الْعَالَمُ لِي وَأَنَا لِلْعَالَمِ» (غلاطية ٦: ١٤).

معرفة اختبارية

وهكذا بواسطة الإيمان يعرفون الله معرفة اختباريّة. لقد برّهنوا لأنفسهم حقيقة كلمته وصدق مواعيده. لقد ذاقوا وعرفوا أنّ الربّ صالح.

كانت ليوحنا الحبيب معرفة حصل عليها من واقع اختباره، فأمكنه أن يشهد قائلاً:

« اَلَّذِي كَانَ مِنَ الْبَدْءِ ، الَّذِي سَمِعْنَاهُ ، الَّذِي رَأَيْنَاهُ بِعُيُونِنَا ، الَّذِي شَاهَدْنَاهُ ، وَلَمَسَتْهُ أَيْدِينَا ، مِنْ جِهَةِ كَلِمَةِ الْحَيَاةِ (فإن الحياة أظهرت وقد رأيناه ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأظهرت لنا)، الَّذِي رَأَيْنَاهُ وَسَمِعْنَاهُ نُخْبِرُكُمْ بِهِ لِكَيْ يَكُونَ لَكُمْ أَيْضًا شَرِكَةٌ مَعَنَا. وَأَمَّا شَرِكَتُنَا نَحْنُ فَهِيَ مَعَ الآبِ وَمَعَ ابْنِهِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ » (١ يوحنا ١: ١ – ٣).

وهكذا يستطيع كلّ واحد بواسطة اختباره هو أن يختم «بَأَنَّ اللهَ صَادِقٌ» (يوحنا ٣: ٣٣). ويمكنه أن يشهد لما قد رآه و سمعه وأحسّه في نفسه من قوّة المسيح. ويستطيع أن يشهد قائلاً:

«لقد كُنت في حاجة إلى المعونة فوجدتها في يسوع. لقد سدّ كلّ حاجتي فأشبع جوع نفسي، والكتاب المقدّس بالنسبة إليَّ هو إعلان المسيح. فأنا أؤمن بيسوع لأنّه مخلّصي الإلهي. وأؤمن بالكتاب لأنّي وجدت أنّه صوت الله لنفسي».

عون في دراسة الطبيعة

إنّ من قد حصل على معرفة الله وكلمته عن طريق الاختبار الشخصي هو مستعدّ لأن يشتغل في درس العلم الطبيعي. فالكتاب يقول عن المسيح: « فِيهِ كَانَتِ الْحَيَاةُ وَالْحَيَاةُ كَانَتْ نُورَ النَّاسِ» (يوحنا ١:٤). فقبلما دخلت الخطية كان آدم وحواء في جنة عدن مُحاطين بنور صافٍ وجميل هو نور الله. وهذا النور أنار كلّ شيء اقتربا منه. ولم يكن يوجد ما يعتم إدراكهما لصفات أو أعمال الله. ولكن عندما استسلما للمجرّب رحل النور عنهما. وإذ أضاعا ثياب القداسة أضاعا النور الذي قد أنار الطبيعة. وما عادا يقرآن ما في الطبيعة قراءة صحيحة. ولم يستطيعا اكتشاف صفة الله في أعماله. وهكذا لا يستطيع الإنسان اليوم أن يقرأ بنفسه تعليم الطبيعة قراءة مضبوطة. وما لم يسترشد بالحكمة الإلهيّة فهو يُمّجد الطبيعة وقوانين الطبيعة فوق إله الطبيعة. ولهذا السبب كثيراً ما تكون الآراء

البشريّة المجرّدة مناقضة لتعاليم كلمة الله. ولكن بالنسبة للذين يحصلون على نور حياة المسيح تُنار لهم الطبيعة مجدداً. فبالنور المشرق من الصليب نستطيع أن نُفسّر تعاليم الطبيعة تفسيراً صحيحاً.

إنّ من عنده معرفة الله وكلمته عن طريق الاختبار الشخصي عنده إيمان راسخ في أنّ الكتب المقدسة هي من مصدر إلهي. وقد برهن على أنّ كلمة الله صادقة، وهو يُعلّم أنّ الحقّ لا يمكن أن يناقض نفسه البتّة. وهو لا يمتحن الكتاب بآراء رجال العلم، ولكنّه يأتي بهذه الآراء إلى اختبار المقياس الذي لا يخطيء. وهو يعرف أنّ في العلم الحقيقي لا يوجد شيء مناقض لتعليم الكلمة، حيث أنّ واضع الاثنين واحد، والفهم الصحيح لكليهما سيُبرهن ويثبت التوافق بينهما. وأي شيء في ما يُسمّى تعليماً علميّاً يناقض شهادة كلمة الله إن هو إلاّ تخمينات بشريّة.

لمثل هذا الطالب سيفتح البحث ميادين واسعة للفكر والاستعلام. وإذ هو يتأمّل في أمور الطبيعة يبرق في ذهنه إدراك جديدٌ للحقّ. إنّ سفر الطبيعة والكلمة المكتوبة كلّ منهما يريق نوراً على الآخر. وكلاهما يجعلانه أكثر دراية ومعرفة بالله بتعليمه عن صفاته وعن الشرائع التي يعمل من خلالها.

اختبار المرنّم

إنّ اختبار المرنّم هو الاختبار الذي يمكن للجميع أن يحصلوا عليه بقبول كلمة الله من خلال الطبيعة ومن خلال كلمة الوحي – فهو يقول:

«فَرَّحْتَنِي يَا رَبُّ بِصَنَائِعِكَ. بِأَعْمَالِ يَدَيْكَ أَبْتَهِجُ» (مزمور ٩٢: ٤).

«يا رب في السموات رحمتك أَمَانَتِكَ إلى الغمام. بِعَدْلِكَ مثل جبال الله وأَحْكَامُكَ لجة عظيمة ..»

«ما أكرم رَحْمَتِكَ يَا اَللهُ» (مزمور٣٦: ٥–٧).

«فبنو البشر في ظل جناحيك يحتمون. يروون من دسم بيتك وَمِنْ نَهْرِ نِعَمِكَ تَسْقِيهِمْ. لأَنَّ عِنْدَكَ يَنْبُوعَ الْحَيَاةِ» (مزمور ٣٦:٧-٩).

« طُوبَى لِلْكَامِلِينَ طَرِيقًا ، السَّالِكِينَ فِي شَرِيعَةِ الرَّبِّ. طُوبَى لِحَافِظِي شَهَادَاتِهِ. مِنْ كُلِّ قُلُوبِهِمْ يَطْلُبُونَهُ ».

«بِمَ يُزَكِّي الشَّابُّ طَرِيقَهُ؟ بِحِفْظِهِ إِيَّاهُ حَسَبَ كَلاَمِكَ». « اخْتَرْتُ طَرِيقَ الْحَقِّ جعلت أَحْكَامَكَ قُدَّامِي» (مزمور ١١٩: ١و٢و٩و٣٠).

« خَبَأْتُ كَلاَمَكَ فِي قَلْبِي لِكَيْلاَ أُخْطِئَ إِلَيْكَ » (مزمور ١١٩ : ٩،١١).

«أتمشى في رحب لأَنِّي طَلَبْتُ وَصَايَاكَ » (مزمور١١٩: ٤٥).

«اكشف عن عينّيّ فأرى عجائب من شَرِيعَتُكَ»، «أيضاً شهاداتك هي لذتي أهل مَشُورَتِي».

«شريعة فمك خير لي من ألوف ذهب وفضة». «كم أحببت شَرِيعَتُكَ. اليوم كلّه هِيَ لَهَجِي».

«عَجِيبَةٌ هِيَ شَهَادَتَكَ لذلك حَفَظَتْهَا نَفْسِي» (مزمور١١٩: ١٨ و٢٤ و٧٢ و٩٧و١٢٩).

«ترنيمات صارت لي فرائضك في بيت غربتي» «كلمتك ممحصة جداً وعبدك أحبها». «رأس كلامك حق وإلى الدهر كلّ أحكام عدلك». «لتحيي نفسي وتسبحك وأحكامك لتعني» (مزمور١١٩: ٥٤ و١٤٠ و١٦٠ و١٧٥). « سَلاَمَةٌ جَزِيلَةٌ لِمُحِبِّي شَرِيعَتِكَ ، وَلَيْسَ لَهُمْ معثرة رجوت خلاصك يا رب حَفَظْتُ نَفْسِي شهاداتك وأحبها جدا» (مزمور١١٩: ١٦٥-١٦٧).

« فَتْحُ كَلاَمِكَ يُنِيرُ ، يُعَقِّلُ الْجُهَّالَ » (مزمور ١١٩: ١٣٠).

«وَصِيتك جعلتني أحكم مِنْ أَعْدَائِي لأنها إِلَى الدَّهْرِ هي لي. أَكْثَرَ مِنْ كُلِّ مُعَلِّمِيَّ تَعَقَّلْتُ، لأَنَّ شَهَادَاتِكَ هِيَ لَهَجِي. أَكْثَرَ مِنَ الشُّيُوخِ فَطِنْتُ، لأَنِّي حَفِظْتُ وَصَايَاكَ ». «من

وصاياك أتفطن لذلك أبغضت كلّ طريق كذب. ورثت شهاداتك إلى الدهر لأنّها هي بَهْجَةِ قَلْبِي» (مزمور١١٩: ٩٨-١٠٠و١٠٤و١١١).

إعلانات أوضح عن الله

إنّه امتياز لنا أن نصل إلى أعلى فأعلى لأجل إعلانات أوضح لصفات الله. عندما صلّى موسى قائلاً: « أَرِنِي مَجْدَكَ » (خروج٣٣: ١٨) لم ينتهره الربّ بل استجاب لصلاته. فأعلن الله قائلاً لعبده: « أُجِيزُ كُلَّ جُودَتِي قُدَّامَكَ وأنادي باسم الرب قُدَّامَكَ» (خروج ١٩:٣٣).

إنّ الخطيّة هي التي تظلم عقوّلنا وتطمس أفهامنا. فمتى تطهرّت قلوبنا من الخطيّة فإنّ نور معرفة مجد الله في وجه يسوع المسيح إذ ينير كلمته وينعكس من وجه الطبيعة فانّه يعلنه لنا أكثر فأكثر على أنّه «رَحِيمٌ وَرَؤُوفٌ بَطِيءُ الْغَضَبِ وَكَثِيرُ الإِحْسَانِ وَالْوَفَاءِ » (خروج ٦:٣٤).

وبنوره نرى نوراً حتى يتغيّر العقل والقلب والنفس إلى صورة قداسته.

إنّ الذين يتمسّكون بيقين كلمة الله لديهم إمكانيات مدهشة. فأمامهم ميادين الحقّ فسيحة ومصادر للقوّة عديدة. وستُعلن أمور مجيدة. وستُعلن لهم امتيازات وواجبات لم يكونوا يظنّون أنّها موجودة في كتاب الله. وكلّ الذين يسيرون في طريق الطاعة والتواضع متمّمين غرضه سيعرفون أكثر وأكثر من أقوال الله.

ليتّخذ الطالب الكتاب المقدس دليلاً له ومرشداً ويثبت إلى جانب المبدأ ويمكنه عندئذ أن يصبو إلى أي سموّ في العالم. إنّ كلّ فلسفات الطبيعة البشريّة قد أوصلت الناس إلى الارتباك والتشويش والعار عندما لم يعترفوا بالله كالكلّ في الكلّ. ولكن الإيمان الثمين الذي يلهم به الله الناس يمنح القوّة ونبل الأخلاق. فإذ نتأمّل في صلاحه ورحمته ومحبّته فإن إدراكنا للحقّ يصير أوضح وأوضح، ورغبتّنا في طهارة القلب وصفاء الفكر تصير أسمى وأقدس. والنفس إذ تعيش في الجوّ النقيّ، جو التفكير المقدّس،

تتغيّر إذ تتحدّث مع الله بواسطة درس كلمته. إنّ الحقّ متّسع ورحب جدّاً وبعيد المدى جدّاً وعميق جدّاً وعريض جدّاً بحيث تغيب الذات عن الأنظار. والقلب يلين ويخضع فيمتليء وداعةً ورحمةً وحباً.

ثمّ إنّ القوى الطبيعيّة تتسع بسبب الطاعة المقدّسة. وقد يخرج الطلبة من دراسة كلمة الحياة بعقول متّسعة ومتسامية ونبيلة. فإذا كانوا سامعين لكلمة الله وعاملين بها كدانيال فقد يتقدّمون ويتفوّقون مثله في جميع فروع العلم. فلكونهم أنقياء العقول ستصير عقولهم وكلّ قوّة من قوى العقل ستنشط. وقد يهذّبون أنفسهم ويدرّبونها بحيث أنّ كلّ من هم في محيط تأثيرهم سيرون ما سيكون عليه وما يستطيع أن يفعله الإنسان المرتبط بإله الحكمة والقدرة.

الثقافة في الحياة الأبديّة

إنّ عمل حياتنا هنا هو إعدادُ للحياة الأبديّة. والتهذيب الذي يُبدأ به هنا لن يُكمّل في هذه الحياة بل سيتقدّم مدى الأبديّة – دائماً في تقدّم ولن يكمُل. وستُعلن حكمة الله ومحبّته في تدبير الفداء بأكملِ وأمجدِ كيفيّة. وإذ يقود المخلّص أولاده إلى ينابيع المياه الحيّة سيمنحهم كنوزَ معرفتِه الغنيّة. ويوماً بعد يوم ستنكشف أمام الذهن أعمال الله العجيبة وبراهين قدرته في خلق الكون وإعالته في جمال جديد. وفي النور المنبعث من العرش ستختفي الأسرار وتمتليء النفس دهشة من بساطة الأشياء التي لم تُفهم قطّ من قبل.

إنّنا الآن ننظر كما في مرآة في لغز لكن حينئذ سنرى وجهاً لوجه. الآن نعرف بعض المعرفة لكن حينئذ سنعرف كما عرفنا.

١ الحياة اليومية

إنّ الحياة الهادئة الثابتة التي يحياها المسيحي الطاهر الأمين فيها من الفصاحة ما هو أعظم وأبلغ من كلّ كلام. إنّ حياة الإنسان لها تأثير أكثر من كلامه.

إنّ الخدّام الذين أُرسلوا إلى يسوع رجعوا بهذا التقرير أنّه لم يتكلّم إنسان قطّ كما تكلّم هذا الإنسان. ولكنّ السبب الحقيقي هو أنّه لم يعش إنسانٌ قطّ كما عاش هو. فلو كانت حياته غير ما كانت لما أمكنه أن يتكلّم مثلما تكلّم. كان كلامه ينطوي على قوّة إقناع عظيمة لأنّها كانت صادرة من قلب نقيّ ومقدّس، عامر بالحب والعطف والإحسان والحقّ.

إنّ صفاتِنا واختباراتِنا هي التي تقرر مدى تأثيرنا في الآخرين، فلكي نقنع الآخرين بقوة نعمة المسيح يجب أن نختبر تلك القوّة في قلوبنا وحياتنا. فالإنجيل الذي نقدّمه لأجل خلاص النفوس ينبغي أن يكون هو الإنجيل الذي به قد خلصت نفوسنا. لا يمكن أن نجعل تأثيرنا محسوساً في العالم الذي تفشّى فيه الإلحاد إلاّ بواسطة الإيمان الحيّ بالمسيح كمخلّصنا الشخصي. فإذا أردنا انتشال الخطاة من التيار السريع الجارف فيجب أن تكون أرجلنا مثبّتة على الصخرة، المسيح يسوع.

ليس شعار المسيحيّة علامة خارجيّة، ولا أن نلبس صليباً أو إكليلاً، ولكنّه ذاك الذي يعلن اتحاد الإنسان بالله. فبقوّة نعمته الظاهرة في تغيير الخلق يقتنع العالم بأنّ الله قد أرسل الإبن فادياً له. لا يوجد تأثيرٌ آخر يحيط بالنفس له قوّة تضارع قوّة النفس الخالية من الأثرة. إنّ أقوى حجّة في صالح الإنجيل هي وجود المسيحي المحبّ والمحبوب.

تجارب الحياة

إنّ كون الإنسان يحيا هذه الحياة ويبذل هذا التأثير يكلفّه بذل الجهد والتضحية والتدريب عند كلّ خطوة يخطوها. إنّ كثيرين من الناس لكونهم لا يدركون هذا يفشلون بسهولة في الحياة المسيحيّة. وكثيرون ممن يكرّسون ذواتِهم بكلّ إخلاص لخدمة الله يستغربون وتخيب آمالهم حين يجدون أنفسَهم وجهاً لوجه أمام العقبات مُحاطين بالتجارب والارتباكات، الأمر الذي لم يحدث لهم من قبل. إنّهم يصلّون لكي يتشبّهوا بالمسيح في الصفات ولكي يؤهلوا لخدمة الربّ، ثم تمرّ بهم ظروف يبدو أنّها تُعبيء ضدّهم كلّ شرّ طبيعتهم. ثم تكتشف أخطاء لم يكونوا يشتبهون في وجودها. وكإسرائيل قديما يتساءلون قائلين: «إذا كان الرب معنا فلماذا أصابتنا كلّ هذه»؟

إنّه لكون الربّ يقودهم تصيبهم كلّ هذه. إنّ التجارب والصعوبات هي وسائل الربّ المختارة للتدريب، وهي الشروط التي وضعها للنجاح. فذاك الذي قلوب الناس مكشوفة لديه يعرف أخلاقهم أفضل مما يعرفون أنفسهم. وهو يرى أنّ البعض لهم قوى ومشاعر لو وُجهّت توجيهاً صائباً قد تكون ذات نفع لتقدّم عمله. وفي عنايته يأتي بهؤلاء الأشخاص في مراكز مختلفة وظروف متباينة حتى يكتشفوا في أخلاقهم النقائص التي كانت خافية عليهم. وهو يُقدّم لهم فرصاً لإصلاح هذه النقائص وجعل أنفسهم أهلاً لخدمته. فأحياناً كثيرة يُسمح لنيران التجارب بمهاجمتهم حتى يتنقّوا ويتطهّروا.

إنّ حقيقة كونّنا مدعوّين لاحتمال التجربة تبرهن على أنّ الربّ يسوع يرى فينا شيئا ثميناً يرغب هو في تنميته. فإن لم يَر فينا شيئا يمكن أن يتمجّد اسمه به فإنّه لا ينفق وقتاً في تنقيتنا. إنّه لا يُلقي بالأحجار التافهة العديمة القيمة في بوتقته. ولكن ما ينقّيه هو المعدن النفيس. إنّ الحداد يضع الحديد والصلب في النار ليعرف من أيّ المعادن هما. والرب يسمح بأن يُوضع مُختاروه في كور المشقّة ليمتحن نوع طبعهم ومعدنهم وما إذا كان يمكن صياغتهم لأجل عمله.

والفخّاري يأخذ الطين ويشكّله حسب إرادته. وهو يعجنه ويصنعه ويمزّقه ويفصله عن بعضه ثم يضغطه معاً. ويبلّله ثم يجففه. وهو يتركه مُلقى بعضَ الوقت دون أن يمسّه. فمتى صار مرناً تماماً يواصل عمله في صنع إناء منه. ويشكّله كما يريد، ثم يزيّنه ويصقله على الدولاب ثم يجففه في الشمس ويحمره في الفرن. وهكذا يصير إناءً صالحاً للاستعمال. وكذلك يريد الصانع الأعظم أن يشكّلنا ويصوغنا. فكالطين بين يدي الخزّاف كذلك يجب أن نكون نحن بين يديه. وليس لنا أن نحاول القيام بعمل الفخّاري. إنّما عملنا هو أن نُسلم ذواتنا ليصوغها الصانع الأعظم.

«أَيُّهَا الأَحِبَّاءُ لاَ تَسْتَغْرِبُوا الْبَلْوَى الْمُحْرِقَةَ الَّتِي بَيْنَكُمْ حَادِثَةٌ لأَجْلِ امْتِحَانِكُمْ كَأَنَّهُ أَصَابَكُمْ أَمْرٌ غَرِيبٌ بَلْ كَمَا اشْتَرَكْتُمْ فِي آلاَمِ الْمَسِيحِ افْرَحُوا لِكَيْ تَفْرَحُوا فِي اسْتِعْلاَنِ مَجْدِهِ أَيْضًا مُبْتَهِجِينَ» (١ بطرس ٤:١٢،١٣).

إنّ الطائر الحبيس في قفص في ملء نور النهار مع سماعه موسيقى أصوات أخرى لن يغنّي الأغنية التي يريد صاحبه أن يعلّمه إيّاها. قد يتعلّم قليلاً من أغنية هنا وقليلا من أغنية أخري هناك، ولكنه لا يتعلّم أغنية منفصلة كاملة. غير أنّ صاحبه يغطّي القفص ويضعه في الموضع الذي فيه يصغى الطائر إلى الأغنية الواحدة التي سيغنّيها. ففي الظلام يحاول مراراً وتكراراً أن يُغنّي له تلك الأغنية حتى يتعلّمها ويشدو بها مغنّياً في لحن عذب كامل. ومن ثمّ يخرج الطائر ويمكنه بعد ذلك دائماً أن يغنّي تلك الأغنية في وضح النهار. بهذه الكيفيّة يعامل الله أولاده. فلديه أغنية يريد أن يعلّمنا إيّاها، فبعدما نتعلّمها في وسط ظلمات الآلام والتجارب يمكننا أن نغنّيها فيما بعد.

الله يختار عملنا

كثيرون هم غير الراضين عن عمل حياتهم. ربّما تكون بيئاتهم غير متجانسة أو قد يكون وقتهم مزدحماً بعمل عادي، في حين يظنّون أنّ فيهم كفاءة ولديهم مقدرة

للاضطلاع بتبعات أسمى، وفي غالب الأحيان يبدو لهم أنّ أعمالهم لا تلقى تقديراً أو أنّها عقيمة، وأنّ مستقبلهم غير ثابت أو مضمون.

لنذكر أنّه في حين أنّ العمل الذي علينا أن نقوم به قد لا يكون هو الذي اخترناه لنفوسنا فعلينا أن نقبله على أنّه اختيار الله لنا. وسواء أكان العمل مسرّاً أو على نقيض ذلك فعلينا أن نقوم بأقرب واجب إلينا. «كُلُّ مَا تَجِدُهُ يَدُكَ لِتَفْعَلَهُ فَافْعَلْهُ بِقُوَّتِكَ، لأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَمَل وَلاَ اخْتِرَاعٍ وَلاَ مَعْرِفَةٍ وَلاَ حِكْمَةٍ فِي الْهَاوِيَةِ الَّتِي أَنْتَ ذَاهِبٌ إِلَيْهَا» (الجامعة ٩: ١٠).

فإذا كان الرب يريدنا أن نحمل رسالة إلى نينوى فليس مما يسرّه أن نذهب إلى يافا أو إلى كفرناحوم. فلديه أسباب تبرّر إرساله إيّانا إلى المكان الذي يوجّه خطواتِنا إليه. فقد يوجد إنسان في ذلك المكان نفسه في حاجة إلى المعونة التي يمكننا تقديمها له. فذاك الذي أرسل فيلبس إلى الوزير الحبشي، وبطرس إلى قائد المئة الروماني، والفتاة العبرانية الصغيرة لتقدّم العون إلى نعمان رئيس جيش آرام، يرسل اليوم الرجال والنساء والشباب نوّاباً عنه إلى من هم في حاجة إلى العون والإرشاد الإلهيين.

تدبيرات الله هي الأفضل

إنّ تدبيراتِنا ليست هي تدبيرات الله دائماً. فقد يرى أنّه من الخير لنا ولعمله أن يرفضَ أفضلَ مقاصدنا كما فعل مع داود. ولكن يمكننا التأكّد من أمر واحد وهو أنّه سيبارك ويستخدم في تقدّم عمله الذين بكلّ إخلاص يكرّسون ذواتهم وكلّ ما يملكون لمجده. فإذا كان يرى أنّ الأفضل ألاّ يمنحهم رغائبهم فهو سيعوّض عن هذا الرفض بأن يريهم دلائل محبّته ويوكل إليهم خدمة أخرى.

إنّ الله في رعايته ومحبّته واهتمامه بنا، ذاك الذي يفهمنا أفضل مما نفهم أنفسَنا، غالباً ما يرفض السماح لنا بطلب إشباع طموحنا في أنانيّة. وهو لا يسمح لنا بالإغضاء عن الواجبات البسيطة المقدّسة التي في متناول أيدينا. فكثيرا ما تكفل لنا هذه الواجبات

نفس التدريب الذي هو جوهري لإعدادنا لعمل أسمى. وفي كثير من الأحيان تفشل تدبيراتنَا حتى ينجح تدبير الله لأجلنا.

إنّنا لا نُدعى أبداً للقيام بتضحية حقيقيّة لأجل الله. توجد أشياء كثيرة يطلب هو منّا أن نُسلّمها له، ولكنّنا إذ نفعل هذا فنحن إنّما نُسلّم ما يعطلنا عن السير في طريق السماء. وحتى عندما نُدعى للتسليم بالأمور التي هي صالحة في ذاتها، فلنا أن نتأكّد من أنّ الله بهذه الوسيلة يتمم لنا خيراً أعظم.

ولكن في الحياة المستقبلة ستتضح أمامَنا الأسرار التي أغاظتنا وخيّبت آمالنا. وسنرى أنّ صلواتِنا التي لم يستجب لها الله حسب الظاهر وآمالنا التي خابت كانت من أعظم البركات لنا.

علينا أن ننظر إلى كلّ واجب مهما يكن وضيعاً على أنّه مقدس لأنّه جزء من خدمة الله. والطِلبة التي يقدّمها كلّ منا كلّ يوم هي هذه: «يا رب أعنّي لأفعل أفضل ما أستطيع. وعلّمني كيف أقوم بعملٍ أفضل. وهبني نشاطاً وفرحاً. وساعدني لكي أدخل في خدمتك، خدمة محبة المخلص».

موسى

تأمّلوا في اختبار موسى. لقد كان التهذيب الذي تلقّاه في مصرَ كحفيد الملك والوريث المُنتظر للعرش، تهذيباً كاملاً. ولم يُهمل شيء كان يُعتبر كفيلاً بجعله رجلاً حكيماً، كما كان المصريون يفهمون الحكمة. وقد تلقّى أسمى تهذيب مدني وحربي. وأحسّ بأنّه مُعَدُّ إعداداً كاملاً لمأمورية إنقاذ العبرانيين من العبودية. ولكنّ حكم الله كان على عكس هذا. فلقد عينت عناية الله أن يتلقى موسى تدريباً آخرَ في البريّة كراعي غنم مدّة أربعين سنة.

كان التهذيب الذي تلقّاه موسى في مصر عوناً له في أشياء كثيرة، ولكن أثمن إعداد لعمل حياته كان هو ذاك الذي تلقّاه وهو يرعى الغنم. كان موسى بطبيعته ذا روح قويّة وعنيفة. فإذ كان وهو في مصر قائداً حربيّاً ناجحاً ومحبوباً من الملك والأمّة كان معتاداً سماع كلام المديح والإطراء. لقد اجتذب الشعب إلى نفسه. وكان يرجو أن يحرر العبرانيين بقوّته. أمّا الدروس التي كان عليه أن يتعلّمها كنائب عن الله فكانت تختلف عن هذا اختلافاً بيّناً. فإذ كان يقود قطعانَه في مجاهل الجبال وإلى مراعي الوديان الخضراء تعلّم درس الإيمان والوداعة والصبر والتواضع ونسيان الذات. كما تعلّم أن يرعى الضعيف ويعالج المريض ويطلب الضال ويصبر على المتمرّد والعاصي، وأن يرعى الحملان ويطعم العجائز والضعاف.

وفي هذا العمل اقترب موسى أكثرَ من رئيس الرعاة. وقد صار مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بقدّوس إسرائيل. ما عاد الآن يفكّر في القيام بعمل عظيم. ولكنّه طلب أن يتمم العمل الموكل إليه بكلّ أمانة كما لله. وقد اعترف بوجود الله في البيئة المحيطة به. فقد كانت الطبيعة كلّها تحدّثه عن الله غير المنظور. لقد عرف الله كإله شخصي، وإذ كان يتأمّل في صفاته فهم فهماً كاملاً معنى حضوره. وقد وجد لنفسه ملجأً وملاذا في الأذرع الأبدية.

وبعد هذا الاختبار سمع موسى صوتاً من السماء يأمره بأن يستعيض عن عصا الرعاية بعصا السلطة وأن يترك قطيعَ أغنامه ليصير قائداً للعبرانيين. وقد وجده أمرُ الله غيرَ واثقٍ بنفسه وثقيلَ اللسان وجباناً رعديداً. وقد غمره شعورُ بالعجز حين طُلب منه أن يكون كليماً لله. إلاّ أنّه قبل القيام بهذا العمل، واضعاً كلّ ثقته بالربّ. وإنّ عظمة مأموريّته شغلت أفضلَ قوى عقله. وقد بارك الله طاعتَه الناجزة فصار فصيحاً واثقاً رابط الجأش مؤهّلاً للقيام بأعظم عمل أُسند إلى إنسان. والكتاب يقول عنه: «وَلَمْ يَقُمْ بَعْدُ نَبِيٌّ فِي إِسْرَائِيلَ مِثْلُ مُوسَى الَّذِي عَرَفَهُ الرَّبُّ وَجْهًا لِوَجْهٍ» (تثنية ٣٤:١٠).

فعلى من يحسّون بأنّ الناس لا يقدّرون عملهم ويشتاقون إلى مركز ذي مسؤولية أعظم أن يلاحظوا أنّه «لا من المشرق ولا من المغرب ولا من برية الجبال. ولكن الله هو القاضي. هذا يضعه وهذا يرفعه» (مزمور٧٥: ٦ و٧). فلكلّ إنسانٍ مكانه في تدبير السماء الأبدي. وسواءَ أملأنا ذلك المكان أم لا فذلك رهين أمانتنا في التعاون مع الله.

ونحن بحاجة إلى الحذر من التأسّي على أنفسنا والرثاء لها. وعليك بالحذر من الاسترسال في الإحساس بأنّ أحداً لا يُقدّرك، وأنّ جهودك لا تلقى التقدير الواجب وأنّ عملك شاقّ وفوق طورك. بل لتُسكِت ذكرى ما قد احتمله المسيح لأجلنا كلّ أفكار التذمّر وتوقفها عند حدّها. إنّنا نُعَاملَ معاملةً أفضل مما عومل بها سيدُنا. «هل تطلب لنفسك أموراً عظيمة. لا تطلب» (إرميا ٤٥: ٥). لا مكان عند الربّ في عمله لمن يشتاقون للظفر بالإكليل أكثر من شوقهم لحمل الصليب. إنّه يطلب رجالاً ينكبّون على القيام بواجبهم أكثر من انكبابهم وتطلّعهم إلى الجعالة – رجالاً يهتمّون بالمبدأ أكثر من اهتمامهم بالترقية.

إنّ الناس الودعاء الذين يقومون بعملهم كما لله قد لا يتفاخرون أو يتظاهرون قدر ما يفعل الناس الكثيرو الصخب المعتزّون بأنفسهم، ولكنّ عملهم له قيمة أعظم. إنّ الذين يقومون بمظاهراتٍ واستعراضاتٍ عظيمة هم في الغالب يسترعون الانتباه إلى أنفسهم، هؤلاء يتدخّلون بين لله والشعب، ومآل عملهم إلى الفشل. «الحكمة هي الرأس فاقتنِ الحكمة وبكلّ مقتناك اقتنِ الفهم. ارفعها فتعلّيك، تمجدّك إذا اعتنقتها» (أمثال ٤:٧و٨).

إنّ كثيرين من الناس، إذ يعوزهم العزم الصادق على أن يضعوا أرواحهم في أكفّهم ويصلحوا أمرهم، يسيرون راسخي الأقدام في طريق العمل الخاطيء. ولكن ينبغي ألاّ تسير الأمور هكذا. فقد يستطيعون أن يدّربوا قواهم على القيام بأفضل الخدمات. وحينئذ يكون العمل بحاجة لهم دائماً. وسيقدّرون بقدر عظمة عملهم وقيمته.

وإذا كان البعض مؤهّلين لوظيفة أسمى فالربّ سيضع الحمل ليس عليهم وحدهم بل على من قد اختبروهم ويعرفون قيمتهم، والذين يستطيعون بفطنة أن يحثّوهم على

التقدّم إلى الأمام. فالذين يقومون بالعمل المعيّن عليهم بأمانة يوماً بعد يوم هم الذين سيسمعون من فم الله، في الوقت المُعَيّن منه، الدعوة القائلة: «ارتفع إلى فوق».

فعندما كان الرعاة يحرسون قطعانهم فوق تلال بيت لحم جاء ملائكة من السماء يزورونهم. فكذلك اليوم إذ يقوم خادم الله المتواضع بعمله فإنّ ملائكة الله يقفون إلى جانبه ويصغون إلى أقواله ويلاحظون الكيفيّة التي بها يقوم بعمله ليروا ما إذا كان يمكن أن تُسند إليه مسؤولياتٌ أعظم.

العظمة الحقة

إنّ الله لا يقدّر الناس بالنظر إلى غناهم أو تهذيبهم أو مركزهم، ولكنّه يقدّرهم بموجب نقاوة بواعثهم وجمال أخلاقهم. وهو يلتفت ليرى كم يمتلكون من روحه ومقدار ما يظهر في حياتهم من صورته. فلكي يكون الإنسانُ عظيماً في ملكوت الله يجب أن يكون كالأولاد في وداعته وبساطة إيمانه وطهارة محبّته.

لقد قال المسيح: «أَنَّ رُؤَسَاءَ الأُمَمِ يَسُودُونَهُمْ وَالْعُظَمَاءَ يَتَسَلَّطُونَ عَلَيْهِمْ. فَلاَ يَكُونُ هكَذَا فِيكُمْ. بَلْ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ فِيكُمْ عَظِيمًا فَلْيَكُنْ لَكُمْ خَادِمًا» (متى ٢٠:٢٥و٢٦).

من بين كلّ الهبات التي يمكن أن تمنحها السماء للناس نجد أنّ مشاركة المسيح في آلامه هي أثمن وديعة وأسمى كرامة. فلا "أخنوخ" الذي نُقل إلى السماء ولا "إيليا" الذي صعد في مركبة من نار كان أعظم أو أكرم من "يوحنا المعمدان" الذي مات وحيداً في السجن، «لأَنَّهُ قَدْ وُهِبَ لَكُمْ لأَجْلِ الْمَسِيحِ لاَ أَنْ تُؤْمِنُوا بِهِ فَقَطْ بَلْ أَيْضًا أَنْ تَتَأَلَّمُوا لأَجْلِهِ» (فيلبي ١:٢٩).

خطط للمستقبل

كثيرون لا يستطيعون أن يرسموا خططاً محددة للمستقبل. فحياتهم غير مستقرّة. وهم لا يستطيعون معرفة نتائج الأمور، وهذا كثيراً ما يملأهم عجزاً وقلقاً. فلنذكر أنّ حياة أولاد

الله في العالم هي حياة اغتراب. وليست لنا حكمة لنرسم خطّة حياتنا، وليس لنا أن نشكّل مستقبلنا. « بِالإِيمَانِ إِبْرَاهِيمُ لَمَّا دُعِيَ أَطَاعَ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ عَتِيداً أَنْ يَأْخُذَهُ مِيرَاثًا فَخَرَجَ وَهُوَ لاَ يَعْلَمُ إِلَى أَيْنَ يَأْتِي » (عبرانيين ١١: ٨).

إنّ المسيح في حياته على الأرض لم يرسم لنفسه خططاً. فقد قبل تدبيرات الله لأجله، وكان الله يكشف له عنها يوماً فيوماً. وكذلك يجب علينا أن نعتمد على الله لكي تكون حياتنا مجرّد إتمام لإرادته. وإذ نُسلّم له طرقَنا فهو يقود خطواتِنا.

إنّ كثيرين إذ يرسمون لأنفسهم مستقبلاً مشرقاً لامعاً يصيبهم الفشل الذريع. ولكن دع الله يرسم لك. وكطفل صغير ثق بإرشاد ذاك الذي «أرجل أتقيائه يحرس» (١ صموئيل٢: ٩). إنّ الله لا يقود أولادَه أبداً إلاّ حيث يختارون أن يقادوا لو أمكنهم أن يعرفوا النهاية من البداية ويكتشفوا مجد الغرض الذي يتممونه كعاملين معه.

الأجـور

عندما دعا المسيح تلاميذه ليتبعوه لم يقدّم لهم وعوداً كاذبة خلابة عن انتظارات في مستقبل حياتهم الراهنة. فلم يعدهم بالربح أو الكرامة العالمية كما أنّهم لم يساوموه في ما سيحصلون عليه. فإذ كان متّى جالساً عند مكان الجباية قال له المخلّص: « اتْبَعْنِي. فَتَرَكَ كُلَّ شَيْءٍ وَقَامَ وَتَبِعَهُ » (لوقا ٥: ٢٨). إنّ متّى لم يطلب راتباً معيناً قبل تقديم أيّة خدمة، حتى يكون متعادلاً مع كلّ ما كان يتقاضاه من حرفته الأولى. لقد تبع المسيح بدون سؤال أو تردد. فقد كان يكفيه أن يكون مع المخلّص ليسمع أقواله ويشترك معه في عمله.

وكذلك كان الحال مع التلاميذ الذين دُعوا قبلا. فعندما أمر يسوع بطرس وشركاءه بأن يتبعوه تركوا سفنَهم وشباكَهم في الحال. كان لبعض هؤلاء التلاميذ أصدقاء يعتمدون عليهم في إعالتهم، ولكن عندما قبلوا دعوة المخلّص لم يترددوا ليسألوا قائلين: «كيف أعيش وأعول عائلتي؟» لقد أطاعوا الدعوة، وعندما سألهم يسوع بعد ذلك قائلاً: «حِينَ أَرْسَلْتُكُمْ بِلاَ كِيسٍ وَلاَ مِزْوَدٍ وَلاَ أَحْذِيَةٍ هَلْ أَعْوَزَكُمْ شَيْءٌ؟ فَقَالُوا: «لاَ» » (لوقا ٢٢: ٣٥).

واليوم يدعونا المخلّص كما قد دعا متى ويوحنا وبطرس لخدمته. فإذا لمست محبّته قلوبنا فإنّ مسألة التعويض لن تكون أسمى شيء ولا أهم شيء في عقولنا. لأنّنا سنفرح بأن نكون عاملين مع المسيح ولن نخاف من أن نثق برعايته. فإذا جعلنا اللهَ قوّتَنا فسيكون عندنا إدراك واضح للواجب والمطامح المنطوية على الإيثار، وحياتنا ستسير بقوّة العزم النبيل، وهذا يرفعنا فوق البواعث الحقيرة.

الله سيدبر

إنّ كثيرين ممن يعترفون بأنّهم أتباع المسيح هم قلقون ومضطربو القلوب إذ يخافون من أن يستودعوا أنفسهم بين يدي الله. فهم لا يسلّمون له التسليم الكامل إذ يتراجعون أمام النتائج التي قد يترتّب عليها هذا التسليم. ولكن ما لم يقوموا بهذا التسليم فلن يجدوا السلام.

يوجد كثيرون قلوبهم سقيمة ومتألّمة إذ يرزحون تحت أثقال الهموم لأنّهم يريدون أن يصلوا إلى مقياس العالم. لقد اختاروا خدمة العالم وقبلوا ارتباكاتِه واتّخذوا عاداتِه، وهكذا فسدت أخلاقُهم وصارت حياتُهم ثقلاً. إنّ القلق المستمرّ ينهك قوى الحياة. إنّ ربّنا يريدهم أن يطرحوا عنهم نير العبودية هذا، ويدعوهم لأن يقبلوا نيرَه إذ يقول: «نِيرِي هيِّن وَحِمْلِي خَفِيفٌ» (متى ١١:٣٠). إنّ القلق أعمى ولا يستطيع أن يرى المستقبل، أمّا يسوع فيرى النهاية من البداية. ففي كلّ صعوبة له طريقه المُعّد للإتيان بالفرج والراحة. إنّه «لاَ يَمْنَعُ خَيْرًا عَنِ السَّالِكِينَ بِالْكَمَالِ» (مزمور ٨٤:١١).

إنّ أبانا السماوي لديه آلاف الطرق لإعالتنا مما لا نعرف شيئا عنها. والذين يقبلون المبدأ الواحد مبدأ جعل خدمة الله أهم مطلب سيجدون أنّ كلّ الارتباكات قد تلاشت والطريقَ واضحَ المعالم أمامهم.

الإيمان المشجع

إنّ القيام بواجبات اليوم بأمانة هو أفضل تأهّب لتجارب الغد. لا تكدّس كلّ احتمالات الغد وهمومه لتضيفها إلى حمل اليوم. «يكفي اليوم شره» (متى ٦:٣٤).

ليكن عندنا رجاء وشجاعة. فاليأس في خدمة الله أمرٌ خاطيء وغير معقول. إنّه يعرف كلّ حاجاتنا. فمع قدرة ملك الملوك اللامحدودة يجمع إلهنا الحافظ العهد رقّة الراعي العظيم ورعايته. إنّ قدرته كاملة، وهي الضمان للإتمام الأكيد لمواعيده لكلّ من يتكّلون عليه. إنّ لديه الوسائل لإزالة كلّ صعوبة حتى يمكن إعالة من يخدمونه ويحترمون الوسائل التي يستخدمها. إنّ محبّته هي أعظم وأسمى من كلّ محبّة أخرى بقدر ما تعلو السموات فوق الأرض. وهو يحرس أولادَه ساهراً عليهم بمحبّة أبديّة غير محدودة.

ففي أشدّ الأيام حُلُوكة، عندما تدلّ الظواهر على شرّ مستطير ليكن لك إيمان بالله. إنّه متمّم مشيئته وجاعلّ كلّ الأشياء تعمل معاً لخير شعبه. إنّ قوّة من يحبّونه ويخدمونه تتجدد يوماً فيوماً.

وهو يقدر ويريد أن يمنح عبيده كلّ العون الذي يحتاجونه. وهو سيمنحهم الحكمة التي ستطلبها حاجاتهم المختلفة.

قال بولس الرسول الذي جاز في مصاعب وتجارب: «فَقَالَ لِي تَكْفِيكَ نِعْمَتِي لأَنَّ قُوَّتِي فِي الضَّعْفِ تُكْمَلُ. فَبِكُلِّ سُرُورٍ أَفْتَخِرُ بِالْحَرِيِّ فِي ضَعَفَاتِي لِكَيْ تَحِلَّ عَلَيَّ قُوَّةُ الْمسِيحِ. لذلك أسر بالضعفات والشتائم والضرورات والاضطهادات والضيقات لأجل المسيح لأنّي حينما أنا ضعيف فحينئذ أنا قوي» (٢ كورنثوس١٢: ٩ و١٠).

٢ الاحتكاك بالآخرين

إنّ كلّ علاقة في الحياة تتطلّب ممارسة ضبط النفس والاحتمال والعطف. إنّنا نختلف عن بعضنا البعض اختلافاً بيّناً في الأمزجة والعادات والتهذيب بحيث أنّ طرق نظرِنا إلى الأشياء تختلف. وأحكامُنا تختلف. وإدراكُنا للحقّ وآراؤنا الخاصة بالتصرّف في الحياة ليست واحدة من كلّ النواحي. ولا يوجد اثنان يتشابه اختبارهما في كلّ التفاصيل. فتجاربُ الواحد ليست هي تجارب الآخر. كما أنّ الواجبات التي يراها الواحد سهلةً وخفيفةً يراها الآخر شاقّةً ومركّبة.

إنّ الطبيعة البشريّة ضعيفة وجاهلة ومعرّضة للخطأ إلى حدّ كبير بحيث يجب على كلّ واحد أن يكون حذراً وحريصاً في تقديره للآخرين. إنّنا قلّما نعرف تأثيرَ أعمالنا على اختبار الآخرين. فما نفعله أو نقوله قد يبدو لنا أنّه قليل الأهمّية، في حين أنّه لو انفتحت عيوننا لكنّا نرى أنّ عليه تتوقّف أهمّ النتائج إن للخير أو للشرّ.

تقديرنا لحاملي الأثقال

إنّ كثيرين قد حملوا أثقالاً قليلةً جدّاً، ولم تُختبر قلوبهم إلاّ القليلَ جداً من الحزن الحقيقي، ولم يحسّوا إلاّ بالقليل جدّاً من الارتباك والضيق لأجل الآخرين بحيث لا يستطيعون أن يدركوا عمل حامل الأثقال الحقيقي. وهم غيرُ أهلٍ لتقدير أثقاله كما لا يفهم الطفل رعايةَ وتعَب أبيه المُثقّل بالهموم والمسؤوليات. فقد يدهش الطفل حين يرى المخاوف والارتباكات التي تكتنف أباه. فهو يرى أن لا داعي لهذه كلّها. ولكن عندما

تتقدّم به الأيّام ويزيد اختباره، ويبدأ هو في حمل الأثقال فسينظر إلى الخلف إلى حياة أبيه ويدرك ما لم يكن يفهمه قبلاً. لقد أكسبه الاختبارَ علماً ومعرفة.

إنّ عملَ كثيرين من حاملي الأثقال غيرُ مفهوم، وليس من يقدّر أتعابَ حامل الأثقال حتى يعاجله الموت. فعندما يضطلع آخرون بحمل الأثقال التي ألقاها عنه ويواجهون الصعوبات التي سبق وواجهها فحينئذ سيدركون إلى أيّ حدّ امتُحن إيمانه وشجاعته. عندئذ، فغالبا ما تغيب عن أنظارهم الأخطاءُ التي كانوا يسرعون في لومه عليها. فالاختبار يعلّمهم العطف. إنّ الله يسمح بأن يكون الناس في وضع يتطلّب مسؤولية. فعندما يخطئون فله السلطان في أن يقوّمهم أو يبعدهم. فلنحترس حتى لا نأخذ بين أيدينا عملَ الإدانةِ الذي هو عمل الله وحده.

إنّ لنّا درساً في تصرّف داود مع شاول. لقد مُسح شاول ملكاً على إسرائيل بأمر الله. ولكن بسبب عصيانه أعلن الله أنّ المُلك يجب أن يؤخذ منه، ومع ذلك كم كان تصرّف داود رقيقاً ولطيفاً وصبوراً من نحوه! إنّ شاول إذ كان يطلب نفسَ داود جاء إلى البريّة ودخل وحده إلى الكهف ذاته الذي كان داودَ ورجال حربه مختبئين فيه. «فقال رجال داود له هوذا اليوم الذي قال لك عنه الربّ هأنذا أدفع عدوكَ ليدك فتفعل به ما يحسن في عينيك .. فقال لرجاله حاشا لي من قبل الربّ أن أعمل هذا الأمر بسيدي بمسيح الرب فأمدّ يدي إليه لأنّه مسيح الربّ هو» (١ صموئيل ٢٤:٤-٦). والمخلّص يأمرنا قائلا: « لاَ تَدِينُوا لِكَيْ لاَ تُدَانُوا لأنكم بالدينونة التي بها تدينون تدانون وبالكيل الذي به تكيلون يكال لكم» (متى٧: ١ و٢). فاذكر أنّ سفرَ حياتك سرعان ما سيُفحص أمام الله. ثم اذكر أيضاً أنّه قد قال: «لذلك أنت بلا عذر أيها الإنسان كلّ من يدين .. لأنك أنت الذي تدين تفعل تلك الأمور بعينها» (رومية ٢:١).

احتمال الظلم

علينا ألاّ نسمح لأرواحنا بأن تهتاج أمام أيّ ظلمٍ حقيقيّ أو مزعوم يقع علينا. النفس هي أكبر عدوّ يجب أن نخافه. لا يوجد أيّ شكل من أشكال الرذيلة أشدّ في تأثيره

الوبيل على الخلق أكثر من غضب الإنسان الذي ليس تحت سيطرة الروح القدس. ولا توجد نصرة يمكن أن نحرزها أثمن من نصرتِنا على الذات.

يجب ألاّ نسمحَ لمشاعرنا أن تُجرحَ بسهولة. فعلينا أن نعيش لا لنسهر على مشاعرنا أو سمعتنا بل لنخلّص النفوس. فإذ نصير مهتمين بخلاص النفوس فإنّنا نكفّ عن أن نلقي بالاً إلى الاختلافات الصغيرة التي كثيراً ما تظهر في علاقاتِنا مع بعضنا البعض. ومهما يكن ما يظنّه فينا أو يفعلونه لأجلنا فيجب ألاّ يزعج اتحادَنا بالمسيح وشركة الروح، «لأَنَّهُ أَيُّ مَجْدٍ هُوَ إِنْ كُنْتُمْ تُلْطَمُونَ مُخْطِئِينَ فَتَصْبِرُونَ بَلْ إِنْ كُنْتُمْ تَتَأَلَّمُونَ عَامِلِينَ الْخَيْرَ فَتَصْبِرُونَ فَهذَا فَضْلٌ عِنْدَ اللهِ» (١ بطرس ٢:٢٠).

لا تثأر لنفسك. بل على قدر طاقتك أزل كلّ أسباب سوء التفاهم. ابتعد عن كلّ شبه شرّ. واعمل كلّ ما في مقدورك لتسالم جميع الناس بدون أن تضحّي بمبادئك. « فَإِنْ قَدَّمْتَ قُرْبَانَكَ إِلَى الْمَذْبَحِ ، وَهُنَاكَ تَذَكَّرْتَ أَنَّ لأَخِيكَ شَيْئًا عَلَيْكَ، فَاتْرُكْ هُنَاكَ قُرْبَانَكَ قُدَّامَ الْمَذْبَحِ ، وَاذْهَبْ أَوَّلاً اصْطَلِحْ مَعَ أَخِيكَ، وَحِينَئِذٍ تَعَالَ وَقَدِّمْ قُرْبَانَكَ » (متى ٥: ٢٣ و٢٤).

فإذا خاطبك أحدٌ بكلامِ غضبٍ وإثارة فلا تكن إجابتك بنفس تلك الروح. واذكر أنّ «الجواب اللين يصرف الغضب» (أمثال١٥: ١). وهنالك قوّة مدهشة في الصمت. فالكلام الذي يقال جواباً على كلام رجل غضوب، أحياناً ما يزيد من غضبه واهتياجه. ولكن إذا قابلت الغضب بالصمت بروح الرقّة والاحتمال فسرعان ما ينصرف.

فأمام الكلام اللاذع الذي كلّه تشنيع اجعل عقلك مثبّتاً في كلمة الله. واذخر في عقلك وقلبك مواعيد الله. فإذا أسيئت معاملتك أو اتُهمت ظلماً فبدلاً من أن تجيب جواباً غاضباً ردد لنفسك المواعيد الثمينة.

«لا يغلبنك الشر بل اغلب الشر بالخير» (رومية١٢: ٢١).

«سلم للرب طريقك واتكل عليه وهو يجري. ويخرج مثل النور برّك وحقك مثل الظهيرة» (مزمور٣٧: ٥).

«ليس مكتوم لن يُستعلن ولا خفي لن يُعرف» (لوقا١٢: ٢).

«ركبت أناساً على رؤوسنا. دخلنا في النار والماء ثم أخرجتنا إلى الخصب» (مزمور ١٢:٦٦).

إنّنا مُعرّضون لأن ننتظر العطف والإنهاض من بني جنّسنا بدلاً من انتظار ذلك من يسوع. إنّ الله في رحمته وأمانته كثيراً ما يسمح لمن نضع ثقتنا بهم بأن يخذلونا لكي نتعلّم جهالةَ الاتكال على الإنسان وجعل البشر ذراعَنا. فلنثق بالله ثقةً كاملةً متواضعةً في غير أثرةٍ. إنّه يعرف الأحزانَ التي نحسّ بها في عمق كيانّنا، ولكن لا نستطيع التعبير عنها. فعندما تبدو الأمورُ كلُّها مبهمةً ومعقّدة اذكر ما قاله المسيح: « لَسْتَ تَعْلَمُ أَنْتَ الآنَ مَا أَنَا أَصْنَعُ وَلكِنَّكَ سَتَفْهَمُ فِيمَا بَعْدُ » (يوحنا ١٣: ٦ و٧).

ادرس تاريخُ يوسف ودانيال. إنّ الرب لم يمنع مؤامرات الرجال الذين حاولوا إيقاع الأذى بهما، ولكنّه جعل كلّ هذه المكايد تعمل للخير لعبديه اللذين في غمرة التجارب والمصارعات ظلاّ محتفظين بإيمانهما وولائهما.

طالما نحن في العالم فسنواجه قواتٍ مضادّةً. ستكون هناك إغاظات لاختبار طباعنا، فإذ نواجه هذه كلّها بروحٍ صالحةٍ مستقيمة تنمو فضائلُنا المسيحيّة. فإذا كان المسيح ساكناً فينا فإنّنا سنكون صبورين ومشفقين ومحتملين في وسط المضايقات والإثارات. ويوماً بعد يوم وعاماً بعد عام سنقهر الذات وننمو في البطولة النبيلة. هذا هو العمل المُعيّن لنا، ولكن لا يمكن إتمامُه بدون معونة يسوع، وبدون عزمٍ صادقٍ وتصميمٍ لا يتزعزع وسهرٍ متواصلٍ وصلاةٍ بلا انقطاع. لكلّ واحد معركتُه التي عليه أن يخوضها. فحتى الله نفسه لا يمكنه أن يجعل أخلاقُنا نبيلةً أو حياتَنا نافعةً ما لم نتعاون معه في العمل. والذين يستعفون من خوض الحرب يخسرون قوّةَ النصرةِ وفرحتِها.

ولا حاجة بنا إلى أن نُحصي تجاربَنا وصعوباتِنا وأحزانَنا وأوجاعَنا. فكلّ هذه مكتوبة في الأسفار وستحرصُ السماءُ عليها. فبينما نحن نُحصي الأشياءَ المكدّرة، تخونّنا الذاكرة فننسى كثيراً من الأشياء المُسرّة، كرأفة الله الرحيمة المحيطة بنا في كلّ لحظة والمحبّة التي يندهش لها الملائكة إذ بذل الله ابنه ليموت لأجلنا. فإذا كنتم كخدّام للمسيح تحسّون بأنّ نصيبَكم من الهموم والتجارب أعظم وأوفر مما أصاب غيركم فاذكروا أنّ لكم سلاماً لا يعرفه الذين يلقون عن كواهلهم هذه الأثقال. ففي خدمة المسيح توجد الراحة والفرح. فليرَ العالم أنّ الحياةَ مع المسيح ليست فشلاً.

إذا كنت لا تحسّ بالمرح والسرور فلا تتحدّث عن مشاعرك. ولا تلق ظلاً قاتماً على حياة الآخرين. إنّ الديانةَ الفاترةَ غير المشرقة لا تجتذب النفوسَ إلى المسيح أبداً. بل هي تبعدهم عنه وتلقي بهم إلى الأشراك التي قد نصبها الشيطان للضالين. فبدلاً من التفكير في مفشّلاتك فكّر في القوّة التي يمكنك أن تطالب بها باسم المسيح. لتتمسّك أفكارك بغير المنظور. وليتّجه تفكيرك نحو أدلّة محبّة الله العظيمة لك. الإيمان يستطيع أن يحتمل التجربة ويصمدُ أمام الفشل. إنّ يسوع حيّ ليشفع فيّنا، وكلّ ما تضمنه وساطتُه هو لنا.

ألاّ تعلم أنّ المسيح يقدّر من يعيشون بالتمام لأجله تقديراً عظيماً؟ ألاّ تظنّ أنّه يزور أولئك الذين كيوحنا الحبيب في المنفى هم، لأجل اسمه، في ظروف صعبة وأماكن شاقّة؟ إن الله لم يسمح بأن يُترك أحدُ من خدّامه الأمناء المستقيمي القلوب وحيداً مستوحشاً، ليصارع المعاكساتِ العظيمة وينهزم أمامها. فهو يحفظ، كلؤلؤة غالية الثمن، كلّ من كانت حياتُه مستّترة مع المسيح في الله. وهو يقول عن كلّ واحد من هؤلاء: «.. أجعلك كخاتم لأنّي قد اخترتك» (حجي ٢:٢٣).

تحدّث إذاً عن المواعيد، وتحدّث عن استعداد يسوع لأن يُبارك. إنّه لا يتركنا لحظة واحدة. وعندما نستريح واثقين في محبّته برغم الظروف المعاكسة ونختلي به فإنّ إحساسَنا بحضوره سيُلهمنا بفرح هادىء عميق. لقد قال المسيح عن نفسه: «لَسْتُ أَفْعَلُ

شَيْئًا مِنْ نَفْسِي بَلْ أَتَكَلَّمُ بِهذَا كَمَا عَلَّمَنِي أَبِي. وَالَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ مَعِي وَلَمْ يَتْرُكْنِي الآبُ وَحْدِي لأَنِّي فِي كُلِّ حِينٍ أَفْعَلُ مَا يُرْضِيهِ » (يوحنا ٨: ٢٨ و٢٩).

لقد أحاط الآب المسيحَ بحضوره ولم يُصبْه شيءٌ إلاّ ما سمحت محبّته السرمديّة به لأجل بركة العالم. هنا كان نبع العزاء له وهو عزاءٌ لأجلنا. فالذي هو ممتلىء بروح المسيح يثبت في المسيح. وكلّ ما يأتي عليه يأتيه من المخلّص الذي يحيطه بحضوره. ولا يمكن أن يمسّه شيء إلاّ بسماح من الربّ. فكلّ آلامنا وأوجاعنا، كلّ تجاربنا وضيقاتنا، كلّ أحزاننا وهمومنا، وكلّ اضطهاداتِنا واعوازنا، وبالجملة فكلّ الأشياء تعمل معاً لخيرنا. كلّ الاختبارات والظروف هي خدّام الله التي بواسطتها يأتينا الخير.

إذا كان عندنا إحساس بطول أناة الله علينا فلن ندين الآخرين أو نتّهمهم. عندما كان المسيح عائشاً على الأرض فكم كان يندهش أصدقاؤه لو أنّهم بعدما عرفوه جيّداً سمعوه ينطق بكلمةِ اتهامٍ أو تشنيعٍ أو تبرّم. فلا ننس أبداً أنّ من يحبّونه يجب أن يتمثّلوا به في صفاتِه.

« وَادِّينَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا بِالْمَحَبَّةِ الأَخَوِيَّةِ ، مُقَدِّمِينَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فِي الْكَرَامَةِ » (رومية ١٢: ١٠). « غَيْرَ مُجَازِينَ عَنْ شَرّ بِشَرّ أَوْ عَنْ شَتِيمَةٍ بِشَتِيمَةٍ بَلْ بِالْعَكْسِ مُبَارِكِينَ عَالِمِينَ أَنَّكُمْ لِهَذَا دُعِيْتُمْ لِكَي ترِثُوا بَرَكَةْ» (١ بطرس ٣:٩).

اللطف

إنّ الربّ يسوع يطلب منّا الاعتراف بحقوق كلّ إنسان. فحقوق الناس الاجتماعية وحقوقهم كمسيحيين ينبغي وضعها في موضع الاعتبار. ينبغي معاملة الجميع باللطف والرقّة كأبناء الله وبناته.

إنّ المسيحيّة تجعل من الإنسان سيّداً فاضلاً. لقد كان المسيح لطيفاً حتى مع مُضطهديه، وأتباعه الأمناء يظهرون نفس هذه الروح. انظروا إلى بولس عندما أُوقف أمام الحكّام. إنّ خطابه الذي ألقاه أمام أغريباس هو مثالٌ للرقّة واللطف الحقيقي، كما أنّه

مثالٌ للفصاحة المقنعة. إنّ الإنجيل لا يشجّع على إبداء التهذيب الرسمي الشائع بين الناس في العالم، بل الرقّة واللطف النابعين من حنان القلب الصادق.

إنّ أعظم تهذيب حريص لآداب الحياة الخارجيّة ليس كافياً لطرد كلّ تبرّم وكلّ حكم قاسٍ وكلّ كلام غير لائق. التهذيب الصحيح لن يظهر طالما اعتبرت الذات هي الغرض الأسمى، فينبغي أن تسكن المحبّة في القلب. إنّ المسيحي المُخلِص يستقي بواعثه للعمل من محبّة قلبه العميقة لسيده. ثمّ يجري في كلّ جذور محبّته للمسيح اهتمام بالإخوة في غير أَثرةٍ. إنّ المحبّة تمنح صاحبها نعمةً وأدباً وجمالاً في التصرّف. وهي تشرق بنورها على الوجه، وتجعل الصوتَ هادئاً وتهذّب الشخصيّة كلّها وتسمو بها.

أهمية الأشياء الصغيرة

إنّ الحياة تتكوّن في الغالب لا من التضحيات والأعمال الباهرة العجيبة بل من الأشياء الصغيرة. ففي الغالب يحدث أنّه عن طريق الأشياء الصغيرة التي يبدو أنّها لا تستحقّ انتباهاً، يتغلغل الخير العظيم أو الشرّ العظيم في حياتنا. وبسبب إخفاقنا في احتمال الاختبارات التي تأتينا في الأشياء الصغيرة تتكوّن العادات ويشوّه الخُلُق، وعندما تأتينا تجارب أعظم تجدنا غير مستعدّين. إنّما فقط بواسطة السلوك بموجب المبدأ في تجارب الحياة اليوميّة يمكننا الحصول على القوّة التي تعيننا على الثبات والأمانة في أخطر المواقف وأعسرها.

تدريب النفس

إنّنا لسنا وحدنا أبداً. فسواء اخترنا الربّ أو لم نختره فإنّ معنا رفيقاً. اذكر أنّه أينما تكون ومهما يكن ما تفعله فالله هناك. ولا يُمكن أن يخفى عليه كلمة أو عمل أو فكر يصدر منّا. يوجد شاهد على كلّ كلمة تقولها وكلّ عمل تعمله – وهو الإله القدوس الذي يكره الخطية. فيجب أن تفكّر في هذا دائماً قبلما تنطق بكلمة أو تعمل عملاً. وكمسيحي أنت

فرد في أسرة ملوكيّة، ابن لملك السماء، فلا تنطق بكلمة ولا تعمل عملاً من شأنه أن يجلب العار على «الاسْمِ الْحَسَنِ الَّذِي دُعِيَ بِهِ» عليك (يعقوب ٧:٢).

ادرس، بكلّ اهتمام، الصفات الإلهيّة الإنسانيّة، ثم اسأل نفسك على الدوام هذا السؤال: «ما الذي كان يفعله يسوع لو كان في مكاني؟» ينبغي أن يكون هذا مقياس واجبنا. لا تندمجوا بدون موجب، بين الذين بحيلهم يضعفون عزمكم على عمل الحقّ أو يلطّخون ضمائركم. لا تفعلوا شيئاً بين الغرباء أو في الشارع أو في السيارات العامّة أو في البيت فيه أقلّ مظهرٍ من مظاهرُ شبهِ الشرِّ. وفي كلّ يوم اعملوا عملاً من شأنه أن يُرقي ويجمّل ويشرّف الحياةَ التي قد اشتراها المسيح بدمه.

اعمل دائماً بما يوحيه المبدأ لا النوازع. وأصلح تهوّركَ الطبيعيَّ بالوداعة واللطف. لا تنغمس في ما ينطوي على الخفّة أو التفاهة. ولا تسمح لنكتة سافلة أن تنفلت من بين شفتيك. بل حتى الأفكار ينبغي ألاّ يُسمح لها بأن تهيم أو تعربد، فينبغي ردّعها واستئثارها لطاعة المسيح. ولنجعل تفكيرَنا في الأمور المقدّسة. وحينئذ فبنعمة المسيح ستكون طاهرة وصادقة.

يجب أن نحسّ إحساساً دائماً بالقوّة المشرّفة للأفكار الطاهرة التي تسمو بالنفس. إنّ الضمان الوحيد لأيّ نفس هو التفكير الصالح المستقيم، فالإنسان « كَمَا شَعَرَ فِي نَفْسِهِ هكَذَا هُوَ » (أمثال٢٣ : ٧). إنّ قوّة ردع النفس تتشدد بالمران. فما يبدو صعباً في باديء الأمر يصير سهلاً بالتكرار المستمرّ، حتى يعتاد الإنسان الأفكارَ والأعمالَ الصائبة. فإذا أردنا، يمكننا أن نبتعد عن كلّ رخيص ومنحطّ ثم نرتفع إلى مقياس أسمى، ويمكنّنا أن نظفر باحترام الناس ومحبّة الله.

امتدح وشجّع

اغرس في نفسك عادةَ التحدّث حسناً عن الغير. وتكلّم كثيراً عن الصفات الحسنة في من تعاشرهم، وانظر أقلَّ القليل من أخطائهم وفشلهم. وعندما تجرّب لأن تشكو مما قد قاله أو

فعله بعضُهم امتدح شيئاً في حياة ذلك الشخص أو خلقه. اغرس فضيلة الشكر. اشكر الله لأجل محبّته العجيبة في بذل المسيح ليموت لأجلنا. لا جدوى من التفكير في المظالم التي حاقت بنا. فالله يدعونا لكي نفكّر في رحمته ومحبّته التي لا مثيل لها، حتى نلهم بالشكر.

إنّ الخدّام الغيورين لا وقت لديهم للتأمّل في أخطاء الآخرين أو التعليق عليها. نحن لا يمكنّنا أن نقتات بخرنوب أخطاء الآخرين أو فشلهم. كلامُ السوء لعنة مزدوجة تستقرّ على المتكلّم بثقل أعظم مما على السامع. فالذي يبذر بذارَ الشقاق والخصومة يحصد في حضنِه ونفسِه الثمارَ المميتة. إنّ نفس التطّلع للبحث عن شرّ في حياة الغير يولّد الشرّ في قلوب من يبحثون عنه. إنّنا إذ نفكّر في أخطاء الآخرين نتغيّر بحيث نصير على شاكلتهم تماماً. ولكن إذ ننظر إلى يسوع ونتحدّث عن محبّته وكمالِ صفاتِه فإنّنا نتغيّر فنصير على صورته. وإذ نتأمّل في النموذج السامي الذي وضعه أمامنا فنحن نرتفع إلى جوّ نقيّ مقدّس، حتى إلى محضر الله. فإذ نسكن هنا ينبعث منّا نور يشعّ على كلّ من يتّصلون بنّا.

وبدلاً من انتقاد الآخرين وإدانتهم قل لنفسك: «ينبغي أن أُتمم خلاصي. فإذا تعاونت مع ذاك الذي يريد أن يخلّص نفسي فيجب عليَّ أن أسهرَ على نفسي وأراقبها بكلّ اجتهاد. ويجب عليَّ أن أبعد كلَّ شرٍّ عن حياتي. وعليَّ أن أنتصرَ على كلّ خطأ. ويجب أن أكونَ خليقة جديدة. وحينئذ، فبدلاً من إضعاف من يجاهدون ضدّ الشرّ، يمكنني أن أشددهم بكلام التشجيع». إنّنا مُغرقون جدّاً في عدم مبالاتنا بالنسبة إلى بعضنا البعض. وفي أغلب الأحيان ننسى أنّ زملاءَنا هم بحاجة إلى القوّة والتشجيع لرفع روحهم المعنويّة. احرص على أن تؤكّد لهم اهتمامَك وعطفَك. ساعدهم بصلواتك وأخبرهم بأنّك تفعل ذلك.

الصبر على المخطئين

ليس كلّ من يعترفون بأنّهم خدّام المسيح هم تلاميذ أمناء. فبين من يحملون اسمه، وحتى بين من يُحصون ضمن خدّامه، يوجد بعض من لا يمثّلونه في الصفات. فهم لا

يدينون بمبادئه. وكثيراً ما يكون هؤلاء الناس مصدرَ الارتباك والفشل لزملائهم الذين هم حديثو العهد بالاختبار المسيحي. ولكن لا حاجةَ لأحدٍ أن يُضلّ أو يغرر به. فلقد قدّم لنا المسيحُ مثالاً كاملاً. وهو يأمرنا أن نتبعه.

وإلى انقضاء الدهر سيكون زوان في وسط الحنطة. إنّ عبيد ربّ البيت عندما طلبوا منه أن يأذن لهم في اقتلاع الزوان، إذ كانوا يغارون على كرامته أجابهم بقوله: «لا. لئلا تقلعوا الحنطة مع الزوان وأنتم تجمعونه. دعوهما ينميان كلاهما معا إلى الحصاد» (متى ١٣:٢٩و٣٠).

إنّ اللهَ في رحمته وطول أناته يحتمل المتمرّدين الفاسدين بكلّ صبر، بل حتى الخائفين الكاذبي القلوب. لقد كان بين تلاميذ المسيح المختارين يهوذا الخائن. فهل مما يوجد الدهشة أو يدعو إلى الفشل أن يوجد بعضُ الكذبةِ بين خدّامه اليوم؟ فإذا كان ذاك الذي هو مطّلع على خفايا القلوب أمكنه أن يحتمل من كان يعلم أنّه سيسلّمه، فبأيّ صبرٍ يجب علينا أن نحتمل المخطئين؟!

ليس الجميع، حتى بين من هم أكثر الناس خطأً، يشبهون يهوذا. إنّ بطرسَ المتهوّرَ المتسرّعَ الواثقَ بنفسه، كثيراً ما كان يبدو أنّه أكثر ضرراً من يهوذا. وكثيراً ما وبّخه المخلّص. ولكن كم كانت حياته تتصف بالخدمة والتضحية! وما أعظم الشهادة التي تقدّمها حياته لقوّة نعمة الله! فعلى قدر استطاعتنا علينا أن نكون بالنسبة إلى الآخرين كما كان يسوع بالنسبة إلى تلاميذه عندما كان يسير ويتحدّث معهم على الأرض.

اعتبروا أنفسكم مُرسلين بين زملائكم الخدّام أوّلاً. إنّ الأمر في الغالب يتطلّب شطراً كبيراً من الوقت والتعب لربح نفس للمسيح. وعندما ترجع نفسٌ عن الخطيّة إلى البرّ يحدث فرحٌ أمام الملائكة. أتظنّون أنّ الأرواح الخادمة الذين يحرسون هذه النفوس يسرّون عندما يرون مقدار عدم الاكتراث الذي به يعامل بعضُ من يُدْعون مسيحيين هذه

النفوس؟ فلو أنّ يسوع يعاملنا كما نعامل نحن بعضنا بعضاً في أغلب الأحيان فمن منّا كان يستطيع أن يخلص؟

ثمّ اذكروا أنّكم لا تعرفون ما في قلوب الناس. ولا تعرفون الدوافع التي ساقت الناس إلى أن يعملوا الأعمال التي ترونها خاطئة. يوجد كثيرون ممن لم ينالوا تهذيباً صحيحاً، وأخلاقُهم معوجّة وهم متصلّبون ملتوون، ويبدو أنّهم معوجّون في كلّ شيء. ولكنّ نعمة المسيح تستطيع أن تغيّرهم. فلاّ تُلقِ بهم جانباً، ولا تسُقهم إلى الفشل أو اليأس قائلا لهم: «لقد خيّبت نظرتي فيك ولهذا فلن أحاول مساعدتك». إنّ قليلاً من الكلام الذي ننطق به في تسرّع تحت تأثير الاهتياج – نفس الكلام الذي نظنّ أنّهم يستحقونه – قد يفصم ربط التأثير الذي كان يمكن أن يربط بين قلوبهم وقلوبنا.

إنّ الحياة الثابتة والاحتمال الصبور والروح التي لا تفشل أمام الإغاظات هي دائماً أعظم الحجج الحاسمة المقنعة وأقدس إلتِماس. فإذا كانت لديك فرص وامتيازات لم يكن للآخرين نصيب فيها فتأمّل في هذا وكن أبداً معلّماً حكيماً وحريصاً ولطيفاً.

إذا أردت أن تجعل الشمع يتخّذ انطباعاً قويّاً إذ يطبع بالختم فأنت لا تضرب بالختم عليه بطريقة متسرّعة عنيفة، ولكنّك بكلّ حرص تضع الختم على الشمع اللين. وبكلّ هدوء وثبات تضغطه حتى يتصلّب في القالب. فعليك أن تتعامل مع نفوس الناس بمثل هذه الكيفيّة. إنّ دوام التأثير المسيحي هو سّر قوّته، وهذا يتوقّف على ثباتك في إظهار صفات المسيح. فعليك بمساعدة من قد أخطأوا بكونك تسرد عليهم اختباراتِك. أخبرهم كيف أنّك عندما ارتكبت أخطاء شنيعة فإنّ صبر زملائك ورفقَهم ومساعدتَهم قد منحتك الشجاعةَ والرجاء.

ولن تعرف تأثيرَ تصرّفك المشفق المنصف حيال غير الثابتين وغير المعقولين وغير المستحقين حتى إلى يوم الدين. فعندما نواجه الجحود وخيانةَ الودائع المقدّسة، نتحفّز لإبداء احتقارنا أو غضبنا. وهذا ما يتوقّعه المذنبون، وهم متأهّبون له. ولكنّ الاحتمال

والإشفاق يباغتهم، وفي الغالب ما يوقظ أفضل عواطفهم ونوازعهم ويثير في نفوسهم شوقاً إلى حياة أعظم نبلاً.

«أَيُّهَا الإِخْوَةُ ان انسبق إنسان فأخذ في زلة ما فَأَصْلِحُوا أَنْتُمُ الرُّوحَانِيِّينَ مِثْلَ هذَا بِرُوحِ الْوَدَاعَةِ نَاظِرًا إِلَى نَفْسِكَ لِئَلاَّ تُجَرَّبَ أَنْتَ أَيْضًا. احملوا بعضكم أثقال بعض وهكذا تمّموا ناموس المسيح» (غلاطية ٦:١و٢).

يجب على كلّ من يعترفون بأنّهم أولاد الله أن يذكروا دائماً أنّهم في عملهم كمبشّرين لابدّ لهم أن يحتكّوا بالعقول من كلّ الطبقات. فهناك المهذّبون والأجلاف، الوضعاء والمتكبّرون، المتديّنون والملحدون، المتعلّمون والجهلاء الأمّيون، الأغنياء والفقراء. فهذه العقول المتباينة لا يمكن معاملتها بطريقة واحدة، ومع ذلك فالجميع بحاجة إلى الرفق والعطف، فيجب أن تُصقل عقولنا وتتهذّب عن طريق الاحتكاك بالآخرين. كلّ منّا يعتمد على غيره، وجميعنا مرتبطون معاً بربط الأخوّة البشريّة.

«إذ رتّبت السماء أن يعتمد أحدنا على الآخر سواء أكان سيّداً أو عبداً أو صديقاً، فهي تأمر كلاً منّا أن يلتمس معونة الآخر بحيث أنّ ضعف إنسان يزيد من قوّة الجميع».

إنّ المسيحية تحتكّ بالعالم عن طريق العلاقات الاجتماعية. فكلّ رجل أو امرأة حصل على الاستنارة الإلهيّة عليه أن يشرق بنوره على الطريق المظلم الذي يسلك فيه من لم يعرفوا الطريق الأفضل. فالقوّة الاجتماعيّة التي قدّسها روح المسيح ينبغي الاستفادة منها في الإتيان بالنفوس إلى المخلّص. ينبغي عدم إخفاء المسيح بعيداً في القلب ككنز ثمين مشتهى مقدّس وجميل يتمتّع به من يملكه وحده. يجب أن يكون المسيح فينا ينبوع ماءٍ ينبع إلى حياةٍ أبديةٍ محيّيا كلّ من يتّصلون بنا.

٣ النمو والخدمة

إنّ الحياة المسيحيّة هي أكثر مما يعتبرها كثيرون. فهي لا تتكوّن في جملتها من اللطف والصبر والوداعة والرفق. نعم إنّ هذه الفضائل جوهريّة، ولكن توجد حاجة أيضاً إلى الشجاعة والقوّة والنشاط والمثابرة. والطريق الذي يختطّه المسيح هو طريقٌ ضيقٌ وينطوي على إنكار الذات. فالدخول في ذلك الطريق والسير فيه في وسط الصعوبات والمفشّلات يتطلّب رجالاً غير مستضعفين.

قوّة الخُلُق

هنالك حاجة إلى رجال أقوياء، رجال لا ينتظرون حتى تُمهّد طريقهم وتُرفع من أمامهم كلّ العقبات، رجال يلهمون الخدّام الواهنين المغمومين بغيرة جديدة، رجال ألهبت المحبّة المسيحيّة قلوبهم، وأيديهم قوّية لإتمام عمل سيّدهم.

إنّ بعض من يقومون بخدمة كرازية هم قوم واهنون وضعفاء وبلداء، ومن السهل تثبيط عزائمهم. إنّهم بحاجة إلى قوّة دافعة. وتعوزهم تلك السجايا الإيجابيّة التي تمنح القوّة على عمل شيءً ما، كالروح والنشاط اللذين يضرمان الحماسة. فالذين يريدون أن يحرزوا النصرةَ ينبغي أن تمتليءَ قلوبُهم شجاعة ورجاء. وعليهم لا أن يغرسوا في أنفسهم فضائل التصبّر والاحتمال فقط، بل أيضاً الفضائلَ العاملةَ الناشطة. ففي حين يلزمهم أن يجاوبوا الجواب اللين الذي يصرف الغضب يجب أن تكون عندهم شجاعةُ الأبطال لمقاومة الشرّ. ومع المحبّة التي تحتمل كلّ شيء هم بحاجة إلى قوّة الخُلُق التي تجعل تأثيرهم قوّةً إيجابيةّ.

بعض الناس لا ثبات عندهم في أخلاقهم. وخططهم وأغراضهم ليس لها شكلٌ محدّد ولا ثبات. إنّهم قليلو النفعِ العملي في العالم. فالضعفُ والترددُ وعدمُ الكفاءة – هذه كلّها ينبغي التغلّب عليها. يوجد في الخُلُق المسيحي الحقيقي قوّة لا يمكن للظروف المعاكسة أن تُخضعها أو تقهرَها. ينبغي أن يكون لنا قوّة أخلاقيّة مسندة ومعضّدة، واستقامة لا يمكن استمالتها أو تملّقها أو إرهابها.

الثقافة العقليــة

إنّ الله يريدنا أن نستخدمَ كلَّ فرصةٍ لأجل الاستعداد لعمله. فهو يريدنا وينتظر منّا أن نضع كلّ قوى نشاطنا في إتمام العمل، وأن نحتفظ بقلوبنا حيّة نشيطة ومدركة لقدسيته ومسؤولياته الهائلة.

إنّ كثيرين ممّن هم مؤهّلون للقيام بعمل عظيم يعملون القليل لأنّهم يحاولون عمل القليل. وآلاف من الناس يسيرون في الحياة وكأنّه لا يوجد هدف عظيم يعيشون لأجله ولا يوجد مقياسٌ عالٍ يجب أن يبلغوه. ومن أسباب هذا، التقدير المنخفض الذي به يقدّرون نفوسَهم. لقد دفع المسيح ثمناً هائلاً لفدائنا وبنسبة هذا الثمن الذي دُفع هو يريدنا أن نقدّر أنفسنا.

أحذر من أن تقنعَ بمستوى منخفض. إنّنا لسنا كما يجب أن نكون ولا ما يريدنا الله أن نكون. لقد وهبنا الله قوى التفكير لا لتظلّ معطّلةً، ولا لتنحرف إلى الأعمال والممارسات الأرضيّة الحقيرة، بل لتنمو إلى أقصى حدّ، وتتهذّب وتتقدّس ويرتفع شأنُها وتُستخدم في إنجاح مصالح ملكوته.

ينبغي ألاّ يرضى أحد بأن يكون مجرّد آلة تدور بوحي عقلِ إنسانٍ آخر. فقد منحنا الله القدرة على أن نفكّر ونعمل. فبواسطة العمل بحرص وحذر، وأنت ناظر إليه تعالى، في طلب الحكمة، يمكنك أن تصير قادراً على حمل الأثقال. فاثبت في شخصيتك

الموهوبة لك من الله. ولا تكن ظلاً لإنسان آخر. وتوقّع أن يعمل الربّ فيك وبك وعن طريقك.

ولا تظنّن أبداً أنّك قد حصلت على المعرفة الكافية وأنّه يمكنك الآن أن تتراخى عن بذل جهدك. إنّ العقل المثقّف هو مقياس الإنسان. وينبغي أن تداوم على تلقّي التهذيب مدى حياتك، ويمكنك أن تتعلّم كلّ يوم وأن تستخدم عملك استخداماً عمليّاً.

ثمّ اذكر أنّه مهما يكن المركز الذي تخدم فيه فأنت تكشف عن الباعث وتُنمّي الخُلُق. ومهما يكن عملك فاعمله بكلّ دقة واجتهاد، وانتصر على ميلك إلى مزاولة عمل سهل.

إنّ نفسَ الروحِ والمباديء التي يُدخلها الإنسان في عمله اليومي ستّتغلغل في الحياة بجملتها. والذين يرغبون في أن يقوموا بقدر محدد من العمل ليتقاضوا راتباً محدداً، والذين يرغبون في أن يبرهنوا على إعداد مضبوط بدون أن يهتمّوا بالتطبيق أو التدريب، ليسوا هم الناس الذين يدعوهم الله للخدمة في ملكوته. والذين يحاولون أن يبذلوا أقلّ القليل من قواهم البدنيّة والعقليّة والأدبيّة ليسوا هم الخدّام الذين يمكنه أن يُسكب عليهم فيضاً من بركاتِه. وإنّ قدوتَهم معدية. إنّ طلب ما للذات والمصلحة الذاتيّة هو الباعث السائد على الكثيرين. فأولئك الذين يحتاجون إلى رقابة والذين يعملون فقط العمل المحدد لهم والواجب المقرّر عليهم ليسوا هم الذين سيقول الربّ عنهم إنّهم عبيد صالحون وأمناء. إنّ الحاجة هي إلى خدّام يُظهرون النشاطَ والاستقامةَ والاجتهاد، والذين هم على استعداد لعمل أيّ شيء يلزم عمله.

وما أكثر الذين يُمسون عاجزين بسبب التملّص من المسؤوليّات خيفة الفشل. وهكذا يخفقون في اكتساب التهذيب الذي يأتي نتيجة الاختبار، والذي لا يمكن للدرس والقراءة وكلّ الميزات التي يحصلون عليها من طريق آخر أن تمنحهم إيّاه.

يستطيع الإنسان أن يُكيّف الظروف، ولكن ينبغي ألاّ يسمح للظروف بأن تكيّف الإنسان. ويجب علينا أن ننتهز الفرص كوسائل نعمل بها. وعلينا أن نتحكّم فيها، ولكن ينبغي ألاّ نسمح لها بأن تتحكّم فينا.

إنّ الناس ذوي القدرة هم الذين اختبروا المقاومة والخيبة والتعطيل. فإذ يعبئّون قوى نشاطهم للعمل فالعقبات التي تعترضهم تصير بركاتٍ إيجابيةً لهم. فهم يكتسبون فضيلةَ الاعتماد على النفس. والنضالُ والارتباكُ يستدعيان وضع الثقة في الله، ويتطلّبان الثبات الذي يولّد القوّة.

الباعث في الخدمة

إنّ المسيح لم يقدّم خدمة محصورةً أو محدودة. لم يُقِسّ عملَه بالساعات. فوقتُه وقلبُه ونفسُه وقوّتُه كُرّست كلّها للعمل لأجلِ خيرِ الإنسانيّة. لقد ظلّ يتعب ويخدم مدى الأيّام المنهكة، ومدى الليالي الطويلة كان ينكبّ على الصلاة في طلب النعمة والصبر والاحتمال حتى يقوم بعمل أوسع نطاقاً. فبصراخ شديد ودموع قدّم صلواتِه إلى السماء لكي تتقوّى طبيعتُه البشريّة فيتشدّد لمواجهة العدوّ الماكر في كلّ مكايده الخادعة، ولكي يتحصّن لإتمام رسالته في تخليص البشريّة ورفع شأنها. وهو يقول لخدامه: «لأَنِّي أَعْطَيْتُكُمْ مِثَالاً حَتَّى كَمَا صَنَعْتُ أَنَا بِكُمْ تَصْنَعُونَ أَنْتُمْ أَيْضًا» (يوحنا ١٣: ١٥)

قال بولس: «محبة المسيح تحصرنا» (٢ كورنثوس٥: ١٤). كان هذا هو المبدأ المحرّك له في تصرّفاته، كما كان هو القوّة الكامنة خلف دوافعه. فلو ضعفت حماسته مرّة في طريق الواجب لمدى برهة، فإنّ نظرةً يلقيها على الصليب كانت كفيلة بأن تمنطق أحقاء ذهنه وتدفع به إلى الأمام في طريق إنكار الذات. وفي خدماته لأجل اخوته اعتمد كثيراً على تجلّي المحبّة غير المحدودة في ذبيحة المسيح بقوّتها القاهرة الدافعة.

وكم كانت دعوتُه حارّة ومؤثّرة حين قال: «فَإِنَّكُمْ تَعْرِفُونَ نِعْمَةَ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، أَنَّهُ مِنْ أَجْلِكُمُ افْتَقَرَ وَهُوَ غَنِيٌّ، لِكَيْ تَسْتَغْنُوا أَنْتُمْ بِفَقْرِهِ» (٢كورنثوس ٨: ٩). أنتم تعرفون

السموّ الذي تنازل منه وعمق الاتضاع الذي نزل إليه. لقد سارت رجلاه في طريق التضحية ولم يمِلْ عنه حتى بذل حياتَه. ولم تكن له راحة فيما بين عرش السماء والصليب. وقد دفعته محبّته للإنسان لأن يرحّب بكلّ إهانة ويتحمّل كلّ إساءة.

وبولس يحذرنا قائلا: «لاَ تَنْظُرُوا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى مَا هُوَ لِنَفْسِهِ بَلْ كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى مَا هُوَ لآخَرِينَ أَيْضًا» (فيلبي ٢:٤). وهو يوصينا أن يكون فينا الفكر «الذي في المسيح يسوع أيضاً الَّذِي إِذْ كَانَ فِي صُورَةِ اللهِ لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلاً ِللهِ. لكِنَّهُ أَخْلَى نَفْسَهُ آخِذًا صُورَةَ عَبْدٍ صَائِرًا فِي شِبْهِ النَّاسِ. وَإِذْ وُجِدَ فِي الْهَيْئَةِ كَإِنْسَانٍ وَضَعَ نَفْسَهُ وَأَطَاعَ حَتَّى الْمَوْتَ مَوْتَ الصَّلِيبِ» (فيلبي ٢:٥-٨).

لقد كان بولس يشتاق شوقاً عميقاً أن يرى الناسُ اتضاعَ المسيح ويتحقّقوا منه. كان مقتنعاً بأنّه لو أمكن قيادةُ الناس إلى التأمّل في التضحية المذهلة التي أقدم عليها جلال السماء فإنّ الأنانيّة كانت تُنفى بعيداً عن قلوبهم. والرسول يتريّث وهو يتكلّم عن فكرة بعد فكرة حتى يمكنّنا أن ندرك، إلى حدّ ما، اتضاع المُخلّص العجيب لأجل الخطاة. إنّه يوجه العقل أولاً إلى المركز الذي كان المسيح يشغله في السماء في حضن أبيه، ثم يعلنه بعد ذلك وهو يُلقي مجدَه جانباً ويتطوّع ليُخضعَ نفسَه لحالات وظروف حياة الإنسان المذلّة، آخذاً على نفسه تبعاتِ العبد، ومطيعاً حتى الموت، ذلك الموت المشين والمرعب والمؤلم إلى أقصى حدّ – موت الصليب. فهل نتأمّل في هذا الإعلان العجيب لمحبّة الله دون أن نشكره ونحبّه، ودون أن نحسّ إحساساً عميقاً بأنّنا لسنا لأنفسنا؟ ينبغي لنا ألاّ نخدم مثل هذا السيّد مدفوعين بدافع الحقد أو الحسد أو الأنانيّة.

وها هو بطرس يقول: «عَالِمِينَ أَنَّكُمُ افْتُدِيتُمْ لاَ بِأَشْيَاءَ تَفْنَى بِفِضَّةٍ أَوْ ذَهَبٍ» (١ بطرس١: ١٨). لو كانت هذه كافيةً لشراء خلاص الإنسان فكم كان يغدو من السهل إتمامه بقوّة ذاك الذي يقول: «لِي الْفِضَّةُ وَلِي الذَّهَبُ» (حجي ٢: ٨). ولكنّ الخاطيء

لم يمكن فداؤه بغيرِ دمِ ابن الله الثمين. فالذين إذ يخفقون في تقدير قيمة هذه الذبيحة العجيبة، يمتنعون عن خدمةِ المسيح، فسيهلكون في أنانيتهم.

وحدة القصد

في حياة المسيح أخضع كلّ شيء وجعله ثانوياً بالنسبة لعمله، أيّ عمل الفداء العظيم الذي قد أتى لإتمامه. وينبغي أنّ نفسَ التكريسِ ونفسَ إنكار الذات والتضحية ونفسَ الخضوع لمطالب كلمة الله تظهر في حياة تلاميذه.

إنّ كلّ من يقبل المسيح كمخلّصه الشخصي لابدّ أن يتوق للحصول على امتياز خدمة الله. فإذ يتأمّل فيما قد صنعته السماء لأجله يتحرّك قلبه بمحبّة غامرة وشكر خاشع. وهو يتوق للتعبير عن شكره بتكريس قواه ومواهبه لخدمة الله. ويشتاق لأن يظهر محبّته للمسيح ولمقتناه. ويشتهي تحمّل التعب والمشقة والتضحية.

إنّ خادم الله الأمين يبذل قصاراه لأنّه إذ يفعل ذلك يمكنه أن يُمجّد سيّده. وهو يفعل الحقّ لكي يحترم مطالب الله. ويجتهد في إصلاح كلّ مواهبه وتحسينها. ويقوم بكلّ واجب كما لله. ومطلبه الأسمى هو أن ينال المسيح الثناء والتكريم والخدمة الكاملة.

توجد صورة تمثل ثوراً واقفاً بين محراث ومذبح مكتوباً عليها هذه العبارة: «مستعد لأيهما» أيّ مستعد للتعب في حرث أتلام الحقل، أو لأن يُقدّم ذبيحة على المذبح. هذا هو موقف ابن الله الأمين – أن يكون مستعداً للذهاب إلى حيث يتطلّب الواجب، لإنكار الذات والتضحية لأجل ملكوت الفادي.

٤ اختبار أسمى

إنّنا في حاجة دائمة إلى إعلان جديد للمسيح، إلى اختبار يومي يتّفق مع تعاليمه. توجد معلوماتٌ سامية ومقدّسة في متناول أيدينا. إنّ قصد الله لأجلنا هو التقدّم الدائم في المعرفة والفضيلة. وشريعته هي صدى صوته إذ يقدّم لكلِّ واحدٍ الدعوةَ القائلة: «ارتفع إلى فوق كن قدّيساً وأكثر قداسة». ويمكنّنا أن نتقدّم في كمال الخلُق المسيحي كلّ يوم.

إنّ من يعملون في خدمة السيّد هم بحاجة إلى اختبار أسمى وأعمق وأرحب ممّا فكّر كثيرون في الحصول عليه. إنّ كثيرين ممن قد صاروا أعضاءَ في أسرة الله العظيمة لا يعرفون إلاّ القليل عن معنى مشاهدة مجدِه والتغيير من مجدٍ إلى مجد. إنّ كثيرين ليس عندهم إلاّ القليل من الإدراك عن سمو المسيح، وقلوبهم ومشاعرهم تهتزّ فرحاً. وهم يتوقون إلى إحساس أكمل وأعمق بمحبّة المخلّص. ليحتفظ هؤلاء بكلّ رغبة وشوق نفوسهم إلى الله. إنّ الروحَ القدسَ يعمل في من يريدون أن يتأثّروا، ويصوغ من يريدون أن يُصاغوا، ويشكّل من يرغبون أن يتشكّلوا. قدّموا لنفوسكم ثقافةَ الأفكار الروحيّة والمحادثات المقدّسة. إنّكم لم تروا إلاّ أوّل أشعة فجر مجده الباكر. فإذ تداومون في السعي لمعرفة الله ستعرفون أنّ: «سَبِيلُ الصِّدِّيقِينَ .. كَنُورٍ مُشْرِقٍ يَتَزَايَدُ وَيُنِيرُ إِلَى النَّهَارِ الْكَامِلِ» (أمثال ٤:١٨).

فرحون بالرب

قال المسيح: «كَلَّمْتُكُمْ بِهذَا لكي يثبت فرحي فيكم ويكمل فرحكم» (يوحنا ١٥:١١). كان المسيح يرى أمامه دائماً نتيجةَ خدمتهِ ورسالته. فحياتُه الأرضيّة التي كانت مشحونةً

بالتعب وإنكار الذات أبهجها الفكرُ بأنّه لن يحتمل كلَّ هذا العناء بلا جدوى. فإذ بذل نفسه لأجل نفوسِ الناس أراد أن يعيدَ إلى الإنسانيّة صورةَ الله. أراد أن يقيمَنا من التراب ويشكّل أخلاقَنا من جديد لتكون على صورة أخلاقِه وليُجمّلها بمجده.

لقد رأى المسيحُ من تعب نفسه وشبع. رأى امتدادَ الأبديّةِ ورأى سعادة من سيحصلون على الغفران والحياةَ الأبديّة بواسطة اتّضاعه. لقد جُرح لأجل معاصيهم وسُحق لأجل آثامهم. تأديبُ سلامِهم عليه وبحبره شفوا. وسمع هو هتافَ المفديين. سمع المفديين يرنّمون ترنيمةَ موسى والخروف. ومع أنّه كان لابدّ له من أن يصطبغَ بصبغةِ الدمِ أولاً، ومع أنّ خطايا العالم بثقلها الهائل كانت ستضغطُ نفسَه البريئة، ومع أنّ ظلامَ حزن وألمٍ لا يُعبّر عنه قد اكتنفه، فإنّه من أجل السرور الموضوع أمامَه اختار أن يحتملَ الصليب مستهيناً بالخزي.

هذا الفرح سيشاركه فيه كلّ تابعيه. ومهما تكن أبديّتنا سعيدة وعظيمة ومجيدة فإنّ مكافأتَنا لن تبقى كلّها محفوظة إلى وقت النجاة الأخيرة. فحتى ونحن في هذا العالم لنا أن نتمتّع بالإيمان بفرح المخلّص. وكموسى علينا أن نتشدد كأنّنا نرى من لا يُرى.

إنّ الكنيسةَ اليوم هي الكنيسة المجاهدة. ونحن الآن ننازلُ عالماً يعيش في الظلمة ويكاد يكون مسلّماً لعبادة الأوثان. ولكن سيأتي اليوم الذي فيه ستنتهي الحرب وننال النصرة. وستكون مشيئة الله على الأرض كما هي في السماء. ولن يعرف شعوب المخلّصين شريعة أخرى غير شريعة السماء. وسيكون الجميع أسرة سعيدة متّحدة متسربلين بثياب الحمد والتسبيح – رداء برّ المسيح. وكلّ الطبيعة في جمالها المدهش ستقدّم لله فروضَ الحمدِ والتمجيد. وسيغمر العالم نورُ السماء. ونورُ القمر سيكون كنور الشمس ونورُ الشمس سيكون أعظم سبعةَ أضعافٍ مما هو الآن. والسنون ستمرّ في فرح. وفوقَ المشهدِ ستّترنم كواكبُ الصبح معاً ويهتف جميع بني الله، في حين يعلن الله والمسيح معاً قائلين: «لا تكون خطية في ما بعد والموت لا يكون في ما بعد».

هذه الرؤى عن المجد العتيد والمشاهد التي صوّرتها يدُ الله يجب أن تكون محبّبة إلى قلوب أولاده.

قفوا على عتبة الأبديّة واسمعوا الترحيبَ الكريمَ بالذين وهم في هذه الحياة قد تعاونوا مع المسيح معتبرين التألّم لأجله امتيازاً وكرامةً. وهم يشتركون مع الملائكة في طرح أكاليلهم عند قدمي الفادي هاتفين وقائلين: «مُسْتَحِقٌّ هُوَ الْخَرُوفُ الْمَذْبُوحُ أَنْ يَأْخُذَ الْقُدْرَةَ وَالْغِنَى وَالْحِكْمَةَ وَالْقُوَّةَ وَالْكَرَامَةَ وَالْمَجْدَ وَالْبَرَكَةَ .. لِلْجَالِسِ عَلَى الْعَرْشِ وَلِلْخَرُوفِ الْبَرَكَةُ وَالْكَرَامَةُ وَالْمَجْدُ وَالسُّلْطَانُ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ» (رؤيا ٥: ١٢،١٣).

هناك يحيّي المفديون من قد وجهوهم إلى المخلّص المرفوع. وهم يشتركون معاً في تسبيح ذاك الذي مات حتى يحصل الناسُ على الحياة التي تُقاس بحياة الله. لقد انتهت الحرب. وكلّ ضيق وصراع قد انقضى. وأناشيد الانتصار تملأ أرجاء السماء إذ يقف المفديون حول عرش الله. والجميع يشتركون في التسبيحة المفرحة قائلين: «مُسْتَحِقٌّ هُوَ الْخَرُوفُ الْمَذْبُوحُ» لقد افتدانا لله.

«بَعْدَ هذَا نَظَرْتُ وَإِذَا جَمْعٌ كَثِيرٌ لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَعُدَّهُ مِنْ كُلِّ الأُمَمِ وَالْقَبَائِلِ وَالشُّعُوبِ وَالأَلْسِنَةِ وَاقِفُونَ أَمَامَ الْعَرْشِ وَأَمَامَ الْخَرُوفِ مُتَسَرْبِلِينَ بِثِيَابٍ بِيضٍ وَفِي أَيْدِيهِمْ سَعَفُ النَّخْلِ. وَهُمْ يَصْرُخُونَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ قَائِلِينَ الْخَلاَصُ لإِلهِنَا الْجَالِسِ عَلَى الْعَرْشِ وَلِلْخَرُوفِ» (رؤيا ٧: ٩،١٠).

«هؤُلاَءِ هُمُ الَّذِينَ أَتَوْا مِنَ الضِّيقَةِ الْعَظِيمَةِ وَقَدْ غَسَّلُوا ثِيَابَهُمْ وَبَيَّضُوا ثِيَابَهُمْ فِي دَمِ الْخَرُوفِ. مِنْ أَجْلِ ذلِكَ هُمْ أَمَامَ عَرْشِ اللهِ وَيَخْدِمُونَهُ نَهَارًا وَلَيْلاً فِي هَيْكَلِهِ وَالْجَالِسُ عَلَى الْعَرْشِ يَحِلُّ فَوْقَهُمْ. لَنْ يَجُوعُوا بَعْدُ وَلَنْ يَعْطَشُوا بَعْدُ وَلاَ تَقَعُ عَلَيْهِمِ الشَّمْسُ وَلاَ شَيْءٌ مِنَ الْحَرِّ لأَنَّ الْخَرُوفَ الَّذِي فِي وَسَطِ الْعَرْشِ يَرْعَاهُمْ وَيَقْتَادُهُمْ إِلَى يَنَابِيعِ مَاءٍ حَيَّةٍ وَيَمْسَحُ اللهُ كُلَّ دَمْعَةٍ مِنْ عُيُونِهِمْ» (رؤيا ٧: ١٤ - ١٧). «وَالْمَوْتُ لاَ يَكُونُ فِي مَا بَعْدُ وَلاَ يَكُونُ حُزْنٌ وَلاَ صُرَاخٌ وَلاَ وَجَعٌ فِي مَا بَعْدُ لأَنَّ الأُمُورَ الأُولَى قَدْ مَضَتْ» (رؤيا ٢١: ٤).

إنّنا بحاجة إلى أن نجعل أمامَ أنظارنا دائماً هذه الرؤيا للأشياء غير المنظورة. فبذلك سنكون قادرين على أن نجعل للأمور الأبديّة والأمور الحاضرة قيمتَها الحقيقيّة. فهذا هو الذي يعطينا القوّة على التأثير في الآخرين ليحيوا حياة أسمى.

في الجبل مع الله

أنّ الله يأمر كلاً منا قائلا: «أصعد إليَّ إلى الجبل». كان على موسى، قبلما يكون واسطة في يد الله لإنقاذ العبرانيين، أن يقضي أربعين سنة في شركة معه في قفار الجبال. فقبلما حمل رسالة الله إلى فرعون تحدث مع الملاك في العليقة المشتعلة. وقبلما تلقى شريعة الله كممثل لشعبه دُعيّ للصعود إلى الجبل فرأى مجده. وقبلما نفّذ العدل في عابدي العجل، أخفي في شق الصخرة، وقال له الرب: «أنادي باسم الرب قدامك» (خروج٣٣: ١٩). «رَحِيمٌ وَرَؤُوفٌ ، بَطِيءُ الْغَضَبِ وَكَثِيرُ الإِحْسَانِ وَالْوَفَاءِ .. لكِنَّهُ لَنْ يُبْرِئَ إِبْرَاءً» (خروج ٣٤ : ٦و٧). وقبلما رقد وانتهت حياته (الأرضية) بأعبائها وأوزارها لأجل إسرائيل، دعاه الله إلى رأس الفسجة وبسط أمامه مجدَ أرض الموعد.

وقبلما خرج التلاميذ للقيام بمأموريتهم في الكرازة دُعوا للصعود مع يسوع فوق الجبل. وقبل قوّة ومجد يوم الخمسين كانت ليلة الشركة مع المخلّص، والاجتماع على الجبل في الجليل، ومشهد توديع المسيح على جبل الزيتون مع وعد الملاكين، وأيام الصلاة والشركة في العلّية.

إنّ يسوع عندما كان يتأهّب لمواجهة أيّة تجربة عظيمة أو للقيام بأيّ عمل هام كان يعتكف منفرداً في الجبل ويقضي الليل في الصلاة إلى أبيه. فقبلما أقام الرسل، وقبلما ألقى الموعظة على الجبل، وقبل التجلّي، وقبلما تحمّل آلام المحاكمة في دار الولاية، وقبل الصليب، وقبل مجد القيامة – قبل كلّ من هذه المناسبات كان يقضي ليلة في الصلاة.

امتياز الصلاة

ونحن أيضاً ينبغي لنا أن نُعيّن أوقاتاً للتأمل والصلاة والحصول على الانتعاش الروحي. إنّنا لا نقدّر قوّة الصلاة وفاعليتها كما ينبغي. إنّ الصلاة والإيمان يفعلان ما لا تستطيع أيّة قوّة على الأرض أن تفعله، إنّنا نادراً ما نجتاز في نفس الظرف مرّتين من كلّ الوجوه. فإنّنا باستمرار نجتاز في مشاهد وتجارب جديدة حيث لا يكفي الاختبار الماضي لإرشادنا. فيجب أن يكون عندنا النور المستمرّ الذي يأتينا من الله.

إنّ المسيح دائب أبداً في إرسال رسائل لمن يصغون إلى صوته. ففي ليلة الآلام في جثسيماني لم يسمع التلاميذ النيام صوت يسوع. كان عندهم شعور غير واضح بحضور الملاك، ولكنّهم حرموا قوّة ومجد ذلك المشهد. فبسبب نعاسهم وذهولهم أخفقوا في الحصول على البرهان الذي كان يمكن أن يقوّي نفوسهم على مواجهة الأحداث والمشاهد الرهيبة التي كانت تنتظرهم. وهكذا الحال اليوم فنفس الناس الذين يحتاجون أشدّ احتياج إلى التعليم الإلهي كثيراً ما يخفقون في الحصول عليه لأنّهم لا يجعلون أنفسهم في شركة مع السماء.

إنّ التجارب التي نتعرّض لها كلّ يوم تجعل الصلاة أمراً لازماً لنا كلّ اللزوم. فالمخاطر تحدق بكلّ طريق. والذين يحاولون إنقاذ غيرهم من الرذيلة والهلاك هم اكثر تعرضاً للتجربة من غيرهم. فإذ هم على اتصال دائم بالشرّ فانّهم يحتاجون إلى التمسّك بالله بكلّ قوّة لئلا يفسدوا هم أنفسهم. إنّ الخطوات التي تنزل الإنسان من مكان سام مقدّس إلى مستوى منخفض هي خطوات قصيرة وحاسمة. ففي لحظة قد يقرر إنسان قرارات تبّت في مصيره إلى الأبد. إنّ فشلاً واحداً في الانتصار يترك النفس معرّضة للهجمات. وإنّ عادةً شريّرةً واحدةً، إن لم تجد مقاومة ثابتةً عنيفةً، فستتقوّى بحيث تصير سلاسل من الفولاذ تُكبّل الإنسان كلّه.

إنّ السبب الذي لأجله يُترك كثيرون في مواطن التجربة هو أنّهم لا يجعلون الربّ أمامَهم في كلّ حين. وعندما نسمح لشركتنا مع الله بأن تنفصمَ فإنّ قوّة دفاعنا تفارقنا. إنّ كلّ عزائمك الصالحة ونواياك السليمة لا يمكنها أن تعينك على مقاومة الشرّ. فينبغي أن تكونوا رجال صلاةٍ ونساءَ صلاةٍ. ويجب ألاّ تكون صلواتكم واهنة أو عرضيّة أو وقتيّة أو متقطّعة، بل يجب أن تكون حارّة ومثابرة ومستمرّة. وليس من اللازم دائماً انّك تجثو على ركبتيك في الصلاة. يجب أن تكون عادة التحدّث مع المخلّص وأنت وحدك، وعندما تسير وعندما تكون مشغولاً في عملك اليومي. ليرتفع القلب على الدوام في صلاة صامتة طلباً للعون والنور والقوّة والمعرفة. وليكن كلّ نَفَسٍ يتردد صلاة.

وكخدّام لله علينا أن نصل إلى الناس حيث يكونون مكتنفين بالظلمة وغارقين في الرذيلة وملوّثين بالفساد. ولكن في حين نثبت عقولنا وأفكارنا في ذاك الذي هو شمسنا وترسنا فالشرّ المحدق بنا لن يلوّث ثيابَنا بلطخةٍ واحدةٍ. وإذ نعمل لكي نخلّص النفوس الموشكة على الهلاك فلن نخزى إذا جعلنا الله متّكلنا. إنّ سلامتنا هي في حلول المسيح في قلوبنا وفي حياتنا، فالجو المحيط بحضرته كفيل بأن يملأ النفس كراهة لكلّ ما هو شريّر. ويمكّن لأرواحِنا أن تكون متماثلة مع روحه حتى أنّنا نكون واحداً معه في الفكر والهدف.

إنّ يعقوب بواسطة الإيمان والصلاة بعدما كان واهناً وخاطئاً صار مجاهداً مع الله. وبهذه الكيفيّة يمكنكم أن تصيروا رجالاً ونساء ذوي أهداف سامية مقدّسة وحياة نبيلة، تكونون رجالاً ونساء لا ينحرفون عن الحقّ أو البرّ أو العدل لأيّ اعتبار. إنّ الجميع تضغط عليهم الهموم الملحّة والأحمال والواجبات، ولكن كلّما زاد موقفكم حرجاً وكلّما ثقلت أعباؤكم، زادت حاجتكم إلى يسوع.

إنّ إهمال عبادة الله الجهارية خطأ شنيعٌ. فينبغي ألاّ نستخفَ بامتيازات العبادة الإلهية. إنّ من يُعنون بالمرضى، كثيراً ما لا يمكنهم الاستفادة من هذه الامتيازات، ولكن عليهم أن يحترسوا حتى لا يتغيبوا عن بيت العبادة بدون داعٍ.

في خدمة المرضى، أكثر من أيّ عمل دنيوي، يتوقّف النجاح على روح التكريس وإنكار الذات التي بها يمارس هذا العمل. والذين يضطلعون بمسؤوليات، يحتاجون إلى أن يضعوا أنفسهم حيث يمكنهم أن يتأثّروا بروح الله تأثّراً عميقاً. ينبغي أن تهتمّ اهتماماً أعظم من الآخرين في طلب معونة الروح القدس ومعرفة الله بقدر ما أن مركز الأمانة الذي تشغله هو أعظم مسؤولية مما للآخرين.

تعالوا إليَّ فأريحكم

لا يوجد شيء نحن أحوج إليه من غيره في عملنا أكثر من النتائج العمليّة لشركتنا مع الله. علينا أن نبرهن بحياتنا اليوميّة أنّ لنا السلام والراحة في المخلّص. فسلامه في القلب يعكس نوره على الوجه. ويعطي للصوت قوّة إقناع. فالشركة مع الله تسمو بالخلق والحياة. والناس سيعرفون عنا أنّنا كنّا مع يسوع كما كانت الحال مع التلاميذ الأوّلين. وهذا يمنح الخادم قوّة لا يمكن لشيء آخر أن يمنحها. وينبغي ألاّ يسمح لنفسه بأن يُحرم من هذه القوّة.

علينا أن نحيا حياة مزدوجة – حياة التفكير والعمل، حياة الصلاة الصامتة والعمل الجاد الغيور. فالقوّة التي تُنال عن طريق الشركة مع الله والمرتبطة بالسعي الغيور في تدريب العقل على التفكير والحرص، تُعدّ الإنسان للواجبات اليوميّة وتحفظ الروح في سلام في كلّ الظروف مهما كانت شاقّة.

المشير الإلهي

إنّ كثيرين إذ يقعون في ضيق يظنّون أنه يجب عليهم أن يلجأوا إلى صديق أرضي ليخبروه بارتباكاتهم ويسألوه العون. ففي الظروف الشاقّة يملأ عدم الإيمان قلوبهم ويبدو الطريق مظلماً أمامهم. ومع ذلك فإنّ مشيرَ الدهور القدير يقف إلى جوارهم طول الوقت ويدعوهم ليضعوا ثقتهم فيه. فيسوع حامل الأثقال العظيم يقول: « تَعَالَوْا إِلَيَّ .. وَأَنَا

أُرِيحُكُمْ» (متى ١١: ٢٨). فهل ننصرف عنه إلى الناس المشكوك فيهم والمتردّدين الذين هم معتمدون على الله مثلنا سواءٍ بسواء.

قد تحسّ بعجز خُلُقك وحقارة قوّتك بالمقارنة مع عظمة العمل، ولكن لو كان لك أعظم عقل أُعطيَ لأيّ إنسان لما كان كافياً لعملك. فالربّ والمخلّص يقول: «بِدُونِي لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَفْعَلُوا شَيْئًا» (يوحنا ١٥: ٥). إنّ نتيجة كلّ ما نعمله هي في يدي الله. فمهما يحدث تمسّك به بثقة ثابتةً مثابرة.

ففي عملك ومع عشرائك في أوقات الفراغ، وفي علاقتك مع شريكة حياتك، ادخل إلى كلّ هذه المعاشرات بروح الصلاة الغيّورة المتواضعة. فبهذا تبرهن على أنّك تكرم الله والله سيكرمك. صلّ عندما يخور قلبك. وعندما تكون يائساً فلا تكلّم إنساناً ولا تُظلم طريق الآخرين، ولكن أخبر يسوع بكلّ شيء. وارفع يديك في طلب العون. وفي ضعفك امسك بالقدرة السرمديّة. اطلب الوداعة والحكمة والشجاعة والمزيد من الإيمان حتى ترى نوراً بنور الله وتفرح بمحبّته.

التكريس – الثقة

عندما نكون متواضعين ومنسحقين فنحن نقف حيث يمكن لله أن يُظهر لنا ذاته وسيُظهرها بالفعل. وهو يُسر عندما نلح في ذكر المراحم والبركات السابقة كسبب وحجّة لأجلها يمنحنا بركات أعظم. وهو سيحقّق ما هو أكثر من انتظارات من يثقون به ثقة كاملة. إنّ الربّ يسوع يعرف تماماً ما يحتاجه أولاده، ومقدار القوّة الإلهيّة التي سنستخدمها لأجل مباركة بني الإنسان، وهو يمنحنا كلّ ما سنستخدمه في مباركة الآخرين والسمو بنفوسنا.

علينا أن نقلل من ثقتنا بما نستطيع نحن أن نعمله ونثق بالأكثر في ما يستطيع الربّ أن يعمله لأجلنا وبواسطتنا. إنّكم لا تعملون عملكم، ولكنّكم تعملون عمل الله. فسلّموا له

إرادتكم وطريقكم. ولا تعملوا أيّ تحفظ أو احتياط، ولا أيّ مشاركة أو اتفاق مع الذات. واعرفوا معنى كونكم أحراراً في المسيح.

إنّ مجرّد سماع العظات سبتاً بعد سبت، وقراءة الكتاب المقدس مرّة ومرّات، أو شرحه آية فآية لن يفيدنا ولن يفيد من يسمعونّنا ما لم نختبر حقائق الكتاب اختباراً شخصياً في حياتنا. فالفهم والإرادة والعواطف ينبغي إخضاعها جميعاً لسلطان كلمة الله. وحينئذ فبواسطة عمل الروح القدس تصبح وصايا الكلمة ا لإلهيّة مباديء الحياة.

وإذ تلتمس المعونة من الربّ فأكرم مخلّصك بكونك تؤمن بأنّك قد حصلت على البركة. إنّ كلّ القوّة والحكمة هي في متناولنا، فما علينا إلاّ أن نسأل.

سر في نور الله على الدوام. وتأمّل في صفاته نهاراً وليلاً. وحينئذ سترى جماله وتفرح بصلاحه. وسيتأجج قلبك بالإحساس بحبّه. وستُرفع وكأنّك تُحمل على الأذرع الأبديّة. وبالقوّة والنور اللذين يمنحهما الله ستدرك أكثر وتعمل أكثر مما كنت قبلا تظنّ أن في مقدورك أن تفعله.

«اثبتــوا فيَّ»

إنّ المسيح يوصينا قائلاً: «اثبتوا فيَّ وأنا فيكم. كما أن الغصن لا يقدر أن يأتي بثمر من ذاته إن لم يثبت في الكرمة كذلك أنتم أيضاً إن لم تثبتوا فيَّ .. الَّذِي يَثْبُتُ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ هذَا يَأْتِي بِثَمَرٍ كَثِيرٍ لأَنَّكُمْ بِدُونِي لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَفْعَلُوا شَيْئاً .. إِنْ ثَبَتُّمْ فِيَّ وَثَبَتَ كَلاَمِي فِيكُمْ تَطْلُبُونَ مَا تُرِيدُونَ فَيَكُونُ لَكُمْ .. بهذا يتمجّد أبي أن تأتوا بثمر كثير فتكونون تلاميذي

كما أحبّني الآب كذلك أَحْبَبْتُكُمْ أَنَا. أثبتوا في محبتي ..

ليس أنتم اخترتموني بل أنا اخترتكم وأقمتكم لتذهبوا وتأتوا بِثَمَرٍ لكَي يُعْطِيَكُمُ الآبُ كُلَّ مَا طَلَبْتُمْ بِاسْمِي» (يوحنا١٥: ٤-١٦).

« هأَنَذَا وَاقِفٌ عَلَى الْبَابِ وَأَقْرَعُ. إِنْ سَمِعَ أَحَدٌ صَوْتِي وَفَتَحَ الْبَابَ أَدْخُلُ إِلَيْهِ وَأَتَعَشَّى مَعَهُ وَهُوَ مَعِي » (رؤيا ٣: ٢٠).

« مَنْ يَغْلِبُ فَسَأُعْطِيهِ أَنْ يَأْكُلَ مِنَ الْمَنِّ الْمُخْفَى وأعطيه حصاة بيضاء وعلى الحصاة اسم جديد مكتوب لا يعرفه أحد غير الذي يأخذ» (رؤيا٢: ١٧). ((مَنْ يَغْلِبُ .. أُعْطِيهِ كَوْكَبُ الصُّبْحِ» (رؤيا٢: ٢٦-٢٨، «وَأَكْتُبُ عَلَيْهِ اسْمَ إِلهِي وَاسْمَ مَدِينَةُ .. وَاسْمِي الْجَدِيدَ»).

«أَفْعَلُ شَيْئًا وَاحِداً»

إنّ من يتّكل على الله سيكون قادراً أن يقول مع بولس « أَسْتَطِيعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْمَسِيحِ الَّذِي يُقَوِّينِي » (فيلبي ٤: ١٣). ومهما تكن أخطاء الماضي أو هزائمه سنكون قادرين بمعونة الله على أن نعلو فوقها. ويمكننا أن نقول مع الرسول:

«أَفْعَلُ شَيْئًا وَاحِداً إِذْ أَنَا أَنْسَى مَا هُوَ وَرَاءُ وَأَمْتَدُّ إِلَى مَا هُوَ قُدَّامُ. أَسْعَى نَحْوَ الْغَرَضِ لأَجْلِ جَعَالَةِ دَعْوَةِ اللهِ الْعُلْيَا فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ » (فيلبي ٣ : ١٣،١٤).